

عبدالله الخنيزي

أبو طالب

مؤمن قريش

(دراسة وتحليل)

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ

مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينًا

أبو طالب

مُؤَسَّسَةُ الْإِسْلَامِ
بيروت - لبنان



أبو طالب
مؤمن قريش

عبدالله الشيخ علي الخنيزي

أبوطالب

مؤمن قرشي

(دراسة وتحليل)

الطبعة الخامسة

١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

مؤسسة البلاغ

للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان



حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

- الطبعة الأولى: منشورات دار مكتبة الحياة - ١٣٨١هـ - ١٩٦١م.
الطبعة الثانية: منشورات دار مكتبة الحياة - ١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م.
الطبعة الثالثة: منشورات المؤسسة الثقافية للنشر - ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.
الطبعة الرابعة: منشورات دار التعارف للمطبوعات - ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
الطبعة الخامسة: منشورات مؤسسة البلاغ - ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

عدا الطباعات الأخرى التي لم يُطْلَع عليها، ولم يُعلم بها

مؤسسة البلاغ

لبنان - بيروت بئر العبد - سنتر الانماء ١ ط ٣ - ص.ب: ٧٩٥٢-١١
المستودع - طريق صيدا القديم - جانب فرن الأمراء - هاتف: ٤٦٣٢٥٨



المؤلف
حين طبع الكتاب

مؤمن آل فرعون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، يَكْتُمُ إِيمَانَهُ: أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ: «رَبِّيَ اللَّهُ» وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ؟ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا، فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ... وَإِنْ يَكُ صَادِقًا، يُصِيبْكُمْ بِعَصْفِ اللَّهِ الَّذِي يَعِدُكُمْ... إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ.﴾ (٢٨)

وَقَالَ الَّذِي آمَنَ: يَا قَوْمِ! اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ. يَا قَوْمِ! إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ. مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا - مِنْ ذَكَرٍ، أَوْ أَنْثَى - وَهُوَ مُؤْمِنٌ، فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ. وَيَا قَوْمِ! مَالِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ، وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ؟! تَدْعُونَنِي لَأَكْفُرَ بِاللَّهِ، وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ! لَا جَرَمَ إِنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ، لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا، وَلَا فِي الْآخِرَةِ، وَإِنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ، وَإِنَّ الْمُسْرِفِينَ، هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ...

فَسْتَذَكِّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ، وَأَفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ
بِالْعِبَادِ، فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا، وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ
الْعَذَابِ! ﴿٤٦﴾

صدق الله العليُّ العظيم

٣٩ - ٤٦ : (غافر)

الإهداء

إليك يا رسول الإنسانية ! . .

وإليك يا بطل الإسلام ! . .

وأنتما نفسٌ واحدةٌ . . .

* *

إلى سَدَّتكما الرَّفِيعَةُ أرفع هذا الكتاب - وهو جهد
المقلِّ - في مَنْ نصر الدين، الذي كرَّستما حياتكما مِنْ
أجله فلم يُنصفهُ التَّاريخ، وجار على حقِّه واضعو التَّاريخ.

* *

إليكما أرفعه راجياً به القربى والنَّفْع، في يومٍ لا ينفع فيه إلا
مَنْ أتى الله بقلبٍ سليمٍ.

١٣٧٤/٨/٢٨ هـ

١٩٥٥/٤/٢٢ م

عبد الله الحنيزي

هذا الكتاب

سلختُ مِنْ عمري - في سبيل إيجاد هذا الكتاب - عاماً، أو ما يقرب مِنْ العام، منذ أوّل حرفٍ حَبَرته منه، حتى آخر نقطةٍ منه^(١). وبين هذه الفسحة مِنْ الوقت، كان شيءٌ كثيرٌ، مَنْ نصيب البحث والتّقيب. كما كان شيءٌ ليس بالقليل - مِنْ الوقت - يمرُّ دُونَ أن أخطّ فيه حرفاً، أو أن أنقُبَ عن شيءٍ...

وبالإضافة إلى هذا... وذلك... فقد كان الوقت اليوميّ، المخصّص في سبيل هذا الكتاب: مالا يتجاوز الساعة كلّ يومٍ.

ليس مهمّاً ما عرضتُ له، ولم يكن مِنْ قصدي...

إنّما أودُّ أن أُشير إلى: أنّي في صيف عام ٧٥ - ٧٦ هـ [٥٦ م] زرتُ لبنان الجميل، فقلّمتُ هذا الكتاب لصديقي الأستاذ بولس سلامة، لِيقدّم له مقدّمةً، مجردةً مِنْ كلّ صِلَةٍ، غير ناظرٍ لسوى الأثر - وهكذا اتّفقنا في الرّأي - فوضع هذه المقدّمة، التي بين يدي القارئ الكريم، فأشار فيها إلى نقطة الضّعف، في هذا الكتاب، وهي كما يتصلّ باللغة.

والنقد النّزيه، لا يأتي بسوى الخير مِنَ الشّمار.

(١) - كان أوّل حرفٍ خطّ في مسودّة الكتاب في ٩/٨/٧٣ هـ - ١٤/٤/٥٤ م. وآخر حرفٍ مِنْ مسودّته - أيضاً - في ٢/٨/١٣٧٤ هـ - ٢٧/٣/١٩٥٥ م.

لذلك - وقد رأيتُ المنفسح مِن الوقت - القيتُ عليه نظرةً فاحصةً، تداركتُ فيها شيئاً مِن الأخطاء، التي وقفتُ لاكتشافها. وعدتُ على بعض النقاط بالصَّقل والتَّشذيب. كما زدتُ شيئاً مِن المصادر التي وقفتُ عليها، خلال هذا المنفسح مِن الوقت. وكذلك زدتُ في بعض المواضع، ماوقفتُ عليه - بعد ذلك - ثمَّ رأيتُ الفائدة والتَّمام يتطلَّبانها، ولاسيَّما في [على العتبة].

وقبل هذا وذاك.. فإنني لأدَّعي لنفسِي: العصمة والكمال.

وحسبي منه: أن يكون غاية الجهد، وأنَّ الحلل - إن وُجد فيه - فما هو عن تقصير... والله مِن وراء القصد.

١٣٧٧/٥/٢٧هـ

١٩٥٧/١٢/٢٠م

المؤلف

المقدمة

بقلم الأستاذ الكبير

بولس سلامة

بين القطيف وبينى صلة، سببها ملحمة «عيد الغدير»، التي أدرتها على الإمام أبي الحسن. وهذا كتابٌ موضوعه والد الإمام. وقد نوّهتُ - في الملحمة - بفضل كفيل النبي، وجيه قريش وشيخها، فبقي أن أُصدّرَ هذا المؤلف بكلمةٍ خاطفةٍ، تنظر إلى الكتاب نفسه.

لقد استهلَّ المؤلف كتابه بعرض جرائم بني أمية، وتفنيد التُّهم التي ألصقوها بأهل بيت الرسول، فما قصر، ولا ارتبك قلمه. ولا غرو فإنَّ مَنْ يأخذ جانب [أبي تراب]، يستقوي...

ولقد عرف ابن قلعة القطيف: أنه في حصنٍ نشطت عليه العوادي، فكانت هي الواهية، وكان هو القائم أبد الدهر.

ولا يخفى أنَّ المؤلف يرصف التُّهم الباطلة رصفاً بارعاً، ويكشفها ليزيد في شناعتها، وفي تهجين كلام المفترين على أهل البيت. ولم يفتَهُ الإسناد والأخذ بقول أساطين التاريخ، وأعلام البيان والحديث، على ما في اندفاعه مِنْ حماسة الشَّباب وتؤبُّب القلم.

وأحسب أنَّ المقدمة - (على العتبة) - هي خطُّ النار، والجهة الدِّفاعية - الهجومية معاً. فبحسب المؤلف أن يحشد فيها الفِرَى، التي تنهات، ويظهر الخصوم كعصبةٍ مِنْ أقزام الزنج والأنباط، لتظهر عظمة الإمام، كما يبرز الضياء بعد ارفضاض الغيوم.

أمَّا الفصل الذي يلي المقدمة - وعنوانه (بيت) - فقد أعاد فيه المؤلف قولاً معروفاً. وإنما يُعذر على الكلام المكرور، لأنه تمهيدٌ لعرض شخصية أبي طالب. ولقد أبرزها على أنها مركز «الدائرة» في قريش - وإنها كذلك.

وحبذا لو أسعفته اللغة بأفضل مِنَ الدِّياجة التي أسبغها على تلك الصُّور المتعددة مِنَ حياة الرَّجل، فإنَّ إنشاء صاحبنا لم يستقم، بعدُ، فيضَّلَع، شأنه في ذلك شأن سواد الشُّباب الطَّالع. بيد أنَّ هذا الفرع، الذي غمته دوحة وفَّت قسطها للضَّادِّ، يعدُّ بالثمار النَّاضجة، في المستقبل القريب - إن شاء الله.

ولقد أحسن المؤلِّف إذ أبرز شخصيَّة سيِّد البطحاء - ابن شيبه الحمد - فجلاها، ثم بسطها على فصول الكتاب جميعاً، فتما فضل كفيل الرُّسول ومربيِّه وحاميِّه، بنموِّ الرُّسول نفسه، فكان أنَّ اليتيم استظلَّ في كنف عمه صبيّاً وياقِعاً. فلمَّا بزغت شمس اليتيم مشى العمُّ في نورها، وفاء إلى ظلِّ ابن عبداً لله مجاهدًا، يفديه بماله ونفسه وولده.

ومن الإنصاف للسَّيِّد الحنيزيِّ، قولنا: إنه بارِعٌ في التحليل، وليس أدلُّ على ذلك مِنَ وقفته على الأبيات، التي تُثبت إيمان أبي طالب - وإن كان قد نال فيها مِنَ الشعراء، الذين تسوقهم الضُّرورة الشُّعريَّة، فتقوُّهم مالا يُريدون. وإنه ليحتجُّ بقول واحدٍ منهم: «لأنَّ يروا حسناً مالميس بالحسن».

بيد أنَّ فضل الشُّعر يظهر في ما اختاره مِنَ شعر والد أبي تراب، في فصل «الشُّعب والصَّحيفة»، حيث يقول أبو طالب:

يُرْجُّونَ مِنَّا خَطْوَةَ دُونَ نِيلَهَا

ضُرَابٌ وَطَعَنَ بِالْوَشِيحِ الْمُقْـوَمَ

- إلى آخر هذه الأبيات، التي يخلج فيها الإيمان المكين، والقلب المضطَّرم، والسيف المحتدم.

ولا يفوت صاحبنا التَّوبيع العلميُّ. فتراه يُفصِّل الأدلَّة على فضل أبي طالب: حيّاً، فمحتضراً، فميتاً. ثم يتطرَّق إلى ما بعد الموت. ويُقيم البرهان بشهادة الرُّسول، ثم الإمام، ثم أهل البيت.

وأحسب أنه لو امتهن المحاماة، لَمَا جاء في الرَّعيل الأخير، فإنَّ له مِنْ خصائص الاستدلال والقياس، والخلوص مِنَ المقدمات إلى النتائج، ما يكفل له النَّجاح.

* *

وبعد فلستُ هنا في مقام دراسةٍ وتحليلٍ، فذلك مِنْ شأن القراء والنقاد. بل في مقام التصدير بكلمةٍ موجزةٍ، مؤدَّاها: أنَّ المؤلَّف أدرك الغاية، فيما قصد إليه، فتحرَّى واستقرأ، وفنَّد ودافع.

وإنَّ الحسنات الكثيرة، لتشفع ببعض الهنات، التي وقعت في الصياغة، وما كان العرض لينال مِنَ الجوهر. وفي هذا الكتاب كثيرٌ مِنَ اللؤلؤ، وقليلٌ مِنَ الأصداغ. وأحسبني في رأيي هذا.. أقرب إلى القسوة العادلة، مني إلى المجاملة، فبيني وبين القطيف صداقةً - ولكن الحقَّ أُولَى أن يُقال.

بيروت: ٢٥ صفر ١٣٧٦هـ

بولس سلامة

على العتبة

أنا - الآن - أمام سيرة رجل، لعبت فيها الأهواء دوراً كبيراً، ومشيت بها الأفلام المأجورة، ناكبةً عن صراط الحق، ملقيةً على الحقيقة ستاراً صفيقاً... شأنها مع كل حقيقة صارخة ناصعة، تصدّوها عن الهوى الجموح، والعاطفة الرعناء، فتعمل فيها مسخاً وتشويهاً... لتجعل منها متداعي السر، ومنهار الكن.

رجلٌ خطّ بسيرته - في التأريخ - سطوراً. على إشراق حرف، فكان من المجاهدين في الطليعة، وكان من أنصار المبادئ القويمة، ورسّل الإنسانية وهداتها - في الرّعب الأول.

رجلٌ نصر المبدأ القويم، وكلّ القلوب له جافية، وكلّ العيون تنظر إليه نظرة شزاء، يتطاير منها الحقد، وترفّ بالعداء المستفحل، وتُنذر بالمقاومة والعصيان، والثورة لإطفاء هذه الشّعلة المتّقدة... فتمتدّ منها أيدي، لتعصف بهذا «النبيّ الجديد»، ذي القبس البهّي، الذي عشى بشعاعه العيون الرّمداء.

ولكن هذا الحصن المنيع، يقف - أمامها - شامخاً، مدلاً بقوّته، متحدّياً لها في إرادتها الموحّاء... فترتدّ هذه الأيدي، وقد ظنّت: أنها ستال مأتريد، وهي أفرغ ماتكون، فتفيض القلوب بالحقد، على هذا النّصير - أيضاً - وتغضب... ولكن «غضب الخيل على اللّجم»؟.

رجلٌ سقى الإسلام بذرة، في حقلٍ مجذب... ورعاه أملوداً لئناً، في مهبّ الأعصار... ووليداً نعيم الطّفر، فاشتدّ وقوي، وانتشر منه نور، دون أن ينال منه عدوّ ماأراد، حتى جفّ هذا النّبع الدّفاق، والراعي المخلص الأمين...

رجلٌ كان له في الإسلام شأنٌ، وأبقى أثراً جميلاً، وفضلاً باقياً. ولكن شاءت الأهواء أن تزوي عنه العيون، وتنظر إليه نظرة ظالمة، فراحت تنال منه، وتضع في حقه الأراجيف، لتنال من جوهر الحق، ورُواء الفضيلة.

* *

مرَّ عصر الخلافة الرَّاشدة، وهو يحفل بمآثر أبي طالب: رجل الإسلام الفدّ - ويُسجل مآثره الغرّ - وأيديه البيض، ليوفيه بعض حقّ له عليه.

وجاء عصر الملكيّة، والسُّلطة الجائرة، وهي لاتستقيم إلّا بالنيل من بطل الإسلام عليّ «عليه السّلام» - لأنها قد اغتصبته حقه، مع بنيه، الشرعيّ - فكانت سيرة أبيه إحدى الجوانب، التي أعملت تلك السُّلطة فيها معاول الهدم، وهي تظنّ: أنها ستأتي على شخصيّة هذا الإمام، التي هي اليوم في سبيل صرف الأنظار عن اغتصابها حقه.

عندئذٍ راحت تستأجر ذوي الضمائر الزّئخة، والقلوب القلب، التي تلبس لكلّ ساعة لبوسها... فلا تعرف للفضيلة معنى، ولاللزّذيلة حدّاً... فهي متأجرة وصوليّة، تبيع الذّم، وتخفر العهود، وتنقض الموائيق، وتقلب الحقّ باطلاً، وتُموّه الباطل حقّاً، وتبيع دينها بالثمن البخس الزّهيد: بدينار زائف، ودرهم مسروق، ومال مغصوب، لتحقّق غايتها الدّون، وتُرضي ضميرها السّافل، وتحوز رضى السُّلطة القائمة.

ولن يكون لها مجال البقاء والحياة، إلّا تحت راية الظّلام السّوداء.. فالحفّاشة لاتجد لها في النهار مدّة جناح، ولا تمتدّ لعينها منه بصيص نور! فهي تودّ اللّيل أن تطول منه الرّقعة، ليبقى الفضاء مسرحاً لها - وحدها، لا يُشاركها فيه ذو جناح!.

قامت الأهواء بدورها، فغيّرت مجرى التاريخ، وأرادت أن تقلب الوضع القائم، فسخرت الضمائر في ركابها، فوضعت الأحاديث، لتُساير رغبتها، حتى صار وضع الأحاديث واختلافها: سلعة رابحة السوق! فكثر الوضّاعون الذين يُريدون هدم الدين، الذي لم يكن في قلوبهم على قرار، ولم تخلص نفوسهم من عقابيل الجاهلية.

قامت هذه السوق السوداء، على ثلاث أُنُافٍ: إخفاء فضائل عليٍّ - مِنْ ناحية - ووضع الأحاديث الكاذبة ضده، وتحويل تفسير الآيات مِنْ غيره إليه، ومنه لغيره - في الطرف الثاني - واختلاق الفضائل والחסن، لغيره مِنَ الصّحابة - مِنْ ناحية ثالثة.

وقد شجّع التاجر معاوية هذه السوق، وهي تعمل في صالحه، فهي حجر الأساس في ملكه، فافتنّ في ذلك، حسب ما شاء، وقد رأى مقالته ناجحة، بعدما ذلّ منها كلّ صعب، فأسلست له المقود، ولم تكن تلك الجموح. فالعقيدة على رجراج، والدين لغوّ على الألسنة، لم تتمثله هذه الروح الجاهلية تمثلاً عميقاً، والأهواء متحفزة في الصدور، والأغراض تتوّب للانطلاق، والذهب البراق الذي يرين على القلب - في ماهو يخطف الأبصار - يعمل عمله السيئ المشين.

اتخذ أصحاب الأغراض السود، والأهواء الشّائنة، هذا الطريق، وقد رأوه يرضي منهم مطعمهم الجشع.

ورأى منهم معاوية النّهاز: تلك المطيّة الذّلّول، فحمل على ظهرهم تلك الأحمال الثّقال... فكانوا لِمَا يُريد مطيعين، وإن لم يُرد، فهم إليه متقرّبون.

* *

يكتب إلى عمّاله:

«أن برئت الذّمة، مِنّ روى شيئاً، مِن فضل أبي ترابٍ وأهل بيته»^(١).

(١) شرح النهج ص ١٥ : ٣.

- وإذا بالخطباء لذلك مستجيبيون، ليقوموا بلعن عليٍّ «ع»، في كلِّ كوره، وعلى كلِّ منبرٍ، ويرأوا منه، ويقعوا فيه وفي أهل بيته، حتى أنَّ المنابر، التي يلعن عليها عليٌّ - عند أدنى مناسبة - لتزبو على السبعين ألف منبرٍ.

والعامة للخطباء مستجيبيون، وهم مصدقون.

فماذا تُقدِّر - من العامة - تحت كلِّ منبرٍ، مِنْ هذه السبعين ألفاً؟! وكم وراء هذا العاميِّ مِنْ نساءٍ وأطفالٍ، يأخذون قوله، مثلما يأخذ هو قول الخطيب، حتى ينشأ على ذلك لحمهم، ويجري به الدم في العروق؟!.

ثم يعود ليكتب إلى عمَّاله جميعاً:

[الَّا تُجيزوا لأحدٍ، مِنْ شيعة عليٍّ وأهل بيته، شهادة] ^(١)

- ليأخذ بخناق الشيعة، وينال مِنْ كرامتهم، ويدعهم عرضةً لمكاره أعدائهم، وهدفاً لسهامهم.

ثم يُخصِّص - في قبال هذا - لِمَنْ يروي في فضائل عثمان وشيعته: عطاءً وفيراً، ومنزلةً عاليةً...!

ولا يلبث أن يكتب لعمَّاله - مرةً، الله وحده أعلم بموقعها مِنَ الحساب:

(إنَّ الحديث في عثمان قد كثر، وفشا في كلِّ مصرٍ، وفي كلِّ وجهٍ وناحيةٍ.

فإذا جاءكم كتابي - هذا - فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصَّحابة والخلفاء الأولين. ولا تتركوا خيراً يرويه أحدٌ مِنَ المسلمين في أبي ترابٍ، إلَّا وأتوني بمناقب له في الصَّحابة مفتعلةً...! فإنَّ هذا أحبُّ إليَّ، وأقرُّ لعيني، وأدحضُ حجةَ أبي ترابٍ، وأشدُّ إليهم مِنْ مناقب عثمان وفضله) ^(٢)

ولا يكاد الكتاب يصل الأسماع، إلَّا والخيال يُحلِّق، فيُنشئ الأخبار، ويكثر... ويأتي بالأحاديث، ويُسرف... بعضها مناقب مفتعلة للصَّحابة، والبعض الآخر: في النيل مِنْ عليٍّ «عليه السلام» - وهو الغاية مِنْ هذا الوضع.

(١) شرح النهج ص ١٥ : ٣.

(٢) المصدر ١٦ : ٣.

ولسنا نرى حاجة للقول، أو الإشارة إلى مقدار قيمة هذه الوفرة من الأحاديث في الفضائل، أو التي تنال علياً وآله، وما في تلك من الغلو المفرط، والجهل المضحك، وما في هذه من: البغض القتال، والعداء الخبيث الأسود... حيث لم يبق لهذه، أو تلك، قيمة أو وزن، وليست تثبت تحت مطرقة النقد لحظة، لأنها ولدت من زنى، وبُنيت على أساس ملح، مالبث أن نالته الرطوبة فذاب.

ولكن موقف السلطة الحاكمة - آنذاك - وما يصدره الحاكم بأمره، التاجر معاوية، كان السبب الفعّال في تقوية رواج هذه السوق، التي ليس لبضاعتها من كساد، ولا يرجى منها سوى الربح المادّي الوفير... فتلقى هذه الأحاديث المفتعلة، من ذرى المنابر، وتُعطى لمعلمي الكتاتيب، تُعطى الأطفال، فيحفظونها كما يحفظون القرآن الكريم، أو اتقن حفظاً.

وبهذا تكون هذه الأحاديث أوسع انتشاراً، وأكثر تداولاً، وأمضى أثراً - هذا من ناحية... ومن ناحية أخرى: يكون الربح والمصلحة أكثر شولاً، فينال منه صاحب المصنع، والمصدر، والمستورد - حسب اللغة التجارية، وهي صبغة هذه الأحاديث - يشترك في الربح: خالق الحديث، ومنتجه، وملقيه، ومعلمه، ومن لف لفهم...

ويعود التاجر الكبير معاوية، ليكتب لعمّاله، في جميع البلاد:

(انظروا إلى من قامت عليه البيّنة: إنه يُحبّ علياً وأهل بيته، فامحوه من الدّيون، وأسقطوا عطاءه ورزقه)^(١).

ولا يكفي بهذه المطاردة العنيفة، وهذا التّحدّي الصارخ، وهذه الحرب الاقتصادية الخائفة، حتى يشفع كتابه ذاك بآخر:

(من اتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم، فنكلوا به واهدموا داره)^(٢).

فَيُضَيّق - بذلك - الحصار، أشدّ منه، من ذي قبل، بكثير وكثير، فيهدّد كلّ من يحفل قلبه، بذرة من حب، لهذا الرجل، أو هؤلاء القوم، فمجرد تهمة رجل بحبهم، مهدّد بالحرب الحامية الاوار: فالذمة منه بريئة، فهو عرضة وهدف لكل سوء وعدو..

(١) و (٢) المصدر ذاته.

وهو محوٌّ مِنَ الدِّيوان، ومسقَطُ عطاؤه ورزقه، فلا يقف وبقيةً المواطنين على قدم المساواة، وهو مخنوق الحرية، لا يُفكّر بعقله، بل عليه أن يكون دميةً تُسير وتوجّه، بدون إرادةٍ أو تفكيرٍ... وهو - إلى ذلك - مهذور الكرامة والعزة، محاطٌ بالخطر، يرتقبه بين اللحظة وأختها، ينتظر التّكيد به، وأن تُسقط عليه داره.

وهو لا يكفي بإصدار هذه الأوامر الجائرة الظّالمة، والتي تخنق العدالة الاجتماعيّة، وتُلاشيها - لا يكفي بهذا، بل يختار مَنْ يقوم بتطبيق هذا الجور، فيؤلّي على العراق صنيعته، وحقّ نسبه - زياد بن أبيه! - لِتشتدّ الوطأة على الشّيعيّة منهم، وهو بهم خبيرٌ، وبمكامنهم فطيرٌ، حيث كان إليهم قريباً، قبل أن يرين على قلبه العمى^(١)..

(١) - ما كنت أحسب أن أفد على قولهُ يفوه بها أديبٌ، يعيش في القرن العشرين، حيث يُظنّ فيه أنّه تخلّص من رواسب ذلك العهد البغيض المظلم، ومافيه من: بيع الضمائر، ومسح الحقائق، لولا وجود أشخاص، لا يزالون - كما يظهر - يعيشون برواسب ذلك التاريخ المظلم، فيؤنّون سمومه بين المجتمع. وإلاّ فما كنت أظنّ أن يقول حسن السّندوبي في شرحه للبيان والتبيين، ص ١٠٢٤: عند ترجمته زياد - مثل هذه القولة النّابية الخبيثة:

(ولست آخذ زياداً بتركه علياً، والتحاقه معاوية، ولأرى في ذلك ما يطعن في عقله وفضله وكفاياته - كذا ١٩- لأنّ معاوية اعترف له بأخوّته، من أيّ سفیان، وليس بعد اطمئنان الإنسان على نسبه شيءٌ). ولو كان لدينا مجال التعليق على هذه القولة المائنة، لكشفنا عمّا سُحنت به هذه الكلمات القليلة، من: هدم وتضليل، وتزوير وإفراء، ومسح وتشويه لقداسة التّعاليم الإسلاميّة والإنسانيّة، ففيها مافيه من: تحدّ للرسول «ص» في حديث: «الولد للفراش»، وتغييب لإلحاق ولد الزنى بالزّاني، وعدم عدّ الخروج على الإمام الشّرعّي أيّ ذنب، أو حرم..!

لا! بل إنّ كلّ هذه الأعمال الشّائنة، تمّا يُدعّم عقل وفضل «أ» وكفايات زياد! ربا للعار!!

وشتان بين السّندوبي هذا، وبين الجاحظ، حول هذه الخزية - استلحاق زياد بن أبيه!.

فهذا يعدّها من عقل وفضل وكفايات زياد...!

وذاك يستدلّ بها دعماً لتقرير، يُثبت به ناصع الأدلّة، بحيث يُخرج معاوية من الفجّار، ليُلحقه بالكفّار، في كلمةٍ سنائي بها، بعد خطوات قليلة، عند وقوفنا حول فرية «عام الجماعة»!

ولقد تضاعل عجي واستغرابي ودهشتي، من هذه القولة النّابية - للسّندوبي - بعد أن خطوت في قراءة شرحه هذا، خطواتٍ، فوقت مشدوهاً أمام تعليقيّة، سوّدت سبعة سطور - ص ١٨٣ و ٢٠١٨ - هي لطفة سوداء في شرحه، حيث قام فيها بالدّفاع، عن الإباضيّة، مراعاةً للأحاديث الكثر المتواترة، والمخرّجه في جميع الصحاح، والمسّلمة لدى جميع المسلمين ←

➡ عن الرسول «ص»، في أن الخوارج «قومٌ يمحرون من الدين، كما يمحرق السهم من الرمية» - حسب التعبير النبوي الأقدس.

إلا أن هذا السننوي اعترضهم: (من أفاضل أهل القبلة، ومَن ينفرون من البدع التي ليست من الدين في شيء، ومن هنا يَتهمهم بعض المسلمين بالتشدد، وبدعم مسأرتهم للتقدم، بل يرونهم بما هم منه براء).

أرأيت كيف تَحْتَي على جلّ المسلمين، الذين يخضعون لِمَا جاء في الخوارج، على لسان الرسول الأعظم؟!

ولا يَقف عند هذا الحدّ! بل يُضيف:

(وقد كنتُ خدعتُ بقول خصومهم فيهم، فرددتُ بحمل ما يَتهمونهم به في بعض هوامش الجزء الأول. ثم تبين لي اليقين فيهم، فعلمتُ أنهم من خيار المسلمين، ومَن يرجعون في كلّ أمورهم، من عبادة ومعاملة، إلى الكتاب والسنة.

ولا يرعك تنديد الجاحظ بهم، فإنهم كانوا فيما سلف خصوصاً للمعتزلة. رضي الله تعالى عن المسلمين كافةً).

إنه ليرضى عمن مرق من الإسلام، وهو يعتبرهم من المتمسكين بالسنة.

ولا أدري مارأيه فيما ورد في حقهم في السنة الثابتة، المسلمة بين المسلمين جميعهم!.

وكيف يجمع بين ذلك، وبين ترضيه عن المسلمين جميعهم، إذا كانت الخوارج منهم، بعد مروقهم من الدين، مروق السهم من الرمية، حيث بقية المسلمين -عدا من ينتمي للخوارج في الرأي، وعدا من يخالف السنة الثابتة- على يقين وتسليم بما جاء فيهم عن الرسول، ولا ينظرون إليهم، إلا بنظرة النبي الكريم لهم، فهم ليسوا سوى خارجين من الدين، وأن صلاتهم ليست سوى مكاء وتصدية، يقرأون القرآن، لا يبلغ تراقيهم - وهي صفات أضفاها عليهم الرسول الأعظم - وما هم سوى صورة مكبرة للنفق الديني الماكر، الخادع للأغرار: أمثال هذا الشارح الغفرا!.

ولقد خلطت فيه ميلاً «خارجياً» قبل حاشيته التي عرضناها هنا: فإنه عندما يترجم خارجياً، نجدّه يحشو الترجمة بالنساء، ويضفي عليه حلال المدح، وأهازيج الإطراء...

وإنه لعلّى العكس، عندما يترجم لمن فيه ميلاً شيعياً، فإنه إن لم يُهمله، أو لم ينل منه، يقتضب ويختصر، مهما وجد لذلك سبيلاً، ومهما كانت شخصية المترجم، عدا النزر القليل، ممن يفرض عليه القول فيه فرضاً، فلا يستطيع تخطيه.

والسبب في موقفه هذا كله، بالنسبة لزياد، وللخوارج، وللشيعة -السبب في ذلك كله واحد.

فهو -في جميعه- لا يصدر إلا عن شيء في قلبه تجاه الإمام علي...

وماهي سوى لمرّة من بذرة معاوية، لمناهضة الإمام، للانتزاء على المسلمين.

لقد تَفَنَّنَ معاوية في بيع هذه السِّلَع وشرائها، وهو ذلك التَّاجِر النَّهَّاز، الذي لا يدع فرصة، إلاَّ اِهْتَبَلَهَا في صالحه الفردي، وأنانيته التَّافهة. وما الرِّشوة، وتقسيم الأموال، والتَّرشيح للرئاسة، إلاَّ أَمْثَالُ زُهَيْدَةٍ لديه... وإنها لكفيلةٌ بشراء الوفرة العديدة، مِنْ الضَّمَامَاتِ المعروضة، في هذه السُّوق السوداء!

لذلك... فَإِنَّهُ لِمَنْ السَّهْلُ جَدًّا: أَنْ يَعْقِدَ - في كُلِّ يَوْمٍ - صفقةً، لِيَشْرِيَ ضميراً، ويبيع ذمَّةً، ويقضي على معتقده.

ولَمَّا كَانَتِ الغَايَةُ مِنْ كُلِّ هَذَا، هِيَ مُحَارَبَةُ عَلِيٍّ، في سبيل التَّغْلِبِ عَلَى حَقِّهِ، والانتزاعِ عَلَى الأُمَّةِ، فَإِنَّهُ لَيُوجِّهُ عَنَايَتَهُ لِلنَّيْلِ مِنْ عَلِيٍّ ذَاتِهِ، ويرتكب مِنْ أَجْلِ غَايَتِهِ، حَتَّى مَا لَا يُعْقِلُ.. فهو لَا يَتَوَرَّعُ أَنْ يُذَيِّعَ بَيْنَ أَهْلِ الشَّامِ - مَنْ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ النَّافَةِ، والجَمَلِ^(١)، بِأَنَّ «عَلِيًّا لَا يُصَلِّي». وَأَنَّ عَلِيًّا هُوَ مَهْرِيْقُ دَمِ عِثْمَانَ، وَأَنَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَطْلُبُوا ذَاكَ الدَّمِ المَطْلُولِ، مِنْ هَذَا السَّفَاكِ...

وليس ثَمَّةُ مَنْ دِينَ، أَوْ خُلِقَ قَرِيمٌ، أَوْ إِنْسَانِيَّةٌ رَفِيعَةٌ، تَقِفُ فِي وَجْهِ هَذَا الرَّجُلِ - القَاحِلِ مِنْهَا - لِتَحْدُثَ مِنْ طُغْيَانٍ شَهْوَتِهِ، أَوْ تَرُدَّ شَيْئاً مِنْ جَاحِهَا، بَلْ أَطْلَقَ لَشَهْوَتِهِ العَنَانَ، وَأَسْلَسَ لَهَا المِقْوَدَ، فَأَخَذَتْ شَوَاطِهَا البَعِيدَ... تَتَفَنَّنُ فِي المُنْكَرِ، وَلَيْسَ مَنْ يَزْعُ، وَتَوَغَّلَ فِي الأَرَاخِيفِ، وَلَيْسَ مَنْ يُنْكَرُ، وَتَبَعَّدَ فِي الكَذْبِ، وَلَيْسَ مَنْ يَنْهَى، وَتَفَاخَرَ بِالبَاطِلِ، وَلَيْسَ مَنْ يَغْضَبُ!

إِذَا رُزِقَ الفَتَى وَجْهًا وَقَاحًا

تَقَلَّبَ فِي الأُمُورِ كَمَا يَشَاءُ

* *

(١) إشارةٌ لحادثةٍ تَارِيخِيَّةٍ مشهورة.

دعا إليه سمرة بن جندب - وسمرة أحد تجار الحديد^(١) - فبدل معاوية إليه مئة ألف درهم، كيما يروي أن هذه الآية نزلت في علي:

(١) - لعل من الخير: أن نضع - هنا، أمام القارئ الكريم - صورة مصغرة، تعرض جانباً من جرائم سمرة الشنيعة:

جاء في ص ٢٥ ج ١، من مسند الإمام أحمد، مسنداً عن ابن عباس: [ذكر لعمر رضي الله عنه: أن سمرة - وقال مرة: بلغ عمر أن سمرة باع حمراً، قال: قاتل الله سمرة. إن رسول الله صلى الله عليه وآله] (*) وسلم قال: لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها. ولسمرة جرائم وأثام، تندى لها الصم الصلاد: حياء وعجلاً، حيث قتل من البصرة - وقد استخلفه عليها زياد اللعين، ونعماً المخلف والمستخلف - قتل فيها ثمانية آلاف!.. وإنه لرقم يشبه الخيال!.. ويصور الدمار الذي حل بالأمة من جراء حكم الجور؟. فثمانية آلاف بريء، يقضي عليهم سمرة، وما هو إلا أمير مؤقت... وليس يتحرج أو يتأثم منها!.. بل يقول جواباً لزياد الذي سأله، ليصل إلى دخيلة نفسه:

[هل تخاف أن تكون قد قتلت أحداً بريئاً؟].

ولكنه يجيب بما هو بتن زياد شبيه، ليكون قريباً من سقوط نفسيته:

[لو قتلت إليهم مثلهم ماخشيت!].

فهو ليس يرى للأمة أية كرامة، أو قيمة... وإنما هي في ملك، كهذا، مهدورة القيم، لأتساوي قتلة الرجل أن يمر موكب أمير - كسمرة - فيقضي على من يقضي، بدون ذنب، أو جرم...! وإذا يمر سمرة على من أوجر بحرق، من طلائع خيله، فإياه متشطحاً بدمه، لا يندم ولا يأسف، بل يقول هذه القولة، التي تعبر عن اللامبالاة:

[إذا سمعتم بنا قد ركبنا، فائقوا أسنتنا].

وهو - بجميع جرائمه وأحداه - لا يعد أن يكون واحداً ممن سير غورهم، ودرس نفسيته معاوية، فرأهم ممن يرضون شهوات نفسه، ويسرون في ركاب هواه. وإن مثل سمرة أيعترف بذلك، فلنسمع له قوله:

[والله لو أطلع الله، كما أطلع معاوية، ما عذبتني أبداً].

ولكنه، وقد أطلع معاوية في معصية الله، فيأله من عذاب، يُفاسي حره وويلاته!

وقد رأينا الاكتفاء بهذا العرض الموجز، عن جرائم سمرة، وهي أكثر من أن يحيط بها العرض الموجز. وليرجع بها القارئ في مصادرها من التاريخ - كتاريخ الطبري ص ١٧٦: ٤، والكمال ٢٢٩: ٣ - وأحداث سنة ٥٠ - والغدير ٢٩، ٣٠: ١١.

(*) أضفنا في الصلاة على الرسول، الصلاة على «آله»، وجعلناها بين قوسين، فلنسنا بمن يُصلي على الرسول «الصلاة البتراء»، التي نهى عنها «ص». غير أن أمانة النقل، دعنا لإضافتها بين القوسين. وهذا ما سنسلكه فيما يأتي.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ، وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ، وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا، وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ - وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾^(١).

وأن هذه الآية نزلت في ابن ملجم، وهي:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ﴾^(٢).

ولعل سرمة، رأى في هذا الثمن مالا يفي بتفسير منحرف لآية واحدة، فكيف بآيتين؟! وراح معاوية يُساومه، فزاده مئة ألفٍ أخرى... وليست المئتا ألف، سوى ثمن تحريف لتفسير آية واحدة... فراحا يتساومان، حتى تمت الصفقة بأربعمئة ألف درهم، فروى سرمة ذلك...!^(٣)

وهكذا بمال الله، يُحارب أولياء الله! وبمال الإسلام يجهز عليه به! وبمال المسلمين، تُشوه قداسة مبدئهم الرفيع!.

* *

شاء معاوية: أن يستأجر قوماً، لوضع الأحاديث المنتقصة من علي... فاختار بعضاً من الصحابة والتابعين، الذين لهم في نفوس العامة ثقة، وقداسة خلعت عليهم، لتكون عماد ما يرفعون من واهي البناء^(٤).

(١) - البقرة: ٢٠٤ و ٢٠٥.

(٢) - البقرة: ٢٠٧.

(٣) - ص ٣٦١ م - الشرح الحديدي، والغدير ٢: ١٠١ و ١١: ٣٠.

(٤) - لقد كانت الحيرة تنسابني، والعجب يأخذ مني، أن أجد من يخلع على جميع الصحابة صفة القداسة والتزني، وأن لا يؤخه إليهم أي لوم على ما يفتريه بعضهم، أو يقرفه... وكيف يجمعون بين هذا، وبين دلالة القرآن والسنة التي تعارض رأيهم، مادام في القرآن والسنة عدة آيات وأحاديث، تدل على التفاف التفتي بين المسلمين، في عهد الرسول (ص).

ولو لم يكن لدينا من ذلك، سوى «آية الانقلاب»، و«منافقي المدينة»، و«الأعراب» وسورة المنافقين، وماجاء في الصحاح من أحاديث الخوض وغيرها - ثم ذكرتها الصحاح... ←

وكان مِمَّنْ عقد معه تلك الصفقة - الرَّابحة ماديًّا، والخاسرة في ماعدا ذلك - قومٌ، عُذَّ منهم: أبو هريرة. وعمرو بن العاص. والزَّاني المغيرة بن شعبة. وعروة بن الزُّبير^(١) - فاختلقوا الأخبار القباح، التي تحمل بين حروفها، الطُّعن على عليٍّ عليه السلام، والبراء منه، في قبال جُعِلَ يتقاضونه مِنْ معاوية، يُرضي مطامعهم و«يُرغب في مثله» - على حدِّ تعبير الحديدي.

فافتتَّ كُلُّ منهم في الوضع والافتراء، حتى أنَّ الزُّهريَّ، حدثه عروة بن الزُّبير، أنه قال: حدثتني عائشة: قالت: كنت عند رسول الله، إذ أقبل العباس وعليٌّ، فقال: يا عائشة! إنَّ هذين يموتان على غير ملتي - أو قال: ديني!. وحديث ثانٍ عنه: أنَّ النَّبيَّ قال لعائشة: إن سُرِّكَ أنَّ تنظري إلى رجلين مِنْ أهل النار، فانظري إلى هذين قد طلعا. فنظرت، فإذا العباس وعليٌّ!^(٢).

وروى عمرو بن العاص - وهو خدن معاوية وشريكه في أعماله - روى في ماروى: أنه سمع النَّبيَّ (ص) يقول:

➡ بل لو لم يكن هذا.. لَمَا وجدنا السَّبِيلَ إلى تطهيرهم وتقديسهم، وأخذ أعمالهم حنَّةً مسلَّمةً، وسيرة بعضهم تنقض عرى الإسلام عروة عروة، كمعاوية ومَنْ هو في سلسلته... فكيف وهذه الآيات تفضحهم، وهذه الأحاديث تحذّر منهم، وتكشفهم؟! فكيف الجمع بين هذا وذاك، وهما على طرفي نقيض..؟ وهذا لا يعني كُلَّ الصحابة - طبعاً - لأنَّ بينهم مَنْ هو مثال العدالة والحقِّ، ويُحاط بالتقديس والإجلال.

ولكن فقد وضح أنَّ ذاك كان حجر الأساس، في هذه الحرب الجائرة، المشبوبة الأوار، تُشنُّ ضدَّ إمام المُتقين، الحدَّ الفاصل بين الإيمان والنِّفاق - كما جعله الرَّسول (ص)، في المستفيض مِنْ أحاديثه. ففي سبيل حربه، وفي سبيل الطُّعن عليه، مِنْ أجل أنَّ تأتي النتيجة المرجوة، مِنْ استئجار هذه الفئة مِنْ بعض الصَّحابة - كانت هذه الفرية الكاذبة، وصيِّر منها المدمك الأوَّل، في هذا البناء الظلوم.

(١) - ص ٣٥٨ - ١٢ - النهج. ولسنا نريد العرض - بالتفصيل - لواقعة زنى المغيرة. ولها في التاريخ سطورٌ سود. فَمَنْ شاءها - وهي أشهر ماتكون - فليرجع لها في مصادرها.

(٢) - تجد الحديثين «!» في الشَّرح الحديدي - ص ٣٥٨.

(إن آل أبي طالب، ليسوا لي بأولياء. إنما وليّ الله وصالح المؤمنين)^(١).

وقال أبو جعفر الإسكافي - في روايته عن الأعمش:

لَمَّا قَدِمَ أَبُو هُرَيْرَةَ الْعِرَاقَ، مَعَ مُعَاوِيَةَ - عَامَ الْجُمَاعَةِ^(٢) - جَاءَ إِلَى مَسْجِدِ الْكُوفَةِ، فَهَالَه مَا رَأَى مِنْ كَثْرَةِ مُسْتَقْبِلِيهِ، فَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ، ثُمَّ ضَرَبَ «صَلْعَتَهُ»، مُرَاراً - وَلَعْلَهُ يَسْتَوْحِيهَا! - وَقَالَ:

(١) - المصدر ذاته ص ٣١٨، وص ٣١١، وصحيح مسلم ١: ١٣٦، وفيه (آل أبي -

يعني: فلاناً)...

(٢) - هكذا حلا لبعض المؤرخين المأجورين أَنْ يُسَمَّوْا هذا العام، وهو اسمٌ لَا يُعْبَرُ عَنْ وَاقِعِ ذَلِكَ الْعَامِ، الَّذِي انْتَزَى فِيهِ مُعَاوِيَةُ عَلَى الْحُكْمِ الْإِسْلَامِيِّ، إِلَّا تَعْبِيراً عَكْسِيّاً فَهُوَ عَامُ التَّفَرُّقَةِ وَالتَّبَاعِدِ وَالتَّنَافُرِ، وَلَيْسَ فِيهِ أَثَرٌ لِلْجُمَاعَةِ وَالْإِحْتِمَاعِ!

وقد قَدَّرَ لي - بعد مدَّةٍ مِنْ كِتَابَةِ هَذِهِ السُّطُور - أَنْ أَقِفَ عَلَى كِتَابِ «مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ فِي الْمِيزَانِ»، وَقَرَأْتُ فِيهِ مَا عُلِّقَ عَلَى تَسْمِيَةِ هَذَا الْعَامِ بِهَذَا الْاسْمِ، فَوَجَدْتُ فِيهِ تَحْرِيراً لِلْوِزْنِ بِالْقِسْطِ، وَإِنْ كَانَ الْكِتَابُ - فِي بَعْضِ نِقَاطِهِ - قَدْ بُخِصَ فِيهِ الْمِيزَانُ، فَحَافَ وَمَالَ، مَرَّاتٍ وَمَرَّاتٍ، حَيْفًا وَمِيزًا بَارِزًا، تَلْمِسه الْيَدُ، وَتُحَسُّ الْعَيْنُ، إِلَّا أَنَّ هَذَا لَا يُعْنِينَا فِي مَوْضُوعِنَا هَذَا.

حاء في ص ٦٦ قوله:

(ولو حاسبه التَّارِيخُ حَسَابَهُ الصَّحِيحَ، لَمَّا وَصَفَهُ بِغَيْرِ مَفْرُقٍ الْجُمَاعَاتِ، وَلَكِنْ الْعِبَرَةُ لِقَارِئِ التَّارِيخِ فِي زِنَةِ الْأَعْمَالِ وَالرَّجَالِ: أَنَّ تَجَدُّدَ مِنَ الْمَوْرُخِينَ مَنْ يُسَمَّى عَامَهُ - حِينَ انْفِرَدَ بِالْدَوْلَةِ - عَامَ الْجُمَاعَةِ، لِأَنَّهُ فَرَّقَ الْأُمَّةَ شَيْعًا شَيْعًا، فَلَا تَعْرِفُ كَيْفَ تَتَّفَقُ إِذَا حَاولَتْ الْإِتْفَاقَ، وَمَالَبَتْ أَنْ تَرْكُهَا بَعْدَهُ تَخْتَلِفُ فِي عَهْدِ كُلِّ خَلِيفَةٍ شَيْعًا شَيْعًا، بَيْنَ وِلَاةِ الْعَهْدِ!).

وضرب كثيراً مِنَ الْأَمْثَلَةِ، عَنْ خُطَطِ هَذِهِ التَّفَرُّقَةِ، حَتَّى عَادَ - فِي ص ١٨٨ - لِيَقُولَ:

[فليس أضلَّ ضلالاً، وَلَا أَجْهَلَ جَهْلاً، مِنَ الْمَوْرُخِينَ الَّذِينَ سَمَّوْا سَنَةَ «إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ هَجْرِيَّةً» بِعَامِ الْجُمَاعَةِ، لِأَنَّهَا السَّنَةُ الَّتِي اسْتَأْثَرَ فِيهَا مُعَاوِيَةُ بِالْخِلَافَةِ، فَلَمْ يُشَارِكْهُ أَحَدٌ فِيهَا، لِأَنَّ صَدْرَ الْإِسْلَامِ لَمْ يَعْرِفْ سَنَةً، تَفَرَّقَتْ فِيهَا الْأُمَّةُ، كَمَا تَفَرَّقَتْ فِي تِلْكَ السَّنَةِ، وَوَقَعَ فِيهَا الثَّنَاتُ بَيْنَ كُلِّ فِتْنَةٍ مِنْ فِتْنَاتِهَا، كَمَا وَقَعَ فِيهَا].

وراج - بعد ذلك - بِعَرَضِ غِمَاجٍ أُخْرَى مِنْ أَعْمَالِهِ الْمَفْرُقَةِ، الَّتِي فَتَتْ الْوَحْدَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ التَّمَسَّاكَةَ، وَهَدَّدَتْ دَعَامَتَهَا الْمَكِينَةَ، وَلَا يَزَالُ الْمُسْلِمُونَ يَجْنُونَ مِنْ شَحِيٍّ ثَمَارَهَا وَيَشْرَبُونَ مِنْ مَائِهَا الْعَكْرِ، فَيَصْطَادُ فِيهِ مَنْ لَا يَعْيشُ إِلَّا فِي الْوَسْطِ الْمَوْبُوءِ، حَامِلاً مُعُولَ الْهَدْمِ وَالتَّفَرُّقَةِ، سَائِراً فِي مَلْتَوِي الطَّرِيقِ الْمُنَادِ، الَّذِي سَلَكَهُ مُعَاوِيَةُ.



[يا أهل العراق! أتزعمون أنني أكذب على الله وعلى رسوله، وأحرق نفسي بالنار؟! (١)]

➡ وللجاحظ كلمة قيمة، تتصل بهذه النقطة، التي مشت فيها الأقلام المأجورة، ونرى -لزماً- عرضها هنا، حيث أنها تعرض هذه الناحية عرضاً مدعماً بالدليل، فقال في رسالته في بني أمية - ص ٢٩٣ و ٢٩٤ من رسائله - بعد عرض موجز، عن بعض الأحداث التي أفسحت المجال لاتتراء معاوية، على الأمة الإسلامية «العظمى»:

[فعندها استوى معاوية على الملك، واستبدَّ على بقية الثُوري وعلى جماعة المسلمين من الأنصار والمهاجرين، في العام الذي سُمِّوه «عام الجماعة»، وما كان عام جماعة، بل كان عام فرقة وقهر، وجرية وغلبة، والعام الذي تحوَّلت فيه الإمامة ملكاً كسروياً، والخلافة منصباً قصيرياً، ولم يعد ذلك «أجمع» الضلال والفسق(*)، ثم مازالت معاصيه من جنس ما حكينا وعلى منازل مارتبنا حتى ردَّ قضية رسول الله صلى الله عليه «وآله» وسلَّم ردّاً مكشوفاً، وححد حكمه جحداً ظاهراً في ولد الفرائس، وما يجب للعاهر، مع اجماع الأمة على أنَّ سمية لم تكن لأمي سفيان فراشاً، وأنه إنما كان بها عاهراً. فخرج بذلك من حكم الفجَّار إلى حكم الكفار.

وليس قتل حُجر بن عدي، وإطعام عمرو بن العاص خراج مصر، وبيعة يزيد الخليع، والاستئثار بالقبى، واختيار الولاية على الهوى، وتعطيل الحدود بالشفاعة والقرابة، من جنس جحد الأحكام المنصوصة، والشرائع المشهورة، والسنن المنصوبة وسواء فيما يستحق الكفار: جحد الكتاب، وردُّ السنة، إذا كانت السنة في شهرة الكتاب وظهوره، إلا أنَّ أحدهما أعظم، وعقاب الآخرة عليه أشدُّ.

فهذه أوَّلُ كفرٍ كانت من الأمة، ثم لم تكن إلا في من يدَّعي إمامتها والخلافة عليها. على أنَّ كثيراً من أهل ذلك العصر، قد كفروا بترك إكفاره. وقد أربت عليهم نابتة عصرنا ومبتدعة دهرنا، فقالت: لاتبوه فإنَّ له صحبةً، وسبُّ معاوية بدعة، ومن يغضه فقد خالف السنة. فزعمت أنَّ من السنة: ترك البراءة بمن جحد السنة].

ونكتفي بعرض هذه القولة -إمام القاري- وهي تصوّر أحد جوانب معاوية المنهارة - من ناحية. وتُصوّر إلى ذلك: انحطاط القيم، حيث مُسخت الحقائق، وشوّه رواء الحق، وقُلبت المفاهيم والمقاييس.

وتزداد أهمية هذه القولة، وتتضاعف قيمتها: أنَّ يكون قائلها الجاحظ.

(١) - إنَّ هذا من أبي هريرة -أعتراف، فرضه عليه تداعي الخواطر، والحديث الباطن.

(*) كذا في النسخة، ولعلَّ الصَّحَّة: «أنَّ جمع الضلال» الخ.

والله! لقد سمعت رسول الله «صلى الله عليه وآله» يقول:
 إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَرَمًا، وَإِنَّ حَرَمِي بِالْمَدِينَةِ، مَا بَيْنَ عَيْرٍ إِلَى ثَوْرٍ^(١) فَمَنْ أَحْدَثَ فِيهَا
 حَدَثًا، فَعَلِيهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَأَشْهَدُ بِاللَّهِ أَنَّ عَلِيًّا أَحْدَثَ فِيهَا.
 وما بلغ معاوية قوله، حتى أجازه وأكرمه، وولاه المدينة.
 وتحضر حريز بن عثمان الوفاة، ويذكر عليًّا - حينذاك - فيقول، ليختتم به
 عمله:

[ذاك الذي حلَّ حَرَمَ رسول الله (صلى الله عليه وآله)، حتى كاد يقع]^(٢).
 وليس هذا بغريبٍ منه، بعد قوله:

[إِنَّ النَّبِيَّ - وقد حضرته الوفاة - أوصى بأن تُقَطَّعَ يد عليٍّ]^(٣).
 ولانعلم! ففعل عليًّا - عند حريز - كان من لصوص الليل، كما شهد عليه
 بذلك الملك الخليل «الوليد بن عبد الملك» وقد ذكر عليًّا، فقال:
 [لعنة الله - بالجر - كان لصًّا بن لصًّا] - بالرفع طبعًا.

(١) - غلط ابن أبي الحديد - في شرحه ص ١٣٦٠ - بعد ذكره هذا الافتراء: رواية «ما بين
 عير إلى ثور» وصوّبه بأنه «ما بين عير إلى أحدي». ثم قال: وأما قول أبي هريرة: إِنَّ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ أَحْدَثَ فِي الْمَدِينَةِ، فَحَاشَى لَهِ! كَانَ عَلِيٌّ
 عَلَيْهِ السَّلَامُ أَتَقَى اللَّهَ مِنْ ذَلِكَ. وَاللَّهُ لَقَدْ نَصَرَ عِثْمَانَ نَصْرًا، لَوْ كَانَ الْخَصُورُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ،
 لَمْ يَذِلَّ لَهُ إِلَّا مَثَلَهُ.
 وأردف ذلك بأقوالٍ، لا ترتضي أبا هريرة، وسيكون لنا عندها وقفة، في ماسمير بنا من فصول
 الكتاب.

(٢) و(٣) ص ١٣٦٠ شرح النهج.
 وفي الغدير - ٥: ٢٥١ - شيء من أعمال حريز القباج، وتحريفه الوقح، تجاه الإمام الأعظم
 عليه السلام.

ونحن لانستغرب كل ما يخالقه حريز، بعد أن نعرف عنه أنه كان ممن يلعن عليًّا - عليه السلام -
 ولا يكفي بذلك، حتى تبلغ لعناته - وترد عليه مضاعفة - سبعين لعنة [الغدير ٥: ٢٥٠، ٨٧: ١١].
 ولا يحتاج، بعد ذلك، لنعرف أن الأحكام أشار إلى شهرة حريز بالنصب [المصدر ٨٧: ١١].
 ولكن - مع كل هذا - نجد أحد رجال صحيح البخاري - ويا للأسف!

فَعَجِبَ النَّاسُ مِنْ لَحْنِهِ الْفَاضِحِ، وَمِنْ نَسَبِهِ عَلِيًّا - عَلَيْهِ السَّلَامُ -
لِلصَّوْصِيَّةِ، وَقَالُوا: [مَاندري أَيُّهُمَا أَعْجَبُ؟] (١).

وهكذا ينحدر هؤلاء بالقصم الشائخة، إلى أحط منحدرٍ!
وإننا لنسأل حريزاً - لو كان له سَمْعٌ وَلِسَانٌ - عما إذا يرى في أبي بكر -
وهو أوَّلُ خَلِيفَةٍ تَوَلَّى الْمُسْلِمِينَ، بعد الرسول - إذ لم ينفذ وصية الرسول، فلم يقطع
يد علي...!؟

(١) - الشَّرح الحديديُّ - ص ١٣٥٦.

وذكرها الجاحظ في البيان والتبيين - ص ٢٠٩: وفيه:

[علي بن أبي طالب لص بن لص، صبَّ عليه شُبوب عذابٍ]، بحيث اغتر جهله في ضم
اللام - في لص - وأنه جهل ما لم يجهله أحدٌ - على حدِّ تعبيره - إلا أنَّ هذا لا يستقيم مع نصِّ أرباب
اللُّغة على تليث لام اللص، فيتنفى الجهل، حينئذٍ، باللُّغة، ولكن الجهل المفضوح في رواية
الحديديِّ.

ومجرى حديث الجاحظ، أنه يعني بقائل هذا اللُّغو: الوليد، إلا أنَّ السُّنْدُوبِيَّ الشَّارِحَ، اشتبهى
صُرْفَ هذا عن الوليد، إلى أحد ولاته، حيث علَّق على الضمير العائد للوليد: «ومع هذا أنه»،
فقال: [هو يزيد بن أبي مسلم].

ومَّا يدعم أنَّ الجاحظ يعني الوليد: أنَّ الحديث - قبل هذه القصة يدور حوله، وبعدها - أيضاً -
قصصٌ من لحن الوليد - خليفة المسلمين - وجهله باللُّغة العربيَّة، كجرِّ المنسوب - تارةً - ورفع
أخرى - حتى بلغ تحريفه المخزي إلى بعض الآيات الكرِّمة، في قصصٍ مضحكةٍ مبكيةٍ...! وحتى أنَّ
أباه عبد الملك قال: [أضرَّ بالوليد حبُّنا له، فلم نوجِّهه للبادية] - ومن الحب ما يقتل!

وقد علَّق السُّنْدُوبِيُّ - على ذلك - موضحاً - النِّقاط الملحونة، في هذر الوليد، حتى أنه أوضح
بأنَّ الوليد هو «أحد الأخوين اللُّحَّانين، وهما: الوليد ومحمد». كما أشار لذلك الجاحظ، أيضاً.
وبعد هذا، ليس يخفي عليك ما أراده مِنْ صرفه لحنه في سباب عليٍّ، لأحد ولاته، صرفاً صدر
عن قصصٍ مفضوحٍ، وغايةٍ معروفةٍ...

وليس هذا، سوى دعمٍ لِمَا سبق إيضاحه، عمَّا لمسناه في نفسية السُّنْدُوبِيَّ، وميله الجارف،
وهواه الجموح، نحو كلِّ منحرفٍ عن الإمام عليٍّ عليه السَّلَامُ!

كانت هذه الحرب الدّينية. يسعر أوارها معاوية، ويمدُّ وقودها بحمال الإسلام والمسلمين... يغتصبه وينتزعه مِنْ أهله، ليغدقه على آخرين، في قبالة حديثٍ ينتحلونه، أو منقبةٍ يفتعلونها، وأخرى يُسدلون عليها ستاراً، أو آيةٍ يُحرّفونها عما أنزّلها الله، فيُحرّفون الكلم عن مواضعه...

وكانت - إلى جانب هذه - حربٌ أخرى، هي: المطاردة لكلِّ مَنْ يحفل قلبه بحبِّ عليٍّ عليه السلام، ويختلج لسانه بحمده وذكره الطّيب. ومَنْ عُثر عليه مِنْ هؤلاء، فبين الثنتين: البراءة، أو السّيف الذي لا يرحم!.

وقد ضرب حُجر بن عدي وأصحابه، المثلّ للتضحية في سبيل المبدأ الرّسوخ، والإيمان الصّليب، الذي لا يميله إعصارٌ، ولا يخيفه سيفٌ بطّاش!.

ولم يكن معاوية، وقد اشترى ملك المسلمين، وحوّل الخلافة للملك العضوض، بالذي يحذّر مِنْ غلوائه في سبِّ عليٍّ شيءٌ، فقد شاء أن تكون بدعةً باقيةً، يُسجلها الدهر - في كلِّ يوم - سطرًا فاحم الحرف، في تأريخ هذا الجائر الغدور.

رووا: إنّ قوماً أمويّين، نصحوا لمعاوية، فقالوا:

إنّك قد بلغت ما أمّلتَ، فلو كففتَ عن لعن هذا الرّجل!.

فقال:

لا والله! حتى يربوا عليها الصّغير، ويهرم الكبير، ولا يذكر له ذاكراً فضلاً^(١)...

ولم يقف معاوية، في النّيل مِنْ عليٍّ، عند هذا الحدِّ، فحسب! بل تخطّاه، حتى نال مِنْ قداسة الرّسول، ومقام النّبوة.

(١) - ص ٢٥٦: الشرح الحديدي، والغدير ١٠٢:٢ - عن الجاحظ.
وفي الغدير ٢٥٧ - ٢٧١:١٠ عرض مبسّط لبدعة معاوية في سبِّ عليٍّ ولعنه، عليه السلام، ودراسة تعقيبية متمعة.

وحسينا مِنْ ذلك ما قصّه مطرف بن المغيرة بن شعبة، فقد قال:
وفدتُ - مع أبي المغيرة - إلى معاوية، فكان أبي يأتيه، فيتحدّث معه، ثم
ينصرف إليّ فيذكر معاوية، ويذكر عقله، ويعجب لما يرى منه. إذ جاء ذات ليلة،
فأمسك عن العشاء، فرأيتُه مغتمًا، فانتظرته ساعةً، وظننت أنه لشيءٍ حدث فينا،
أو في عملنا، فقلتُ له:

مالي أراك مغتمًا، منذ الليلة؟!.

فقال: يا بني! إني جئتُ مِنْ أخبث الناس وأكفرهم!.

قلتُ له: وما ذاك؟

قال: قلتُ له، وقد خلوتُ به:

إنك قد بلغتُ منك - يا أمير المؤمنين! - فلو أظهرتَ عدلاً، وبسطتَ خيراً؟
فإنك قد كبرت! . ولو نظرتَ إلى إخوانك مِنْ بني هاشم، فوصلتَ أرحامهم، فوالله
ما عندهم - اليوم - شيءٌ تخافه!.

فقال لي:

هيهات! هيهات! ملك أخو تيم فعدل، وفعل مافعل، فوالله ما عدا أن هلك،
فهلك ذكره، إلا أن يقول قائلٌ: «أبو بكرٍ». ثم ملك أخو عديّ فاجتهد، وشَرَّ
عشر سنين، فوالله ما عدا أن هلك فهلك ذكره، إلا أن يقول قائلٌ: «عمر». ثم
ملك أخونا عثمان، فملك رجلٌ. لم يكن أحدٌ في مثل نسبه، فعمل ماعمل وعُمل
به، فوالله ما عدا أن هلك، فهلك ذكره، وذكرُ مافعل به.

وإن أخا هاشم يُصرخ به - في كلِّ يومٍ، خمس مرّاتٍ - «أشهد أن محمداً
رسول الله!». فأني عملُ يبقى بعد هذا - لأُمِّ لك! - إلا دفناً دفناً^(١).

(١) - صلح الحسن ص ٢٢٥ عن مروج الذهب للمسعودي [ص ٢٣٤٢]، والنهج [٢: ٣٥٧]
وبرجوعنا لها للنهج - ١: ٤٦٢ - وجدنا بينها وبين هذه الصُّورة بعض اختلافٍ، مثل: «وإن ابن أبي
كبيشة» - بدل: «وإن أخا هاشم». وتجدها في الحسن بن عليّ ص ٢١٢، والغدير ٢٨٣، ٢٨٤ - ١٠: ٢٨٤ كما
أن سيّدنا الوالد، أشار لها - مرّتين - في كتابه «الدَّعوة...» ص ٢٧٣ و ٣١٢: ١.

وهل لنا أن نقول شيئاً، بعد هذه القولة مِنْ معاوية، الذي يؤله أشدَّ الأُلَم،
وَيَقْضُ، مضجعه - كَالسَّهْمِ النَّافِذِ - ذَكَرَ الرَّسُولَ الْأَعْظَمَ «ص»، عَلَى الْمَآذِنِ؟! فِي
حِينَ أَنَّهُ يَتَحَكَّمُ فِي الْمُسْلِمِينَ، وَيَتَزَوَّدُ مِنْ حَقُوقِهِمْ، مُتَسَتِّراً بِاسْمِ الْخِلَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ،
الَّتِي حَوَّلَهَا لِلْمَلِكِ الْعَضُوضِ الْغَاشِمِ!!.

وَمَاعِسانَا أَنَّنَا نَعْجَبُ مِنْ رَجُلٍ، أَوْ مِنْ قَوْلٍ، نَالِ مِنَ الْمَغِيرَةِ الرَّأْيِي الْغَدُورِ^(١)،
مَازْهَرَتْ شَارَاتِهِ عَلَى وَجْهِهِ، وَلَمَسْ ذَلِكَ مِنْهُ ابْنَهُ، كَمَا لَوْ حَدَّثَ عَلَيْهِمْ - أَوْ فِي
عَمَلِهِمْ - شَيْءٌ ذُو بَالٍ...! وَلَيْسَ يُؤَثِّرُ عَلَى مِثْلِ الْمَغِيرَةِ شَيْءٌ، كَمَا يُؤَثِّرُ عَلَيْهِ خَلْعُهُ
مِنْ عَمَلٍ، أَوْ خُسْرَانُهُ فِي مَالٍ...! وَلَكِنَّهُ - وَهُوَ الشُّرِيرُ - لَمْ يُطِقْ صَبْرًا عَلَى كُفْرِ
مَعَاوِيَةَ، وَنِيلِهِ مِنَ الرَّسُولِ «ص» - فَمَا حَالُ مَنْ كَفَّرَهُ النُّمُودُ، كَمَا يَقُولُونَ؟!.

* *

وَلَيْسَ لَنَا أَنْ يَمْتَدَّ بِنَا السَّيْرِ فِي تَقْصِي أَقْوَالِ مَعَاوِيَةَ وَأَفْعَالِهِ، الَّتِي يُنَاضِضُ فِيهَا
الرَّسُولَ، وَيُخَالِفُهُ بِقَصْدٍ، وَإِصْرَارٍ. ثَمَّا يُخْرِجُ بِهِ عَنْ حَظِيرَةِ الْإِسْلَامِ - وَالْإِسْلَامُ: قَوْلٌ،
وَعَقِيدَةٌ، وَعَمَلٌ - وَمَعَاوِيَةُ يُنَاضِضُهُ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ، غَيْرَ مُكَتَفٍ بِنَاحِيَةٍ دُونَ أُخْرَى.
وَنَحْنُ لَوْ أَطْعَمْنَا الْيَرَاعَ، وَشَنَنَّا هَذَا التَّقْصِي، لَخَرَجْنَا بِمَوْضُوعِ الْكِتَابِ، إِلَى جَادَةِ
غَيْرِ هَذِهِ.

وَلَكِنَّا نَرَى أَنَّ نَرْجِعَ الْقَارِئَ الْكَرِيمَ، إِلَى الْمَوْسُوعَةِ الضَّخْمَةِ: الْغَدِيرِ، وَلَا سِيَّمًا
جِزْنَةَ الْعَاشِرِ، فِيهِ: عَرْضٌ شَامِلٌ، وَرَائِعٌ حَقًّا، وَتَقْصٌ لِنَوَاحٍ عَدَّةٍ، مِنْ هَذِهِ الْمَخَالَفَاتِ،
الَّتِي أَشْرْنَا إِلَيْهَا، وَالَّتِي يَأْتِي بِهَا مَعَاوِيَةُ قَوْلًا وَعَمَلًا، وَعَنْ عِنَادٍ مَقْصُودٍ، وَإِصْرَارٍ
مَقْصُوحٍ، وَتَحَدُّ لَا ذَعٍ، وَتَهَكُّمٍ سَاخِرٍ، يَدْفَعُ كُلَّ ذَلِكَ: حَقْدًا دَفِينًا، وَشُرْكَ رَسِيخًا
مُورُوثًا، وَسِيَاسَةً مَكِيافِيَّةً وَصُولِيَّةً، وَعِدَاءً سَافِرًا، وَرِثَةً مِنَ الْبَيْتِ الْأُمُويِّ، وَالْبَيْتَةِ
الْجَاهِلِيَّةِ الْمُبْرُوءَةِ، هَذَا الْبَيْتُ الْهَاشِمِيُّ الْكَرِيمُ، فِي أَشْخَاصِ زَعَمَائِهِ وَقَادَتِهِ الْهَدَاةِ الْبَرَّةِ.

(١) - فِي النَّهْجِ ص ١٧٧م: إِنَّ الْمَغِيرَةَ كَانَ يَقُولُ: وَاللَّهِ مَانِصْحُهُ - يَعْنِي عَلِيًّا - قَبْلَهَا،
وَلَا أَنْصَحُهُ بَعْدَهَا، مَا بَقِيَتْ.

فَحَبِّدَا الصَّحَابِيَّ الْعَدْلَ «وَالَّذِينَ النَّصِيحَةُ».

مضى هذا العصر المظلم، ليعقبه عصرٌ أشدَّ ظلمةً، وأحلك رقعةً. وعلى المدج في العتمة: أن تشتدَّ عليه وطأة الظلام الثقيل، قبل أن يُزيح نور الفجر، عن عينيه، تلك الغشاوة الفاحمة.

جاء عصرٌ، أخذوا فيه لعن عليٍّ «سنةً!»، وقد أخذت في القلوب مكاناً، عمَّقه الأهواء، وأفسحت إليه، ليكون على قرارٍ.

فإن سها على الخطيب، أو إمام الجماعة: لعن عليٍّ عليه السلام - مرةً واحدةً - أخذته الجلبة الصاعدة إليه من كلِّ مكان، تطالبه، هاتفةً: السنة! السنة! فيعرف - حينذاك - أيَّ خطأ ارتكب، وأية سنة ترك!

فمعاوية قد حفر في كلِّ قلبٍ أمويٍّ - نسباً، أو نزعاً - هذه الكلمة، التي تتصدَّع هولها الجبال، وتنفطر السماوات - فكانوا بها يختمون خطبة الجمعة: [اللهم إنَّ أبا ترابٍ قد أخذ في دينك، وصدَّ عن سبيلك، فالعنه لعناً وبيلاً، وعذبه عذاباً أليماً^(١)].

ولم تكد تُمحي من القلوب، وتُنسى من الأفواه، إلا في عصر عمر بن عبدالعزيز - الخليفة الزاهد.

غير أنَّ بين العصرين، مساوٍ، تندى لها الجباه، وتأريخاً مسودَّ الجبين، قاتم الحرف، فعلت فعلها السيء، فغيَّرت مجرى التأريخ، ودنست نضارة الحق.

وليس عصر الحجاج الطاغية الغدور - في إمارته - وهو التلميذ النبیغ لمعاوية...^(٢) ليس هذا العصر، والذي يُنسى، وهو الحفيل بكلِّ سوء. فقد دَعِم من بناء معاوية، وأضاف إلى ذلك الصَّرح الظلوم لبناتٍ، رفعت من عالي بنائه الطاغوي.

(١) - ص ٣٥٦ من النهج، والغدير ١٠٢: ٢ - عنه، وعن الجاحظ - ٢٩٠: ١٠، والدعوة

١: ١٥٥.

(٢) - تُريد بهذه التلمذة: انتهاج سيرة معاوية.

ففي عصر هذه الطاغية، أعمل السيف في رقاب الشيعة، وقتل صبراً، وعلى الظنة والتهمة، ماهو بالأساطير أشبه!

وماهو سوى دعوة، من دعوات الإمام علي عليه السلام^(١) على أهل العراق، الذين ودّ لو يُصارفهم بغيرهم، مصارفة الدرهم بالدينار!

وكان الحجاج ذا نعمة، فأرضى سفالة ضميره، وفائر حقه، ومستفحل بغضائه. فكان يلعن علياً - كما كان سلفه معاوية - ويأمر بلعنه!

استعرضه - يوماً - رجل، وكان راكباً، فقال له: أيها الأمير! إن أهلي عقوني، فسّموني علياً، وإني فقيرٌ بالنس، وأنا إلى صلة الأمير محتاج!

فبلغ لطف هذا التوسّل - لدى الحجاج - مآثار كوامن حقه، ورواسب نفسه اللئيمة، فبدّل اسمه، وولّاه عملاً، وأشخصه إليه^(٢).

* *

وأراد الحجاج أن يكافئ عبد الله بن هاني، حيث قد شهد معه مشاهد، فشاء أن يُزوّجه من ابنة سيّد فزارة: أسماء ابن خارجة، وابنة رئيس الثمانيّة: سعيد بن قيس الهمداني.

وإذ لم يقبلا عبد الله زوجاً، دعا لسأول بالسياط، وللآخر بالسيف، فاطاعا! وزوجاه ابنتيهما؟! - ونعم هذا الزّواج الشرعي، يقوم به أمير المسلمين؟!.

حينذاك أخذ الحجاج بمنّ على عبد الله - هذا - بما أنعم عليه. وإذا بهذا يقف في وجهه، ليردّ عليه هذه المنّة، بقوله:

- لاتقل - أصلح الله الأمير! ذاك! فإنّ لنا مناقب، ليست لأحدٍ من العرب.

- وماهي؟.

- ماسّب أمير المؤمنين عبد الملك، في نادٍ لنا قط.

- منقبةٌ والله!

(١) - إشارة إلى دعوات الإمام، عليه السلام، الكثيرة على أهل العراق، كقوله: «اللهم سلط عليهم غلام تقيف، يسقيهم كأساً مصبّرة»، وغيرها.

ومادعوات السبط الحسين - يوم الطفّ - بعيدة، ولاسيما قوله: «ولا تُرضِ الولاة عنهم أبداً» الخ.

(٢) - ص ١٣٥٦، و ٣١٦، من شرح ابن أبي الحديد.

- وشهد مناصفين - مع أمير المؤمنين معاوية! - سيعون رجلاً. ماشهد منا مع أبي تراب، إلا رجلاً واحداً، وكان، والله، ماعلمته، إمراً سوء.
- منقبةً والله!

- ومامناً رجلاً، غرض عليه شتم أبي تراب، ولغنه، إلا فعل، وزاد ابنه: حسناً وحسيناً، وأُمهما فاطمة!
- منقبةً والله!

- وماأخذ من العرب، له من الصَّباحة والملاحاة مالنا.
غير أن هذه لم يعدّها الحجاج من المناقب، ووجّه قائلها الذمّيم، الشَّدِيد الأُدمة، المجدور، العجرُ الرأس^(١)، المائل الشَّدق، الشَّدِيد الحول، القبيح الوجه^(٢).
إن هذا الوجه شاهدٌ عكسيّ، على هذه المنقبة، التي ضنَّ بها عليه الحجاج، فضحك في وجهه:

- أمّا هذه - يا أبا هانئ! فدعها!^(٣).

* *

لقد بلغ معاوية ما أُل، إذ أبقي شتم عليّ ولغنه بدعةً، ربي عليها الصَّغير، وهرم الكبير. ولكن دون أن ينال من جوهر الحقِّ ماأراد - فالله متمُّ نورَه، ولو كره الكافرون.
جاء الخلف الآثم، لذلك السَّلف الشَّرير، فافتنَّ في تلك البدع، حسب ماشاءت له سفالة ضميره.

يصعد المنبر - في العراق - خالد بن عبد الله القسري - وكان أميراً في ملك هشام - ويلعن عليّاً عليه السلام، فيقول:

اللَّهُمَّ العن عليّ بن أبي طالب، ابن عبدالمطلب، بن هاشم، صهرَ رسول الله
«صلى الله عليه وآله» على ابنته، وأبا الحسن والحسين.

(١) - العجرُ: مصدرٌ، وهو -هنا- بمعنى «التَّشْو».

(٢) - كذا سجّل وصفه التَّاريخ. فلعلّه من فصيلة القروذ والخنازير!

(٣) - ص ١٣٥٧، من النّهج الحديديّ، والدَّعوة ص ٢١٠: ١٠١.

ويُقبل على الناس، وقد أخذ منه الجدل محلاً عميقاً، فقد أتى ببدعة جديدة، لعن علياً «عليه السلام»، لعناً، لا يقبل التأويل والصرف، فلا كنية فيه، ولا غموض، ويسألهم حينئذ: هل كنيت؟^(١).

ومرة أخرى يعيد تلك الصورة البشعة من معاوية، في نبذه من الرسول الأعظم «ص»، وهو على بدعه يسير، وبضلاله ينتهج، وفي تلك التربة الحبيثة، التي طلعت فيها تلك الشجرة الملعونة - أمية السوء - نشأ واستعد. إنه ليقول - مرة أخرى - بعد أن انتهى من شتمه لعلي، حيث خطب الناس، في يوم جمعة، فلم يكف بالقربى من الله - في هذا اليوم الفاضل - بشتم علي: دون النيل من الرسول الأعظم «ص»، فقال: (والله إن كان رسول الله ليستعمله - يعني علياً - وإنه ليعلم ماهو، ولكنا كان ختنه).

أرأيت كيف بلغ مساسه للرسول، وقدسية الرسالة، وطهارة النبوة، حيث جعل من الرسول رجلاً عاطفياً، يدور مع الهوى، والعاطفة، مجانباً للحق والصدق، بحيث يخرج قائلها - كما كان قبله معاوية - من حظيرة الإسلام، بعد النيل الشائن من نبي الإسلام. وقد كان سعيد بن المسيب، المشهور بانحرافه عن علي حاضراً، وقد نعى لحظة ألقى فيها خالد قوله، ففتح عينيه مذعوراً، ويسأل: ويحكم! ما قال هذا الحبيث! رأيت القبر انصدع، ورسول الله يقول: كذبت يا عدو الله!^(٢).

(١) - النهج ١: ٣٥٦، والكمال للميرد ٦٧٧ و ٢: ٦٧٨ بزيادة توضيح، وهي: «بن عبد مناف، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وزوج ابنته فاطمة». وقد استكبر المؤلف ذكر اللعن، فعبر عنه بقوله: «فعل الله على علي الخ».

(٢) - أعيان النبوة ٣٥: ٧٨، وص ١٥ من رسائل الجاحظ في نقض العثمانية لأبي جعفر الإسكافي.

بهذه الأعمال القباح، وبهذا الأسلوب البذيء، المقصى فيه العنصر الأخلاقي، والمحل من الإنسانية - بكلّ هذا قاوموا الحقّ، وقد رأوه لا يرضي منهم المطمع الجشع، ويحرّم عليهم مقاعد، تُبوّئهم مقاعد من جهنّم. والتأريخ يمثل هذه الأعمال، مسوّدّة منه الصّحائف، والكاتب ينال منه العجز، لو شاء الحصر.

ولكن ما يثير الألم: أن نجد مثل هذه الأعمال السّود، يقوم بها أناس، هم رعاة الأُمّة، ونُسميهم: أمراء المؤمنين - تارة - وخلفاء الرّسول - مرّة ثانية - فلا نرى فيهم غير: طليق، ومنافق، وسارق، وزان، وجائر، وسكّير، ووزغ، وفاجر... إلى آخر هذه الحلقة المفرغة، من النّتن الخنّاق، المنبعث من صفات هؤلاء الولاة الدّون. فمعاوية الطّليق المنافق: أمير المؤمنين. ويزيد السّكير العرييد: خليفة الرّسول. ومروان الوزغ بن الوزغ، خليفة المسلمين. و... و... إلى أن تطوف بمثل الطّاغية عبدالملك، أو النّاقص يزيد، أو الحمار مروان.

ثم نعود... فنرى هذه الأقوال المفتعلة، والأحاديث المختلقة، والكلم الخرف، والتّفاسير المغرضة، تبعث من شفاء، تقول: «سمعنا رسول الله يقول...»

ونبحث عن أصحاب هذا الزّور المفتعل، والبهتان الآثم، فنجدهم - وبالألم الكاسف! - أولئك الذين تُخلع عليهم صفة أصحاب الرّسول... ثم يُتخذ من صفة «الصّحبة»: سياجاً منيعاً، يحوط هذا الزّور، ويرعى ذلك البهتان، وسراً واقياً على هذه المساوىء، وتلك المناكير!

ومنّ حاول تخطّي هذا السّياج، أو إزاحة هذا السّر، فإنه للرّجل المتخطّي - في رأي أصحاب هذا الفنّ من النّجارة - للحقّ، والقائل في أصحاب الرّسول مالا يجوز، والحسود الشّأنى لهم، إذ يغمطهم حقّ هذه الصّحبة المقدّسة، ولا يرفعهم

عن بشريتهم التي هووا بها - هم انفسهم - إلى درجة الحيوانية البهيمة الحمقاء، وهذوا - بأيديهم - أسس ذلك البناء الشموخ... وحطموا - بمعاولهم - ذلك السياج الذي شيد لهم، ومزقوا بأناملهم - تلك الست البالية، بما أجمروا وخانوا، وراءها، بعيداً عن العيون، ظانين أن عيون الرقباء عنهم غافية ساهية... وهم يعملون ما يعملون، ويتقاضون عليه - من مال الله، ومال الأمة - ما يشعل قلوبهم ناراً، وتكوى به جباههم وجنوبهم، وتبدل جلودهم غير تلك الجلود.

إنهم لينالون هذا المال، الذي تبعثه أيدي أولئك، الذين يُسيرون دفة الملك، ولا يهتمهم سوى بقاء العرش تحتهم، فيبذلون - في سبيل حماية العرش - كل وسيلة، وكل غالٍ ومرخص، ولا يهتمهم سوى النتيجة، بدون مبالاة، أو اختيار للوسيلة، مادامت «الغاية تُبرر الوسيلة». ولكنهم - مع هذا - يُعتبرون: أنمة المسلمين، وخلفاء الرسول!

وهكذا ساروا بالأمة إلى مهاوي الضلال، مجهزين على الضمير الحي، ساخرين من العدالة، مجانبين للحق، قائلين للزور، أكالين للسحت، ساعين للكذب، لاتهمهم سوى أناليتهم الحمقاء، ونهمهم البشع. هذا يكذب ويختلق، ويفترى ويؤزر، ليأخذ أجر أتعابه، ذهباً مسروقاً، وقصّة منهوبة، في رشوات مخزية مخجلة...!

وذاك يدفع هذا بسخاءٍ مدرارٍ، وما هو لديه، سوى الطعام الحقيق، في سبيل السيطرة على الدّست، وسوم الأمة ألوان العذاب، وأنماط الهوان والتّكيل. وبين هذا وذاك دماءٌ مطلولة، وحقوقٌ مهدورة، وكراماتٌ مستباحة، وظلمٌ فاش، ومناكيرٌ معلنة، وفقّر أسودٌ كفور. وليس هذا سوى النتيجة الطّبيعية المحتومة، لهذا العصر المظلم الجائر.

يمضي هؤلاء، وقد دسوا في الدين، وعاثوا حسب ماشاءت الأهواء الدون،
وأفسدوا حسب ما اشتتهت الأغراض السوء والمطامع البهيمية...

يمضي هؤلاء، ليجيء - بعدهم - أناسٌ، يتقبلون ماجاء، ويأخذونه على أنه حقاً!
ولو أمعنوا قليلاً، وأعملوا شيئاً من فكرهم، وقاموا بمهمة الباحث، لتكشف
لهم هؤلاء عن مساوئ وعورات، ليس لها سوى الرُّغام، تُدسُّ فيه، فلا تُعكر من
صفاء الجوِّ، ولا ينبعث منها ما يسودُّ صفحة الدين البيضاء.

يمضي أولئك، وقد دسوا الصفحات، وسودوا التواريخ، ليخلف من بعدهم
خلفٌ، يزيد في الطين بلةً، ويُضيف إلى المناكير، ما يزيد في بنائها.

وإن من هذا الخلف الآثم، من لا يقف عند حدٍّ من الإسفاف والزور، بل يمضي
ساذراً في الغي والإفراء، فلا رقيب من دين، ولا محاسب من ضمير، ولا رادع من
حق، ولا خوف من عقاب.

وقد كنت أظن أن أقف على الكثير من الكذب والزور، في نيل علي عليه
السلام من عصر معاوية، ومن خلف بعده من ملوك الشجرة الملعونة في القرآن،
ومن هم منهم، في الهوى والنزعة، من الماجورين الآثمين.

ولكن لم أتصور، أو أظن: أن أقف على مثل هذه الفرية، يأتي بها السيوطي:
سبباً في نزول هذه الآية الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ، وَأَنْتُمْ
سُكَارَى، حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾^(١).

فيأتي بهذه الفرية، ويضعفها أن ينسبها لعلِّي نفسه، إذ ينسب إليه أنه قال -
وهو، يقيناً، لم يقل:

(١) - النساء: ٤٣.

صنع لنا عبدالرحمن بن عوف طعاماً، فدعانا، وسقانا مِنَ الخمر، فأخذتِ الخمر منا، وحضرتِ الصَّلَاةَ فقدموني، فقرأتُ: «قل يا أيها الكافرون لا عبد ماتعبدون، ونحن نعبد ماتعبدون» فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾^(١).

ونحن لأنريد أن نناقش السيوطي في السُّنَد، وما في الافتراء ذاته مِنْ تناقضٍ في الروايات، وتحريف اسم المصلي - هنا - وإقحام اسم علي، هذا الإقحام الشَّانن، رغم أن بعضها يُهمَل الاسم، ولا يذكر علياً بشيء، وبعضها يُعَيِّن غيره مِنَ الصَّحابة... نحن لأنريد العرض بشيء ما، هذه المناقشة... بل نكتفي بالإشارة إلى تهافت محتوى هذا الافتئات. في تناقضه المكشوف، مع صريح القرآن، والأحاديث الثَّابتة، في حق علي «عليه السَّلام».

فشرب الخمر نقيض، لآية التَّطهير، التي لا يتطرَّق الرَّبُّ ولا الشُّكُّ، في أنَّ علياً ضمن نطاقها، بل هو أوَّل المنطبقة عليهم، ونقيضٌ لكونه نفس الرُّسول، في آية المباهلة، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ لَا يُبَيِّ الْمُفْتَنَت: أن ينال الرُّسول بمثل مانال به نفسه!، وهو عليٌّ «عليه السَّلام».

وهي - من نظرةٍ أخرى لجوانب هذا الافتئات - نقيض للثَّابت مِنْ سيرة علي، التي لم يختلف فيها اثنان، مِنْ أنَّ علياً لم يُشرك بالله، طرفة عين، منذ وُجد، فكيف يُمكن الجمع بين هذا، وبين قراءته المخرَّفة - وأستغفر الله! - للآية: «ونحن نعبد ماتعبدون - وهي خطابٌ للكُفَّار!؟».

وليس لنا أن نناقش مثل هذا الافتئات المفضوح، بأكثر مِنْ الإشارة للشَّاطيء مِنْ بعيد. إذ لو شطنا البسط والتَّقصي. والإحاطة الشَّاملة، لما اتَّسع لنا مجال الوصول للهدف مِنْ هذا الكتاب.

ولكن يجب أن نُشير إلى: أنَّ هناك مَنْ ذكر حادثة، كهذه، سبباً لنزول هذه الآية، وذكر شخصاً، غير عليٍّ هو الذي صلَّى بالسَّكاري... فجاء مَنْ جاء،

(١) - أسباب النزول ٦٣.

وأسدل الستار على ذلك الصحابي الكبير، لُقيم مقامه علياً، دون أن يخشى عاقبة الكذب، وما ينتج عنه من نيل للرَّسول «ص» في ما ينال به علياً، نفس الرَّسول!.

على أنَّ مِنَ المفسرين مَنْ ذهب إلى أنَّ هذا السُّكر، الذي جاء في الآية، ليس سكر الخمرة، وإنما سكر النوم خاصَّةً^(١).

* *

ونتبع شيئاً، مما أتى به هذا الخلف، الذي باعد بين الشُّقة، ووسَّع في هوة التفرقة والنِّفار، بما أتى به مِنَ الطَّمات، التي لا تتركز على شيءٍ، مِنْ صدقٍ، أو حقٍّ، أو على حسن قصدٍ، فقط.

نتبع شيئاً مِنْ ذلك، ونطالع بعض ماسطروه مِنْ أمثال ماعرضنا نماذجها، فنعجب لما يُجيب به «الغزالي» سائلاً، سأله عن لعن يزيد:

— هل مَنْ صرَّح بلعن يزيد، يكون فاسقاً؟ ويجوز الترحم عليه؟

فكان هذا جوابه:

إنَّ مَنْ لعنه يكون فاسقاً عاصياً — كذا؟! — لأنه لا يجوز لعن المسلم، ولا يجوز لعن البهائم، فقد ورد التَّهْي عن ذلك، وحرمة المسلم أعظم مِنْ حرمة الكعبة، بنصِّ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ «وآله» وسلَّم. ويزيد صَحَّ إسلامه، وما صحَّ أمره بقتل الحسين، ولارضاه بقتله، وما لم يصحَّ منه ذلك، لا يجوز أن يُظنَّ به ذلك. فإنَّ إساءة الظَّنِّ بالمسلم حرامٌ. وإذا لم يُعرف حقيقة الأمر، وجب إحسان الظَّنِّ به. ومع هذا فالقتل ليس بكفرٍ، بل هو معصيةٌ. وأمَّا الترحم عليه، فهو جائزٌ! بل هو مستحبٌّ، لأنه داخلٌ في المؤمنين، في قولنا في كلِّ صلاةٍ: اللَّهُمَّ اغفر للمؤمنين والمؤمنات^(٢).

أرأيتَ هذا التناقض، وما وراءه مِنْ تدليسٍ؟! فإساءة الظَّنِّ بالمسلم حرامٌ. وقتل الحسين ليس بكفرٍ. وحرمة المسلم أعظم مِنْ حرمة الكعبة — بنصِّ الرَّسول —

(١) — بجمع البيان: ٥: ١١٢، والكشاف: ١: ٣٩٧.

(٢) — السيرة الحلبية: ١: ١٩٥.

فيحرم لعن يزيد!، ولكن لاحرمة للحسين، ولاكرامة لدمه، ولاقيمة لما جاء به الرسول في حقه، فليس في قتله ماينال من كرامة يزيد: خليفة الرسول، وأمير المؤمنين!، بل ولامايחדش في إيمانه، بل هو مندرج تحت عموم قول المصلي: «اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات»!!!.

وليس القول بإيمان من قتل أباه، ونكح أمه، وشرب الخمر في رأس أبيه، من حيث شذوذ هذا القول، وتجنّبه على الحقّ والصدق، إلّا دون القول - بله الاعتقاد والدّفاع بحرارة- بإيمان يزيد الخمر والفجور، السكر والعريضة، الاستهتار والتّهتّ. ولكن قتل يزيد للحسين «عليه السّلام»، كان هو الدّافع الأوّل لهذا الموقف المخزي من الغزالي، في جانب يزيد، مدافعاً دفاع المستميت.

ويظهر أنّ للغزاليّ، حول هذا الموضوع - الدّفاع عن إمامه يزيد بن معاوية - عدّة مواقف، تتكرّر حسب الحاجة، أو بدونها...! فهو يقول، مرّة أخرى: [فإن قيل: هل يجوز لعن يزيد، لأنه قاتل الحسين، أو أمر به؟ قلنا: هذا لم يثبت أصلاً، فلا يجوز أن يقال إنه قتله، أو أمر به، ما لم يثبت -«كذا؟!»- فضلاً عن اللّعة، لأنه لايجوز نسبة مسلم إلى كبيرة، من غير تحقيق!]^(١).

ويعود، ليُصرّح عن مكنون ضميره، إذ لايكفي بهذا الدّفاع عن يزيد، يانكاره الوقائع المسلّمة، التي لايشكّ فيها إلّا عنود مكابر، أو جهول معتوّ... فبرئته يزيد من قتل الحسين، ليس بكافٍ لديه، لأنه عارفٌ بمقدار مااحتمله من التّضليل، وإنكار «أنّ الواحد نصف الإثنين».

يعود، فيحاول الدّفاع من باب آخر... الدّفاع عن قتلة الحسين جميعهم، حتى ولو سلّم أنّ يزيد منهم، في رأيه الفاتل... فهو لم يستمت في دفاعه عن يزيد، ولو لم يكن قاتلاً للحسين، أمراً به، راضياً شامتاً... يقول:

(١) - إحياء العلوم ٣: ١٢١ وإنّ للغزاليّ رأياً آخر ينقض هذا الرّأي، حيث عاد إلى رشده، وذلك في ص ١٠ من (سرّ العالمين)... وهذه الآراء تصدر عن الدّافع لوضع هذا الكتاب، أو ذلك...

[فإن قيل: هل يجوز أن يقال: قاتل الحسين لعنه الله، أو: الأمر بقتله لعنه الله؟ قلنا: الصواب أن يقال: قاتل الحسين، إن مات قبل التوبة، لعنه الله، لأنه يُحتمل أن يموت بعد التوبة]^(١).

وراح يستدلُّ بقرينة توبة وحشي، قاتل حمزة، وعدم جواز لعنه! مع أنَّ وحشياً لم يمرَّ به يومٌ، تخلَّى فيه عن وحشيَّته، وقد اختتم حياته بمعاقرة الحمرة، مدمناً لها، حتى غلبت عليه، فلا يكاد يصحو منها]^(٢).

ولكن (الغزالي، وموقفه هذا، في محاولته أن لا تنال كافراً، أو فاسقاً - كيزيد، ووحشي، ومن إليهما - لعنة لاعتن...

... إنَّ هذا الذي وقف مدافعاً عن يزيد ووحشي، بل حتى عن زعيمهما إبليس، لعنه الله، إذ يقول:

[ولاخطر في السُّكوت عن لعن إبليس، فضلاً عن غيره]^(٣).

... إنَّ هذا - بكلِّ هذه المواقف الشَّائنة، التي لا يُريد أن تنال اللعنة، حتى إبليس وحفدته. لا يتأثم، ولا يتحرَّج أن يقول: مثل هذه الطَّامة.

[الثَّانية: اللَّعن بأوصافٍ أخصَّ منه، كقولك: لعنة الله على اليهود والنصارى والجوس، وعلى القدرية والخوارج والروافض، أو على الزُّناة والظَّلمة وآكلي الربا، وكلُّ ذلك جائز]^(٤).

وقد يُظنُّ أنَّ بين الموقعين كثيراً من تناقض... فهو يُجيز - هنا - لعن هؤلاء الطَّوائف! بينما هو - هناك يُدافع عن مثل يزيد وطغمته، من قتلة الحسين، بعد أن لم يرَ أيَّ بأسٍ في السُّكوت عن لعن سيِّدهم إبليس!

(١) - إحياء العلوم ١: ١٢٢.

(٢) - الاستيعاب: ٣: ٦١.

(٣) - إحياء العلوم: ٣: ١٢١.

(٤) - الإحياء ٣: ١٢٠.

ولكن نظرة، فيها شيءٌ من رويّةٍ وعمقٍ، تجعلنا لانجد شيئاً من هذا التناقض، بل تربط بينهما الرّبط الموثّق. لأنّ إجازته لعن الرّوافض - هذا التّبرّ للطائفة الشّيعيّة الحقّة - يتحد والدّفاع عن يزيد، في المرمى، والهدف، والغاية. فالجميع نتيجة حتميّة، وثمرّة مريرة، من بذرة الكره للعزّة الطّاهرة، آل رسول الله «ص». ولسنا نستغرب - بعد كلّ هذا - أن يصفّ الشيعة - أتباع آل البيت «عليهم السّلام» - مع الخوارج والقدريّة، في صفٍّ واحدٍ، وجواز لعن الجميع لديه، لأنّ الكل - لديه - مارقٌ من الدّين، لا يُرجى لهم خيرٌ، ولأُتقبل منهم توبةٌ. بل لو صرّح عن رواسب مكنونه، لفصّل جميع الفرق والطوائف والمِلل الباطلة، على الفرقة الشّيعيّة، لأنّ ذنبها الوحيد: أنّها شيعةٌ لعليّ وبنيه - هذه الجريمة التي لا تُغتفر، والدّرَن الذي لا يُغسل!

وفرقٌ كبيرٌ جدّاً، بين موقف الغزاليّ، في دفاعه عن يزيد الرّذيلة، وقتله السّبط الحسين، وبين موقف الجاحظ، من هذه النّقطة بالذات. ولعلّ من الخير أن نأتي بمقطعٍ ممّا قاله الجاحظ، حول ذلك، وهذا المقطع حلقةٌ متّصلةٌ بما سبق أن استشهدنا به من قول الجاحظ، حول فرية «عام الجماعة»:

[ثمّ الذي كان من يزيد ابنه، ومن عمّاله وأهل نصرته، ثم غزو مكّة، ورمي الكعبة، واستباحة المدينة، وقتل الحسين - رضي الله عنه - في أكثر أهل بيته: مصاييح الظّلام، وأوتاد الإسلام، بعد الذي أعطى من نفسه، ومن تفريق أتباعه، والرّجوع إلى داره وحرمه، أو الذّهاب في الأرض، حتى لا يُحسّ به، أو المقام حيث أمر به، فأبوا إلّا قتله والنزول على حكمهم] (١).

ثمّ راح يستدلّ بأعمالٍ قام بها يزيد، ممّا تُثبت كفره، حتى قال:

[واحسبوا مارووا عليه من الأشعار، التي قولها شركٌ، والتّمثّل بها كفرٌ، شيئاً مصنوعاً، كيف نصنع بنقر القضيب بين ثنيتي الحسين. رضي الله عنه! وهمل بنات

(١) - رسائل الجاحظ ٢٩٤.

رسول الله صلى الله عليه «وآله» وسلم حواسر على الأفتاب العارضة، والإبل الصعاب، والكشف عن عورة علي بن الحسين، عند الشك في بلوغه؟ على أنهم إن وجدوه وقد أنبت قتلوه، وإن لم يكن أنبت حملوه، كما يصنع أمير جيش المسلمين بدراري المشركين؟! وكيف تقولون في قول عبيد الله بن زياد لإخوته وخاصته: دعوني أقتله، فإنه بقیة هذا النسل، فأحسم به هذا القرن، وأميت به هذا الداء، وأقطع به هذه المادّة..؟!)

خبرونا: على م تدل هذه القسوة وهذه الغلظة بعد أن شقوا أنفسهم بقتلهم، ونالوا ما حُبوا فيهم؟. أتدل على نصب، وسوء رأي، وحقد، وبغضاء، ونفاق، وعلى يقين مدخول، وإيمان مخروج؟. أم تدل على الإخلاص، وعلى حب النبي - صلى الله عليه «وآله» وسلم - والحفظ له وعلى براءة الساحة، وصحة السريرة؟. فإن كان على ما وصفنا لا يعدو الفسق والضلال، وذلك أدنى منازل. فالفاسق ملعون، ومن نهى عن شتم الملعون ملعون^(١).

ولا ترى حاجة في تعليق على هذه القولة من الجاحظ، فإن فيها، وفي ما تلاها من هذه الرسالة، للرد المفتح - سواء كان بقصد، أو بغير قصد - على الموقف المشين، الذي وقفه الغزالي، في دفاعه عن عصبة الجور والآثام، مجموعة الرذائل، الشجرة الملعونة في القرآن.

* *

وبعد أن نقف على تلك القولات المانسة، يفوه بها الغزالي - وهو المعطى لقب «حجة الإسلام»! - غير متأنم ولا متحرّج... فإننا لا نرى آية غريبة، إذا قرأنا له قوله: [يحرم على الواعظ وغيره رواية مقتل الحسين وحكايته، وما جرى بين الصحابة من التشاجر والتخاصم، فإنه يهيج بغض الصحابة والطعن فيهم، وهم أعلام الدين، ومواقع بينهم من المنازعات، فيحمل على محامل صحيحة، ولعل ذلك خطأ في الإجتهد، لا لطلب الرئاسة والدنيا كما لا يخفى]^(٢).

(١) - المصدر ص ٢٩٥.

(٢) - الغدير ٢١١:١٠ عن تفسير روح البيان ١٤٢:٤، لإسماعيل البروسوي.

وغير خفي مايعنيه دفاعه هذا، وماشحن من تضليل وتزوير، من تحريم ذكر فاجعة لم تمرّ بالإنسانية مثلها، ومأساة لم ولن يشاهد بنو الإنسان نظيرها، وقد عدّ - من أجل ذلك - يزيد وطغمته من أعلام الدّين، الذين لا يستقيم إلّا بهم، فلا يجرحهم إلّا مراتب أو مبطل.

وهو - هنا - شمل بالدفاع كلّ مبطل غشوم، حيث تناول بالدفاع، حتى عن معاوية في موقفه من حرب الإمام عليّ «عليه السلام»، لاجتهاده في ذلك، وأنه ليس لطلب الرّئاسة والدّنيا، وإنّ كذّبه أبو يزيد، وابن أبي سفيان، وحفيد أميّة ذاته، في خطابه لأهل الكوفة:

أيا أهل الكوفة! أتراني قاتلتكم على الصّلاة والزّكاة والحجّ؟ وقد علمت أنكم تُصلّون وتزكّون وتحجّون. ولكنني قاتلتكم لأتأمّر عليكم وعلى رقابكم، وقد آتاني الله ذلك وأنتم كارهون، ألا إنّ كلّ مالٍ أو دمٍ، أصيب في هذه الفتنة فمطلول، وكل شرطٍ شرطته فتحت قدميّ هاتين^(١).

وليس لنا أن نُطيل الوقوف، عند كلّ فريسة أتى بها الغزاليّ، وكتابه «إحياء العلوم» - هذا الكتاب الذي سُمّي بضدّه!، وكثيرة هي الأسماء المضادّة للمسمّيات! - وكتابه هذا مشحون بالتّفاهة والمين، والغشّ والتضليل.

ومعارضنا هذا، سوى نماذج تُعطي الصّورة الواضحة، لِمَا ابتلت به الأمّة الإسلاميّة، من رجال سوء، هم تجّار الدّنيا باسم الدّين.

إذ لولا ذلك، لَمّا جاء من يقول: «إنّ الحسين قُتل بشرع جدّه»^(٢). - وهو أبو بكر بن العربي - ذلك أنّ يزيد «إمام زمانه»، والحسين خارجٌ عليه!، وقتله هو الجزاء الشرعيّ، الذي يستحقّه في دين جدّه.

(١) - الحديدي: ٤:٦، والغدير ١٠:٣٢٦ مسنداً.

(٢) - مقدّمة ابن خلدون ص ٢١٧ عن «العواصم والقواصم» لابن العربي.

وابن العربي يمتاز على الغزالي، في صراخته، فهما متفقان في الرأي والغاية، ولكن الثاني، قدّم السُّمَّ مزوجاً بما ظنّه عسلاً... أما الآخر فقدّمه صرفاً، يبين ظاهره عما في باطنه من خبيث، وما يحمل من سوء...

* *

وليس يرضى المؤرّخ ابن خلدون: أن ينال واحداً من أهل البيت المطهّر، دون آخر، فأرسل هذه القولة الرّعدة:

[وشدّ أهل البيت بمذاهب ابتدعوها، وفقه انفردوا به - إلى أن قال: وهي كلّها أصولٌ واهيةٌ. وشدّ بمثل ذلك الخوارج. ولم يحتفل الجمهور بمذاهبهم. بل أوسعوها جانب الإنكار والقدح، فلا نعرف شيئاً من مذاهبهم، ولا نروي كتبهم، ولا نثر لشيءٍ منها، إلّا في مواطنهم. فكُتب الشيعة في بلادهم، وحيث كانت دولتهم قائمةً في المغرب والمشرق واليمن، والخوارج كذلك. ولكلّ منهم كتبٌ وتآليف وآراء في الفقه غريبةٌ] (١).

وإنها لمفخرة لابن خلدون: أن يدع فقه أهل البيت!، ولكن الأئمة من أهل البيت «عليهم السّلام»، لم يتدعوا شيئاً. وإن تكن أقواهم مذاهب مبتدعة - كما يقول ابن خلدون - فإنها راجعةٌ للقرآن العظيم «الذي جاء بتطهيرهم»... فليكن القرآن ينبوع يدع أهل البيت وأصلها!

ومفخرة أخرى له: أن يضعهم في قبال الخوارج، ويقيس شدوذ هؤلاء بأولئك! فتكون النتيجة المريعة، هي: مروق أهل البيت من الإسلام، كمروق الخوارج من الإسلام، في نصوص الرّسول «ص».

ومفخرة ثالثة: أن يُوسع مذهب أهل البيت - وهو صميم الإسلام - جانب الإنكار والقدح والازدراء!

ولقد أسرف البعض في ذلك، حتى اضطرّ لمخالفة السُّنة - الثّابتة لديه - لأنّ شيعة أهل البيت تعمل بها، فرغبة في البعد المنفّس عن التّشبه بالشيعة، عدل عن الثّابت من السُّنة، إلى ما يخالفها!.

(١) - المقدّمة ص ٤٤٦.

ولابدّ - هنا - من الإشارة إلى نماذج هذه المخالفة، التي ارتكبت عمداً، لجرّد أخذ الشيعة بها، كسنة نبوية:

إنّ السنة في القبر هو التسطّيح - كما هو الرّاجح من مذهب الشّافعي - إلّا أن هناك من نصّ على [أنّ التّسليم أوّل، لأنّ التسطّيح صار شعاراً للشيعة]^(١). وقال الغزاليّ والماورديّ، حول ذلك:

[إنّ تسطّيح القبور هو المشروع، لكنّ لما جعلته الرّافضة شعاراً لهم، عدلنا عنه إلى التّسليم]^(٢).

وكذلك التّختم حيث أنّ السنة تنصّ عليه في اليمين، ولكنّا نجد من يقول: [إنّ المشروع التّختم في اليمين، ولكنّ لما اتّخذته الرّافضة جعلناه في اليسار]^(٣).

وفي هذا الخلاف، قصد به خلاف الشيعة المتبعة للسنة، بالاضافة إلى اتباع معاوية، مبتدع هذا الخلاف للسنة، لأنه أوّل متخذ للتّختم في اليسار. وكثيراً ما تجد مثل هذه الجملة الوقحة:

[إلّا أنه صار شعاراً للإمامية فينبغي تجنّبه]^(٤).

[ردّه يؤدّي إلى الاتّهام بالرّفص]^(٥).

[ولا ينبغي للمؤمن أن يتشبه بيزيد الملعون في بعض الأفعال، وبالشيعة والرّوافض والخواارج أيضاً]^(٦).

وكثيراً ما نجد تعليق ترك السنة، «لكونه شعاراً للرّافضة»!، [فإنّ ترك السنة سنة، إذا كان شعاراً لأهل البدعة، كالتّختم باليمين، فإنه في الأصل سنة، لكنه لما كان شعار أهل البدعة الظّلمة صارت السنة: أن يجعل الخاتم في خنصر اليد اليسرى، في زماننا]^(٧).

(١) - ص ٢٠٩ : ١٠ من الغدير.

(٢) - ص ٢١٠ : ١٠ من الغدير.

(٣) و (٤) و (٥) و (٦) و (٧) - الغدير ص ٢١٠ - ٢١١ : ١٠.

وهكذا صار الخلاف للشيعة أصلاً معمولاً به، وبدعة تُخالف بها السنة الثابتة، وليس من نكر حول ذلك، حتى أن هناك من قال عند «بيان التشبه بالروافض»: [ومن هنا ذهب من ذهب من الفقهاء، إلى ترك بعض المستحبات، إذا صارت شعاراً لهم، فإنه وإن لم يكن الترك واجباً لذلك، لكن في إظهار ذلك مشابهة لهم، فلا يتميز السني من الرافضي، ومصلحة التميز عنهم لأجل هجرانهم ومخالفتهم، أعظم من مصلحة هذا المستحب] (١).

وتزدحم الأسئلة، وتكثر علامات الإستفهام، حول هذه الآراء المخالفة للسنة، والمناهضة للشريعة، والجانية على حق طائفة حق، لا ذنب لها، إلا أنها أخذت تعاليم الدين الحنيف، وأوامر القرآن الكريم، وسنة الرسول الأعظم، من ينابيعها الصافية العذبة، وخضعت لما جاء به هؤلاء، في حق العزة الطاهرة.

هل من السنة: هذه المخالفة؟!

وهل يجب في نظر هؤلاء المخالفة، في كل عمل يأتي به كل من لم يسايرهم في رأيهم، وأقوالهم هذه؟! أم يختص هذا الخلاف بالشيعة فقط - أو بعبارة أصح: بمخالفة أهل البيت، وحدهم، أحد الثقلين اللذين خلفهما الرسول الأعظم، ليهتدي من تمسك بهما، وينجو من تعلق بحبلهما، ويهلك ويفرق من خالفهما، إن تقدم عليهما، أو تأخر؟!.

وهل أن سنة محمد بن عبد الله، قابلة للتحريف والتغيير؟!.

أليس حلاله حلالاً، وحرامه حراماً، إلى يوم القيامة؟.

وما جزاء من يجرؤ على القول: بأن هذا العمل من سنة الرسول، وأنا محرّمه - أو: وأنا مخالفه، من أجل أن أتميز عن شيعة أهل البيت؟!.

إن الشيعة تُقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتؤدي ليس الواجبات الشرعية فحسب، بل الكثير من المندوب، ابتغاء مرضاة الله - فهل يجب على من يريد مخالفتهم: أن يدع

مَاتَقِهِمْ وَتَوْتِي وَتُؤْذِيهِ الشَّيْعَةُ؟! أم عليه - على الأقل - أن يأتي بشيء يخالف به السُّنَّة الثَّابِتة، في سبيل أن لا يأتي بهذا العمل المماثل لِمَا تَأْتِي به الشَّيْعَةُ؟!.

وبعد أن نقف على هذا الاعتراف السَّافِر، في تجويز مخالفة السُّنَّة الثَّابِتة، لانبث أن نجد مَنْ يرمي الشَّيْعَةَ بمثل هذا!، فيصدق المثل العربي الصَّائب:

«رمتني بدائها وانسلت».

ودائماً نجد مصداق ذلك، في موقف أعداء أهل البيت، مِنْ شيعتهم!.

وهكذا بُليت الأُمَّة الإسلاميَّة، بأناسٍ لم يستخدموا المعرفة، في سبيل الحقِّ، وإسعاد البشريَّة، بل استخدموها: معولاً للهدم، وبذاراً تُؤْتِي ثمار التَّفْرِقة المرَّة... ولم يُوجِّهوا عقولهم مِنْ أجل توضيح الحقائق، والبحث عنها، بل في سبيل إضاعتها وتشويهها، كلُّ ذلك طمعاً في منصب، أو رتبة، أو جاه، أو مال!.

فنحن، إن كنَّا نعجب لأولئك، الذين اختلقوا الأحاديث، وافتعلوا الأكاذيب، واتوا بالمنكر مِنَ القول، والزُّور مِنَ الحديث...!

... أو من معاوية - وَمَنْ إليه، مِمَّنْ اشترى الضَّمان، وخان العهد، ونقض الميثاق، وخضم مال الله «خضمة الإبل نبتة الرِّبيع»، وخفر الذَّم واستعلى على الأُمَّة، وانتزى على حقوقها...!

أقول: إن كنَّا نعجب لأولئك، لأفعالهم المنكرة، وأقاييلهم المفتعلة... فإنَّ عجبنا هؤلاء، الذين زادوا الطَّين بِلَّةً، وفي المزمар نغماتٍ، وأخذوا تلك المناكير على أنها أعمالٌ، لا يُوجَّه إليها ذرَّةٌ مِنْ نقدٍ، ونقلوا ذلك الزُّور المفتعل، على أنه أحاديث موثوقة السَّنَد، وقد نَدَّت بها شفتا رسول الله «ص» - وأستغفر الله!.

إنَّ عجبنا مِنْ هؤلاء، لا ينتهي لحدٍّ، فهو جارِفٌ مشتدٌّ. ذلك أنَّ أولئك، اختلقوا ما اختلقوا، بعدما باعوا آخرتهم بديناهم، وضميرهم وإنسانيَّتهم، وقبضوا الثَّمَن البخس: ذهباً وهَجَاجاً، وفَضَّةً ناصعة البياض - وإن كانت قيمة ضمانٍ مسوَّدة الدَّخلة...!

وأما المشعري، فهو: رجلٌ متاجرٌ، لا يعرف فضيلةً، ولا يقيم لها وزناً...!
لا يعرف سوى الغاية الدُّون، التي ينشدها، ويعدو خلفها، فيتخذ كلَّ وسيلةٍ جسراً لها - مهما كُلف الثمن، ومهما كان خسارته في ميزان القيم...!

إنَّ الغاية - لديه - تُبرِّرُ الوساطة، حتى ولو كانت الوساطة: تقوض أركان الدِّين، وطعنه في الصِّميم، والإجهاز على آخر رمقٍ، مِن الضَّمير الإنسانيِّ!، والخنق لصوت العدالة الحقَّة، وتلاشي أصدانها المرنَّة!.

إن السِّياسة الميكافليَّة - التي يتبعونها - كفيلةٌ بأن تقتلع كلَّ القيم والمفاهيم -مهما كانت- التي تُحاول تأخير سيرها إلى هدفها الدُّون...

وإنَّ قولهُ الملك العباسيُّ، عند قبر الرسول «ص»:

إنَّ الملك عقيمٌ!، ولو نازعني صاحب هذا القبر، لضربتُ خيشومه بالسِّيف!.

- في الوقت الذي يملك فيه أزمةُ الأمور، وينتزي على حقوق الأُمَّة، ويُهدِّد كرامتها، باسم الخلافة الإسلاميَّة، هذه التي يبرأ منها الدِّين الإسلاميُّ الخفيف، ويدعو لجهادها، والقضاء عليها، وإعادتها، لمن تتوفَّر فيه كلُّ المميَّزات لهذا المنصب الخطير!.

إنَّ هذه القولة، تُعبِّرُ أصدق تعبيرٍ عن أسلافه، وعن خلفائه - وإنَّ لم ينطق بها لسان غيره... غير أنَّ القلوب تحفِّق بها، والأعمال تنتهج ماجاءت به...

إنَّ ما ينفطر له القلب المأ: أنَّ نغوص في بطون الكتب، وقد وُضعت لِتُروَّخ حَقبةً مِنْ حقب التَّاريخ، أو لِتُجمع بين الشَّيت من الأحاديث، التي رواها الرُّواة عن الرُّسول «ص» لِتُجمع تراثاً باقياً...

... أنَّ نرجع إليها لِنبحث عن موضوع، نُريد أنَّ نُزيل ماعلق به مِنْ أوضاعٍ، وماناله مِنْ وضع الوضَّاعين، فنعرِف زيفه مِنْ صحَّيحه، وجوهره مِنْ مردوله - فنجد أنفسنا: كغريقٍ، أخذه الموج مِنْ جميع نواحيه، وغشَّاه الظَّلام، فسدَّ عليه النُّور، فلا يلمح حتى إشعاعةً، تُريه بريق أملٍ في الحياة...!

فهذه الكتب حافلة بالأراجيفِ الموضوعة، والخرافات المضحكة، والأحاديث المختلفة... وإنَّ واضعها ليعرِف حقيقتها، ويعلم بواقعها المشين... غير أنه أَلَف كتابه - مثلاً - لذلك الوزير، أو لهذا الملك، أو لِيقْدِّمه لذلك الوجيه الكبير - لينال ما يُرضي شهوته الحمقاء، ويُشبع نهمه المادِّي المسعوراً.

فهو يُحاول شحنه، بكلِّ ما يُرضي به رغبات هذا الذي أَلَّفه مِنْ أجله، ويُرْضي نزواته وشهواته، لينال أجره غير منقوصٍ!، فإنه إنَّ لم يُرضِ هذا - وإنَّ أسخط في سبيله الحقَّ والله - لم يُرضِ مطامعه، ولم يُحقِّق آماله.

وهذا هو السَّبب المباشر، لِما نتج مِنْ اضطرابٍ وتخبُّطٍ، حين مانرجع لموضوعٍ، فنجدّه في كتابٍ، نقيضه في آخرٍ، حتى يكاد يعمى على الباحث، طريقه الألب!

ومِنْ هنا... نجد بعض المؤلِّفين، يأتي بالفكرة - أو الرأى - في هذا الكتاب، في حين أنه يُخالِفها، أشدَّ المخالفة، وينقضها، أبشع النُّقض، في كتابه الآخر، ذلك أنَّ كلَّ كتابٍ سار فيه حسب الهوى الجارف، الذي ينشده مَنْ وُضع له الكتاب الأوَّل... وإذ يضع الكتاب الثاني، لِمَنْ تُخالِف رغبته وهواه، تلك الرُّغبة وذاك الهوى... فإن الموضوع يُختلف هنا، عنه هناك، والحقُّ الواضح هناك، باطلٌ لا ريب فيه، هنا...!

ولو شئنا أن نضرب الأمثال، لطال بنا السير، وخرجنا عن دائرة موضوعنا،
الذي نحاول اجتياز هذه «العتبة» إليه^(١).

* *

ولكن فخذ هذا المثل، على الاضطراب والتخبط، في سبيل إرضاء الشَّهوات
والأغراض، ولو بمسح الحقائق، ونكران الواقع، والتَّجني على الحقِّ.

فليس مَنْ يُنكر: أَنَّ النَّبِيَّ «ص»، قد لعن الحكم بن أبي العاص وَمَنْ ينتج مِنْ
سلالته - وهل تُنتج الجيفة غير النَّقِّ الحَنَاق؟! - وأنه «ص»، وقد أتى الحكم بابنه
مروان - في ولادته - قد قال «ص»:

«إنه الوزغ بن الوزغ، الملعون بن الملعون»^(٢).

وأنه «ص» لعنه، ومروان في صلبه، فمروان فضضَ مِنْ لعنة رسول الله -
كما عبَّرت بذلك السيِّدة عائشة.

وأنه «ص» قد طرد الحكم، مِنَ المدينة، حتى لحق الرَّسول برُّه، فولي أبو بكر
وعمر، وجاء إليهما مَنْ تشفَّع فيه، فأبيا عليه، وثارا في وجهه، مغلظين له، قائلين:
«أنجبر طريد رسول الله؟، أو نُحلُّ عقدة عقدها؟»^(٣).

وكانَ مَّا أجاب به عمر، حين طلب عثمان له الشفعة، قال:

«يخرجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتأمروني أن أدخله؟!
والله! لو أدخلته لم آمن أن يقول قائلٌ: غيَّر عهد رسول الله صلى الله عليه

(١) - لنا أن نستشهد -هنا- بموقف الغزالي، مِنْ يزيد وقتله للحسين «عليه السلام». وتناقضه في ذلك، بين كتابيه: «إحياء العلوم» و«سر العالمين»، حيث سبق أن أشرنا إليه...

(٢) - ينابيع المودة ص ٢٥٦، والنزاع والتخاصم ص ٥، وشرح النهج ١: ٥٥ وكشف الأستار ٨٥، وأبو هريرة: ١٢٦، والدعوة ١: ١٨٩، والغدير ٥: ١٣٠ و ٢٥٢ و ٨: ٢٦٦ مسنداً لعدة مصادر، وذكر -في الجزء الخامس- أنَّ الحاكم جمع هذه الأحاديث، المتصلة بالموضوع، وصحَّحها في مستدركه ص ٤٧٩ - ٤٨٢.

(٣) - شرح النهج ١: ٦٦، والغدير ٢٥٠ و ٨: ٢٦٠، وأشير لذلك في ص ٨٠ مِنْ رسائل الجاحظ.

«وآله» وسلم! والله لئن أشقَّ بائنيتين - كما تُشقُّ الأبلمة^(١) - أحبُّ إليَّ من أن أُخالف لرسول الله أمراً! وإيَّاك - يا ابن عفان! - أن تُعاودني فيه، بعد اليوم»^(٢).
وليس يظنُّ واحدٌ - بعد هذا - أن يجيء الشَّهاب الخفاجيُّ، فيقول بتوبة الحكم، وخلوص طويته^(٣)!

* *

ثم مَنْ ذا - لولا مال معاوية! - يقول بإسلام - بله إيمان - أبي سفيان، وهو العدوُّ الألدُّ للمسلمين، ورسول الإسلام، والذي لم يُسلم إلا مكرهاً!
جاء به العبَّاس - وقد أمَّنه - للرَّسول، فقال له:
ويحك! - يا أبا سفيان؟ - أما آن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟!
أبو سفيان: بأبي أنت وأُمِّي! ما أوصلك، وأحلمك، وأكرمك!
والله لقد ظننت أنه لو كان مع الله إله غيره، لقد أغنى عني شيئاً!
الرَّسول: ويحك! - يا أبا سفيان! - أما يأن لك أن تعلم أنني رسولُ الله؟!
أبو سفيان: بأبي أنت وأُمِّي! ما أوصلك، وأحلمك، وأكرمك!
أمَّا هذه، ففي النفس منها شيء!
العبَّاس: وبلك: اشهد شهادة الحقِّ، قبل أن تُضرب عنقك^(٤)!
هذه هي صورة إسلام أبي سفيان - كما يرويها التَّاريخ! - وما هذا، سوى استسلام، قبل أن تُضرب عنقه...
وإنه لا يلبث - بين حينٍ وآخر - أن يُظهر ما في خفايا نفسه، وطوايا ضميره، من روااسب الشُّرك الرِّسِيخ، والحقْد الدَّفِين.

(١) - يُقال: المال بيننا شقُّ الأبلمة - بضمِّ الهمزة - أي: نصفين.

(٢) - شرح النَّهْج ١: ٢٣٢.

(٣) - السِّيرة النَّبَوِّية: ١: ٢٢٩.

(٤) - ارجع للاستيعاب ٤: ٨٦، والشرح الحديديُّ ٤: ٢٠٨، والغدير ص ٢٢٣: ٣ وأشار إلى ذلك الجاحظ، في كتابه [فضل هاشم على عبدشمس] رسائل الجاحظ ص ٧٨ - وقد أشار لكلمات الكفر والنِّفاق من أبي سفيان، بعد إظهاره للإسلام، ولكنها إشارة من الشَّاطِئِ البعيد، يعرفها المتَّبِع.

رأى النَّاسُ يَطْأُونَ عَقْبَ رَسُولِ اللَّهِ (ص) فحسدوه، هَامِساً لِنَفْسِهِ:
«لو عَاوَدْتُ الْجَمْعَ، هَذَا الرَّجُلُ!؟»
وَإِذَا بِالرَّسُولِ يَضْرِبُهُ فِي صَدْرِهِ:

«إِذْنُ يُخْزِيكَ اللَّهُ!».

فَاسْتَمَعَ لْجَوَابِهِ، الَّذِي يُصَوِّرُ لَكَ كَوَامِنَ نَفْسِهِ، وَرَوَاسِيهَا:
«مَا أَيقَنْتَ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، حَتَّى السَّاعَةِ»^(١).

وَلَكِنَّهُ حَتَّى بَعْدَ هَذِهِ السَّاعَةِ، لَمْ يَتَيَقَّنْ، وَلَمْ يَعْرِفِ الْيَقِينَ إِلَى قَلْبِهِ بَاباً، فِيلْجُهُ،
فَكَانَ أَشَدُّ مَا يُؤْذِيهِ: أَنْ يُعَبَّرَ بِمَا يُشْتَمُّ مِنْهُ رَانِحَةُ الْاعْتِرَافِ بِنَبْوَةِ مُحَمَّدٍ «ص». فَاسْمَعِهِ
كَيْفَ يُعَبَّرُ عَنْ ذَلِكَ، مُحَاطَباً الْعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ - وَقَدْ رَأَى الرَّسُولَ، فِي جَيْشِهِ
الْخُضْمُ، وَكُتَّابَ الْأَنْصَارِ تَحَفُّ بِهِ - فَيَقُولُ:

[وَإِنَّ اللَّهَ - يَا أَبَا الْفَضْلِ! - لَقَدْ أَصْبَحَ «مَلِكٌ» ابْنِ أَخِيكَ، الْيَوْمَ، عَظِيماً]^(٢).
وَيَنْظُرُ أَبُو سَفْيَانَ لِلنَّبِيِّ - وَهُوَ بِالْمَسْجِدِ - نَظْرَةً تَتَمَثَّلُ فِيهَا كُلُّ مَا تَحْمَلُهُ نَفْسُهُ مِنْ:
ضَعْفٍ وَحَقْدٍ، وَضَغِينَةٍ وَكَيْدٍ، وَأَسْفٍ قِتَالٍ، أَنْ لَمْ يَنْلُ مِنَ الرَّسُولِ مَا يُلَاشِي دَعْوَتَهُ، وَأَنْ
لَمْ يَتَغَلَّبِ الْبَاطِلُ، الَّذِي كَافَحَ عَنْهُ وَنَافَحَ، - حَتَّى اسْتَحْذَى وَفُشِلَ - عَلَى ذَلِكَ الْحَقِّ
الْأَبْلَجِ التَّلَافُلِ، فِي دَعْوَةِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ فَيُخَاطَبُ نَفْسَهُ، عَاتِباً لِأَنَّمَا أَسِيفًا:
«لَيْتَ شَعْرِي! بِأَيِّ شَيْءٍ غَلِبَنِي!؟».

فَلَمَّا لُمَهِلَهُ الرَّسُولُ، فِي مُوَازَنَةِ التَّجَارِيَةِ الْمَادِّيَّةِ هَذِهِ، حِينَ يَقْيِسُ الْغَلْبَةَ
بِالْكَثَرَةِ، وَالهَزِيمَةَ بِالْقَلَّةِ، بَلْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ ضَارِباً بِيَدِهِ بَيْنَ كَتْفَيْهِ، مَجِيئاً لَهُ بِمَا يُفْحِمُهُ،
وَبِمَا يَتَحَدَّاهُ، فَيُهِيرُ مِنْهُ الْقُرَى، وَيَقْلِبُ عَلَيْهِ مُوَازِينَ النُّصْرِ وَالْغَلْبَةِ، فِي عَرَفِهِ الْمَادِّيَّ:
«بِاللَّهِ غَلِبْتُكَ - يَا أَبَا سَفْيَانَ!»^(٣).

* *

(١) - الإصَابَةُ ١٧٢، ٢، وَالْغَدِيرُ ٢٨٥، ٨، وَ٨٣: ١٠.

(٢) - الْإِمَامُ عَلِيُّ صَوْتُ الْعَدَالَةِ ٢٠٧ وَ ٢٠٨ (٤: ٧٧١).

(٣) - الْمَصْدَرُ ص ٢٠٨ (٤: ٧٧١).

ولا يصل لسمعه نبأ بيعة عثمان، حتى يدخل عليه، فيسأل:
«أفيكم أحدٌ من غيركم؟».

فما استيقن صفاء الجو، حتى راح يقول:
(قد صارت إليك بعد تيم وعدي، فأدرها كالكرة. واجعل أوتادها بني أمية.
فوالذي يحلف به أبو سفيان^(١)) مازلتُ أرجوها لكم... ولتصيرنَّ إلى صبيانكم
وراثَةً، وإنما هو الملك، ولا أدري ماجنةً ولا ناراً^(٢)).
ثم يتجه نحو قبر الحمزة، ليُطْفِئَ لُحْبَةً مِنْ الحقد، لاتزال تستعر في داخله...
وهاهي ذي -اليوم- قد أخذت لُحْبَتَهَا تنطفئ، فَرَكَلَ القبر برجله، وفحَّ صوته
البيض الحقود:

« يا أبا عمار! إنَّ الأمر الذي اجتلدنا عليه بالسَّيف، أمسى في يد غلماننا
يتلَّعون به »^(٣).

ورضيت نفسه - اليوم - بما فعل، أكثر منها في يوم «وحشي»، ومقامت به
«آكلة الأكباد» مِنْ عملٍ شنيعٍ!...

* *

(١) - ليس يجهل القارئ ما يحلف به أبو سفيان، وفي أذنه أصداؤه، لكلمته -في إحدى حروبه
للرسول: «اعلُ هبل!»- أي: أظهر دينك. وختم قولته هذه، تحمل ألف دليلٍ ودليل:
«ولا أدري»- الخ.

(٢) - الاستيعاب ٨٧ و ٨٨ ج ٤، وشرح النهج ١:١٣٠، والامام علي ١:٣١٩، والنزاع
والتخاصم ٥ و ٢٧، ومعجم القبور ١:١٩٣، وأصل الشيعة ٥٥ و ٥٦، والغدير ٢٨٥ و ٣٣٩
قارب (٢٧٨ و ٣٣١): ٨، و ٨٣: ١٠ والإمام علي صوت العدالة ٢٤٩ باختلافٍ يسير، وفيه أيضاً
ص ٩١٥: ٤.

(٣) - النزاع والتخاصم ٢٧، وشرح النهج ٤: ٥١، ومروج الذهب ٣: ٣٥٢، والإمام
علي ١: ٣٢٢، والغدير ٨٣: ١٠، وفي الإمام علي صوت العدالة ص ٢٠٩ (٤: ٧٧٢) كلمة تشبه
هذه، ولعلها أشدُّ مرارةً وحقدًا في التعبير عن دخیلة نفسه السوداء:
«انهض! فقد صار إلينا الملك، الذي حاربنا عليه!».

ولكن... فإنك - وأنت تبحث في كُتب الحديث - ستجد فصلاً معقوداً،
لفضائل أبي سفيان!...

ثم لم يرضَ هؤلاء الوضّاعون، بفضائل أبي سفيان المختلقة - بعد ادّعاء
الإسلام، أو نسبته إليه - حتى رأوا له الفضل على الإسلام! ولعلّ ذلك في ابتغاء
الغوائل للإسلام، ومناهضته للرّسول، في حروبه الدّامية الحقود! لم يرضَ هؤلاء
حتى جاءوا بهذه الكذبة الصّلاء - ولا كصلعة أبي هريرة:

[ومَن مثل أبي سفيان؟! لم يزل الدّين به مؤيِّداً قبل أن يُسلم وبعدما أسلم
ومَن مثل أبي سفيان؟!، إذ أقبلت مِن عند ذي العرش، أريد الحساب، فإذا أنا بأبي
سفيان معه كأسٌ مِن ياقوتةٍ حمراء، يقول: اشرب يا خليلي! أعار بأبي سفيان، ولـ
الرّضا بعد الرّضا، رحمه الله^(١).

ونحن إذ ندع التعليق على هذه الفرية الفاضحة، فلأنّ في حياة أبي سفيان -
الحافلة بكلّ ما يؤكّد هذه الفرية! - ما يصدّنا عن التعليق... وفي صفحات التّاريخ
- على ماسارت به الأغراض، وما أملتته الشّهوات - ما يحول بيننا وبين القول، وفيه
ما يكفينا مؤونة الحكم!..

* *

وكما تجد مثل هذا الفصل، بين طيّات كُتب الحديث - مثلاً - فإنك تجد
الكُتب مزدحمةً بالثناء على الزّاني المغيرة بن شعبة، والوزع الملعون مروان بن
الحكم، وإمامي الضّلال - كما يقول ابن أبي الحديد^(٢) - عمرو بن العاص، وابن
آكلة الأكباد معاوية - ومَن إليهم، مِن: الطّلقاء، وأبناء الزّنى، وأصحاب الأعلام
مِن البغايا...

(١) - الغدير ٧٩ و ٨٠: ١٠ مسنداً.

(٢) - شرح النّهج ٣: ١٥، حيث استنتج ابن أبي الحديد، ذلك في شرحه لخطبة الإمام عليّ
«عليه السلام»، جاء فيها ذكر أئمة الضّلال، فرآه يعني هذين، ومَن شايعهما على الضّلال.

ليس يرضى بن حجر، بما ختم به «صواعقه المحرقة»، التي حاول فيها، أن يُحقِّقَ خلافة معاوية - كما يقول! - حتى أُلِّفَ كتاباً، شاء أن يضع له هذا الإسم الضَّخَم:

[كتاب تطهير الجنان واللسان، عن الخطور والتَّقوُّه بثلث «سَيِّدنا» - كذا؟! - معاوية بن أبي سفيان^(١)].

أرأيت هذا العنوان المربع؟!

فيجب عليك: أن تُطهِّرَ جَنَانَكَ ولسانك، عن خطر التَّقوُّه، بذكْر مايشين الطَّاهر، سليل الأَطْهَار، معاوية، سَيِّد ابن حجر، وَمَنْ إِلَيْهِ مِنَ التُّجَّارِ باسم المعرفة!.
أمَّا حربه لعلِّي، وبغيه عليه، وإراقتَه دماء المسلمين، وشتمه عليّاً، وابتداعه سبّه، وقتله عَمَّاراً وحجراً وأصحابه، وسُتْمه الحسن والأشتر - وَمَنْ إِلَيْهِمَا - واستدعاؤه زياداً - وما إلى ذلك مِنْ أَعْمَالِهِ الْقِيَاح - فهو مجتهدٌ، مأجورٌ عليها، وهو الأمين السَّابِع، أو الثَّالِث^(٢).

(١) - تجد كتابه «العظيم؟!» - هذا- على هامش صواعقه المحرقة.

(٢) - مِنْ بَيْنِ الْأَحَادِيثِ الْمَوْضُوعَةِ:

«الأمناء سبعة: اللُّوح، والقلم، وإسرافيل، وميكائيل، وجبريل، ومحمدٌ، ومعاوية».

وفي بعضها يَقلُّ العدد إلى ثلاثة.

«إنَّ اللهَ ائْتَمَنَ على وَحيه جبريل، وأنا، ومعاوية... وكاد أن يُبعث معاوية نبياً، مِنْ كَثْرَةِ علمه، وائتمانه على كلام رَبِّي، يغفر الله لمعاوية ذنوبه، ووقاه حسابه، وعُلمه كتابه، وجعله هادياً مهدياً، وهدي به!» - راجع الغدير ٥:٢٦٢

وفي هذا الجزء - مِنْ ص ٢٥٣ إلى ٢٨٤، تحت عنوان [سلسلة الموضوعات - صُور رائعة، ابدعها الخيال الخلاق، في مناقب أشخاص كان لمعاوية منها نصيبٌ أوفى!].

وقد بلغ مجموع هذه السَّلسلة - مِنْ الصُّور الرَّاهِية - مئة صورة.

وفي ص ٦٩: ١٠ نماذج مِنْ هذه الصُّور.

وانك، وأنت تقرأ سطوراً من هذا الكتاب، لتتمزّق منك نياط القلب: ألمأ،
وغيرة، على الحقائق أن تُمسّخ، وعلى الحقّ أن يُعادى ويُمتَهَن!.. فإنك واجدٌ في
هذا المسمّى بكتاب: أحاديث، قالها الرّسول في ذمّ معاوية، فشاء أن يُؤوّلها - على
تعدّد وجوه! - إلى: فضائل-ومحمد، في حقّه..!

وهو - إلى ذلك - مشحونٌ بوفرة هائلة، من الأحاديث المختلفة، والأراجيف
لموضوعة، على لسان الرّسول «ص» ولسان عليّ «عليه السلام»، لِيُبرّر موقف
معاوية من عليّ، وحرّبه وشمته إيّاه...!

أمّا أنا فاعذر ابن حجر - في كتابه هذا - مادام تأليفه له، كان نتيجة
«الطلب الخفيّ من السُّلطان همايون أكبر سلاطين الهند»...!

وهذه هي ثالثة الأثافي، التي مُنينا بها، وفشا - بسببها - موضوع الحديث،
وزور المقال...!

ونحن، إن وجدنا شائبة من عذرٍ واهٍ، يُتّحلّ لمثل هؤلاء الثُّجّار: باعة الضمير،
ومدّيسي وجه الحقيقة والواقع، في سبيل مجازاة الحكم الزّائف - حينئذٍ - والحكّام
المنحرفين الجائرين، بأجورٍ ورشى، تُستلب من الأُمّة وضعاف الأناسين.

ونحن إن وجدنا مَنْ يعذر بعض هؤلاء، في أنّ منهم مَنْ قد يقول مايقول،
ويُخلّق مايتخلّق، خوفاً من سياسة البطش والتّنكيل، بكلّ مَنْ لا يُجاري الوضع
المشوّه - آنذاك...!

وهي - ولاشكّ - أعذار زائفة، لاتنهض بالدّفاع عنهم، ولاتبرّر شأنهم
موقفهم، وقد كشفنا عن ذلك - ماوسعنا المجال... فعليهم - وحدهم - تقع
مسؤوليّة هذا الانحراف والتّزوير، لأنهم وضعوا الأسس، وبنوا القواعد لهذا
الصّرح الظّلم، فاحتلّه الغاصب والجائر، وتوارثه العليم والجهول... فوسّعاه
ماوسعهما ذلك، تحت ستر العصور المظلمة...!

ولكن أيُّ عذِرٍ لَمَن يَسِيرُ في هذا الطريق الشَّانِكِ الملتوي، بعد أن كشف
البحث والتَّدقيق - تحت النُّور الوضَّاح - عَمَّا هنالك مِنْ حَقائِق مُمسوخةٍ، وحقٍّ
مُتَّهَنٍ، وكشف عَمَّا وراء الأكمة...؟

أيُّ عذِرٍ لهذا الذي يعيش، في هذا العصر - المسمَّى بعصر النُّور، وعصر
الحرِّيَّة - وهو يَجْزُ مِنْ ماضيه المظلم المشوَّه، دون أن يُكَلِّف نفسه مهمَّة البحث
والتَّنقيب المدقَّق...؟

وإذا كانت السِّياسة الشَّوهاء - آنذاك - تتطلَّب هذا الموقف الهدَّام، وتُقدِّر
وتُكافئ مَنْ يحمل معول الهدم والفرقة، ويحمل القلم المأجور، ويستخدم العقل
والعلم والمعرفة، في سبيل إرساء دعائم مايشاؤون مِنْ بناءٍ متداعٍ منهارٍ...

...وإذا كانت ملوك المسلمين - حينذاك - المتسمُّون بالخلفاء - وماهم بهم
- قد سبقوا لسياسة: «فرَّق تسد» - فإنَّ العصر، اليوم، غيره أَمَس... والوضع،
الآن بخلافه قبلنذ... والرُّؤساء العرب، غيرهم أَمَس...

فنحن - الآن في أَمَس الحاجة للوئام والوحدة، وتماسك الصُّقوف، والعمل الموحد
لمجابهة العدوَّ المشترك، وتناسي الأحقاد الموروثة، وتصفية الجوّ - الذي شاء مَنْ شاء
تليده بداكن الغمام - لكي تُشرق الشَّمْس، فتُنير الوجود، وحينئذٍ يفتضح الحائل مِنْ
الصُّبغة... وتصفو المياه، فيخسر مَنْ لا يصيد، إلَّا في العكر منها...

وإنَّ الواجب على مَنْ شاء أن يصل إلى الواقع الصِّميم، ويُغربل التُّراث الذي
خُلط بالدُّخيل... عليه: أن يتجرَّد مِنْ عاطفته الرِّعناء، وتقاليده الموروثة، ويعمل
بإخلاص التَّزيه، ويجدِّ الباحث، وبصير المتتبِّع، لا يرجو سوى وجه الله، وحده،
ولا ينشد غير الحقيقة النَّاصعة، ولا يهدف لسوى الحقِّ الأبلج.

ومَنْ لم تتوافر فيه هذه الكفاءات والمؤهلات، فعليه أن يتناسى الماضي، وهو
منه على الجهل الصِّفيق، فلا يخط في الدُّجور، ولا يهرف بما لا يعرف، ويتَّهم بالهوى
الجموح، والعاطفة المشبوهة الرِّعناء، دون ارتكازٍ لعقلٍ ومعرفَةٍ، أو إدراكٍ وأطِّلاعٍ،

فبفتُ الوحدة المتناسكة، ويصدع الشَّمْل والصَّف الموحد، وهو لا يخدم سوى العدو المتَّيَّس، سواء أعلم بذلك، أو جهل، قَصَدَ أو لم يقصد، في حين أنه يُغضب ربَّه والحقَّ، ودينه الذي يزعم: أنه له ذلك المخلص، المتمسِّك به.

ولكن - ونقولها والألم يقطر ثَمًا يخطُّه السَّراع، حيث ينبعث مِنَ الأعماق... ولكن -ويا للأسف المرير، ويا للخيبة الكاسفة!... ولكن - ولعن الله «لكن»، هذه الخبيثة...

ولكن هذا العصر - عصر المدنيَّة والنور، عصر الذِّرة والعلم، عصر البحث والتنقيب في المجهول، وعن المجهول - مُنِّي بأناسٍ، يعيشون فيه بأجسامهم، في ما هم يعيشون في ظلمات الماضي بعقولهم الحجرية، التي هي مِنَ مخلفات عصور الانحطاط، فعاثوا في صفوف الأُمَّة فساداً، وغرَّروا بالبسطاء مِنَ العامَّة، وشوَّهوا العلم والمعرفة، وهم به متفهبون، وبها متشدِّقون!...

ولسنا نحاول - هنا - مناقشتهم، بله الردُّ عليهم، وهو ما لا يتسع له القول - هنا - إلا أنه لا يسعنا إلا أن نتساءل:

ماذا دعا الرَّافعيَّ «مثلاً» في مثل كتابه «تحت راية القرآن»، وهو يردُّ فيه على كاتبٍ غير شيعيٍّ - أن ينال مِنَ الشيعة، بالبهت والكذب، لولا شيء في نفسه...!؟

ولماذا يُصرُّ مثل الدكتور أحمد أمين، ويُلقِّح على النَّيل مِنَ الشيعة - أيضاً - في مجموعةٍ مِنْ كُتبه، التي زعم: أنه يضعها لتأريخ الإسلام، وهو يُشوِّه منه ناصع الصفَّحات، بهذا النَّيل المكذوب، بالرَّغم من اعتذاره لسماحة الإمام كاشف الغطاء، بأنه لم يرجع، في هذا النَّيل، لمصدرٍ، ولم يأخذه عن مرجعٍ^(١) - وهو عذرٌ أقبح مِنْ فعلٍ - وأنه سيُكفِّر عن ذلك في الجديد ثَمًا يكتب، فكان تكفيره: مضاعفة الكيل مِنَ الشَّتائم والسُّباب...!؟

(١) - أصل الشيعة ص ٥٠.

ولصالح مَنْ يُفرغ مثل عبداً لله القصيمي^(١)، ومحمد رشيد رضا^(٢)، ومحِب الدين الخطيب^(٣)، وأمثالهم مِنَ المستعمرين - «على وزن المفعول» - فكرياً، والمُاجورين...

لصالح مَنْ يُفرغ مثل هؤلاء: كلَّ سَهْمِ الزُّعَافِ، وحقدهمُ المتأصل، وضغائنهم المتأججة، بكلِّ ماتحملة نفوسهم مِنْ أمراضِ نفسيةٍ، وأوباءِ تربويةٍ ووراثيةٍ - بيئيةٍ

(١) - في كتابه «الصِّراع بين الإسلام والوثنية»، ويعني بالإسلام محسداً في أهل السنة، وبالوثنية متمثلة في الشيعة. وقد قام سيدنا الوالد -رحمه الله- بالرَّدِّ عليه رداً علمياً، هادفاً لوحدة الصفِّ، وتنقية الجُزءِ مع فضحه لكلِّ كذبه وإفراءاته، مع تحليهِ بنزاهة الأسلوب، وحسن التَّيَّةِ والقصد، حيث لم يكن مِنْ قصِدٍ سوى: إحقاق الحقِّ، والعودة بالمسلمين إلى نبع الإسلام. الرُّويِّ العذب -وهو دين السَّماحة والخُبة والودِّ- قبل أن يحاول المغرضون المُفرَّقون تلويشه، بكلِّ ماستطاعوا إلى ذلك مِنْ قوَّةٍ، ومهما وجدوا إليه السَّبيل، بتفريق الصُّفوف، وتمزيق الشَّمْلِ. وإن كُنَّا نأسفُ لشيءٍ، فلأنَّ القضاء لم يُمهِّلْ سيدنا لإتمام كتابه، والوقوف به حيث أراد، إلَّا أنَّ ماوصل إليه يكفي رداً على القصيمي؛ فكتابه -مجلَّديه الضَّخمين- ليس سوى شتمٍ وسبابٍ مكرور. وقد مثل للقراء هذا الرَّدُّ العظيم.

(٢) - في كتابه «السُّنة والشيعة، أو الوهابية والرَّافضة» وغيره. ويكفي أن يكون له هذا الكتاب الهدامُ المضللُّ الكذوب، الذي شحنه بالذُّسِّ والكذب، وملاؤه بالسُّباب والشُّتم!

(٣) - في كثيرٍ ممَّا كتب وعلَّق... كتعليقاته المسمومة، والبذية الوقحة، في سبَابِ مَخْلُ، يُنَزِّه عنه يراع مَنْ يتنسَّبُ لدينٍ، أو عروبةٍ -وهما: شتمٌ، وسماحةٌ، وعلقٌ رفيعٌ، وكرمٌ- ويُحجِّلُ الأُتَّةَ التي ترضى به، وذلك على كتاب «مختصر منهاج السُّنة»... حيث حُرِّجَ في تعليقاته كثيراً مِنْ رجالات الشيعة وعلمائها، قداماء ومعاشرين، في أسلوب لا يعرف الحياء ولا التَّهذيب، حيث يُملِيه الحقد الدُّنُوف، والعاطفة المسمومة.

ولنا في مايكبه في مجلَّة الأزهر، خير دليل، على ماتحملة نفسيته الملائنة. وإنَّه كيوسفنا حدّاً: أن تصدر مثل هذه المجلَّة عن الأزهر، وتُحمل اسمه، وهو المؤسسة الدِّينية الكبرى، التي يُرجى منها -وهو مايجتمه عليها الدِّين، الذي تعمل على نشره وإعرازه- أن تعمل على محو الطائفية، وتُجنِّد رجالاتها على توحيد الصِّفِّ الإسلامي، وتطهيره مِنْ أعدائه، الذين يندسُّون بين الصُّفوف، لتفريقها وفَتْ وحدتها.

ويتحمَّت على شيخ الأزهر الأستاذ الكبير «شلتوت» -اليوم- بعد إقدامه على الخطوة الجبَّارة، وهي تدريس الفقه الشيعيِّ فيها: أن يُعقبها بخطورةٍ لها أهميَّتها الكبرى، وهي: أن يُسكت هذا الصَّوت المبحوح الرَّاعق: صوت الخطيب؛ إذ لا يُجدي البناء، ولا يستقيم الصِّرح، مادام هناك هُدَّامٌ غَرَّبٌ، ينحت في الأساس بمعوله البغيض.

أمَّا لو كانتِ الأسماء تُطابق «المسميات» دائماً، لكان اسم هذا الهدام، غير «محبِّ الدِّين»... ولكنها الأسماء الخداعة الكاذبة المضلَّة، والسَّراب البهرج...!

أو بَيْتِيَّة - فيعكس كل ذلك فيهم رَدَّة فعل، فيروحون يتنفسون - وهم في ذلك الجوِّ الغموم، والوسط الموبوء - ويُحَرِّقُونَ الأَرَمَ على الشَّيْعة، في كُتِبَ ملامى بالكذب والإفتراء والدَّسُّ، فيضاعفون الخلاف والفرقة، في الوقت الذي يدعو ويوجب على كلِّ مخلص: أن يقضي على أسباب هذه الفرقة والخلاف...!؟

ألم يكن خيراً لهم في دينهم وديناهم: لو عملوا مايجب عليهم، واستغلُّوا مواهبهم ومعرفتهم، فيما يعود بالنفع الشامل، والخير العميم، في سبيل إرضاء الله والضمير، والحقِّ والدِّين، وعادوا لنبع الدِّين الصَّافي، وارتدوا مِنْ غيره العذب، الذي يفيض باخبةً والخير، وينشر السَّلام، ويدعو للإلفة والتَّماسك، كالبنيان المرصوص، يشتدُّ ببعضه البعض...!؟

ولكنهم - ويا للأسف! - ساروا وراء غرضٍ مشبوهِ، وسلكوا في طريقٍ معوجٍّ، فتفرَّقت بهم السُّبلُ، حتى ضلُّوا الصُّوَى، وتاهوا عن معالم الحقِّ في مهاوي الضَّلال، ومتاهات الفرقة... فكان مِنْ كلِّ ذلك هذه الثَّمار، التي هي: شجى في حلق الطَّاعم، وقذى في عين النَّاظِر...

ولعلَّهم - مع كلِّ هذا - يظنُّون في أنفسهم: أنهم قاموا بخير مايجب عليهم، وأدَّوا واجِبهم، كأفضل ما يكون الأداء. ولو عادوا لقليلٍ مِنْ فِكْرٍ، وشيءٍ مِنْ رويَّةٍ، لصدمهم الواقع المرُّ البغيض، ولرأوا أنفسهم بعيدين عن صافي نبع الدِّين العذب، وماهم مِنْ صفاته إلا كنسبة دم يوسف للذئب...!

ولسنا بهذا أنكر وجود فنةٍ، استوعبت تعاليم الدِّين، ونذرت نفسها لدفع الزَّيف عنه، وجلاء الرِّيب، التي حاول المغرضون تشويهه بها، فعملوا خير مايجب عليهم، دون غرضٍ أو غايةٍ، سوى وجه الله والحقِّ، ورفعوا صوتهم عالياً، صافي النِّيرة، واضح القصد، ودعَّموا صرح الوحدة، وفضحوا - ما استطاعوا - ماعمله أولئك مِنْ أعمالٍ، في سبيل بثِّ الفرقة، وشقِّ الصُّفوف، وتشويه الحقِّ، وقَلْبِ الوقائع، وتغيير الأحداث.

وليس مِنْ موضوعنا التَّبَسُّط في هذا الجانب البُناء، حتى نأتي ببعض هؤلاء الخبثين، وماقاموا به مِنْ عملٍ صالحٍ مفيدٍ...

هذا موضوع، كان لابد من عرضه، ونحن في سبيل الحديث عن أبي طالب. إذ علينا: أن نلّم، أو نُشير إلى وضع الأحاديث واختلافها - مادام أبو طالب أحد ضحاياها...!

فبعد أن عرفنا مقام به معاوية، تجاه علي، ومناوئته له بالسيف واللسان، فإن ذلك السيل الجارف، لابد وأن ينال أبا طالب منه شيء.
وإن لم يكن أبو طالب أبا علي، كما ناله ماناله... ولم يأتيه البلاء، إلا لأنه أبو علي - كما يقول سيدنا الوالد.

فليس من الغرابة في شيء - بعدما عرفنا الدواعي والظروف، التي حجبت الحقائق، وشاءت أن تُواربها في العدم، لولا فيض من عناية الله، بنوره الوضيء أن يُطفأ...!

... ليس من الغرابة في شيء: أن يقف التأريخ، ذلك الموقف المناهض، حين مايعرض لحياة هذا البطل المغوار، ويقف منه ذلك الموقف المريب الواهن، عند مجلس الاحتضار: حين مايسلم الشيخ روحه الطاهر، وقد قرّت منه العين، وارتاح الضمير، بنصره رسالة السماء.

ولم يكن ليُبالي بما لقيه من ظلم التأريخ الشنيع، الذي لم يحفل بذكره إلا إماماً - والأغراض مليئة بتلك الإمامة، من الذكر المبثور... فتتناسى أعماله الجسام، ودفاعه الحميم، ومواقفه الصلاب: منافحاً عن العقيدة، ممكناً لها من الأفتدة، رافعاً لها في البناء، مشيداً بها في الذكر، يتغنى برسالة الإله، ويفتخر بمآثر رسول الإنسانية!

والتأريخ، وإن ذكر له بعض شيء من هذا، إلا أنه - في كثير من الأحيان - لا يلبث أن يُناقض نفسه، فينقض ماأبرم، حين مايدكر: أن بينه وبين هذا البطل،

شيئاً في النفس - فهو أبو علي...! فيعرجُ منه السيرُ، وتلتوي الطُّرق، ويمجد عن الصُّراط المستقيم، لحاجةٍ في نفسه، يُريد أن يقضيها - إن لم يكن قد قضاها...! ولكن السحاب، مهما تراكم، واريذُ منه الوجه، فإنه وإن حجب من الشمس وجهها النير، فلن تعدم الشمسُ فرجةً، تطلُّ منها بالشُّعاع المُنس المانع، وليس لظلامٍ أن تنتشر منه الرُّقعة، وهي في السَّمَاء تسير...! لذا... فإنك واجدٌ - على الرَّغم من موقف التَّأريخ الشَّان - من تأريخ هذا الرَّجل المظلوم: مايجلو حياته، على: نقاء صفحةٍ، ولمعان سطرٍ، وإشراق حرفٍ.

* *

لقد ظننت - بادی الأمر - أنَّ المهمة ثقيلة المحمل، بهيظة العبء، كمَّا رأيت قلة المصادر - أو بالأصح: لمَّا رأيت الموقف المخزي الشَّان! ولكني لم أكد أسير في طريقي خطواتٍ - وإذا بي، أمام وفرّةٍ من تأريخ هذا الرَّجل، جمعتها من أشات الكتب، التي يُعوّل عليها الكاتب الثَّبت، الناشد الحقّ، لوجه الحقّ وحده!.

حين ذاك قلتُ: لن يعدم الحقُّ ناصرًا... ولن تبقى قولة الزُّور!، فما لها سوى العمر، القصير الأمد - ﴿وَإِنَّ اللَّهَ مُتِمُّ نُورِهِ، وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾. وإنَّ السَّحابة، وإن طال بها البقاء، فإنَّ عاصفةً لابدَّ وأن تُمزق منها الصَّفحة. وإنَّ السَّمَاء، وإن اكتست بالسُّحب الثِّقال، وتلبّدت بالغمام الأدكن، فلا بدَّ وأن يعرف الصَّحو إليها السَّبيل.

* *

وماتوفايقي إلا بالله، عليه توكلتُ، وإليه أنيب!.

الجزء الأول

في مدارج الحياة

بیت

في وسطٍ مظلمٍ، وبينه جاهليّةٌ، قد تردّت في حمأة الخمول والجهل، من حيث النظرة الدنيئة، فتعدّدت فيها الأصنام والأوثان... فلكلّ قبيلةٍ أربابٌ، ولكلّ بيتٍ آلهةٌ؛ بل ولكلّ شخصٍ ربٌّ، ليس يُشاركه فيه ثانٍ...

في ذلك الوسط، وتلك البيئة، حيث الشّعور الهامد، والإحساس المفقود، والعيون المغمضة، عن كلّ ماحولها، من آياتٍ، تدلّ على إلهٍ واحدٍ، وعلاماتٍ تُنبئُ عن ربٍّ فردٍ، ليس في ملكه من شريكٍ...

في ذلك الوسط، الذي اجتاحت هذه العاصفة المريعة، فأبدلت الدّين السماويّ، وملة إبراهيم الحنيف، إلى عبادة أحجارٍ وأخشابٍ، لاتسمع ولا تعي، لاتنفع ولا تنصر، ينحتها الإنسان بيده، ويُزخرفها بألوانه، لتكون إلهه المعبود، أو شفيعه الذي يُقرّبه من الله زلفى!

في ذلك الوسط، واللّيل جائئ عليه بسحابته السّوداء، الرّائحة الظّلمة... ومن بين تلك الأكداس البشريّة، المغمضة العين، المقفلة القلب، الحامدة الإحساس، المتردّية في عميق الظّلمة، وهوة العماية.

من بين هذا وذاك... قد يشدّ من بينهم رجلٌ - وهو نسبة الواحد إلى الآلاف - أو بيتٌ، وهو نسبة الواحد إلى الملايين...

من بين هذا وذاك... ومن بين تلك الأكداس البشريّة المزدحمة، قد يشدّ واحدٌ، فيرى بعينٍ جديدةٍ، وقلبٍ متفتحٍ: ذبالة نور... فيقرّ إليها ليقبّس منها إشعاعاً، فيستتر بها في الطّريق المظلم... ويقرأ في الكتب السّماويّة، فيقرّ منه القلب بعد طول وجيبٍ، ويدغدغه الحلم والرّجاء، فيرتاح منه الضّمير، وقد اطمأنّ، بعد طول تشكيلٍ، حيث طاف بمرحلةٍ حرجيةٍ، هي أشدّ مراحل الانتقال والتّطور، وما يُرافقهما من أتعابٍ ومخاوفٍ!

يقرأ في تلك الكتب، فيراها تُبشِّرُ برسولٍ، ويرى الطبيعة تُبشِّرُ برسولٍ، ويرى كلَّ شيءٍ حوله، يدعو بضرورة وجود ذلك الرسول، وإنَّ كلَّ شيءٍ حوله، يُنذر بقرب عصره المأمول.

ويرى في الكتب ما يُحدِّد أرض ذلك النبيِّ المنتظر - وهل من غير مكة ينبثق ذلك النور البهِّي؟ - فيرقص القلب جذلاً، وتتشتي النفس سكرًا، وهو يأمل أن يكون أحد من يقتبس من ذلك الشعاع النُّير، ويُحامي عن ذلك الضوء الهادي...

ومن بين هذا وذاك... ومن بين تلك البيوت المراسِنة، والتي لم يكد يخلو منها بيتٌ واحدٌ، إلَّا وقد حلَّ في الرُّكن منه قطعةٌ من حجرٍ، أو خشبٍ، إليها يسجد كلُّ من في البيت، ويتجهون لها بكلِّ قلوبهم صاغرين متضرِّعين... وهي آخر «من» و«ما» يُودَّعون. وأوَّل «من» و«ما» يستقبلون، إن دعا لسفر أحدهم أمرٌ ذو شأن. ومن هذا الرُّبِّ الجاثم، الذي تستوعبه العين، وتحوطه اليد، يرجون المعونة ويستمدُّون التوفيق. فتبسط الأيدي راجيةً؛ الأيدي التي خلقت هذا الإله الأسمى، امتدَّت تدعوه وترجوه، ثم هي تخافه وتخشاه...! وهذا هو غاية الانحطاط الفكري، والإسفاف بالمستوى الإنساني، والكفر بالعقل البشري الخلاق،

من بين تلك البيوت: بيتٌ واحدٌ، لم يمتدَّ له من هذا الظلام الفاحم، حتى خيطٌ، والمصباح الذي أشعله الخليل، لا يزال على وفيدٍ، لم تعصف به العواصف، ولم يجتحمه إعصارٌ، مهما اشتدَّ وصلبًا، فهو عميق الإيمان، لم يفارق الحنيفَّة البيضاء، ولم يُخالجه الشكُّ في ماجاءت به ملَّة إبراهيم، ولم تُزعزعه الرِّيبة في صدق دعوته، التي وُحِّد فيها الرُّبُّ الأعظم.

وما هذا البيت، الذي يشدُّه بالخليل سببان: سبب النسل والأبوة، وسبب الدِّين والوحدانية لإله واحدٍ... ليس هذا البيت، سوى امتدادٍ لدعوة من الخليل، أجابه بها الرُّبُّ العظيم.

في هذا البيت، الصَّارِبَ الجذر بالإيمان، والرَّسِيخَ القدم في العقيدة الحقَّة، الذي لم تُدَنِّسه أَلْجَاهِلِيَّةُ بأَوْضَارِها، ولم ينلْهُ الشُّرْكُ بِخَزِيه.

في هذا البيت الكريم، فتح أبو طالبٍ عينيه، ودرج في الحياة، فرأى في هذا البيت حياةً، غير الحياة التي يراها بين النَّاسِ، وعاش عيشةً، غير التي يعيشها النَّاسُ. ورأى في عميد البيت - أبيه عبدالمطلب - رجلاً، ليس كالرُّجَالِ، الذين يرى فيهم تلك الكثرة، فلا يرى منهم سوى هيكَلٍ مِنَ الجلد والعظم، أو دميةٍ لا تحمِلُ ذرةً مِنَ عقل، وإنْ أغرتِ العين ببريقها الفارغ... فيفتح عينيه، كما قُدِّرَ لدعبل، مِنْ بعده، أَنْ يفتحها، وصاح صيحته:

إِنِّي لَأَفْتَحُ عَيْنِي حِينَ أَفْتَحُهَا عَلَى «كَثِيرٍ» وَلَكِنْ لَأَرَى «أَحَدًا»!
رأى في أبيه عبدالمطلب: ذلك الزَّعيم المطاع، والرَّجل المهورب، يقول، فينفذ القول، ويحكم، فلا يُرَدُّ الحُكم، وهو الجواد المعطاء، والسَّخِيَّ الفَدُ، يُطْعِمُ فينال مِنْ الطَّعامِ رَاكِبَ البعير، وهو على ظهر بعيره، ويُرفَعُ مِنْ مائدته على قِمَمِ الجبال، لِنِئَالِ مِنْ طَعَامِهِ طَيورَ الفِضاء، ووحوش الصَّحَارِي... حَتَّى لُقِبَ بِالْقَيَّاضِ، ومطعم طير السَّمَاءِ.

وإنه ليراه مجاب الدَّعوة، يدعو الله، فتلَبَّى دعوته... فهو مرضيٌّ عنه في السَّمَاءِ، ومحمودٌ في الأرض، فدُعي «شبية الحمد».

وإنه ليرى فيه صفاتٍ، لم تكن في غيره، مِنْ هذه الأكْداَسِ البشريَّة. وهو الذي يسُنُّ سنناً، ليست سوى الدَّلِيلِ، على رفعة النَّفْسِ، ونقاء السَّريَّة، وعمق الإيمان، بحِثِّ تهض بالبرهان على بقاء الحنيفة، التي جاء بها أبوه إبراهيم(ع)، فإنه لَيُحَرِّمُ الخمر على نفسه، ويُحَرِّمُ نِكَاحَ الحارَمِ، ويُحدِّدُ الطَّوَّافَ بالبيت سبع مرَّاتٍ، بعد أن كان غير محدودٍ، وينهى أن يطوفَ عارٍ بالبيت، ويقطع يد السَّارق، ويُحَرِّمُ الزَّنا، وينهى عن المؤرودة، وأن يُسْتَقْسَمَ بالأزلام، وأن يُؤْكَلَ ما ذُبِحَ على النُّصب، ويسنُّ الوفاء بالنَّذر^(١).

(١) - السيرة الخليلية ١: ٥، والنبوة ١: ٢١، والبحار ٦: ٣٨، والعباس ١٧، ونبايع المودة ٢: ٩٠.

ويحيى الإسلام، فيُقرُّ كلَّ هذه السنن، التي سنَّها عبدالمطلب.

نادم حرب بن أمية بن عبدشمس - والد أبي سفيان - وكان أحد اليهود في جوار عبدالمطلب، فأغلظ هذا اليهوديُّ حربَ في المقال، في أحد أسواق تهامة، وثارَت حفيظة ابن أمية - والغدر له ورائةٌ من الجد عبدشمس، وهي ميزةٌ لهذا الفخذ، وإحدى طباعه المتأصلة الجذر - فلم يلبث أن أغرى على اليهوديِّ من قتلِهِ!

ولا يعرف عبدالمطلب غدره حرب، حتى يهجره، فلن ترضى نفسه بنديم غدار. ولم يدع حرباً يذهب كأن لم يكن شيئاً، فأجبره على إعطاء مئة ناقة، لابن عم اليهوديِّ - دية الدِّم المطلول^(١).

وهو - إلى كلِّ هذا - يرفض أن يخفض الهام، ليسجد لصنم، فيعيد حجرة صماء، أو خشبةً بالية - وهو ذو العقل الرجيج، والذكاء الوقاد^(٢). وهو أوَّل من تحنَّت بغار حراء، فكان إذا أهلَّ شهر رمضان، صعد الجبل، فتعبَّد فيه ليالي - ذوات عدد، يُمعن الفكر في جلال الله وعظمته.

* *

(١) - السيرة الحلبية ص ٤ ج ١. ويذكر ابن الأثير - في تاريخه ص ٢٠٩ - هذه الحادثة، صورةً غير هذه. ويعزو قتل اليهوديِّ، إلى أنه تاجرٌ ذو مالٍ وفير، ثمَّ أغاظ حرباً، وأثار كوامن حسده، ورواسب نفسه، فدفع إليه من قتلِهِ، وأخذ ماله... ثم يزيد عليها: إنهما تنافرا إلى النجاشيِّ ملك الحبشة، فأبى أن يدخل بينهما، فحكم بينهما نفيل بن عبدالعزى العدويُّ - جدُّ عمر بن الخطاب - فقال، لحرب:

[يا أبا عمرو! أتنافر رجلاً هو أطول منك قاماً، وأوسم وسامةً، وأعظم منك هامةً، وأقلُّ منك ملامةً، وأكثر منك ولداً، وأجزل منك صفداً - «أي: أكثر منك عطاء» - وأطول منك لداً] - الخ. وأشير إليها في حليف مخزوم ص ٢٧ - في حادثةٍ تختلف خطوطها الأولية عن هذه - كما أشير للمنافرة في البيان والتبيين ١: ٢٩٣

(٢) - يقول ابن أبي الحديد - في شرحه ١: ٣٩ - عند عرضه للأمة التي بعث الله فيها محمداً «ص». «فأما الذين ليسوا بمعطلةٍ من العرب، فالقليل منهم، وهم التألهون أصحاب الورع والتحرُّج عن القبائح، كعبد الله، وعبدالمطلب، وابنه أبي طالب» - الخ.

وإنَّ أبا طالبٍ، ليرى أباه، يوم جاء أبرهة للكعبة، فصودرت لعبد المطلب
 أنعامٌ، فراح يطلبها منه. وكاد يصغر في عينيه، حيث لم يعرض لأقدس المقدَّسات
 لديه - الكعبة - وقد جاء ليهدمها... فما كان إلَّا أن أجابه، بجواب المؤمنين،
 الوطيد الرَّجاء بالله، العميق الثبات والإيمان:
 «أنا ربُّ الإبل. ولليبت ربُّ يحميه!».

وعاد فأخذ بحلقة باب الكعبة، وناجى الإله، مناجاة موحِّدٍ مؤمنٍ:
 يا ربُّ! لا أرجوهُم سواك
 يا ربُّ! فامنعْ منهمُ حِمَاكَ
 إنَّ عدوَّ البيتِ مَنْ عاداكَا
 امنعهُم أن يخرُبُوا فِناكَ^(١)

ثم قال - مرةً أخرى - بلهجة المطمئن، العارف بالنتيجة:
 ... لاهُمَّ إنَّ العبدَ يمنعُ رحلَهُ، فامنعْ حلالَكَ
 لا يغلبنَّ صليُّهُم ومِحَالُهُم - عدوًّا - مِحَالَكَ
 ولننَّ فعلتْ، فإنَّه أمرٌ تتمُّ به فعَالُكَ
 أنتَ الذي إن جاء باغٌ، نرتجيك له، فذلِكَ
 ولَّوْا ولم يحوُّوا سوى خزي، وتُهْلِكُهُم هَنَالِكَ
 لم أستمعْ يوماً بأرجسٍ منهمُ يغفوا قتالَكَ
 جرُّوا جوعَ بلادِهِم والفيلَ كي يسبُّوا عيالَكَ
 عمَدُوا همالَكَ بكيدِهِم جهلاً، ومارقبُوا جلالَكَ
 إن كنتَ تاركَهُم وكعبتنا فأمرٌ ما بدَا لَكَ
 ثم عقَّب بقوله:

(١) - الكامل لابن الأثير ١: ٢٦١، والبحار ٦: ٢٣، ومسروح الذهب ٢: ١٢٨، وفيه:

«قراكا»، بدلاً مِنْ «فناكا».

يا معشر قريش! لا يصل^(١) إلى هذم هذا البيت، فإنَّ له ربًّا يحميه ويحفظه! ثم يدعو الله، وإذا بالطير «الأبايل»، تُحلَّق في السَّماء، طائرات صامتة؛ لتقدفهم بحجارة، هي أسرع فتكاً مِنَ القنابل الذَّريَّة، وهي لاتعدَّى الخجرم في إصابتها، ولاتنال البريء بسوءٍ، كما تُفني القنابل الأُمم البرينة، وتقضي على الحياة العامرة... فهذه صنع الإنسان، وتلك صنع خالقه!.

* *

وإن أبا طالب، ليسمع أباه في نجواه، وقد ضُربتِ القداح عليه، وعلى إخوته التسعة، ليبرَّ عبد المطلب بنذره، وفيه به، وقد أجاب الله دعوته، فرزقه عشرةً مِنَ الولد.

يا ربُّ! أنْتَ الملكُ المعبودُ
وأنْتَ - ربِّي! - الملكُ المعبودُ
مِنْ عِنْدِكَ الطَّارِفُ والتَّليدُ^(٢)

وإنه ليأخذ مكانه - مِنْ بين إخوته - وعبد المطلب يُلقى عليهم دروسه القِيَّمة، ويأمرهم بالأوامر الإلهية... فينهاهم عن دنيَّات الأمور، ويأمرهم بترك الظلم والبغي، ويحثُّهم على مكارم الأخلاق... ويحذِّرهم يوماً، يلقي فيه كلَّ جزاءه، حيث لا يقدم إلا على ما عمل... فكثيراً ما كان يسمع منه مثل قوله:
«لئن يخرج مِنَ الدُّنيا ظلومٌ، حتى يُنتقم منه، وتُصيبه عقوبةٌ!».

وما إن هلك رجلٌ ظلومٌ - مِنْ أهل الشَّام، دون أن يمسه في هذه الدَّار، أيَّ سوءٍ، حتى جاءه مَنْ يتحدَّاه، فإذا به يجب:

[والله إنَّ وراء هذه الدَّار داراً، يُجزى فيها الحسن بإحسانه، ويُعاقب المسيء بإساءته]^(٣).

(١) - كذلك وجدناها. ولعلَّ فاعل «يصل» ضميرٌ يعود لأبرهة.

(٢) - السِّيرة النبوية ص ٦٦ ج ١.

(٣) - النبوة ٢: ٢١، والحلبيَّة ١: ٤، والعبَّاس ١٧، والغدير ٧: ٣٥٢.

وهذا أبوه عبدالمطلب، يستقبل مولوداً لابنه عبداً لله - ذلك المولود الذي ينتظره الكون، ويُنادي به، ليستقبل إشراقه نوره البوّاح - فلم يكد الوليد يستقبل الكون، حتى يُبشّر بذلك الجدُّ، فيدخل على أمّه، لِتُحدّثه بما رأت، حين ألقت مافي بطنها، وكلّه سمعٌ مرهفٌ لهذا الحديث العذب... ثم يأخذ الطّفل، ويعضي به للكعبة ليدعو الله، ويشكره على هذا الفضل الشّامِل:

الحمدُ لله الذي أعطاني

هذا الغلام، الطّيبَ الأردان...

قد سادَ في المهدي على الغلمان

أعيذهُ بالله ذي الأركان

حتّى أراه بالغَ النّبيان

أعيذهُ من شرِّ ذي شنان...

من حاسدٍ مضطّرِّبِ العنان^(١)

وإنَّ عبدالمطلب ليُولي هذا اليتيم عنايةً، ويذلّ في رعايته أقصى جهده، وينظر إليه نظرةً عميقةً، تحزق المستقبل، وترى مكان هذا اليتيم منه، وقد دانت له الأرض - من غربها إلى شرقها - وخضت لعظمته الهام، وخفقت بحبّه القلوب، ودانت لعظمة دعوته، وهجت بذكره الألسن، وردّدت عاطر الثناء، وآيات الإكبار.

فعبداًالمطلب - وهو الزّعيم المهيّب، والمعظّم في قريش، والمطاع بين العرب - يُفرش له حول الكعبة، فتحفُّ حوله رؤساء قريش، دون أن يستطيع واحدٌ منهم: أن يطأ من فراش عبدالمطلب طرفه - بله الجلوس وإياه عليه!

ولكن هذا الطّفل اليتيم، يميء - بروحه الطّموح، ونفسه الوثوب - فيتخطّى الناس، ليجلس بجانب جدّه، ولربما سبقه، فيجلس محله، فإذا جاء جدّه وأرادوا أن

(١) - أعيان الشّيعة ٦، ٧:٢، وذكر البيتان الأوّلان، بإبدال «بالبيت» عن «بالله» في مروج الذهب ٢:٢٨١ وذكر البيت الأوّل وصدر الثاني في البحار ٧٩:٦، وكاملةً، مع اختلافٍ في بعض الكلمات، في البحار - أيضاً - ٦/٩١.

يُعدوه عن محله، فعبد المطلب ذلك الزجَّار لَمَنْ شاء أن يتعبيراً، فيُنحِّي هذا الطفل العظيم! ويقول مرَّةً:

— دعوه! إنَّ له شأنًا!

ويُجلسه إلى جانبه، وهو يُرَبِّت على ظهره، وقد بدت على وجهه بشائر الفرح، وعلامات الرِّضا والسُّرور، فلن يخب في الرجاء الخميل، والأمل الخضل! ومرةً أخرى، يقول لَمَنْ شاء أن يمنع محمَّداً، عن فراش جدّه:

— دعوا ابني يجلِس، فإنه يُحسُّ مِنْ نفسه بشيءٍ!، وأرجو أن يبلغ مِنَ الشَّرَف، ما لم يبلغه عربيٌّ، قبله، ولا بعده!

ومرةً ثالثة يقول:

— ردُّوا ابني إلى مجلسي!، فإنه تُحدِّثه نفسه بملكٍ عظيم، وسيكون له

«شأن!»^(١)

وإنه ليخصُّ — تارةً — أبا طالب بالتوصية به:

— يا أبا طالب!، إنَّ لهذا الغلام لشأنًا عظيمًا!، فاحفظه واستمسك به، فإنه

فردٌّ وحيدٌ!، وكن له كالأمِّ، لا يصل إليه شيءٌ يكرهه!^(٢)

وما كان عبد المطلب، بالذي يتكلَّم جزافاً! فما هو مِمَّنْ يُرسل الكلام على

عواهنه، ويهرف بما لا يعرف!

إنه ليعرف بأنَّ لحفيده «لشأنًا» — وأيُّ شأن!

وإنَّ الأدلة عليه، لعلی وفر... فإنَّ دليلاً واحداً — مِنْ بَيْنِ أَلْفِ دَلِيلٍ ودليل —

لَيُؤكِّد ما يراه ببصيرته النافذة، وقد كَثُرَتِ الأدلَّة، وتوفَّرتِ العلامات، حتى أصبح

لديه سبيلٌ مِنْ هذه وتلك... ولا يعرَّضه فيها شكٌّ، ولا ريبٌ...

(١) — السِّيرة الحليَّة ١: ١٢٩، والنَّبوة ١: ٢٣، والحشاميَّة ١: ١٧٨، والبحار ٦: ٤٢، والعَبَّاس

١٨، وعلى هامش السِّيرة ١: ١٨٥.

(٢) — المجالس السنية ٤: ٣٦.

وماحياته هو، وسيرته البيضاء، سوى واحدٍ مِنْ تلك الأدلة، على هذا «الشأن»، الذي يراه خفيده، فهو مقدمةٌ تشير وتُشير بالنتيجة...

وإنه لعلّ يقين، ثمّ ذهب إليه، مِنْ حقّ جليّ، وَمِنْ واقعٍ رهين... فإنّ كلّ ما حوله ليُصدّقه، وكلّ ظاهرة تُعمّق منه الإيمان - وإن لم يكن منها، إلّا ذلك المطمئن العميق.

هؤلاء قومٌ مِنْ بني مدلج، وهم القافة^(١)، العارفون بالآثار والعلامات - يقولون له: «احتفظ بحمّدي، فإنّا لم نرَ قدماً أشبه بالقدم التي في المقام، منه»^(٢).

وهذا سيف بن ذي يزن الحميريّ، وقد ولي الحبشة، بعدما وُلد الرسول بعامين، فراحت العرب تفد عليه، تُهنّسه باسّترجاعه ملك آبانه، إذ استنقذ ملك اليمن مِنْ «الحبشة»... وكان في الطليعة: وفد قريش. وفي طليعة الطليعة: زعيمها «عبدالمطلب».

وإذ وقف عبدالمطلب - أمام سيف - وألقى كلمة، هي آية في البلاغة والفصاحة، ثمّ أرغمت هذا «السيف» على الانحناء، أمام هذه العظمة الفذة، والشخصية الكبيرة، والزعيم المجلّ... فرحّب بهم، وحلّوا منه محلّ الضيوف الكرام...

وشاء أن يطول منهم أمد البقاء لديه، حتى مضى شهرٌ، وهم في ضيافته... وإذ ذاك أدنى إليه عبدالمطلب، ليُلقي إليه بسرّ خطير - ظناً منه بأنّ عبدالمطلب، لم يكن به ذلك الخبير - ويُلقي إليه نبأ مشرق الحواشي، يحمل - بين أطرافه - «شرف الحياة، وفضيلة الوفاة»، للوجود بأجمعه... وإنّ لعبدالمطلب منه، للحصّة الفضلى، والنصيب الأوفر:

(١) - القافة: العارفون بالآثار. والقافة: تتبّع الآثار.

(٢) - يُريدون بالقدم: قدم إبراهيم الخليل (عليه السّلام).

ارجع للحادثة إلى: السيرة الخليلية ١: ١٢٩ وذكرت في كلّ مِنْ: البحار ٦: ٤٨، وتذكّرة الخواص ٨، وأعيان ٢: ١٠ بزيادة:

«إن عبدالمطلب، قال لأبي طالب: اسمع مايقولون».

«إذا وُلد بتهامة، غلامٌ بين كتفيه شامةٌ، كانت له الإمامة، ولكم به الرِّعامة،
لى يوم القيامة».

ثم يُعقَّب بعد قولِ لعبدالمطلب:

«اسمه محمَّد. يموت أبوه وأُمُّه، يكفله جدُّه وعمُّه»^(١).

ولا يلبث أن يكشف السرَّ، ويُلقِي ببقايا السرِّ الكمين:

«والبيت ذي الحجب، والعلامات على النقب»^(٢). إنك لجدُّه - يا عبدالمطلب!

- غير كذب»^(٣).

وإذ ذاك يحزُّ عبدالمطلب، ساجداً لرَّبِّه، يُناجيه بكلمات الشكر، على هذه
النعمة الفضلى، ويرفع رأسه مثلج الصدر، باسم الثَّغر، ويقصُّ على الملك طرفاً مِنْ
حياة هذا النَّبيِّ العظيم، حتى يقول:

«مات أبوه وأُمُّه، وكفلته أنا وعمُّه»^(٤).

تلك دلالاتٍ يراها، إلى جانب دلالاتٍ أخرى، تزرخ بها حياة حفيده، ويراهها
متكررةً وفيرةً. وإنَّ واحدةً منها - حتى لو لم تكن لها ثابِتةٌ - لكفيلةٌ بقيام البرهان
نصيحاً، والحجَّة دامغةً، على أنَّ حفيده محمَّدًا، هو ذلك النَّبيُّ المنتظر، الذي قرأه في
الكتب المنزلة مِنَ الحقِّ، على لسان رسله.

فكيف بها دلالتُ كثار، تضاعف لديه، وتزدحم وتكثر - وفي كلِّ
يومٍ دليلٌ نابضٌ ملحقٌ؟.

تمرُّ سنون «جذاب»^(٥)، وقد انقطع فيها الغيث، وضحل الماء، فليس مِنَ
الحشيش ما كان على اخضرارٍ، وجفَّ مِنَ الصُّرْع ما كان ذلك الدُّرور. فكانتِ

(١) - ذُكرت هذه الجملة، في الاستيعاب -ص ١٤ ج ١- وقد أشار لهذه القصَّة، إشارةً مِنْ بعيدٍ.

(٢) - النِّقْب -بضم نونه- الطَّرِيق في الجبل.

(٣) - أُشير لها -مِنْ الشَّاطِئِ البعيد- في أعيان الشَّيْخَة ٩: ٢.

(٤) - شئنا الاقتصار في تسجيل هذه الحادثة. وَمَنْ شأها في شيءٍ مِنْ تفصيلٍ، فليرجع

للسِّيرة الحليَّة ١٣٥-١/١٣٧، والنَّبُوَّة ٦٦-٦٨ و١: ٧٩، والبحار ٢٨: ٦٠.

(٥) - لم نجد -في اللُّغة- صورةً لهذا الجمع.

الحياة - لديهم - تلك الحشرة الملمس، الجافية الحواشي، الجهمة الطلعة، فاسودّت
منهم النظرة، وكساهمُ الوجد والأسى، والرعب والخوف: غلالة صفراء على
سوداد، تعلو الوجوه، وتكسو الأجسام...

وليس - ثمة - من شفيع، إليه يضرعون، سوى عبدالمطلب. فبروحيته يدعونه،
ليتقدّم إلى ربّه، فتجود عليهم السّماء بالقطر، وتعود لهم الحياة كما كانت من
قبل... وإنّه للمشفّع عند ربّه، فليرحم هذه النفوس، وقد أشرفت على الموت، بعد
ضياح الأموال، وموات الأنعام.

وقد دلّتهم على هذا الوجه عند الله، والوسيط الذي لا تُردُّ له وساطة...
دلّتهم عليه رؤياً في المنام، بصفات كريمة، وأوصاف رقاق^(١).
يا لجلال الموقف! ويا لروحيته!

هاهو ذا عبدالمطلب، تحفُّ به هالة من الأشبال، وجمع من بطون مكّة، يفوح
من بينهم عبق الطيب، وذكى العرف، فيستلمون الرُّكن - في طريقهم لقمة أبي
قيس - وقد أخذ حفيده محمّداً - فنذت شفتاه بدعوات، انبعثت من قلب يسيل
رقّة، ويطفح إيماناً:

[لأهمّ هؤلاء عبيدك وبنو عبيدك، وإماؤك وبنو إمالك، وقد نزل بنا ماترى،
وتتابع علينا هذه السّنون، فذهبت بالظلف والحفّ والحافر، فأشفت على
الإنفس... فأذهب عنا الجذب، واتنا بالحياء والخصب]^(٢).

يا للدّعوة المزمّنة، تصعد للسّماء، فلا يحجبها شيء... ويا للدّعوة المزمّنة،
يسمعاها الرّبّ الرّحيم، فيجيب النّداء!

فلم يرحوا الجبل، إلّا والسّماء مزأكمة السّحب، تحمل «الخصب»، وتغدق
«الحياء» وتطرّد «الجذب» المقحل، وتنهمر السماء مدراراً، وتجود السّحب

(١) - ارجع لمعرفة الرُّؤيا، للسّيرة الحليّة: ١٣١-١٣٣ ج ١، ولشرح النّهج: ٢/٢٥٥.

(٢) - الحياء - هنا - بمعنى المطر. وتأتي بمعنى الخصب والنبات.

ض، وتسيل الأودية: «خصبا»، و«حياء»... وتفرُّ ملء الشِّفاهِ بِسمات.
 ناحِ قلوبٌ، وتشعُّ عيون فرحى... وتُقَطَّب وجوه، وتتلوَّى شفاه، وتشمزُّ
 بٌ، ويتطاير - مِنْ عيونٍ - شررٌ حقود...

غير أنَّ هذه السيل عليها مقطوعٌ! أمَّا تلك، فالجمال - لها - فسيحٌ، على
 اع مدى...!

ولايكاد الركب يُشارف مكَّة، وإذا بصوتٍ رقيقٍ ينبعث مِنْ أحد بيوت مكَّة.
 هت لحناً عذباً، صافي الثَّبره، رائع الوقع... فهذه «رقيقة» بنت أبي صيفي بن
 شم، ينطلق لسانها بشعرٍ، يُعبر عن مدى الفرحه، وتهزج بلسانٍ حلوي:

بشبية الحمد أسقى الله بلدتنا

وقدْ عدمنَّا الحياء، واجلُودَ المطرُ(١)

فجاذ بالماءِ جُونيَّ لهُ سَبلٌ

دان، فعاشتْ بهِ الأنعامُ والشَّجرُ(٢)

مَنَّا مِنْ اللهِ بالميمونِ طائرُهُ

وخيرٍ مَن بَشَرْتُ - يوماً - بهِ مُضَرُّ

مباركُ الاسمِ، يُستسقى الغمامُ بهِ

ما في الأنامِ لهُ عدلٌ، ولاخطرُ(٣)

(١) - اجلود المطر: طال تأخر هطوله.

(٢) - الجون: ضدٌ، يُطلق على: الأبيض والأسود، والوانٍ آخر مضادة. والجُونيُّ -بواوٍ مضمومٍ ماقبلها- ضربٌ من القطا، سود البطون والأجنحة.

وعلى أيِّ معنى، فالكلمة -هنا- على سبيل الكناية، يُراد منها: وفرة المطر، وكثرة انهماره.

ويُوضح هذا كلمتنا: «له سَبَلٌ»، -بفتح السين والباء- أي: له انهمارٌ، وهطولٌ منصَّبٌ.

(٣) - السَّيرة الحلبية ١: ١٣٣، والنُبوية ١/ ٦٤، والبحار ١٢٧، ١٢٨ ج ٦، وشرح النهج

٢: ٢٥٥، وفيه البيتان الأولان فقط، واختلافٌ في دعاء عبدالمطلب عن هذه الصُورة.

واذ انهطل المطر، وسالت به الأودية، فأنبث المراعي الخصاب، لم يكن لبلاد
قيس ومضر - من ذلك - نصيب، فلم تمر بهم السحب المغدقة، التي تحمل
«الحيا»، فيسيل: خصباً، وغناء...

واذ ذاك اجتمع عظاماؤهم، يتبادلون الآراء، فوحّدوا الرأي - ولم يجدوا غيره
- أن يفرعوا لعبدالمطلب، هذا الذي سقى الله على يديه مكة، من الأرض
والسماء، فلم تخل عليه تلك، ولا هذه^(١). وليس الله برادّ دعوة، تنبعث من قلب
هذا الشيخ الكبير، وله عند ربّه المكان العليّ. فقالوا:

- لقد أصبحنا في جهدٍ وجذبٍ. وقد سقى الله الناسَ بعبدالمطلب فاقصدوه،
لعله يسأل الله تعالى فيكم.

واذ وصلوا مكة، فدخلوا عليه، رحّب بهم، وقام خطيبهم، لئنهى لعبد المطلب
حاجتهم، وما في الوقت متسعٌ لتأجيل، وكلّ يومٍ يحمل بين ساعاته، لهيب اللّفة،
ورائحة الموت:

[قد أصابتنا سنونٌ مجذباتٌ، وقد بان لنا أثرك، وصحّ عندنا خبرك، فاشفع لنا
عند من شفعك، وأجرى الغمام لك].

وفي اليوم التالي، كان عبدالمطلب عند وعده لهم... وهاهو ذاك في «عرفات» والناس،
وولده حوله - وبنههم الحفيد الحبيب، محمّدٌ اليتيم - وقد ألفوا هالةً، يشعّ منها سنيّ،
ويعلوها جلالٌ. فأخذ مكانه من كرسيه، وفي حجره حفيده الكريم، فرفع يديه نحو السماء،
وينبر بصوتٍ خاشعٍ، ويرمق السماء بطرفٍ يشعّ إيماناً، ويناجي ربّه بقلبٍ، يطفح بالعقيدة:

(١) - إشارةً إلى ما أمر به من حفر زمزم... وإلى الماء السابع من تحت خفّ فرسه، وهو في
طريقه إلى محكمة قرينش - بعد حفره زمزم - وقد أشرف هو وأصحابه على الهلاك، وصافحو،
عزرائيل...! وأبى أولئك «الكرام!» أن يجودوا عليهم برشفةٍ من مائهم الكثير! فسقاه الله ربّه،
وسقاهم من فيضه، فرجعوا مذعنين له، «قبل أن يصلوا للحكم، وهاهو ذا ربّه قد حكم له!»
وكان التأريخ يُعيد نفسه! فمتّع الماء من جانب أولئك اللّثام! والجود به من جانب هؤلاء
الكرام! - عادةً مكروهة، أو طبيعةً لأولئك وهؤلاء، لا يستطيعون لها فراقاً...!
فعليّ ومعاوية! ثم مع الحسين ويزيد!

[اللَّهُمَّ رَبَّ البرق الخاطف، والرَّعد القاصف، ربَّ الأرباب، وملئ الصَّعاب!]
هذه قيسٌ ومضر، مِن خير البشر، قد شعنت رؤوسها، وحذبت ظهورها،
تشكو إليك شدةَ الهزال، وذهاب النفوس والأموال!.

اللَّهُمَّ فأتح لهم سحاباً خَوَّارَةً، وسماءَ خَرَّارَةً، لِتضحك أرضهم، ويزول ضرُّهم].
وماكان يبلغ مِن دعواته إلى هذا الحدِّ، وإذا بسحابةٍ دكَّاء، قد انعقدت،
وكان لها دويٌّ، فقصدت نحوه، وهي جوابُ دعوته، لتأخذ طريقها نحو بلاد هؤلاء
المجذَّبين، ويحول الجذب إلى خصبٍ، والمحل إلى غناءٍ زكيٍّ، ويصرفهم عبدالمطلب.
(يا معشر قيس ومضر! انصرفوا، فقد سقيتم)^(١).

وتنطلق حنجرة أبي طالب، مزغردة:

أبوْنَا شَفِيعُ النَّاسِ حِينَ سَقُوا بِهِ

مِنَ الْغَيْثِ رَجَّاسُ الْعَشِيرِ بِكُورُ^(٢)

ونحنُ - سنينَ المحلِ - قامَ شَفِيعُنَا

بِمَكَّةَ يَدْعُو، والمياهُ تغور..

فلم تبح الأقدامُ، حتَّى رأوا بها

سحاباتُ مزنٍ، صوبهنَّ درور

وقيسُ أتننا بعدَ أزمٍ وشدةٍ

وقد عَضَّهَا دهرٌ أكْبُ عثورُ

فما برحوا حتَّى سقى الله أرضَهُمْ

بشِيبَةِ غِيَا، فالنباتُ نضيرُ^(٣).

وتمضي حياة عبدالمطلب: خضلة الحواشي، مشرقة السنن، وهاجة النور، مليئة
يارهاصات النبي المنتظر، الذي قرأه في الكتب السماوية - وهو بعدُ - نورٌ في جبينه.
ثم رآه - وإنه لَمِنْ صلبه - فكان له ذلك الحدب الشَّقِيق، والمرئي الحنون...

(١) - السيرة الخليلية ص ١٣٣/١، والنبوة ٦٥: ١

(٢) - سحاب رجَّاس: شديد الهدير، أو الصَّوت.

(٣) - إثبات الوصية ص ٨٧

وإنه ليس ينسى هذا الذي استأثر بقلبه، وآثره على بضعةٍ مِنْ ولده... إنه ليس ينساه، حتى في آخر لحظةٍ، تُختم به حياته المديدة، التي بلغتِ المئة والعشرين - على قولٍ - وثُفِّت على الخمسة والثمانين - في قولٍ آخر.

إنه وهو يُعالج سكرات الموت، لِيُدير عينيه في ولده، وقد حقُّوا به، ليختار مِنْ بينهم مَنْ يُلقِي عليه مهمَّةً، شغلت منه فكره... وليست هذه بالمهمَّة اللينة، فعليه: أن يُحسن الاختيار، لِيُغمض عينين قريبتين.

ويُتدُّ بصره، ليلتقي بأبي طالبٍ. فليس خيراً مِنْ هذا، تُلقَى على كاهله هذه المهمة الشاقَّة، وهو الذي شاركه في القيام بها، منذ بزغ نور هذا السَّراج السَّاطع: أوصيكَ - يا عبدَ منافٍ! - بعديّ

بموحَّدٍ - بعدَ أيِّه - فرد^(١)

ويُردف بقوله:

وصيْتُ مَنْ كُنْتُهُ بطالبٍ

عبدٍ منافٍ، وهو ذُو تجارب^(٢)

بأبنِ الحبيبِ أكرمِ الأقاربِ

بأبنِ الذي قد غاب، غيرَ آنب^(٣)

(١) - ص ٧ قسم ١ ج ٣ أعيان الشيعة، وص ١٢٥ ج ٣٩ منه، في خمسة أبيات، وعمدة الطالب ص ٦، بإبدال «موحَّد» بواحدٍ، والمناقب ١/٢١، والبحار ٦/٤٧ في ٥ أبيات. ومعجم القبور ١/١٨٣.

(٢) - في أعيان الشيعة - ص ٣٩: ١٢٥ - جاء فيه: [كفيت]، بدل كُنْتُهُ. وعلّق عليها سماحة المؤلف المقدّس، فقرَّبها بـ [كفلته]، وهو لم يثفث لذلك، لأنَّ الخطاب موحَّد لأبني طالبٍ، وهو الذي كناه بهذه الكنية، ولم يُوصِ به مَنْ اسمه «طالبٌ»، على أنه يجب - حيثُذٍ - على رأي سماحته - أن يُنصب «طالباً»، بعد حذف الباء منه، فيكون «وصيْتُ مَنْ كفلته طالباً» لأنَّ وصيَّ المشدَّدة، مِنَ الأفعال المتعدية لمفعول واحدٍ بنفسها. ثم نختار، بعد ذلك، باسم عبد مناف، لأنَّه يكون عندنا حيثُذٍ، اسمان: طالب، وعبد مناف، في حين أنَّهما: اسمٌ، وكنيةٌ.

(٣) - الأعيان - في جزئيّه - والعباس ص ١٩.

وذكر صدر البيت الأوَّل في مروج الذهب ص ١٣٢ ج ٢، وعجز الثاني بإبدال «ليس بآنب». وذكر البيت الأوَّل في عمدة الطالب ص ٦، ومعجم القبور ١/١٨٤.

وتقع هذه الوصية، مِنْ نفس أبي طالب، مكانها العميق، فيرضى بها:

لَا تُوصِيَنِي بِإِلَازِمٍ وَوَاجِبٍ

إِنِّي سَمِعْتُ أَعْجَبَ الْعَجَائِبِ

مِنْ كُلِّ حَرٍ عَالِمٍ وَكَاتِبٍ

بَنَان - بِحَمْدِ اللَّهِ - قَوْلُ الرَّاهِبِ (١)

ويعود عبدالمطلب للقول:

[انظري - يا أبا طالب! - أَنْ تكون حافِظاً لهذا الوحيد، الذي لم يشم رائحة

أبيه، ولم يذق شفقة أمه. انظر أَنْ يكون - مِنْ جسدك - بمنزلة كبذك. فإني قد

تركتُ بَنِي كُلِّهِمْ وخصصتك به، لأنك مِنْ أُمِّ أَيْبِهِ، وأعلم (٢)، فَإِنْ استطعتُ أ

تتبعه فافعل، وانصره بلسانك، ويدك، ومالك.

فإنه والله سيسودكم، ويملك ما لا يملك أحدٌ مِنْ آبائي (٣). هل قبلت؟]

فأجابه: «قد قبلتُ. والله على ذلك شاهد!».

ومدَّ يده إليه، فضرب بها على يد ابنه - أبي طالب - وأرسل كلمته المنبثقة مِنْ

عميق قلبه، وقد استراح مِنْ عناء هذه المهمة الثقيلة، واستقبل الموت بطمأنينة ضمير:

«الآن خُفِّفَ عَلَيَّ الموت!».

وراح يغمره بفيض مِنْ قبلات الحنان، تحمل شفقة الوالد الحذب، ويقول:

«أشهد أني لم أرَ أحداً - في ولدي - أطيّب ريحاً منك، ولا أحسن وجهاً» (٤)

(١) - المناقب ص ٢١ ج ١، والعباس ص ١٩، والأعيان ١٢٥ ج ٣٩.

(٢) - في المجالس السنية ٤/٣٧، والبحار ٦/٤٣ زيادة، بعد هذا:

يا أبا طالب! إِنْ أدركتُ أيامه، تعلم: أني كنت أبصر النَّاسَ به، وأعلم النَّاسَ به، فَإِنْ استطعتُ - الخ.

(٣) - وفيهما بعد هذا - أيضاً:

يا أبا طالب! ما أعلم أحداً مِنْ آبائك، مات عنه أبوه، على حال أَيْبِهِ، ولأُمُّهُ على حال أُمِّهِ،

فأحفظه لوحده - الخ.

(٤) - البحار ص ٤٣ ج ٦. وذُكرت - في إثبات الوصية ص ١٠٧ - وصية عبدالمطلب لأبي

، في صورة غير هذه. وذُكرت لها صورة أخرى في كتاب «الحجة» ص ٧٧.

شخصية

في ذلك البيت، الرُّفيع العمد، والعميق الجذر، والشَّامخ البناء... وتحت رعاية ذلك الوالد الحذب، ومنّ تعاليمه الرُّفيعه، وعلى مدرسته الفدّة... تخرّج أبو طالب، بعد أن درج في هذه الحياة - وله من ماضيه «العظامي»: ما يغرس في قلبه: انتهاز المثل العليا، والسَّير في الطريق الألب.

وإن تكن للورثة أثرٌ فعّال، في خلق شخصيّة الإنسان، وتغذية عقله، وتوجيهه - كما يرى ذلك علماء النفس - فإنّ أبا طالب قد استفاد من هذه الورثة، فائدةً غير محدودة... وما هو سوى دليل نابض، للعلماء النفسّيين، فإنّ يستشهدوا به، فليس علينا إلا الإذعان! وليس - ثمة - من مجالٍ لقول أو ردّ.

فأبو طالب صورةٌ واضحة الخطوط، بارزة المعالم، لماضي مشرق الحواشي، وضّاح السّنى، لامع النُّور... ففيه من صفات أبيه عبدالمطلب، وجدّه هاشم، وأجداده الأفاذا: ما جعلت منه تلك الصُّورة، الواضحة، الرّائعة.

وليس من نكيرٍ أن يكون أبو طالب، كما كان، وقد أراد الله منه: أن يكون كافل نبيّ الإسلام - وهو الصُّورة الكاملة للإنسان، والنّسخة المثاليّة للإنسانيّة...

ليس من نكيرٍ: أن يكون أبو طالب، كما كان، وتحت رعايته نشأ الرّسول الأعظم، وقضى - تحت جناحه - شبابه الزّاهر، وهو أعظم مراحل عمر الإنسان حراجه، وأشدّها: فعالية، وإحساساً، وتأثراً...

إذن... فقد اجتمعت لأبي طالب: عظاميّة شاحنة، وعصاميّة ناصعة، ازدوجتا، فكان منهما: أبو طالب كافل محمّد اليتيم - أوّلاً - وأبو طالب نصير الرّسول وحاميه، والمؤمن برسالته - ثانياً - فهو: شيخ البطحاء، وبيضة البلد.

ازدوجت تلك العظاميّة والعصاميّة، حتى لو أنك أردت أن تبحث عن خطوط إحداهما، دون الأخرى، لأستعصى عليك!، وما أنت بقادرٍ أن تتميّز من بينهما خطّاً، تقول عنه: هذا عظاميّ، أو ذاك: عصاميّ!.

وكان شيئاً محتموماً - كما قلتُ - أن يكون أبو طالبٍ كما كان، مادامت السماء قد اختارته لهذه المهمة... فكان نصير رسالة السماء، قام بواجبه تجاهها، كأحسن ما يُراد منه!.

وليس من نكيرٍ - أيضاً: أن يُشارك أبو طالبٍ أباه: الزَّعامة، في حياته، فيكون الشخصية الأولى، بعد أبيه... وأن يُشاركه حتى في رعاية الرسول، والحدب عليه^(١)، لينفرد - أخيراً - بكلتي المهمتين: الزَّعامة، والرَّعاية. فيكون: الزَّعيم الأوَّل، والرَّاعي الأوحد، والكفيل الذي ليس له ثان، أو شريك!.

ماضي حفيظٌ رائعٌ، وحاضرٌ ضخمٌ ساطعٌ، يُكوِّنان حياةً فضلى، تُنتج الخير والشم والنَّضير، وتُبقي عطراً عبق الشَّدى، فوَّاح العُرف، يُعطر الوجود، والعدوُّ والصَّديق، على حدٍّ سواء - كما تُشرق الشمس على الرهاد، وقمم الجبال. ولكن الأنف المزكوم، لا يستنشِق العُرف الفوَّاح! والعين الرَّمداء. لا تُبصر الشُّعاع النُّير...!

وظاهرةٌ واحدةٌ، يكاد يكون أبو طالبٍ صاحبها الأوحد!، وتكاد تكون - أيضاً- هي أوَّل خطٍ، وآخر خطٍ يُميِّز عصاميَّته من عظاميَّته...

لم تكن الزَّعامة والسَّيادة، بالتي تُنال بكفٍّ من المال على قَلَّةٍ، بله على فراغٍ، بل لأبدٍ لها من مالٍ وفيرٍ، يكون الدَّعامة الأولى، في بناء الزَّعامة، والرَّكيزة التي عليها تعتمد... وبدونه لاظنُّ السَّيل، إلَّا مقطوعاً على مَنْ يحفل قلبه بحبِّها.

ولكن أبا طالبٍ، كان ذلك الزَّعيم المهيِّب، والسَّيد الأوَّل، والرَّئيس المطاع، وهو الخالي الوفاض من المال - الإله المعبود - فلم يكن ذلك الثَّري، ولا ذلك الوارم الكيس^(٢).

(١) - السَّيرة الحلبية ص ١٣٧ ج ١.

(٢) - النهج شرح الحديدي ص ٩١ و ٤٦١ م ٣، والسَّيرة النبوية ص ٩٩ ج ١، والخليصة ١٥٣ ج ١، وفضل هاشمٍ على عبد شمس - رسائل الجاحظ - ص ١٠٩، ومعجم القبور ص ١٩٨ ج ١، وأعيان الشيعة ص ١٢٤ ج ٣٩، والإمام عليُّ صوت العدالة ص ٥٥ ج ١.

ولكنه، وإن كان ذلك الخالي الوفاض، الفارغ الكيس - فإنه ذلك الثري الكبير، من حيث الخصائص النفسية. فهو من صفات الرعامة، لعلى وفير وغنى، بحيث تفرضه زعيماً، لا ينازعه في ذلك أحد، حتى ولو كان ذا مال، ولا يعدل عنه لغيره. فمثله من لا يعتاض عنه بغيره... وغيره لن يقوم مقامه، ولا يغني غناه.

ورث من أبيه: ملامحه وخصائصه، فكان الرجل السماح بغير طلب، والمعطاء بغير منة، فصارع الديمة الهاطلة، في انهمارها، على فراغ يده، ومسيس حاجته للمال... وإنه ليتحمل - في سبيل ما تفرضه عليه طبيعته - أن يتقل كاهله بالذين، لنلا يدع معروفاً، أو خصيصاً عريقة، قام بها أبوه، وكانت له من بعده.

قام - بعد أبيه - بسقاية الحاج، وانتهج منهجه فيها، بعد أن حفر زمزم، فكان يقذف في الماء التمر والزبيب، ليعذب منه المذاق، في أفواه هؤلاء الضارين في كبد الصحراء، وهواتهم على هبة ووقيد، فينقعوا تلك الغلة، والظما اللاهب...

وكان عام أسود، أملق فيه أبو طالب، ورأى نفسه، من عادته، على غير اقتدار، ورأى نفسه تفرض عليه: أن لا يتخلى عن مكرمة، تذكره بالأب الرحيم. فراح يستدين - من أخيه العباس - عشرة آلاف درهم، إلى موسم آخر، لعله أن يستطيع سدّها فيه، فلا يسقي الحاج - وهم ضيوف الله - ذلك الماء المرير...

وجاء عام آخر، لم يستطع أن يدفع فيه لأخيه دينه. بل رأى يده لا تطول إلى القيام بواجبه، نحو الحاج!، ورأى نفسه أمام أمر واقع!، فليذهب - مرة أخرى - لأخيه العباس، ويستدين منه أربعة عشر ألفاً، ليدفع له جميع ماله، في عام مقبل. ولكن العباس، لم يعطه هذا المبلغ من المال - هذه المرة - إلا بعد شرط، أخذه لنفسه، هو: أنه إذا عجز أبو طالب، عن سدّ دينه - في عامه المقبل - فعليه أن يترك السقاية إليه... فكان ذلك^(١)...

(١) - شرح النهج الحديدي ص ٤٦١ م ٣، والسيرة الحلبية ص ١٧ ج ١، والنبوة في الصفحة

ذاتها، وكامل ابن الأثير ص ٢١٤، ومجالس ثعلب ص ٣٧ ق ١.

غير أنَّ السَّقَاية - وقد أفلت مِنْ يده الزُّمام- لم تكن بالتي تُؤثّر على مقامه،
أو تخدش مِنْ زعامته، وهو نبعة الخير في مكّة، ومجّاب الدَّعوة في السَّماء، وهمزة
الوصل بين الأرض والسماء...

وإنّ له خصائص وملامح، لو شئنا أن نعرض لها، ونتناولها بالحديث، لطال بنا
المقام...

إنّ له مِنْ تلك الخصائص والملامح: ماتفرضه زعيماً تُجلِّله الهيبة والوقار،
وكهفاً مِنَ المنعة، حيث ليس لأحد أن ينال منه سوءاً، وما هو، بالذي تهزّه عاصفة
نكباء، وليس بالذي تلبس منه فتاة...

وإنّ مِنْ بين تلك الصِّفات والطُّرُوس: ماتدعنا نُؤمن، بل ماتفرض علينا أن
نؤمن - إذ لا مجال لشك - بأنه على ملّة الخليل إبراهيم: الخنيّة البيضاء^(١). فما
كانت الجاهليّة - بما فيها مِنْ: أوصار، وأرجاس، ومنابع للشّرّ والآثام - بالتي
تطبعه بطابعها! بل وليست بالتي تحرف منه المسلك، أو تحيد به - ولو مصادفةً -
عن لاحب الطُّريق، وواضح المنهج...

وليست البيئة التي عاشها، ولا بسَ منها الحياة العامّة - وهي أكبر مؤثّر على
الانسان، وأعظم مدرسة، يتلقّى منها الانسان الدُّروس العمليّة، التي تتعلّق
بالخصائص النفسيّة...

ليست البيئة بالتي تُكيّفه، ولم يكن هو بالذي يصطبغ بها، أو يتأثّر بها، وله مِنْ
عقله الرَّاجح، ونظره البعيد، وفكره النّافذ، ونفسيّته الفضلى، وخصائصه الموروثة،
وملامحه البارزة...

له مِنْ كلّ هذا، قوّة تُسيطر عليه، أن لا ينساق في بيّنة مرّديّة، أو مستوى
منحطّ، أو جاهليّة رعناء... بل له مِنْ كلّ هذا، قوّة، لأنّ يكيّف هذه البيئة،

(١) - لابن أبي الحديد كلمة - في شرحه للنّوح ص ٣٧ م ١٣ - تؤيّد ماذهب إليه. نقلناها في
الـ... الذي قبل هذا، والذي عقدناه عن عبدالمطلب.

وَيُعْطِي هَذَا الْجَمْعُ الْمَحْظُورَ دُرُوساً عَلِيّاً. فَلَا بُدَّ مِنْ وَجُودِ مِثْلِهِ، فِي فِرْقَةٍ، تَكُونُ بَيْنَ بَعْثِ رُسُولَيْنِ، أَوْ بَعْدِ انْقِطَاعِ الْوَحْيِ مِنَ السَّمَاءِ، لِنَلَا تَكُونُ الْحِجَّةُ عَلَى اللَّهِ لِلنَّاسِ^(١).

إِنَّ وَجُودَ أَبِي طَالِبٍ - بَعْدَ الْمَطْلَبِ - حَاجَةٌ ضَرُورِيَّةٌ، لِابْدَاءِ مِنْهَا...! وَسِيرَةٍ، كَهَذِهِ، لِابْدَاءِ وَأَنْ تَكُونَ إِرْهَاصَاتٍ لِرِسَالَةٍ، تُشْرِقُ عَلَى الْوُجُودِ، وَتُبَدِّدُ سَحَابَةَ الظُّلَامِ الْمُخْلُولِكَةِ، لِنَلَا يَكُونُ مِثْلُ هَذَا النُّورِ الْمُرْتَقِبِ اشْعَاعَهُ، فَجَاءَةً لِعَيُونِ رَمَدَاءٍ، قَدْ أَلْفَتِ الظُّلَامَ، فَلَا يَنْفَتِحُ لَهَا جَفَنٌ أَمَامَ مُصْبَاحٍ.

وَلَا بُدَّ مِنْ مُصْبَاحٍ، يُرْسِلُ اشْعَاعَهُ، هِيَ كَبْشِيرٌ لَشُرُوقِ نُورٍ بَهِيٍّ. وَلَا بُدَّ مِنْ نَجْمٍ، يَهْتَدِي بِهِ السَّارِي، تَحْتَ سَحَابَةِ اللَّيْلِ الْفَاحِشَةِ، لِنَلَا يَهْوِي فِي هَوَاةٍ مِنَ التَّيِّهِ عَمِيقَةٍ، فَاعْرِغَةِ الْقَمِّ... فَلَا بُدَّ مِنْ وَجُودِ مِثْلِ أَبِي طَالِبٍ، كَحِجَّةٍ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ...

وَلَا بُدَّ وَأَنْ يَكُونَ أَبُو طَالِبٍ، كَمَا كَانَ - كَمَا قُلْنَا - وَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ سِيرَتُهُ عَلَى مِثْلِ هَذَا الْإِشْرَاقِ وَالْإِشْعَاعِ... مَا دَامَ هُوَ مَرْبِيُّ الرَّسُولِ، ذَلِكَ النُّورُ الْمَشْعُورُ. وَمَا دَامَ هُوَ أَحَدُ تِلْكَ الْإِرْهَاصَاتِ، الَّتِي تُبَشِّرُ بِشُرُوقِ هَذَا النُّورِ الْبَهِيِّ...

فَلَيْسَ مِنْ نَكِيرٍ: أَنْ تُحْفَلَ شَخْصِيَّتُهُ بِكُلِّ مَقُومَاتِ الزَّعِيمِ، وَأَنْ تَزْخَرُ بِالصِّفَاتِ الْفَضْلَى، وَالْمِيزَاتِ الرَّفِيعَةِ، لَتُمَيِّزَهُ عَنْ كُلِّ مَنْ وَمَا حَوْلَهُ، وَتَحُوطَهُ بِهَالَةٍ مِنَ التَّقْدِيرِ وَالْإِكْبَارِ، مِنْ كُلِّ مَنْ حَوْلَهُ.

فَهُوَ: نَبْعَةُ الْخَيْرِ، وَالْكَهْفُ الْحَصِينُ، الَّذِي يَبْقَى مِنَ الْخَوَادِثِ وَالطَّوَارِيءِ. فَإِلَيْهِ يُلْجَأُ الضَّعِيفُ الْمَضَامُ. وَمِنْ كَفِّهِ النَّدْيَانَةُ يَنْتَهَلِ الْمَعْدَمُ، فَتَعُودُ لَهُ الْحَيَاةُ الْمَخْضَرَّةُ. وَبِهِ يَتَوَسَّلُونَ، حِينَمَا يَنْقُطِعُ مِنَ السَّمَاءِ قَطْرُهَا الْمَدْرَارُ.

(١) - أَشِيرُ لِذَلِكَ فِي الْعَبَّاسِ ص ٨-١٩، عَنِ الْجَلْسِيِّ فِي الْبَحَارِ ص ٣٠٢ وَ ٤٧٥ ج ٦ وَذَكَرَ عَنِ الطَّبْرَسِيِّ: إِجْمَاعُ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَى ذَلِكَ. وَذَكَرَ: أَنَّ الصَّدُوقَ - فِي إِكْدَالِ الدِّينِ ص ١٠٢ - قَالَ: إِنَّهُ - كَأَبِيهِ - مِنْ أَعْرَفِ الْعُلَمَاءِ وَأَعْلَمِهِمْ بِشَأْنِ النَّبِيِّ، وَكَانَا - هُوَ وَأَبُوهُ - يَكْتُمَانِ ذَلِكَ عَنِ الْجُهَّالِ وَالْكَافِرَةِ. وَأَشِيرُ لِذَلِكَ فِي مَعْجَمِ الْقُبُورِ، ص ١٩٠ وَ ١/٢٠٠، وَفِي الْقَدِيرِ ص ٣٩٠ وَ ٣٩٥ ج ٧ مَا يُؤَيِّدُ ذَلِكَ.

وهو: الوصول للرحم، الكشاف للكروب، البر الرحيم، الجواد بما يملك، من غير منة، والسمح بما يستطيع، بلا طلب، قوي الإرادة، منطيق فصيح، يتدفق بلاغة، حديدي القلب، ثبت الجنان، جميل الطلعة، مهوب الجانب، موفور الاحترام والتعظيم^(١).

وإنه بالتشريع لدارية، فهو ذو معرفة شاملة، وعلم عميق. فيحرم على نفسه شرب الخمر، ومقارفة الموبقات^(٢)، وكل ما حوله من أضرار الجاهلية، وأرجاس الشرك، وآثام الوسط المنحط. ويرتفع - بروحيته - إلى أفق واسع، رفيع المستوى، مديد الرقعة، نقي الجواء، على صفاء وطهارة.

وكان أول من سنَّ «القسامة» - في دم عمرو بن علقمة - فأقرتها - بعد - السنة النبوية^(٣).

وهناك ظاهرة روحية - من ظاهرات أبي طالب - لمسها معاصروه. ففي حرب الفجار - بين: هوازن، وكنانة - كان يحضر أبو طالب، ومعه الرسول. فمتى حضر، كان النصر حليف هوازن. ومتى غاب دارت عليها الدائرة.

(١) - يمثل هذا جاء وصفه في التأريخ، فراجع - منه - ص ١٠٧، ١٠٨ من إثبات الوصية.
(٢) - السيرة النبوية ١/٧٩، والحلبية ١: ١٣٤، وأبو طالب ٢٣، وهاشم وأمية ص ١٥٧، ومعجم القبور ص ١٩٨ ج ١.
(٣) - شرح النهج الحديدي ص ٤٦١ ج ٣. وقد ذكرت الحادثة في صحيح البخاري ٢: ١٩٦.

والقسامة - بفتح القاف - اسم من «أقسم»، وضع موضع المصدر وهي الأيمان تقسم على أولياء الدم، فيقال: «حكم القاضي بالقسامة»، أو «قتل فلان بالقسامة». وذلك أن يجتمع أولياء القتل، فيدعون على رجل أنه قاتل صاحبهم. وتكون معهم أمانة غير البينة، فيحلفون خمسين يمناً بأن هذا هو القاتل. وهؤلاء الذين يحلفون يُسمون «قسامة» - أيضاً - وسير الحلف، هنا، على خلافه، في سائر الدعاوى، لنصوص خصصته. وله في كتب الفقه موضوع مختص، فمن شاء الشمول، رجع له في مظانه.

فطلبت هوازن من أبي طالب: أن لا يغيب عنها: لُيواتيها النصر. فكان عند طلبها^(١).

وما هو إلا تبعه السماء، وثمان الأرض، وباقية الخليل إبراهيم، وسلالة الذبيح إسماعيل. يدعوا الله، فتنهزم السماء بقطرها، وتُفرش الأرض بالنماء والخصب، وتغدودق بالحياة الهطال^(٢).

* *

أخرج ابن عساكر، عن جلهمة بن عرفة - ومالنا وللتعليق؟.. فلندع لسان صاحبي السيرة، هو الذي يُحدّثنا، عن لسان جلهمة. قال^(٣):

قدمت مكة، وهم في قحطٍ وشدةٍ، من احتباس المطر عنهم... فقابل يقول: اعمدوا اللات والعزى. وقابل منهم يقول: اعمدوا مناة الثالثة الأخرى. فقال شيخٌ وسيمٌ، حسن الوجه، جيّد الرأي:

أننى تُؤفكون!، وفيكم باقية إبراهيم، وسلالة إسماعيل!^(٤).

[ولم يغب عنهم: ما يعنيه هذا الشيخ الوسيم، الجود الرأي، والحسن الوجه. وما كان هذا العلم بالجديد عليهم، وهم منه على عمق معرفة، وشمول دراية].
قالوا: كأنك عنيّ أبا طالب!

فقال: إيها...!

فقاموا بأجمعهم، وقت معهم، فدققنا الباب عليه، فخرج إلينا «رجلٌ حسن الوجه، عليه إزارٌ قد اتشح به»^(٥)، فثاروا إليه، فقالوا:

(١) - النهج الحديدي ٤٦٢: ٣، والسيرة النبوية ١: ٩٨، والخليبة ١: ١٥٢.

(٢) - الحياء - هنا - بمعنى المطر. ويحيى، بمعنى الخصب والنبات.

(٣) - النبوة ١: ٨٠، والخليبة ١: ١٣٨ - وبين الروايتين تصحيفٌ، في بضع كلمات،

كـ«اعمدوا»، فإنها «اعمدوا»، في الخليبة.

(٤) - هذه الجملة إحدى البراهين القائمة، على ما ذهبنا إليه، قبل قليل من هذا الفصل.

(٥) - ما بين هذين القوسين تعبيرٌ، ممّا اختصّت به السيرة الخليبة.

يا أبا طالب! أقط الوادي، وأجذب العيال، فهلّم فاستسق إلينا.
فخرج أبو طالب، ومعه غلام - وهو النبي «ص» كأنه شمس دجن - تجلّت
عنها سحابة قتماء، وحوله أغيلمّة، فأخذه أبو طالب، فالصق ظهر الغلام بالكعبة،
ولاذ الغلام - أي: أشار بإصبعه إلى السّماء، كالمترعّ المرتجىء - وما في السّماء
قرعة^(١)، فأقبل السحاب من ههنا وههنا، واغدودق الوادي، وكثر قطره،
وأخصب النّادي والبادي^(٢).

ولعلّ أبا طالب - كما يقول صاحب السّيرة - إلى هذه الحادثة، أشار - في
مابعد - بقوله من قصيدته اللّامية:

وأيضُ يُستسقى الغمامُ بوجهه - الخ.

* *

بهذه الصّفات المثلى، والميزات الفضلى، والخصائص والملامح البارزة، نال أبو
طالب مكانه، فدانّت له القلوب بالحبّ، وأحاطته بالإكبار، وتنحّت له عن محلّ
الرئاسة. وما غيره بمجدير لها، وهو على رقعة الأرض، يخفق له قلب، وتمشي به قدم.
فكان - كما كان أبوه - توضع له وسادة، يجلس عليها وحده، فيجسئ
الرّسول، ويجلس عليها، فيقول:

إنّ ابن أخي يُحسُّ بنعيم - أي: بشرفٍ عظيم^(٣).

(١) - القرع - محرّك - قطع من السّحاب صغاراً متفرّق. والقرعة - محرّكة أيضاً - القطعة منه.
(٢) - ذكرت هذه الحادثة في الغدير، ص ٣٤٦ ج ٧، وأسندت فيه - عدا السّيرتين - إلى:
شرح البحاريّ للقسطلانيّ ص ٢٢٧، والمواهب اللدنية ١: ٤٨، والخصائص الكبرى ٨٦
و ١٢٤، وطُلبة الطّالِب ٤٢.

وأُحرحت في الحجة ٩١ - باختلافٍ في مقدّمة القصّة - والبحار ٦: ٣٨٨، وقالوا: إنّ الذي
دلّهم على أبي طالب، هو: ورقة بن نوفل - عمّ خديجة.

وذكرت في أبو طالب ص ٤٩ و ذكرت بإيجاز في الإمام عليّ صوت العدالة ص ٣٤، وفيه
ص ٥٥ ج ١، وفي أعيان الشّيعه ص ١٢٦ ج ٣٩.

(٣) - السّيرة النّبويّة ١: ٨٠، والخليّة ١: ١٣٨، والبحار ٦: ١٢٩، وأعيان الشّيعه ٢: ١١.

دلائل

إن في شعر أبي طالبٍ هذا دليلاً على
أنه كان يعرف نبوة النبي صلى الله عليه
« وآله » وسلم، قبل أن يُبعث، لما أخبره
به بحير الرّاهب وغيره، من شأنه، مع
ماشاهده من أحواله... ومعرفة أبي طالب
بنبوته صلى الله عليه « وآله » وسلم،
جاءت في كثيرٍ من الأخبار، زيادةً على
أخذها من شعره.

الإمام عبد الواحد السفاقسي

- النبوية ٨٨ : ١ -

«.... ولقد كان أبي يقرأ الكتب جميعاً. ولقد قال: إنَّ
مِنْ صِلِي لَنَبِيًّا، لوددتُ أني أدركتُ ذلك، فأمنتُ به،
فَمَنْ أدركه مِنْ ولدي، فَلْيُؤْمِنْ به»^(١).

* *

ماكان ذو القولة - هذه - بحاجةٍ لدليلٍ مجدِّدٍ، وهو ذو العقيدة الرِّسيخة،
والإيمان الوطيد...

إنَّ لديه - مِنْ الدَّلَائِل - لوفراً، يفوق العدَّ، ويأبى الحصر... وإنَّ واحداً -
مِنْ بينها - لكفيلٌ يثبت مايزهد إليه... ومايجلو عن النفس الشكَّ والرَّيب... لو
كان هذان ممَّا يعرفان طريقهما إلى نفس بيضة البلد.

إنَّ هذه الأدلَّة المنتصبة، وهذه البراهين الواضحة، لمَّا يزيد إيمان أبي طالب
عمقاً، وشمولاً، وامتداداً، وماكان - في يومٍ مآ - ذاك المززع العقيدة، ولا الرِّجراج
الإيمان.

إنَّ دليلاً واحداً - مِنْ بين ألف دليلٍ ودليلٍ - لتفرض على كلِّ مَنْ له ذرَّةٌ مِنْ
عقلٍ: أن يُؤْمِنَ بمخلٍ مآمَنَ به أبو طالبٍ، وأن يكون ذلك المتين المتعقد، والرِّسيخ
العقيدة، والثَّابت على المبدأ القويم.

إنَّه ليعلم - علماً لا يخالجه ريبٌ - بأنَّ ابن أخيه، هو ذلك الرِّسول المنتظر،
الذي قرأه أبوه في الكُتب السَّمَاوِيَّة جميعاً، وبشَّرت به الرِّسالات السَّمَاوِيَّة، منذ
يومها الأوَّل، وفي فجرها البكر.

وهو - إلى ذلك العلم الثَّابت - يلمس دلائلَ صارخةً، وبراهينَ سافرةً الوجه،
ليس لمكابرٍ إلا أن يدعن لها - فكيف بمؤمنٍ عميقٍ، لاتزيد البراهين والدلائل، إلا:
عمق إيمانٍ، وشمول معرفةٍ، ومثانة معتقدٍ، وثبوت مبدءٍ، ورسوخ يقينٍ...!؟

(١) - شيخ الأبطح ٢٢، والغدير: ٧:٣٤٨، والعباس ١٨ و ٢١.

لقد شاهد وفراً من هذه الدلائل، وعبدالمطلب -بعد- على رقعة الوجود، وقد يُشاهد بعضاً منها أبوه عبدالمطلب، فيدله عليها، ويُخبره عنها... غير أنه -اليوم- وقد كان هو الكافل الأورحد لابن أخيه، فإنه يُشاهد من هذه الدلائل موفراً أكثر، تكاد تزدهم لديه... ولاتكاد رقعة يوم نزول، أو سحابة ليل تطوى، إلا ويلمس - بين تضاعيفها - دليلاً نابضاً، وبرهاناً صارخاً...

إنه يُشاهد -عن كسب- من ابن أخيه: أشياء، وملامح، ومميّزات، لاتكون لرجلٍ عاديٍّ، كما يعيش النَّاسُ، وتطوى حياته، يوم يُسلم الرُّوح، فيتلاشى من الوجود ظلّه، ومن الجواء صده، كأن لم يُخلق، ولم يعبر بهذا الكون، ولم تطأ له فيه قدم...

لا...! بل إنه يُشاهد - من بين تلك الملامح والميّزات - مايرهن على أنّ ابن أخيه هو أكمل صورةٍ خلّق الله، منذ خلق آدم، حتى تقوم السّاعة، وهو النّسخة المثاليّة، لارتفاع الإنسان، بالقيم المثلى، إلى قَمّةٍ شامخة، لايرقى إليها الطّير، وينحدر عنها السّيل - على حدّ تعبير ابنه الإمام، بعد، وهو «صورةٌ طبق الأصل»، لهذه الصّورة الكاملة.

ومن بين تلك الدلائل الكثار، والبراهين الوفّر، التي لاتقع تحت الحصر... من بينها دلّائلٌ -غير الدلائل الرُّوحية والحُلُقية، «بضمّ الحاء»- دلّائلٌ ملومسةٌ صارخةٌ، يُحسّها ويلمسها، ويُشاهدها، حتى من لم يكن من العقل ذلك المكتمل، ومن الإيمان ذلك العميق...

يُحسّها حتى هؤلاء المادّيّون، الذين لايعرفون غير مايلمسون، ولايُحسّون سوى مايقع عليه منهم النّظر...

فكيف بكميل العقل، ورجيح الإيمان، ونافذ النّظرة، وبعيد الغور، ومكتمل المعرفة، ومتين المعتقد...!؟

ولسنا نحاول أن نحشد - في هذا الفصل - من الدلائل والبراهين، ما يضيّق عنه هذا الكتاب، وهي مبعثرة بين الصفّحات - من المراجع - وتحتاج إلى طویل وقت، لتُجمع من بين الزوايا.

ولكن فلنأخذ بعضاً منها، لنعرضه على القراء - بالإضافة إلى مامرّ بنا - وليس هذا البعض، إلاّ كدليلٍ على الكلّ:

* *

أ- نبع الماء

ذكروا مِنْ بَيْنِ الإِرْهَاصَاتِ، الَّتِي سَبَقَتْ بَعْثَةَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ «وآله»
وَسَلَّمَ: أَنَّهُ كَانَ مَعَ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ - بِذِي الْجَازِ^(١) - إِذْ عَطَشَ أَبُو طَالِبٍ، وَلَيْسَ
- ثَمَّةَ مَاءٍ، يُطْفَأُ لَهْبَةُ عَطَشِهِ، فَذَكَرَ لِابْنِ أَخِيهِ مَا أَلَمَّ بِهِ مِنَ الْعَطَشِ... فَمَا كَانَ مِنْهُ،
إِلَّا أَنْ أَهْوَى بِعَقْبِهِ إِلَى الْأَرْضِ - وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: أَنَّهُ رَكَضَ صَخْرَةً بِرِجْلِهِ^(٢) -
وَقَالَ: «شَيْئاً»، فَإِذَا بِالْمَاءِ يَتَدَفَّقُ، لَمْ يَرَ مِثْلَهُ أَبُو طَالِبٍ - كَمَا حَدَّثَ - فَشَرِبَ،
حَتَّى اطْفَأَ لَهْبَةُ الظَّمَا، عَادَ فَرَكَضَهَا - مَرَّةً أُخْرَى - لِيَعُودَ سِيرَتَهَا الْأُولَى^(٣).

* *

(١) - ذُو الْجَازِ: مَوْضِعٌ عَلَى فَرَسْنِجٍ مِنْ عَرَفَةَ، كَانَ سَوْقًا لِلْجَاهِلِيَّةِ، وَذُكِرَ فِي مَعْجَمِ الْبُلْدَانِ
- ص ٥٥ ج ٥ - أَنَّهُ [مَوْضِعُ سَوْقٍ بِعَرَفَةَ، عَلَى نَاحِيَةِ كَبْكَب، عَنْ يَمِينِ الْإِمَامِ، عَلَى فَرَسْنِجٍ مِنْ عَرَفَةَ،
كَانَتْ تَقُومُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ] - الخ.

(٢) - رَكَضَ الصَّخْرَةَ بِرِجْلِهِ: ضَرَبَهَا.

(٣) - السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ ١: ٨٩، وَالْحَلِيبَةُ ١: ١٣٩، وَتَذَكُّرَةُ الْخَوَاصِّ ٩، وَالْعَبَّاسُ ٢٠، وَالْبَحَارُ

ب- مع العائف

إِنَّ رَجُلًا مِّنْ «لُّهَب» كَانَ عَائِفًا^(١). فَبَاذًا مَّاقِدِيمَ مَكَّةَ، أَتَتْهُ رِجَالُ قُرَيْشٍ
بِغِلْمَانِهِمْ، لِيَنْظُرُوا لَهُمْ، وَيَعْتَافُوا لَهُمْ فِيهِمْ... وَكَانَ أَبُو طَالِبٍ، مِّنْ بَيْنِ الْحَشْدِ، الَّذِي
أَتَاهُ، وَمَعَهُ الرَّسُولُ، فَنَظَرَ الْعَائِفُ لِلرَّسُولِ، ثُمَّ كَانَ لَدَيْهِ مَا شَغَلَهُ عَنْهُ... وَمَا انْتَهَى
شَاغَلُهُ، حَتَّى قَالَ:

الغلام! عليَّ به!

وَمَا إِنَّ رَأَى أَبُو طَالِبٍ، حَرَصَ هَذَا الْعَائِفُ عَلَيْهِ، حَتَّى أَوْجَسَ مِنْهُ خِيفَةً،
وَأَحْسَنَ شَيْئًا، يَفْرُضُ عَلَيْهِ أَنْ يُغَيِّبَهُ، فَلَا تَقَعُ عَلَيْهِ هَاتَانِ الْعَيْنَانِ، النَّافِذَتَا الْبَصَرِ،
الْبَعِيدَتَا النَّظَرِ... وَلَمْ يَأْبَهُ لَصِيَاحَ الْعَائِفِ:

وَيْلَكُمْ!! رُدُّوا عَلَيَّ الْغُلَامَ، الَّذِي رَأَيْتَ آتِفًا! فَوَاللَّهِ لَيَكُونَنَّ لَهُ «شَأْنٌ»^(٢)...
وَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ - «شَأْنٌ» - بِالْجَدِيدَةِ الْجَرَسِ، وَلَا الْغَرِيبَةِ النَّبْرَةِ، عَلَى
مَسْمَعِ أَبِي طَالِبٍ، فَإِنَّهُ لَعَلِيمٌ بِأَنَّ لَهُ «شَأْنًا». وَإِنَّهُ لِلْعَلِيمِ - أَيْضًا - بِمَاهِيَةِ هَذَا
«الشَّأْنِ»...

* *

(١) - عاف الطَّيْرَ: زَجَرَهَا: فَتَشَاءَمَ، أَوْ تَفَاعَلَ، بِطَوِيرَاتِهَا. وَالْعَائِفُ - اسْمُ فَاعِلٍ - الْمُتَكَهِّنُ
بِالطَّيْرِ، أَوْ بِغَيْرِهَا.

(٢) - السَّيْرَةُ الْمُشْتَمِيَّةُ ١٩٠ ج ١، وَالتَّبْوِيَةُ ١٩٠: ١، وَالحَلَبِيَّةُ ١٣٩: ١، وَأَبُو طَالِبٍ ٣٢.

ج- إنك لمبارك

شاهد أبو طالب ظاهرة بارزة، تنضح بالدليل الصّارخ، منذ انحاز الرّسول إلى عائلته - بعد وفاة عبدالمطلب، فابو طالب- وهو المقلّد من المال - كان كثير العائلة. ولقد كان هذا الإقلال -من جانب- وهذه الكثرة - في الطرف الآخر - سبباً فعّالاً، لتلاّ تشيع عائلته، إذا جلست على المائدة، إن فرادى، وإن جميعاً... ومتى ضمت المائدة الرّسول، فإنهم ينفضون عنها، وهم من الشّيع على اكتناز، وفي الطّعام فضلة... فكان أبو طالب يقول لهم، إذا حضر وقت الطعام، ولم يجد بينهم ابن أخيه:

- كما أنتم، حتى يأتي ابني.

وإنّ الواحد - من بين هؤلاء - ليشرّب «القعب»^(١) من اللبن... ولكنّ أبا طالب يأخذ القعب، ليمدّ بالرّسول، فيشرّب، وتشرب العيال جميعاً، من هذا القعب ذاته، فيقول أبو طالب:

- إنك لمبارك^(٢).

(١) - القعب: القدح الضخم الغليظ.

(٢) - السيرة النبوية ٨٠:١، والحليّة ١٣٧، ١٣٨:١، والبحار ١٢٤ و ١٢٩:٦.

وقد أشار لذلك عمر أبو النصر، في كتابه [فاطمة بنت محمّد صلى الله عليه وآله وسلم] ص ١٨ وتجد صورة حرقفة، إمّا قاله -هنا- في كتابه [محمّد النبي العربي] ص ٤٧ وكثيراً ما يحدث لأبي النصر -في كتبه- مثل هذا التكرير.

وذكرت في العباس ص ٢٠. وأشار لها في «على هامش السيرة» ص ١٩٠، ١٩١:١، و ١٥١، ١٥٢:٢. وقد شاهد أبو طالب هذا الدليل المكرور -بعثذ- يوم «الإنذار»، حينما دعا الرّسول زعماء قريش، فأولّم لهم بفخذ من اللحم، وعس من اللبن... -العس بضم عينه: القدح، أو الإناء الكبير- وإنّ الواحد منهم، ليأتي على المسنة، وعلى العس. وهم -حينذاك- أربعون رجلاً، ينقصون واحداً، أو يزيدونه -كما حدّث بذلك الإمام عليّ عليه السّلام-.

وكلّ من عرض سيرة الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم، ذكر هذه الحادثة، فلم نر حاجة لأن نرجعها لمصدر، وهو متعدّد، ولأنّ تخصّصها ببحث، وهي مستفيضة.

د - إلى الشام

بلغت عناية أبي طالب بالرسول، حدّاً يتجاوز الوصف، فقد اتّحدت الرُّوحان، حتى كان مِنَ الصَّعْب - أو العسير - أن يستطيعا فراقاً، فما كان محمّد بالذي يقرُّ له قرارٌ، وقد شاهد عمّه مزعماً على سفرة، قد يطول منها الأمد..!

وليست نفسه بالتي ترضى بهذا الفراق، ولم تعد تستطيع تصوّره، حيث لم يبق - لديه - حصنٌ، يقيه الزَّعازع، غير هذا الشَّيخ الحذب.

فإن هو سافر بدونه، فإلى مَنْ يلجأ؟ ومَنْ ذا يقيه هجير الظَّهيرة، ويُخَفِّف عنه آلام اليتيم، وينتهل منه نبع الحنان والشفقة؟!.

فلم يكِدِ الرسول يشهد عمّه، يخطو نحو راحلته، وإذا بدموع تنحدر مِنْ عينيه، وعبراتٍ غزارٍ قد أخذت طريقها على وجنتيه.

فيالدموع اليتيم، يشهدا الشَّيخ الحذب، فيخفق لها قلبه الرَّحيم، فيرقُّ هذا الصَّبّ...!

ولم يستطع أن يسمع من ابن أخيه هذه الكلمات:

- يا عمّ! إلى مَنْ تكلني؟ لأب لي، ولأُمّ!.

فكان جواب أبي طالب - وليس له إلا أن يُجيب بما أجاب:

- والله لأُخرجنَّ به معي، ولأُفارقني، ولأُفارقه، أبداً.

فأخذه معه، قريباً منه، فليس لهما، أن يكونا، إلا على راحلةٍ واحدةٍ.

وراح الرّكب يطبع في الصّحراء خطوطاً، لا يلبث أن يلاشي التّسيم منها الاثر؛
حتى إذا بلغ الرّكب «بُصرى» - مِنْ أرض الشّام - أراد أن يستردّ بالراحّة، تعب
السّير المغدّ^(١).

وكان - هنا - راهبٌ، يُقال له «بُحيرى»، في صومعةٍ له، قد انتهى إليه علم
«النّصرانيّة».

ولكنّ الرّكب، يشهد - لأوّل مرّة - مِنْ هذا الرّاهب، ما لم يشهده مِنْ قبل.
فكثيراً ما طاف الرّكب بهذه الرّقعة مِنَ الأرض، دون أن يعرض لهم هذا الرّاهب،
أو يُبادلهم المقال.

لقد أطلّ الرّاهب - مِنْ صومعته - فشاهد الرّكب، ولفت نظره - مِنْ بين
الرّكب - هذه الغمامة، التي تطلّ واحداً مِنْ بين هؤلاء جميعاً، آثرته بظّلها، فوقته
هب الشّمس، ووقيد الصّحراء اللاّهبة... وإذ استقرّ بالرّكب المكان، لفت نظره -
مرّة أخرى - مِنْ بين هؤلاء أيضاً، هذه الشّجرة، التي تهصّرت منها الأغصان،

(١) - زادت السّيرة النّبويّة - ١: ١٩٠ - والخلبيّة - ١: ١٤٠ - عند عرض هذه الحادثة، مايلي:

إنّ الرّكب - قبل أن يصل إلى «بُصرى» - نزل على صاحب دير، فقال صاحب الدّير لأبي طالب:
- ما هذا الغلام منك؟.

- ابني!.

- ماهو بابتك!، وما ينبغي أن يكون له أب حيّ، لأنّ مَنْ كانت هذه الصّفة صفته، فهو نبيّ. ومِنْ
علامة ذلك النّبيّ - في الكتّاب القديمة - أن يموت أبوه، وأُمّه حاملٌ به، وأنّ تموت أُمّه، وهو صغيرٌ.
- وما النّبيّ؟.

- الذي يأتيه الخير مِنَ السّماء، فينبئُ أهل الأرض.

- الله أجلُّ ممّا تقول.

فيحذّر الرّاهب أبا طالب، أن يتّقي عليه اليهود.

ومرّ الرّكب براهبٍ - صاحب دير آخر - فكان بينه وبين أبي طالب مثل هذا الحوار. وقال -

بعد ذلك - أبو طالب، لابن أخيه:

- يا ابن أخي! ألاّ تسمع ما يقولون؟!

- أي عمّ! لانتكر الله قدره!.

فُظِّلَ ذاكَ المُسْتَظَلَّ بِالْعِمَامَةِ - قِلْبِلْ - وَتَخَصُّصُهُ، مِنْ بَيْنِ هَؤُلَاءِ جَمِيعاً، بِفَيْتِهَا
وِظْلَاهَا...

لقد أخذ منه العجب، غير أنه لم يطل له أجل... فسرعان ما تلاشى، حين
ما تاب إليه فكره، وعادت إليه ذاكرته، إلى ما بين السُّطور، مِنْ كتابه المقدس.
وَإِذْ نَزَلَ مِنْ صَوْمَعَتِهِ، وَأَمَرَ بِطَعَامٍ أَنْ يُصْنَعَ، بَعَثَ إِلَى الرُّكْبِ، فَقَالَ لَهُ:
إِنِّي صَنَعْتُ لَكُمْ طَعَاماً - يَا مَعْشَرَ قَرِيشٍ! - فَأَنَا أَحَبُّ أَنْ تَحْضُرُوا كُلُّكُمْ:
صَغِيرَكُمْ وَكَبِيرَكُمْ، وَعَبْدَكُمْ وَحُرَّكُمْ.

فَانْبَرَى إِلَيْهِ - مِنْ بَيْنِهِمْ - مَنْ أَخَذَ مِنْهُ الْعَجَبَ أَقْصَى مَكَانٍ:
وَاللَّهُ - يَا بُحَيْرَى! - إِنَّ لَكَ لَشَأْناً الْيَوْمَ. مَا كُنْتَ تَصْنَعُ هَذَا بِنَا!. وَقَدْ كُنَّا غُرُّ
بِكَ كَثِيراً!! فَمَا شَأْنُكَ الْيَوْمَ...!؟

وبعد جوابٍ منه، نزلوا عند رغبته، فاجتمعوا لديه، ولم يتخلف مِنْ بَيْنِهِمْ غَيْرُ
الرَّسُولِ - وَهُوَ السَّبَبُ الْمُبَاشِرُ، لِمَا شَاهَدُوهُ مِنْ هَذَا الرَّأْهِبِ: الْعَمِيقِ النَّظْرَةِ -
فَقَدْ كَانَ عِنْدَ الرُّحَالِ، تَحْتَ الشَّجَرَةِ.

وطافت مِنْ الرَّأْهِبِ نَظْرَةً فِي الْقَوْمِ - فَاحْصَةً، فَلَمْ تَقْعَ عَلَى مَا يُشْبِعُ نَهْمَهَا
الصِّيَاحَ، وَتَنْقَعُ غَلَّتْهَا اللَّهْيُ... فَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ حَوَارٌّ:
- يَا بُحَيْرَى! مَا تَخْلَفُ عَنْكَ أَحَدٌ، يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَأْتِيكَ، إِلَّا غُلَاماً، وَهُوَ أَحَدُ
الْقَوْمِ سَنًا، فَتَخْلَفُ فِي رِحَالِهِمْ.

وَلَمْ يَكُنْ لِيَقِفَ هَذَا الْحَوَارُّ، عِنْدَ سَاحِلٍ، لَوْلَا أَنْ قَامَ مِنْ بَيْنِهِمْ مَنْ «اِحْتَضَنَ»
الْغُلَامَ، وَجَاءَ بِهِ. فَعَادَتْ - مِنْ بُحَيْرَى - تِلْكَ النَّظْرَةُ الْفَاحِصَةُ... ثُمَّ يَنْظُرُ إِلَى
أَشْيَاءَ مِنْ جَسَدِهِ، نَظْرَةً بَعِيدَةً، لِيَجِدَ فِيهِ صِفَاتٍ، قَرَأَهَا فِي الْكِتَابِ الْمَقْدَسِ، تَخْصُ
هَذَا الْغُلَامَ الْعَظِيمَ.

وَإِذْ تَفَرَّقَ الْقَوْمُ عَنِ الطَّعَامِ، رَاحَ بُحَيْرَى يَسْأَلُ الرَّسُولَ، عَنْ أَشْيَاءَ، يَهْدَفُ مِنْ
وَرَائِهَا: أَنْ يُطَبِّقَ عِلْمَهُ، وَيُعَمِّقَ مِنْهُ الْإِيمَانَ...

وعاد الرَّاهِب لأبي طالب، يسأله سؤال اللّهُفان:

- ما هذا الغلام منك...

- ابني!

- ما هو بابنك!، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيًّا.

- فإنه ابن أخي!

- فما فعل أبوه؟

- مات، وأُمُّه حبلَى به.

- صدقت!، فارجع بابن أخيك إلى بلده. واحذر عليه يهودا، فوالله لئن

راوه، وعرفوا منه ما «عرفت» لَيُبَغِّثَنَّ شرًّا، فإنه كائنٌ لابن أخيك هذا «شأن» عظيم. فأسرع به إلى بلاده^(١).

وعاد الرُّسول - مع عمِّه - وقد تفتحت عيناه على جوانب من الحياة، وطاف بعالمٍ جديدٍ، غير عالم مكَّة، الذي فيه ربا ودرج.

أمَّا أبو طالب، فعاد به، وهو أشدُّ ما يكون عليه حذرًا، يحوطه بعنايته، ويغمره بفيض حبِّه، ويحرسه بكلِّ حَيَطةٍ واحتراسٍ، فيخاف عليه من تلك الشرذمة الفتَّاكة، المغلولة اليد، يهود الخبيثة، التي تُريد - لو تستطيع - أن تُطيح بهذا الغصن الفارع، قبل أن يتفتح عن: زهرٍ باسمٍ، وثمرٍ نضيرٍ.

(١) - السِّيرة المشاميَّة ١٩١-١٩٤، والنَّبويَّة ٩٠-٩٢، والحليَّة ١٣٩-١٤٢، وتاريخ الطُّبري ٢٢-٢٤، والكامل لابن الأثير ٢٣، ٢٤:٢، وقصص العرب ٩٩، ١٠٠، وذكرت -بإيجاز- في البحار ٥٩-٦١ و٦٢، ١٢٩، ١٣٠، وأبو طالب ٣١، وعلى هامش السيرة ٧١-٨٣، وبين الرُّوايات تباينٌ في التعبير. وفي بعضها زيادةٌ على البعض الآخر. وأمَّا روايات البحار الثلاث، ففيها ذاتها اختلافٌ. فالرُّواية الأولى تختلف عن غيرها، وفيها شيءٌ من التناقض.

ففي أوَّل الحادثة نراه يقول: إنَّ نجري سأل أبا طالب: أيُّ شيءٍ منه؟ فيُجيبه: أنا عمُّه. وإذا به في نهاية الحادثة يقول: إنَّ نجري سأله مثل هذا السؤال، فيُجيب: هو ابني... الخ. ولكن الحادثة الثانية، هي الصَّحيحة الرُّوائية، ومثلها الثالثة. ويُعَدُّ في ذلك: أنه يجمع أحاديث، وعلى الآخذ منها التَّمحيص.

وما كانت هذه الصُّورة، بالتي تزايل مخيلة شيخ البطحاء، وقد اختزن منها
صوراً، لاتزول.

ولكنه - وقد شاء: أن يُسجِّل هذه الصُّورة، لَتبقى محفورة على جبين الزَّمن،
تقرأها الأجيال التالية - راح يُودعها بعض شعره، لِتسلِّمها الأجيال: وثيقة رائعة:
إِنَّ ابْنَ آمَنَةَ النَّبِيِّ مُحَمَّدًا

عندي يَفِرُّ منازل الأولاد...
لَمَّا تعلقَ بالزُّمام، رَحْمَتُهُ

والعيسُ قد قَلَصْنَ بالأزواد^(١)
فارفضَ مِنْ عيني دمعٌ ذارفٌ

مثلُ الجُمان، مفرَّقُ الأفرادِ
راعى فيهِ قرابةً موصولةً

وحفظتُ فيهِ وصيةَ الأجدادِ
وأمرتُهُ بالسَّيرِ بينَ عمومةٍ

بيضِ الوجوه، مصالتِ أنجادِ^(٢)
ساروا لأبعدِ طيِّبةٍ معلومةٍ

فلقد تباعدتُ طيِّبةُ المرتادِ^(٣)
حتَّى إذا ما القومُ بُصرى عاينوا

لأقوا على شركٍ مِنَ المرصادِ:

(١) - قلص القوم: اجتمعوا فصاروا. قلصتِ الناقة براكبها: أسرع. استمرت في مضيتها.
الأزواد - جمع زاد، وهو: ما يتخذ من الطعام للسفر.

(٢) - المصالت من الرجال: الشَّجاع الماضي في الحواتج. الجبين الصَّلَت: الواضح المستوى
البارز. أنجاد جمع نجد: الضَّابط للأُمور، يُدلل للمصاعب. الشَّجاع الماضي في ما يعجز غيره. السَّريع
الإجابة إلى ما دُعي إليه.

(٣) - في رواية طيِّبة - بالواحدة بدل المتناة - وهي مؤنث طب، ومعناها: الناحية والجهة.

حبراً - فَأَخْبِرَهُمْ حَدِيثاً صَادِقاً
 عنه، وردَّ معاشرَ الحَسَّادِ
 قَوْمَ يَهُودَ قَدْ رَأَوْا، لَمَّا رَأَى:
 ظِلَّ الغمامِ، وعن ذي الأَكْبَادِ^(١)
 ثَارُوا لِقَتْلِ مُحَمَّدٍ، فَهَاهُمْ
 عَنْهُ، وَجَاهِدَ أَحْسَنَ التَّجَاهِدِ
 فَتَنَى زَبِيراً، مِنْ بَحِيرَا، فَاثْنَى
 فِي الْقَوْمِ بَعْدَ تَجَاوُلِ وَبَعَادِ^(٢)
 وَنَهَى دَرِيساً، فَانْتَهَى عَنْ قَوْلِهِ
 حَبْرٌ، يُوَافِقُ أَمْرَهُ بِرَشَادِ^(٣)

وَعَادَ يُودِعُهَا هَذِهِ الْآيَاتِ:

أَلَمْ تَرْنِي مِنْ بَعْدِ هَمِّ هَمَّتُهُ...
 بِفِرْقَةٍ حَرَّ الْوَالِدَيْنِ حَرَامِ^(٤)
 بِأَحَدٍ، لَمَّا أَنْ شَدَدْتُ مَطِيَّتِي
 بِرَحْلِي، وَقَدْ وَدَّعْتُهُ بِسَلَامٍ
 بِكِي حَزْناً، وَالْعَيْسُ قَدْ فَصَلَتْ بَنَا
 وَأَخَذْتُ بِالْكَفَيْنِ فَضُلَّ زِمَامِ

(١) - كَذَا وَجَدْنَاهَا فِي مَصَادِرِهَا، وَفِي رَوَايَةٍ: «نَاغِرِي الْأَكْبَادِ»، وَهِيَ أَقْرَبُ لِلصَّحَّةِ، لِأَنَّهَا
 وَاضِحَةٌ الْمَعْنَى.

(٢) - زَبِيرٌ وَدَرِيسٌ وَتَمَامٌ: أَحْبَابٌ مِنَ الْيَهُودِ، عَرَضُوا لِلرَّكْبِ، يَبْغُونَ الرَّسُولَ، فَرَدَّاهُمْ بِحَيْرَى
 عَنْهُ. وَغَنَ لَمْ نَشَأْ أَنْ نَأْتِيَ عَلَيْهَا، عِنْدَ عَرَضِنَا لِلْقَصَّةِ، بَغْيَةً الْإِخْتِصَارِ.

(٣) - الْغَدِيرُ ٧:٣٤٤، وَالْحِجَّةُ ٧٦ - وَبَيْنَهُمَا بَعْضُ الْاِخْتِلَافِ - وَالْأَعْيَانُ ١٤٧،

٣٩:١٤٨ - بِدُونِ الْأَرْبَعَةِ الْآيَاتِ الْآخِرَةِ. وَأَشِيرُ إِلَيْهَا فِي مَعْجَمِ الْقُبُورِ ١:١٨٥.

(٤) - الْهَمُّ - هُنَا - مَا هُمْ بِهِ الرَّجُلِ، أَوْ أَحَالُ فِكْرِهِ لِفَعْلِهِ وَإِيقَاعِهِ.

ذكرت أباه... ثم رقرقت غيرة

تجود من العينين ذات سجام

ويروح يُسجل هذه الحادثة، ويُودع مشاهدتها هذه الأبيات، حتى يصل إلى موقف بحري، وردّه أجبار اليهود الثلاثة، فيقول:

فجاءوا وقد همّوا بقتل محمد

فردّهم عنه بحسن خصام

بتأويله التوراة، حتى يقيموا

وقال لهم: رمتم أشدّ مرام

أبغون قتلاً للنبي محمد؟!

خصصتم على شؤم بطول أئام

وإن الذي تختاروه منه مانع

سيكفيه منكم كيد كل طغام

فذلك من أعلامه وبيانه

وليس نهاراً واضح كظلام^(١)

ولسنا نرى حاجة، لأن نترسل، فنورد كل ما سجله، بعد هذه الحادثة.

* *

لسنا - بعد هذا - بمن يشك في أن أبا طالب، كان ينظر إلى هذه الإرهاصات

- وقد شئنا أن نقف منها، عند هذا الحد - نظرة فاحصة، تلقى الكثير من عنايته،

والقصي من اهتمامه، فيعمل فيها فكره، فاحصاً منقّباً. فليس ما يشهد، من ابن

أخيه، بالشيء العادي، الذي لا يلفت النظر، أو يُنبه الفكر.

(١) - الغدير ص ٣٤٥، ٣٤٦ ج ٧ مسندة، والحجة ٧٧، ٧٨، في اختلاف، في اللفظ،

والعدد. وجاءت طائفة منها في الأعيان ١٤٨: ٣٩، وبعض أبياتها في معجم القبور ١٨٥: ١٠.

فما هذه الملامح والدلالات - التي يراها من ابن أخيه - والتي يجدها عند غيره، من هذا الحشد، من الناس!

فلمَ طلب منه ذلك العائف: أن يعود به إليه، وقد مرَّ به كثيرٌ غيره، فاعتاف لهم، دون أن يلقوا شيئاً من اهتمامه، ودون أن يسترجع واحداً، من بين هؤلاء الكثيرين...؟!

ولمَّا لم يجد لطلبه من يُلبيهِ، أرسلها قوله مرَّةً، بعيدة الصدى، عالية النبرة، توغل في المستقبل المجهول، لتُقرَّب إحدى نقاطه، فتجلبوها نصاعة البياض: «فوا لله ليكونَ له شأنٌ»!

ثم هذه العناية، التي شاهدها الركب، من بحيرى، وقد كان الركب يطوف بهذه الصَّومعة، ولم يسبق له أن رأى - قبلئذٍ - مارأى اليوم؟.

ثم ذاك الحديث، الذي جرى بينه وبينه... فإنه ليحفل براهين، كلُّ منها يقوم بالبيِّنة الثابتة، التي لا تُدحض...؟

يقول له: «إنه ابني». فيُجيب جواب الجازم، الذي لا يُخالجه ذرَّةٌ من شكٍّ أو ريبٍ: «ما هو بابنك». ويزيد: «وليس ينبغي أن يكون أبوه حيّاً»...!

ثم يُحدِّثه من «يهود»، فإنه كائنٌ له «شأنٌ عظيمٌ»...

إنها لدلائل صارخة، ليس له أن يُخالجه فيها شكٌّ، أو يعترضه ريبٌ!

* *

كلُّ هذا إلى جانب ما كان يسمعه من أبيه عبدالمطلب، وما يشاهده هو، من «بركة» هذا الغلام...

إنَّ البركة، لتفيض من أنامله. فيشبع الكثير من قليل الطعام، إذا امتدَّت يده إلى صحاف الطعام، أو قُبِع اللبن...

وإنَّ الماء، ليتدفَّق عذباً رويّاً حين ماركض الصَّخرة برجله، في قاحل الصَّحراء...

وإنَّ الغمامة، لَتَقِيهِ - مِنْ بَيْنِ الرَّكْبِ - وَهَجَ الشَّمْسِ، وَحَرَّ الهَاجِرَةِ، حَتَّى إِذَا اسْتَقَرَّ بِهِمُ الْمَقَامُ، رَأَى الشَّجَرَةَ: قَدْ تَهَصَّرَتْ مِنْهَا الْأَغْصَانُ، لِتُظَلِّلَ هَذَا الْغَلَامَ، الْمُبَارَكَ الطَّلْعَةَ.

* *

وَكُلُّ هَذَا وَذَاكَ، إِلَى جَانِبِ صِفَاتٍ وَمَزَايَا، تَحْفَلُ بِهَا شَخْصِيَّةُ ابْنِ أَبِي - مِنْ: صَدَقٍ فِي الْمَقَالِ، وَرَفْعَةٍ فِي الْأَفْعَالِ، وَمَثَالِيَّةٍ فِي الْأَخْلَاقِ، وَجَمَالٍ فِي الْمَلَامِحِ، وَعَذُوبَةٍ فِي الْمُنَاطِقِ، وَفَصَاحَةٍ فِي اللُّسَانِ، وَ... وَ... إِلَى نَهَايَةِ الْحَلْقَةِ الْمُرَغَّةِ، مِنْ الْحَلَالِ الطَّيِّبَةِ، وَالْخِصَالِ الْحَمِيدَةِ...

وَكُلُّ هَذَا جَمِيعاً، يَشْهَدُهُ مِنْ غَلَامٍ، لَمْ يَكْدُ يَخْطُو، مِنْ عَقْدِهِ الثَّانِي، سِوَى عَتَبَتِهِ، أَوْ لَمْ يَكْدُ...

وَكُلُّ هَذَا جَمِيعاً، يَشْهَدُهُ مِنْ غَلَامٍ، لَمْ يَكُنْ لِيَشْهَدَ بَعْضاً، مِنْ مَلَامِحِهِ، فِي حَشْدٍ مِنَ الْخَلْقِ، الَّذِينَ تَجْمَعُهُمْ وَإِيَاهُ بِلَدٍّ وَاحِدٍ، وَتَرْبِطُهُمْ جَمِيعاً عَادَاتٌ، فِي هَذِهِ الْبَيْتَةِ الْمُنْحَطَّةِ، وَالْمَسْتَوَى الْوَاطِئِ. فَلَمْ يَعْلُقْ بِهِ شَيْءٌ مِنْ عَادَاتِهِمُ الدُّوْنِ. وَلَمْ يُشَارِكُوهُ فِي شَيْءٍ مِنْ خِصَالِهِ الرَّفِيعَةِ... فَمَا وَجَدَ فِيهِ شَيْئاً، يُنْكِرُهُ عَلَيْهِ.

وَمَا كَانَ هُوَ - وَحْدَهُ - بِالَّذِي لَمَسَ هَذِهِ الظَّاهِرَاتِ، مِنْ ابْنِ أَخِيهِ، بَلْ إِنَّ مَكَّةَ كُلَّهَا، لَتَعْرِفُهُ «الصَّادِقُ الْأَمِينُ»، وَتَرْضَى بِهِ حُكْماً - يَقُولُ فَتُطِيعُ... وَيُحَدِّثُ، فَتُصَدِّقُ... وَيَأْمُرُ، فَتُذْعَنُ...!

زواج

تلك الرحلة الموقفة، دفعت أبا طالب - وهو المقل من المال، والمكث من العيال ...

... دفعته، لأن يُطرح ابن أخيه الحديث، ليدفعه إلى عمل، يستدر منه الرُبْح، ويُخفف عنه ثقل الحاجة للّحاح... فإنّ لابن أخيه لمستقبلاً، لا يرضى له أن يكون: عالة، أو حولاً...

لقد رأى أن خير عمل يليق به، هو: أن يخرج في تجارة، لواحد من هؤلاء الأثرياء.

وإنّ مكانة ابن أخيه، التي يتمتع بها، والصفات التي تحفل بها نفسه، لتفرضه على هؤلاء، فلا يطلبون عنه بديلاً... بل تدفعهم للسباق، فلن يناله، إلا من كان على جانب، من الحظ، موفور.

وتسمع خديجة بالحوار، بين الرسول وعمه، فتبعث إليه، وهي أشدّ مباتكون غبطة: أن يخرج في تجارتها، هذا «الصّادق الأمين»...

ويعود الرسول: موفور الرّبْح، مضاعفه... فيوسّع له هذا - في قلب خديجة الطّيب - موضعاً عميقاً، حتى شغفت به حبّاً، وتمنته شريكاً لحياتها، وليست تجد من يضاهيه، أو يُدانيه جمال ملامح، ومكارم خلق، وصدق مقال، وأمانة، وعلوّ فعال...

وخديجة، منذ أصغت إلى غلامها «ميسرة» - هذا الذي صحب محمّداً، في رحلته هذه - وهو يقصّ عليها ما شاهد من دلالات، حدثت لمحمّد «ص» في طريقه إلى الشام.

منذ ذلك الحين... شغلت بمحمّد عمّاً دونها، ورأت فيه الرّجل الكامل، الذي يجب عليها أن لاتعدل عنه زوجاً كريماً.

ولكن كيف...؟ وأنى تتحقّق لها هذه الرّغبة المتوقّبة، وهناك عادات وتقاليد تقف أمامها عنيّدة، تعيقها دون البُغية المرجوة، والأمل الجميل...؟

إنَّ العادة تفرض على المرأة: أن يتقدَّم إلى خطبتها الرَّجل... أمَّا هي، فلا تسمح لها أن تتقدَّم، طالبةً يد مَنْ تهوى...!

فهل لها أن تقف أمام هذه العادة، مكتوفة اليد، ليتبعثر منها الرَّجاء الحلو، والأمل المنعش...؟!

أم تتخطَّى هذا السدَّ، قبل أن يتحطَّم عليه قلبها وأملها، وتضيع حياتها، عندما يكون محمَّد نصيب غيرها؟!

واهتدت إلى حلٍّ، تُحطِّم به هذه العادة، دون أن يشعر أحدٌ بأنَّها قد تحطَّت سُر هذه التقاليد الموروثة...!

فدسَّت للرَّسول: «نفيسة بنت مُنيَّة» لِتُطارحه الحديث، وتلقِّي في سمعه رغبة خديجة إليه! فلعلَّها تعود إليها بما يُطمئن منها الضَّمير، ويُزيل هذا الكابوس.

لم يكد الحديث من الحوار، الذي دار بين الرَّسول «ص»، ونفيسة، يُشارف النَّهاية، حتى خطت نفيسة لخديجة، تُلقِي إليها بالرَّسالة النَّاجحة... وحتى اندفع الرَّسول، لعمِّ أبي طالب، يُخلج منه الضَّمير، بهذا النَّبِّ الضَّحوك...

ويُعقد حفل الزَّواج، فيقوم إمام قريش، وسيّد العرب - يوم ذاك - أبو طالب، ويقول:

[الحمدُ لله الذي جعلنا من ذرِّيَةِ إبراهيم، وزرع إسماعيل، وضِئْضِئ معدٍّ^(١)، وعنصر مضر، وجعلنا حضنةً بيته، وسوَّاسَ حرمه، وجعلَ لنا بيتاً محجوجاً، وحرماً آمناً، وجعلنا حكام النَّاس.

ثم إنَّ ابن أخي هذا - محمَّد بن عبد الله - لا يُوزن برجل، إلَّا رجح به: شرفاً، وبُلاً، وفضلاً، وعقلاً... فإنَّ كان في المال قلٌّ، فإنَّ المال ظلٌّ زائلٌ، وأمرٌ حائلٌ، وعاريةٌ مسرَّحةٌ.

(١) - الضُّؤْضُؤ والضُّئْضِئ: الأصل والمعدن.

وَمَحَمَّدٌ مَنْ قَدْ عَرَفْتُمْ قَرَابَتَهُ...! وَقَدْ خُطِبَ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَبَذَلَ لَهَا مَا أَجَلُهُ وَعَاجِلُهُ «كَذَا»...

وهو، والله! - بعد هذا - له نبأ عظيم، وخطرٌ جليلٌ جسيمٌ^(١).

* *

هذه الخطبة - مِنْ أَبِي طَالِبٍ - تَدُلُّنَا عَلَى شَيْئَيْنِ، وَنَلْمَسُ مِنْهَا ظَاهِرَتَيْنِ، يُقَرُّهُمَا أَبُو طَالِبٍ.

لَقَدْ افْتَتَحَ مَقَالَهُ، بِحَمْدِ اللَّهِ، الَّذِي جَعَلَهُمْ، مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ، وَزَرْعِ إِسْمَاعِيلَ... فَلَمْ تَنْلِ مِنْهُمْ الْوَثْنَةَ الْمُنْحَطَّةَ، وَلَمْ تُدْنَسْهُمْ بِأَوْضَارِهَا... فَكَانُوا عُنْصُرًا مُمْتَدًّا، وَإِشْعَاعَةً بَاقِيَةً، تَتَّصِلُ بِالنُّورِ الْأَوَّلِ، وَتَبْقَى رَمْزًا أَبَدِيًّا، وَدَعْوَةً مُتَمَدَّةً، لِلْحَقِيقَةِ الْبَيضاء...

وإنَّ هذه الظَّاهِرَةَ، الَّتِي امْتَاذُوا بِهَا، جَعَلَتْ مِنْهُمْ حَصْنَةَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ، الَّذِي شَادَهُ - بِأَمْرِ مِنَ اللَّهِ - أَبُوهُمْ الْخَلِيلُ... فَهَمَّ - وَحْدَهُمْ - سَوَاسُ الْحَرَمِ... وَبِذَلِكَ كَانُوا حُكَّامَ النَّاسِ...

غَيْرَ أَنَّ هَذَا كُلَّهُ... لَيْسَ غَيْرَ مُقَدِّمَةٍ، لِمَا بَعْدَهُ...

فَرَاغَ يَشِيدُ بِقِيَمَةِ ابْنِ أَخِيهِ الْمَعْنَوِيَّةِ... فَهُوَ: الْكَمِيلُ مِنْ بَيْنِ هَؤُلَاءِ كُلِّهِمْ، وَالرَّاجِحُ الْكَفَّةَ، فِي مِيزَانِ الْقِيَمِ وَالْمَعْنَوِيَّاتِ...! فَلَيْسَ مَنْ يُدَانِيهِ - بَلْهُ يَرْجِحُهُ - فِي صِفَاتِهِ وَمَزَايَاهُ...

(١) - السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ ص ١٠٦ ج ١، وَالْخَلْبِيَّةُ ١٦٥ ج ١، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ ص ٤٤، وَشَرْحُ النَّهْجِ لِلْحَدِيدِيِّ ٣١٢ ج ٣، وَأَبُو طَالِبٍ ص ٤، وَالْحِجَّةُ ٣٦، وَالْبَحَارُ ١٣٥ ج ٦، وَتَذَكُّرَةُ الْخَوَاصِّ ٣١٢، وَالْغَدِيرُ ٢٧٤ ج ٧ مُسْتَدَّةً.

وَذُكِرَتْ فُصُولٌ مِنْهَا فِي إِعْجَازِ الْقُرْآنِ - لِلْبَاقِلَانِيِّ - ص ٢٣٤، وَأَعْيَانُ الشَّيْعَةِ ص ١٣٧ ج ٣٩، وَالْكَامِلُ لِلْمَعْرِدِ ص ١١٧٤، ١١٧٥ ج ٣.

وَقَدْ شَتْنَا: أَنَّ نَحْنُ نَحْتَصِرُ خُطُوطَ هَذِهِ الْحَادِثَةِ، وَأَنَّ نَقِفَ - مِنْهَا - عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ، حَيْثُ مَسَاسُهُ بِمَوْضُوعِ الْكِتَابِ.

وَيَرْجِعُ لَهَا، فِي مَصَادِرِهَا، مَنْ شَإَىهَا مَفْصَّلَةً.

وهو - بعد هذا - سيبلغ ما لم يبلغه اليوم...! فله بعد هذا - ويُقسم عندنا
 بالله... وللقسم - هنا معناه وقيمته، في ما يذهب إليه...
 ... فله شأنٌ عظيمٌ، وخطرٌ جسيمٌ...
 وليس، غير اختياره لعبء الرسالة، وهداية البشر، ليختتم صفحة النبوة، بسطرٍ
 على إشعاع سنيّ، وإشراق حرفٍ.
 ليس غير هذا... ذلك «الشأن العظيم»، أو «الخطر الجليل الجسيم».
 فهو: ينظر من حياته، إلى أبعد من واقعه - اليوم - ليعلن لهذا الحفل البهيج،
 بهذه البشري...! وليُقرب منهم هذا «الشأن»، لئلا يفجأهم، أو ليكونوا منه على
 ارتقاب...

في فجر الدعوة

الفجر الأول

إنَّ اليتيم، الذي قضى هذا الأمد، في كنف بيضة البلد، فسهر هذا على راحته، وتحوطه بعنايته... أصبح - اليوم - مفتول الساعد، عبل الذراع.
فهو ربُّ بيتٍ، وأبٌ لأطفالٍ، تُكوِّن أسرةً، تُريد أن تحيا حياةً صالحةً، فتتوفر فيها مقومات الحياة الفضلى - يوم ذاك - وأسباب الاستقرار...
وانها لفي فيضٍ، من السعادة والاطمئنان... حتى وإن كان ربُّها - من المال - لعلى قلّة.

فهل انتهت - بذلك - المهمّة، التي تحمّلها شيخ الأبطح، منذ لدونة غصن ابن أخيه، ونعومة أظفاره، إلى اليوم، فأدّى بذلك وصيّة أبيه، في هذا الحفيد اليتيم، وقضى واجبه تجاهه، ليفرغ - اليوم - للعناية بأولاده، ولم يحصلوا إلا على النزر منها - طيلة هذه المدّة - حيث آثر بها ابن أخيه، وأوقف عليه دونهم: قلبه، وراحته، وعاطفته؟!.

إنَّ الجواب محتومٌ أن يكون: «لا...!»

قد يكون الجواب: «نعم!»، أو قد يكون مفروضاً أن يكون «نعم»، لو كان اليتيم، غير يقيم عبد الله بن عبدالمطلب...
لو كان أيُّ واحدٍ من الناس، غير هذا، الذي سيُغيّر مجرى التاريخ، وسيفيض بالسنى والثور، على هذا الكون المدهّم.

أما واليتيم - الذي ظلّ في رعاية بيضة البلد - هو ابن عبد الله، فبأنّ المهمّة لم تنته، عندما كان هذا اليتيم زوج خديجة، وأباً لزهراء باسمات...
بل إنَّ المهمّة، لم تبدأ، سوى اليوم، الذي طوى فيه الرسول أربعين عاماً، من سنيه...

وإنه لليوم المنتظر، الذي ودَّ عبدالمطلب - مِن عميق أعماقه - أن يُدركه
فيشهد إشراق سناه، وباهر نوره، ويؤمن بما فيه من حق...

... وإذ رأى منه جبل الحياة، على انقطاع، أوصى به ابنه الأثير، ليرعاه
ويكأله وحده، وأشرك معه أبناءه جميعاً، ليؤمن به منهم، من يُدرك هذا اليوم
العظيم.

وأبو طالب... منذ ذلك اليوم... وهو يرقب فجر يومه هذا، وينتظره بنفاد
صبر، وعدم تصبر. فلا يُريد أن يبعد بزوغ فجر هذا اليوم، ولا يدري إلى متى،
ستمتدُّ رقعة عمره؟، ومتى ستطوى صفحة حياته؟...

... فيخشى أن يدهمه الموت - مثله مثل أبيه، من قبل - فلا يشهد فجر هذا
اليوم، ويفوته شرف الإيمان بما فيه من جلال، وحق، وعظمة...

* * *

أجل! إنَّ ذلك اليوم، قد أطلَّ بوجهه البسَّام، وغيَّاه الضُّحوك.
وهاهو ذا أبو طالب، وقد أشرق منه الوجه، وتفتحت منه الأسارير، وبدأت عليه
بشائر الخير، وشارات الرُّضى والاطمئنان، إذ لمح - بعينه - فجر ذلك اليوم المنتظر...
فهذا ابن أخيه، قد ذهب لعمِّه العباس - أخيه - ليقول له:

«إنَّ الله قد أمرني بإظهار أمرِي».

ويطلب منه النصرة، ليشدَّ أزره، ويقوِّي ساعده... غير أنَّ العباس، لا يجد من
نفسه القدرة والكفاءة، ليقوم بعبء هذه المهمة البهيم، ويقول له، بعد عذِر
مبسَّط:

[...] ولكن قُرب إلى عمِّك أبي طالب، فإنَّه أكبر أعمامك... إن لا ينصرَكَ،
لا يخذلك، ولا يسلمك].

ولا تكاد باصرة أبي طالب، تلتقط شبيهما، حتى يهتف:

«إنَّ لكمَا لظنَّة وخبراً! ماجاء بكما في هذا الوقت؟».

وَيُصْغِي لِأَخِيهِ الْعَبَّاسِ، وَهُوَ يَسْطُلُ لَهُ مَا جَاءَ بِهِ ابْنُ أَخِيهِ، وَمَادَارَ بَيْنَهُمَا مِنْ حَدِيثٍ، وَإِذَا بِهِ قَدْ رَكَّزَ نَظْرَهُ فِي ابْنِ أَخِيهِ، وَقَدْ أَشْرَقَ مِنْ عَيْنِهِ بَرِيقُ جَذَابٍ، سَلَّطَهُ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ، كَالْمَجْهَرِ الَّذِي يَشْفُ عَمَّا بَيْنَ الطَّوَايَا.

ثُمَّ يَقُولُ لَهُ هَذِهِ الْقَوْلَةُ، الَّتِي تُشْعِي فِي قَلْبِ مُحَمَّدٍ غِبْطَةً، وَتُشْجِعُ مِنْهُ الْجَنَانَ، وَتُعْطِيهِ طَاقَةً وَقُوَّةً عَلَى الْمَضِيِّ فِي أَمْرِ رَبِّهِ، بِثَبَاتٍ، وَشَجَاعَةٍ، وَاطْمِنَانٍ، وَقُوَّةٍ إِيْمَانٍ... فَلَدِيهِ سَنَدٌ يَقِيهِ الزَّعَازِعَ، وَحَصْنٌ يُلْجَأُ إِلَيْهِ، عِنْدَ نُذْرِ الْإِعْصَارِ الْمَارِدِ:

[أَخْرَجَ - ابْنُ أَبِي! - فَإِنَّكَ الرَّفِيعَ كَعْبًا، وَالْمُنِيعَ حَزْبًا، وَالْأَعْلَى أَبَا!]. وَاللَّهِ لَا يَسْلُقُكَ لِسَانٌ، إِلَّا سَلَقْتَهُ السِّنَّ حَدَادًا، وَاجْتَذَبْتَهُ سَيُوفَ حَدَادًا... وَاللَّهِ لَتَذُلَّ لَكَ الْعَرَبُ، ذُلَّ الْبَهْمِ لِحَاضِنِهَا!.

وَلَقَدْ كَانَ أَبِي، يَقْرَأُ الْكِتَابَ جَمِيعًا... وَلَقَدْ قَالَ: إِنَّ مِنْ صِلَابِي لِنَبِيًّا، لَوُدِدْتُ أَنِّي أَدْرَكْتُ ذَلِكَ الزَّمَانَ، فَأَمَنْتُ بِهِ. فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْ وَلَدِي، فَلْيُؤْمِنْ بِهِ^(١).

شَاءَ أَبُو طَالِبٍ أَنْ يُؤْفِيَ مُحَمَّدًا حَقَّهُ، فَيَذْكُرَ صِفَاتِهِ وَسُودَدِهِ. ثُمَّ رَاحَ يُطَمِّنُهُ وَيُشْجِعُهُ، لِيَمْضِيَ قَدَمًا، إِذْ وَعَدَهُ النُّصْرَةَ وَالتَّضَحِّيَةَ، فِي سَبِيلِ رِسَالَتِهِ...

ثُمَّ بَعُدَ مِنْهُ النَّظَرُ، إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ الْبَاسِمِ، الَّذِي سَيَصِلُ إِلَيْهِ ابْنُ أَخِيهِ، فَتَذُلَّ لَهُ الْعَرَبُ، وَتُؤْمِنَ بِدَعْوَتِهِ، وَتُسَلِّمَ إِلَيْهِ أَمْرَهَا...

وَعَادَتْ بِهِ الذَّاكِرَةُ، إِلَى شَخْصِ أَبِيهِ، حَيْثُ أَلْقَى إِلَيْهِ، وَإِلَى وَلَدِهِ، وَصِيَّتِهِ... وَهَاهِي ذِي قَدْ تَحَقَّقَتْ... وَهَاهُوَ ذَا النَّبِيِّ قَدْ بُعِثَ... فَعَلَيْهِ أَنْ يُؤْمِنَ بِهِ، وَيَنْصُرَهُ، لِرُضَى رُوحِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ، وَتَهْنَأُ، وَيَقْرَأَ عَيْنًا...

* *

(١) - ذُكِرَتْ فِي الْغَدِيرِ - ص ٣٤٨: ٧ - وَجَاءَ فِيهِ: أَخْرَجَهَا فَقِيهِ الْخَنَابِلَةِ إِبْرَاهِيمَ بْنَ عَلِيٍّ الدِّينَوْرِيِّ، فِي كِتَابِهِ «نَهَايَةُ الْمَطْلَبِ وَغَايَةُ السُّؤْلِ فِي مَنَاقِبِ آلِ الرَّسُولِ». وَأَرْجَعَ الْقَارِئُ - أَيْضًا - إِلَى «الطَّرَافِ» لِلسَّيِّدِ ابْنِ طَاوُوسٍ - ص ٨ - وَ«ضِيَاءِ الْعَالَمِينَ» لِلشَّيْخِ أَبِي الْحَسَنِ الشَّرِيفِ.

وَذُكِرَتْ فِي «شَيْخِ الْأَبْطَحِ» - ص ٢٢ - وَفِيهِ: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ هَذَا، أَخْرَجَهَا بَعْدَهُ أَسَانِيدُ.

وَذُكِرَ الْقِسْمُ الْآخِرُ - مِنْ قَوْلَةِ أَبِي طَالِبٍ هَذِهِ - فِي الْعَبَّاسِ ص ١٨ وَ ٢١.

وهي - - إلى هذا - مفتاحٌ لمستودع إيمان أبي طالب...! فهي - على أقلِّ تقديرٍ. إذا لم نتلفَّت إلى تلك الدلائل والشَّارات - فهي أوَّل البراهين على إيمانه العميق، واعتناقه للدَّعوة المحمَّديَّة، واطمئنانه لصدقها...

ولولا ذلك... لكان أوَّل المنكرين عليه، والثَّائرين في وجهه. وإنه لفي مقدوره ذلك، ومحمَّد ربيِّه، ودعوته - بعد - لم تنشط، ولم يكد يتقبَّلها أحدٌ... فهي: بذرةٌ لم تقم لها ساقٌ، ولم يصلب لها عودٌ... فَمِنْ اليسير: أن يسحقها، دون أدنى صعوبة...

أو - على أقلِّ تقديرٍ - يدعُ ابن أخيه وشأنه، دون أن يعده النَّصرة، ودون أن يبثَّ فيه روحاً دافقةً، وعزيمةً صلبةً.

بينما نرى أبا طالبٍ: على عكس ذلك. فهو - في قبوله هذه الدَّعوة - كَمَنْ يرتقب حدثاً، سيكون بين: لحظةٍ، وأخرى... وإذ رأى الشَّارات الأولى، لم تكن عليه مفاجأة، ولا حدثاً غريباً.

لذلك... لم يكِد العباسُ يُنهي قوله، ويُدبر في ابن أخيه نظرتَه البعيدة، حتى بدأ قوله آمراً ابن أخيه ببثِّ الدَّعوة: «اخرج - ابن أبي!».

فلو لم يكن بدعوته مقتنعاً، ولصدقها مطمئناً، لَمَا كان يقول ما قال، ولَكُنَّا نشهد منه موقفاً واهناً، غير هذا الموقف المشجِّع...

ولكن الإيمان بالدَّعوة، والإطمئنان إليها، يفرضان عليه هذا الموقف العظيم، ليمدَّ ابن أخيه بقوةٍ وثباتٍ وشجاعةٍ... فالمهمَّة التي أُلقيت على كاهله بهيظةٍ احمِل....! فعليه: أن يُؤازرها، ويُدافع عنها، وينصرها نصراً مبنياً، وهو العليم بأنَّها رسالة السَّماء، والتي بشرت بها الكُتب المقدَّسة، مما قرأ عبدالمطلب.

يوم الإنذار

وتلا ذلك اليوم يوم آخر، لا يقل روعةً وجلالاً، عن ذلك اليوم...! فحين تلقى الرسول من الملائكة آية الإنذار، أمر علياً - وهو المؤمن الأول بالدعوة - أن يدعو إليه «عشيرته الأقربين»، من رؤساء قريش، فألقى إليهم ما يريد من هذا الاجتماع، والغاية منه.

وتفرق الجمع، دون جدوى...! وعاد، فجمعه - مرة أخرى - فهو «رائد لا يكذب أهله»، وهو «رسول الله إليهم - خاصة - وللعرب، عامة».

وإذ انتهى الرسول من دعوته، بادره عمه أبو طالب، بالقول: [ما أحب إلينا معاونتك، وأقبلنا لنصيحتك، وأشدّ تصديقنا لحديثك. وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون، وإنما أنا أحدهم غير أنني أسرعهم إلى ما تحب. فامضي لما أمرت به. فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك، غير أن نفسي، لاتطأو عني على فراق دين عبد المطلب]^(١).

فعارض أبو هب أبا طالب، في المقال: «هذه - والله! - السؤاة! خذوا على يديه، قبل أن يأخذ غيركم».

وإذا بأبي طالب، يُجيبه: «والله لنمنعنه ما بقينا»^(٢).

ثم يلتفت لابن أخيه، ليقول له:

(١) - الكامل لابن الأثير ص ٤١ ج ٢.

(٢) - الكامل لابن الأثير ص ٤١ ج ٢، والسيرة الحلبية ١: ٣٢١.

[قم - يا سيدي! - وتكلم بما تحب، وبلغ رسالة ربك، فأنت الصادق الصديق^(١)].

* *

يا لروعة الإيمان، تملك على ابن عبدالمطلب نفسه، فيندفع: مصدقاً، مؤمناً، مشجعاً، من بين قوم يربو عددهم على الأربعين، قد نسج الجهل على عيونهم غشاوة، فلم تستطع عين منهم أن تكتحل بهذا النور المشرق.
إنه ليحب معاوانته، ويقبل نصيحته، ويصدق حديثه...
فهل هذا غير الإيمان العميق، والانقياد الصادق، والطاعة ممن يعرف ويختار، لامن يجهل ويسير...؟

إنه لأسرع بني أبيه لما يحب... فعليه أن يمضي لما أمر به... فوالله ليحوطنه ويحميه، ويدفع عنه العوادي...
أليس هو الإيمان الناطق؟. فهو يذل المعونة، ويأمره بإنفاذ أمر ربّه، والصّدوّع برسالته...

فهو لو لم يكن ذلك المؤمن بالدعوة، والمطن لصدقها، لكان له حديث، غير هذا الحديث، وموقف يُغايّر موقفه هذا... وكذلك رأينا أبا هب، كيف وقف، وكيف أشار... حتى كان بينهما حديث، اضطرّ - خلاله - أبو طالب: أن يثور في وجهه، وأن يضعه مكانه:

«اسكت - يا أعور! - ماأنت وهذا...؟»^(٢).

ألم يكن أبو طالب، وأبو هب، عمّي الرسول؟.

فلم يقف كلّ منهما موقفاً، يُخالف الآخر، أتمّ الخلاف...؟
فهذا يضحّي في سبيله، بما يستطيع، ويثبتته، ويُسجّعه، ويقف في جانبه، يُنافح عنه ويكافح، ويسلق عتاة قريش، بلسان أحد، غير أبيه، ولاخوآف...؟

(١) - شيخ الأبطح ص ٢٢، والغدير ٧: ٣٥٥ - مسنداً لمراجع.

(٢) - البحار ص ٤٥٠ ج ٦ والغدير ص ٣٥٥ ج ٧، وشيخ الأبطح ص ٢٢.

وذاك يقف ذلك الموقف الواهن، ينال من الرسول، ويُفَرِّقُ عنه القوم، ويقطع عليه حديثه، ويسخر لما جاء به...؟

ألم يكن الإيمان - وحده - هو الذي يفرض على أبي طالب: أن يقف موقفه هذا، ولا يحيد عنه...؟
كما أن الشُّرك - وحده - هو الذي يفرض على أبي هُبَ: أن يقف موقفه ذاك، ولا يحيد عنه...؟

* *

وأبو طالب، بعدما أخذ، من حديثه ما أخذ، وأظهر لعتاة قريش: أنه قد انصاع لدعوة محمد، وأنها قد احتلت من قلبه السُّوداء - رأى عيوناً شذراء، تلتهمه بنظرها الحاقد... فرأى: أن يُعَمِّي على هؤلاء موقفه، وذلك لصالح الدَّعوة المحمَّديَّة، فينفسح لديه طريق الجهاد والدِّفاع، والمناصرة الفعَّالة:
«غير أن نفسي، لأتطاوعني على فراق دين عبدالمطلب...».

وما دين عبدالمطلب هذا...؟
إنه الحنيفيَّة البيضاء: دين إبراهيم الخليل.
وما هذا الدِّين، إلَّا امتدادٌ لشعلة ذلك الدِّين، وامتدادٌ لتلك الدَّعوة العميقة، وإكمالٌ للأديان الإلهيَّة.

وإنَّ هذا خير طريق، رأى أبو طالب أن يسلكه، فيُعَمِّي على هؤلاء، الذين أقفلت قلوبهم، وعميت منهم العيون.

لذلك... لم يكذب يري من أبي هُبَ: موقفه المشين، حتى وقف محتدماً، ثائراً في وجهه، ليردَّه إلى حيث يجب أن يكون...

ثم وجَّه القول لابن أخيه: «قم يا سيدي!».
وهذه الكلمة - «سيدي» - برهانٌ ناطقٌ على إيمان أبي طالب.

«سَيِّدِي»: كلمة يُوجِّهها أبو طالب، لَيْتِيم أخيه وربيّه.. وهو - لولا النبوّة - له عليه حقوق... وكان أولى أن يقولها إليه! فهو عمُّه ومرُّيّه، وكافلّه، ويكبره سنّاً... (١) - وكلُّها حقوقٌ له على ابن أخيه، تضعه موضع احترام ابن أخيه، وتفرض على مُحَمَّدٍ أَنْ يُوجِّهَ إليه كلمات التّعظيم والإجلال... ولكن الله أعطى مُحَمَّدًا - حين اختاره لرسالته - حقوقاً، هي فوق كلّ هذا... فهو المصباح الذي تهتدي به الإنسانيّة، في محلولك طريقها المتسوي. فهو - بذلك - فوق العمومة، والتّربية، والكفالة، والسّنّ، وغيرها... كلّ هذا... لمحّه أبو طالب، حين انبعثت مِنْ حنجرته: «قم - يا سَيِّدِي!». فهو سيِّده، مادام رسولُ ربِّه، وقد فُرِضت عليه طاعته، وتصديق رسالته، والانصياع لأوامره ونواهيّه.

ولذلك أُرْدِف على قوله: «يا سيدي!» بقوله:
«وتكلّم بما تُحبُّ، وبلِّغ رسالة ربِّك، فإنّك الصّادق الصّديق - أو المصدّق».

(١) - لسنا بمن يرى للسّنّ - وحدها - قيمة ذاتيّة، تضع الميسرّ، في منزلةٍ وقيمةٍ، فوق مستوى مَنْ يدنو عنه في السّنّ، إذا لم تكن للميسرّ مميزات أخرى... فالشّخص الذي يرى لنفسه الأفضليّة بالسّنّ - وحدها - إنّما هو شخصٌ فافدٌ لكلّ الخلال المميّزة، والرّاحة في ميزان القيم. فهو يتشبّه بهذه الخلّة التّافهة، ليُخفي النقص، ويسرّ الفقر المدفع، المتردّي فيه، ويتشبّه بالطّحلب، الذي لا يتجو به الغريق... ولكن التّشبّه بهذه المزعة، قديمٌ في تاريخنا الإسلاميّ، حيث فرضته ظروفٌ سياسيّة زمنيّة، ومادّيّة بحتّة.

وخير ما نزن به الإنسان، هو قوله الإمام عليّ عليه السلام: [قيمة كلّ امرئ ما يحسن]، و:
[المرء بأصغريه: قلبه ولسانه].

ونعود، فنقول: بأننا لسنا بمن يرى للسّنّ - وحده - آية قيمة ذاتيّة، ما لم تكن للميسرّ مميزات أخرى، فيكون السّنّ - حينئذٍ - مما يشدُّ بقيمة تلك المميّزات. أو إنّ تلك المميّزات الأخرى، تُضفي على السّنّ شيئاً من قيمها، فتتماسك، وتلتحم، لينتج منها الجلال والوقار، الذي يبدو وراء السّنن الطّوال، التي مرّ بها الميسر... فاكتمب منها التجارب النّافعة، وحكته الآثام، بدروسها المفيدة...

فمادام هو الصادق، الذي لا يقول الكذب، والذي لو أخبر بأنَّ خيلاً، تخرج مِنْ شَقِّ جبلٍ، لَمَا استطاع واحدٌ مِنْ أهلِ مَكَّةَ: أن يفوه بكلمة تشكيكاً! - فكيف له أن يُنكر رسالته، والزَّمن لها مرتقبٌ، والنَّدْر تَرَى، والبشائر تتواصل، والطَّبيعة تحتم طلوعه...؟

ثم وجد عيوناً تتغامز، وألسنةً تتهامس، حتى وصلت لسمعه كلمة، فيها تهكمٌ وسخرية:

«قد أمرك أن تسمع لابنك»^(١) - يعنون عليّاً، حين نصَّ عليه الرُّسول بالصاية.

ولكنه لا يأبؤه لِمَا يقولون! ولا يُزعزعه هذا القول مِنْ هؤلاء! فيجيبهم بكلمة، يقطع عليهم بها مجال القول، ويُعطي ابنه طاقة تشجيع:

«دعوه فلن يألوا ابن عمّه خيراً...»^(٢).

* *

وما كانت هذه القولة - مِنْ أبي طالبٍ - بالأوّل، التي يسمعها الإمام عليٌّ، مِنْ أبيه، وتحمل مدى رضاه وارتياحه، لنصرة ابن عمه، سيّد البشر...
لقد رآه - في يوم الرِّسالة البكر - وهو يُصَلِّي خلف الرُّسول، وقد اختفيا، حذراً مِنَ المشركين، وإذ أجاب عليٌّ أباه على سؤاله:

«يا أبت! آمنتُ بالله وبرسول الله، وصدَّقته بما جاء به، وصليتُ معه لله، واتبعته».

- أجابه أبو طالب:

(١) - الكامل لابن الأثير ٤١ ج ٢، والطَّبري ٦٣: ٢، وغاية المرام ٧٠ و ٧٨ و ١٥٣ و ١٦٤ و ١٨٥ و ٣٢٠ و ٣٢٢ و ٦١٣، والغدير ٢٧٩-٢٨٣: ٢، و ٣: ٢٠٩، وأعيان الشَّيعة ٩٨-١٠٢ ج ٢ و ٣٩: ١٦٤، وتقض كتاب العنمائيّة - وهي في رسائل الجاحظ - ص ٣١، والدَّعوة لسيّدنا الوالد ص ١٢٤ و ١: ٢٤١.

(٢) - الغدير ٣٥٥: ٧.

«أما إنه لا يدعوك إلا إلى خير، فالزمه»^(١).

إنها كلمة، تنمُّ عن إيمانٍ واطمئنانٍ عميقين، في قلب قائلها... فليس يدعوا الرسول لسوى الخير... وَمَنْ هو داعٍ للخير، فعلى كُلِّ عاقلٍ أن يلزمه، لعله ينال نصيباً من خيره...

إنها لدليلٌ - مِنْ بين تلك الدلائل، الوفيرة العدد - على إيمان بيضة البلد... وإلا لو لم يكن ذلك المؤمن بالدعوة، فما له، وللدعاية لها، وتثبيت ابنه على اعتناقها والتزامها...؟

بل لو لم يكن كما كان، لرأيناه: ينهى ابنه علياً، عن الانصياع لها، وأن يرفض ماجاء بها. فهذا ابنه، وهو أوَّل مَنْ يبذل له النصيحة، ويأخذ بيده إلى الحُبِّ الطُّرُق - ولو حسب رأيه!.

فلو لم يعرف: أنَّ في لزوم عليٍّ لابن أخيه، واعتناقه ماجاء به مِنَ السَّماء... لو لم يره خيراً - وليس يدعوا محمداً لسوى الخير - لَمَا قال له قولته هذه... ولزجره، ونهاه، وأنبه وردعه.

* *

وليس هذا، هو السَّطر الأوحد، في هذه الصَّفحة المشرقة، مِنْ تأريخ أبي طالب النَّصِيع. بل إنَّ له سطوراً أخرى هي على إشراقٍ وسطوعٍ، كهذا...
فقد رُوِيَ عن الإمام عليٍّ «عليه السلام» قوله:

(١) - الطُّبريُّ ٢: ٥٨، والإصابة ٤: ٢١٦، والسِّيرة المشتمية ١: ٢٦٤، والنَّبَويَّة ١: ١٧٦، والخلِيبَةُ ١: ٣٠٦، وشرح النهج ٣: ٣٠٥، ونبايع المودَّة ١٦٨ [٢: ٢٨]، والرياض النَّضرة ٢: ١٥٩، وغاية المرام ٥٠٠، وأبو طالب ٥٠ العباس ٢٣، والغدير ٧: ٣٥٦ مسندةً إلى بعض المصادر، ممَّا ذكرنا، وإلى: تفسير التُّعلييِّ، وعيون الأثر ١: ٩٤، وأسنى المطالب ١٠.
وذكرها الإسكافيُّ، في نقض العنمانيَّة - رسائل الجاحظ ص ٥١ وذكُرت في الإمام عليٍّ صوت العدالة ص ٣٥، وفيه ص ٥٧، ٥٨: ١.

قال لي أبي: يا بني! الزم ابن عمك، فإنك تسلم به من كل بأس آجلٍ وعاجلٍ.
ثم قال لي:

إن الوثيقة في لزوم محمد

فاشدذ بصحبه علياً يديكاً^(١)

* *

فهو - هنا - قد دلّ ابنه علي: أن لزوم ابن عمه، فيه السلامة من كل بأس في دنياه هذه، وفي أخراه...

إنه للإيمان باليوم الآخر، يوم تُوفى فيه كل نفس أجرها، وتقدم على فعلها...

* *

وإنه ليرى الرسول - مرةً أخرى - وهو يُصلي، وعليّ عن يمينه، فيقع منه النظر على ابنه جعفر، ويهتف به:

«صِلْ جناح ابن عمك. فصلٌ عن يساره»^(٢).

وإذ ذاك تنطلق حنجرة أبي طالب، بهذه الأبيات، التي يذكر فيها ابنه: علياً وجعفرأ، وهما ثقته، عندما يلزم به الزمن، وتنوبه الثوب، فيختارهما لمهمة فضلى، هي: نصر ابن عمهما:

إن علياً وجعفرأ ثقتي

عند ملء الزمان والنوب

لاخذلاً، وانصراً ابن عمكما

أخي لأُمّي - من بينهم - وأبي

(١) - الشرح الحديدي ٣: ٣١٤، والحجة على الذاهب ٦٣، وأعيان الشيعة ص ٩ ج ٣ ق ١،

و ١٤٤ ج ٣٩ وهاشم وأُمّي ١٦٣

(٢) - السيرة النبوية ١: ١٧٧، والخلبية ١: ٣٠٤، والإصابة ٤: ١١٦، والحجة ٣: ٢٧٢،

٦٥، والبحار ٤٠٣ ٤٤٤ ٤٤٥ ٦: ٤٤٥، وأعيان الشيعة ٩: ٣ ق ١٠، ١١ ج ١٦، و ١٣٩ ج ٣٩،

وتفسير علي بن إبراهيم ص ٣٥٣، وأبو طالب ٥٠، وهاشم وأُمّي ١٦٣، والغدير ٣: ٣٥٧ ج ٧ مسندة -

بالإضافة لبعض المصادر، مما ذكرنا - إلى: أسد الغابة ١: ٢٨٧، واسنى المطالب ٦ والأوایل للعسكري.

وذكرها الإسكافي، في حادثة: في رسالته: نقض العثمانية - راجع رسائل الجاحظ ص ٤٩ و ٥١

والله لا أخذلُ النَّبيَّ، ولا

يُخذلُهُ - مِنْ بَنِي - ذُو حَسَبٍ^(١)

أَرَأَيْتَ هَذَا الْإِعْزَافَ السَّافِرَ: «وَاللَّهُ لَا أَخْذُلُ النَّبِيَّ»...

إِنَّهُ لَقَسَمٌ عَظِيمٌ، قَدْ وَقَاهُ أَبُو طَالِبٍ، وَقَامَ بِهِ، فَلَمْ يَخْذِلْهُ طَوَالَ حَيَاتِهِ، وَلَمْ يَخْذِلْهُ مِنْ بَنِيهِ أَحَدٌ، قَدْ وَرَثَ مِنْهُ هَذَا الْحَبُّ، وَالشَّرَفُ الضَّخْمُ...

* *

وَمَرَّةً أُخْرَى: يَهْتَفِ بِأَخِيهِ الْحَمْزَةَ - أَبِي يَعْلَى - وَيَدْعُوهُ لِإِظْهَارِ دِينِ اللَّهِ، وَأَنْ يَصِيرَ عَلَى الْمَكْرُوهِ، الَّذِي سَيَلْقَاهُ، نَتِيجَةُ هَذَا الْإِظْهَارِ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَحُوطَ مَنْ أَتَى بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّهِ، بِنَصْرِ صَادِقٍ، وَعَزِيمَةٍ مَاضِيَةٍ...

وَلِنُدْعَ آيَاتِ أَبِي طَالِبٍ، تَصِلُ إِلَى سَمْعِنَا بِصَافِي نَبْرَتِهَا:

فَصَبْرًا - أَبَا يَعْلَى! عَلَى دِينِ أَحْمَدٍ

وَكُنْ مَظْهَرًا لِلدِّينِ - وَوَقَفْتَ - صَابِرًا

وَحُطُّ مَنْ أَتَى بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ

بِصَدَقٍ وَعِزِّمْ، لَا تَكُنْ - حِمَزًا - كَافِرًا

فَقَدْ سَرَّيْنِي، إِذْ قُلْتَ: أَنْتَكَ مُؤْمِنٌ

فَكُنْ لِرَسُولِ اللَّهِ - فِي اللَّهِ - نَاصِرًا

وَنَادِ قَرِيشًا بِالَّذِي قَدْ أَتَيْتَهُ

جَهَارًا، وَقُلْ: مَا كَانَ أَحْمَدُ سَاحِرًا^(٢)

(١) - النهج الحديدي ٢٧٢ و ٣:٣١٤، والحجة ٦٥، وديوان أبي طالب: ١١، وشيخ الأيطح ٣٨، وديوان أبي طالب ١٩، وأعيان الشيعة ٣:٩ ق ١ و ١٦:١١، و ٣٩:١٤٤، ومعجم القبور ١٩٦ و ١:٢٠١، والغدير ٧:٣٥٦ - مستند لديوان أبي طالب، والأوایل للعسكري - ونقض العثمانية، رسائل الجاحظ ص ٤٩.
(٢) - الشرح الحديدي ٣:٣١٥، والحجة على الذاهب ٧١، والمناقب ٣٦، والبحار ٦:٤٥٤، والعباس ٢٢، وديوان أبي طالب ١٦ - وقد أسندنا الحقيق، لكل من: مناقب ابن شهر آشوب، وإصابة ابن حجر، والشرح الحديدي، ولم يذكر رقم الصفحات. لذلك لم نعرش عليها في الإصابة - وذكرنا في الأعيان ص ١٤٤، و ٣٩:١٤٥ وذكر الأول والثالث في مجمع البيان ٧:٣٧.

إنَّه لداعية إسلامية، يهتبل الفرصة، يُعبّر عما يكنه في صدره، ويعرض ما يحفل به جنانه...

فإنَّه لمن دواعي سروره: أن يقول حمزة: إني مؤمن... وإذ قالها، فعليه: أن ينصر الرسول، نصره إلهية... نصره الحق للحق، من دون نظرية أخرى، كواشجة قرابية، أو دم...! فالذين قبل كل شيء، والعقيدة فوق كل شيء...

* *

ولعل من الخير: أن نختتم هذا الفصل، بكلمة للبرزنجي، تتناسب وماعرضناه هنا... فقد قال:

(تواترت الأخبار: أن أبا طالب، كان يحب النبي، صلى الله عليه «وآله» وسلم ويحوطه وينصره، ويعينه على تبليغ دينه، ويصدقّه في ما يقوله، ويأمر أولاده - كجعفر، وعلي - باتّباعه ونصرته).
وقال:

(هذه الأخبار كلها، صريحة في قلبه، طافح ومتملىء بالإيمان بالنبي صلى الله عليه «وآله» وسلم^(١)).

(١) - ص ٣٥٨: ٧ من الغدير، مسندة إلى ص ٦ و ١٠ من «أسنى المطالب».

جهاد

نشطت دعوة الرسول، وامتدَّ لها شعاعٌ، وسطع منها نورٌ... فإنَّ لديه حصناً منيعاً، يقيه الهزاهز، ويمنع عنه الإعصار...

فأبو طالب قد عاهد الله على نصرته دينه، الذي جاء به ابن أخيه «ص» فهو يحوطه وينصره، ويبدل في سبيل ذلك أغلى شيءٍ في الوجود، حتى ولو روحه، التي تخفق في كيانه، أو فلذة كبده، التي تدبُّ على الأرض، ويُعبَّر عنها بـ«الولد»... وراح الرسول - وقد اشتدَّ ساعده، بهذه النصرة والحياطة - يبتُّ دعوته بنشاطٍ دائمٍ، لا يثنى ولا يخاف، وله بناءٌ شامخٌ، يستند إليه، وظلٌّ وارفٌ، يقبل إليه في المهاجرة...

* *

وهنا... نفتتح صفحةً، مشرقة السُّطور، من تأريخ أبي طالب النصيع، فنفارق صفحةً ناصعةً، لأخرى، لاتقلُّ عنها: نصوعاً، ونقاءً، وإشراقاً...

فتلك: صفحة الإيمان العميق... وهذه صفحة الجهاد الصُّلب، والحماية الفدّة، والبلذ والتضحية، في سبيل المبدأ القويم، والمعتقد الراسخ. فيمنع الرسول من عتاة قريش، ويُفسح المجال -أمامه- وسيعاً، لنشر رسالته، وبتُّ دعوته، فيحوط ويمنع من آمن بالدعوة، من حيف قريش، وتعذيبها له. لِرَدِّه لظلمة الشُّرك، بعدما اهتدى بنور الإيمان.

إنَّها لصفحةٌ مليئةٌ بالتضحية الفدّة، والجهاد الصَّادق، والدِّفاع الصُّلب. وما الحياة غير العقيدة والجهاد - كما يقول شوقي - عقيدة رسيخة، وإيمانٍ وطيدٌ، وجهادٌ صامدٌ، ناطقٌ بلسان حديدٍ، إنَّ كان اللِّسان - وحده - يقوم بالمهمة، وإلا فسيوف صقالٍ، وسواعدٌ مفتولةٌ، وعزائمٌ تغلُّ الحديد، وتفتُّ الصَّخر الصَّليد.

لذلك... نشط الرسول في دعوته، وقوي صوته، فخافت قريش هذه الدَّعوة التي تُريد أن تجمع البشر، يُوحِّدوا الإله الخالق الرزَّاق، وينبذوا هذه الأصنام والأوثان، مِنْ حجارة صمَّاء، وأخشاب بالية، لاتسمع ولا تعي، لاتضرُّ ولا تنفع...
... يقف الإنسان أمامها - مقيداً، مكثوف اليدين، كالعبد الذليل، أو الأسير المغلوب على أمره، فيفقد القدرة والحرية، أمام هذا الجماد الميت، فيُعطي برهاناً على تحجُّر العقليَّة، ورجعيَّة هذه التَّقاليد، وتبلد الحس، وانعدام العقل، مِنْ هؤلاء، الذين يشبهون الإنسان - في هيكله اللَّحمي - والجمادات، في فقدانها للعقل، والفكر، والشعور...!

ثم نشطت هذه الدَّعوة، وكثر المؤمنون بها، فجهر الرسول بالدَّعوة، وسخر بهذه الآلهة المجمَّعة، قد انقاد لكلِّ منها جمعٌ غفيرٌ، مِنْ قطعان الأناسين...! وراح يلمسهم واقعهم المرير... ويدعوهم لنبيذ ما هم فيه: مِنْ ضلالٍ وعمائيةٍ، ويأخذ بيدهم، للطريق الأبلج الألب، بنوره الوضي...
ولكن الأعمى، لا يدري ما النُّور...؟! وليست الحفَّاشة، بالتي يمتدُّ لها جناحٌ، والشمس تحبُّ في رقعة الكون...!

* *

لقد ساء قريشاً أن يعيب محمداً أصنامهم، التي يعبدون، ولم يروا غير أبي طالب، يُنصفهم مِنْ هذا الذي جاءهم بالذِّين الموحد...!
حينذاك... مشى نفرٌ مِنْ أشرف قريش، لأبي طالب، يشكون إليه: ما لاقوه مِنْ ابن أخيه، مِنْ عيب آهتهم، فقالوا:
يا أبا طالب! إن ابن أخيك، قد سبَّ آهتنا، وعاب ديننا، وسفَّه أحلامنا، وضلَّ آباءنا...! فإمَّا أن تكفَّه عنَّا، وإمَّا أن تُخلِّي بيننا وبينه - فإنك على مثل مانحن عليه، مِنْ خلافه - فنكفيكه^(١).

(١) - هنا... يظهر سرُّ كتمان أبي طالب لإيمانه... وإلا فلولا أنهم يظنونونه على دينهم، لَمَا سعوإليه، وليبادؤوه العداء، وناجزوه الحرب...
ولو فعلوا ذلك، لكانت النتيجة وخيمةٌ على الدَّعوة، وبعدُ لَمَا يصلب عردها!!

فألان لهم أبو طالب في القول، وتلطّف لهم في الردّ الجميل، حتى انصرفوا عنه،
والرّسول ماضٍ في دعوته، وإظهار دين الله...

ولمّا لم يجدوا لشكواهم صدًى محبباً، ولم تُؤتِ الثمر المرجوّ، والغاية المتوخّاة،
اجمعوا أمرهم - مرّة أخرى - ومشوا إليه قائلين:

[يا أبا طالب! إنّ لك سنّاً وشرفاً ومنزلةً - فينا - وإنّا قد استهيناك من ابن
أخيك، فلم تنه عنا، وإنّا - والله! - لانصير على هذا، من: شتم آبائنا، وتسفيه
آحلامنا، وعيب آهتنا، حتى تكفّه عنا، أو نُنزله وإياك في ذلك، حتى يهلك أحد
الفريقين].

فوقف أبو طالب، بين تيّارين عنيفين، كلّ له أهمّيّته وقوّته واندفاعه؟!...

فهو يخشى أن يُعلنها حرباً عواناً مع قومه، فتأتي على الشّيخ والأمرد...

وهو لا يستطيع خذلان رسالة السّماء، ولها في عنقه عهد النّصرة، ولأنّ يدع
ابن أخيه - وهو رسول السّماء - وله عليه حقّ النّصرة - أيضاً - حسب وضيّة
والده الشّيخ، في رmqه الأخير!...

جمع أمره، وصمّم عزمه، فدعا إليه ابن أخيه، فأنهى إليه مقالة هذا الوفد...
وشاء أن يعرف - من خلال هذا الحديث - عزيمة ابن أخيه، ونشاطه في أداء
الدّعوة، فعقّب حديثه قائلاً:

«فابقِ عليّ، وعلى نفسك، ولاتحمّلني من الأمر مالا أطيع!».

ولكنه لم يلمح من ابن أخيه، سوى الصّرامة، والقوّة، والعزم، والمضاء:

[يا عمّاه! لو وضعوا الشّمس في يميني، والقمر في يساري،
على أن أترك هذا الأمر، حتّى يُظهره الله، أو أهلك فيه،
ماتركته].

وحانت منه نظرة لابن أخيه، وقد قام ليخرج من دار عمّه، وللألم في نفسه
محلّ عميق، حيث قد ظنّ - كما يُعلّل بعض المؤرّخين - بأنه قد بدا لعمّه أن

سيدعه ويُسلمه، دون أن يحوطه وينصره، فانهمرت من عيني الرسول دمعات...^(١)

حانت هذه النظرة من أبي طالب، فارتاع... وعاد إليه العزم الصلب، وقد تغلب هذا التيار البطاش، فكان له النصر... فهو يؤثر نصرة الدين، وحيطة الرسول، حتى لو أثمرت هذه النصرة والحيطة عداء قريش كلها، بل ولو العرب أجمع...

فعلية أن يجاهد، ولا يستكين، مادامت المشيئة السماوية، قد حبته بفيض من عنايتها، فاخترته حصناً وكهفاً، ومربياً وراعياً، منذ يوم الرسول الأول، وفي فجر الرسالة البكر...

«اقبل - يا ابن أخي!»

بهذه الكلمة - والرقة تسيل من حروفها - نادى أبو طالب ابن أخيه، فقطع بها حيل الصمت الأخرس، والتفكير العميق... ثم أردف، وقد أقبل عليه ابن أخيه:

[اذهب - يا ابن أخي! - فقل ما أحببت، فوالله

لأسلمك لشيء أبدا]^(٢).

ثم هتف به، منشداً هذه الأبيات:

وَاللّٰهُ لَنْ يَصْلُوَا إِلَيْكَ بِجَمْعِهِمْ

حَتَّىٰ أَوْسَدَ فِي التُّرَابِ دَفِينَا

(١) - نحن لانعتقد بأن يظن الرسول في عمه، مثل هذا الظن، في الحين الذي يعرف فيه الرسول موقف عمه تجاهه.

وليست هذه الدمعات إلا منبقة، من الشفقة على عمه، حيث أنه سيقف لأجله، هذا الموقف الحرج الدقيق!

(٢) - الطبري ٦٤، ٢:٦٧، والسيرة النبوية ١:١٩٦، والخلية ١:٣٢٣، والهشامية ٢٨٣، ١:٢٨٥، والحديدي ٣٠٥، ٣:٣٠٦، وأبو طالب ٥٧، ٦١، وهاشم وأمية ١٦٦، وأعيان الشيعة ١٢٧، ٣٩:١٢٨ وقد أسندت في الغدير ٧:٣٦٣- إلى مصادر عدة.

فاصدغ بأمرك، ما عليك غضاضة
وابشز بذاك، وقر منك عونا
ودعوتني، وعلمت: أنك ناصحي
ولقد صدقت، وكنت - ثم - أمينا
ولقد علمت بأن دين محمد،
من خير أديان البرية دينا^(١)

وليس لنا أن نغرّ بهذه الآيات الأربعة، دون أن نعيها نظرة فاحصة... فهذه
الآيات صورة رائعة زاهية الألوان، بارزة الخطوط، تعرض لنا إيمان أبي طالب، في
لونه الثابت، وخطوطه البارزة، دون أن تمتد إليه يد بزيغ، أو غرض بتشويه...

* *

شاء أبو طالب بعد ذاك الحديث، الذي دار بينه وبين قريش، ثم أنهاه إلى سمع
ابن أخيه، وقال له قوله تلك، التي أعادت الطمأنينة إلى قلبه، والسكينة إلى فؤاده،
والهدوء إلى نفسه...

(١) - الحديدي ٣:٣٠٦، والسيرة النبوية ٨٥ و١:١٩٧، وثمرات الأوراق ٢:٤، والعباس
٢٢، ٢٣، وهاشم وأمية ١٦٧، والكشاف ١:٤٤٨ (٢:١٠)، وتذكرة الخواص ٩، ومعجم القبور
١:١٨٦، والمناقب ٣٤، وديوان أبي طالب ٧، أعيان الشيعة ٣٩:١٢٨، والبيت الأول في الحليّة
١:٣٢٢، والأخيران في الإصابة ٤:١١٦.
وأُسندت في الحجة ٦٣- إلى مصادر عدّة، وفي شيخ الأبطح -٢٧- مسندة لعدّة مصادر،
وفي ص ٨٨ أيضاً.

وأرجعت في الغدير ٧:٣٣٤ إلى عدّة مراجع، وذكر فيه: أنّ التعلّي -في تفسيره- رواها، وقال:
[قد اتفق على صحة نقل هذه الآيات عن أبي طالب: مقاتل، وعبد الله بن عباس، والقسم بن
محضرة، وعطاء بن دينار].

كما أنّ الرزنجي عدّه من كلام أبي طالب المعروف.
وقد أخرجه البيهقي في الدلائل -كما يقول شارح الكشاف ٢:١٠- من طريق ابن إسحاق،
عن يعقوب بن عتبة بن مغيرة بن الأخنس.

شاء - بعد كل هذا، وقد انبعثت حنجرتي بهذه الأبيات، التي صاغها الضمير الحي، والعقل الفاحص، والقلب الحذب...

شاء: أن يبدأها بما يُشيع الإطمئنان في نفس ابن أخيه، ليعلم بأنه له، اليوم، كما كان له قبل اليوم... إنه له ذلك النصير الجاهد، الذائد الحذب... وسيكون له - كما كان قبل اليوم - حتى يلقى ربه، وقد أعطى الرضا من نفسه، ووفى بالعهد المقطوع، وحفظ وصية الأب في لحظة الأخيرة...

فهو لن يحول، ولن يتخلّى عنه. فما عليه من جمعهم الضال... فإنهم لن يصلوا إليه، ولن ينالوه، حتى يُوسد التراب، ويُوارى منه الجسم، ويزول ظله من الوجود... والبيت الثاني: صورة أخرى لما في البيت الأول، إلا أنه أمره بأن يصدع بهذا «الأمر» الذي جاء به. فليس عليه مخافة، ولا غصاضة، ولا بأس، بل إن له للبشرى الباقية، فسوف تقرأ عيناه بالنصر الموزر، والخلود الدائم. والبيتان الأخيران، هما الصوّت الحاكلي، والصورة الناطقة، لإيمانه العميق، واطمئنانه للرّسالة الأحمديّة.

ففيهما من الشاء والاعتراف، مالا يصدر إلا عن مؤمن عميق عميق: إيمان معرفة، ودراسة، وتحليل، لا إيمان تسليم، واستسلام، وإذعان... وتجذ ذلك ظاهراً، في الرابع من الأبيات، وهو: مفتاح يُوصلنا إلى أن أبا طالب، كان لديه اطلاع، ولديه دراية بالأديان، التي سبقت دين ابن أخيه. ولذلك، بهذه الإحاطة، والدراية، والإطلاع، استطاع أن يوازن، ويُرجّح، ويحكم... فيها عرف: أن دين محمد، هو خير أديان البرية...

وليست هذه الحشوة - «من» - بالتي تحي، أو تنطلق من حنجرة أبي طالب، لولا الضّرورة الشعريّة، التي حتمت بها، ليكون الوزن صحيحاً... وكثيراً ما اضطرت الضّرورة هؤلاء الشعراء، «لأن يروا حسناً ما ليس بالحسن» - كما يقول أحدهم!

* *

ولكن الأغراض الخالقة، والشّهوات الرّاجفة، ماكانت لتمرّ بهذه الأبيات - وهي سلاح ماضٍ، وسيف قاطع، يفتّ دعاوهم الباطلة وأراجيفهم المغرضة، التي وُضعت في حقّ شيخ بني هاشم، لتنال من ناصع حياته، وعظيم بلاته، ورفيع قدره، وفذّ جهاده...

إنّ هذه الأغراض السّوداء ماكانت لتمرّ بهذه الأبيات - وهي هي، في صريح اعترافها، وهي هي، الصّورة النّاطقة للإيمان الوطيد، والاعتراف السّافر، الذي يفضح كلّ غرضٍ، ويجهز على كلّ فرية...

أقول: ماكان هذه الأغراض العابثة أنّ تمرّ بها، دون أن تمتدّ منها يدٌ إليها بتشويه، وتُضيف إليها مايتيلها المطمع، ويُرضي سفال الضّمير... فراحت تُضيف إليها بيتاً خامساً، ظنّته يُشوّه صفاء الصّورة، من لآلاء الإيمان، وألقى الاعتراف:

لولا الملامةُ، أو حذارِي سبّةُ

لوجدتني، سمحاً - بذالك - مبنياً!

وإنّك لتجد الهوة السّحيقة، بين هذا البيت، والأربعة التي قرأت... الهوة السّحيقة، بينه وبينها، في الأداء الفنّي، وقوّة الشّاعريّة، والإنسجام... وهذا السيّد أحمد زيني دحلان، يقول حوله:

[فقليل: إنّ هذا البيت موضوعٌ، أدخلوه في شعر أبي طالب، وليس من كلامه] (١).

(١) - ص ٣٣٤: ٧ من الغدير، مسنداً إلى ص ١٤ من «أسنى المطالب» غير أنّه شاء أن يجاري المغرضين، فذكر البيت، عند ذكره لتلك الأبيات، في كتابه «السّيرة النبويّة»! ويظهر: أنّ هناك تناقضاً - بين الكتابين - كثيراً.

فالسّيرة جاري فيها، وأتبع قول المغرضين.

أمّا «أسنى المطالب» - كما قرأتُ عنه، وقرأتُ منه، في ما نقلُ عنه (*) - فجهز فيه بالقول الحقّ...

(*) وقفنا عليه، بعدئذٍ... وضعتُه مكتبتنا... والحمد لله!

ونحن لو جارينا أصحاب هذه الأغراض السود، وسلّمنا معهم بأنّ هذا البيت، قد قاله أبو طالب - وهو لم يقله - فإنه لا يُنيلهم غرضهم، ولم يُشبع مطعمهم النّهم... فقد طاش سهمهم، ولم يُصب مرماه...

فمعنى البيت: أنّه لولا ما يخشاه من اللّوم، ويجذره من المسبّة، لوجده جاهراً بقبول الدّعوة، مبيّناً إيمانه على الملأ من قريش، غير كاتمٍ.

ومعنى «بأنّ» - في اللّغة: اتّضح وظهر، وأبان الشّيء: أوضحه، فهو «مبين» - أي: مظهر...^(١)

وهذا لا يعني: أنّه لولا ما يخشاه، لكان ذلك المؤمن المصدّق... فإنّ هذا معنى لا يحمل شيئاً منه هذا البيت المخلوق...

ثم لو كان يحمل شيئاً منه، لكان من التناقض بمكان، بعد البيتين السّابقين: «ودعوتني...»، و«لقد علمت...»، فإنه بعد ذلك الاعتراف والتّصديق، لا يجوز أن يصدر من عاقل، ما يناقضه، أو ينفيه...!

وهذا التّهاف المعنويّ إضافة إلى التّهاف الشّعريّ - وهذا التناقض الفاضح، بين: معنى البيت - لو حملناه على غير محمله - والأبيات التي سبقته...

إنّ هذا... لا يصدر، إلّا ممّن خولط في عقله، فلا يدري ما يقول، ولا يعرف ما ينطق...

وحتى الآن، لم يذكر أحد أبا طالب - حتى هؤلاء المغرضون - إلّا بحدّة الذّكاء، وقوّة العارضة، وبلاغة اللّسان، وقوّة الحجّة، ومتانة المنطق...

* *

عرفت قريشٌ موقف أبي طالب، من الرّسالة الجديدة، ومن رسولها العظيم... وساءها أن يقف أبو طالب، هذا الموقف الجريء الصّلب، وساءها: أن لا تنجح محاولاتها هذه، وتعود بالإخفاق والفشل...

(١) - فإظهار الشّيء، إنّما يتعلّق بالموجود، وإلّا... فكيف يُظهر المعدوم...؟
إنّ... يتعيّن أن تكون الإبانة عمّاً هو موجود، وغير معلوم، لدى قريش، فهم لا يعلمون إيمانه للكوم.

أرادت منه: أن يكفَّ محمدًا، عن ذكر آلهتهم وعبيها، فما كفَّ، وما هادن...
ثم أرادوه: أن يفسح المجال بينهم وبينه، لينالوا منه ما يُرضيهم، أو لا... فإنهم
يعلنونها عليه حرباً دامية...

ولكنهم راوه: يُشجِّعه في بثِّ رسالته، ونشرها، والدعوة إليها، ويأمره بذلك،
وبعده النصرة، والجهاد، والدفاع...

ووجدوا - بعد ذلك - منفذاً آخر، هو - في رأيهم - آخر ما يرجون...
وهامهم أولاء يأخذون طريقهم إليه، وقد مشوا إليه بعمارة بن الوليد، حتى إذا
جاءوه، قالوا له:

[يا أبا طالب! هذا عمارة بن الوليد، أنهد فتى في قريش، وأشعره، وأجمله،
فخذه... فلك عقله ونصرته، واتَّخذه ولداً، فهو لك... وأسلم لنا ابن أخيك، هذا
الذي قد خالف دينك، ودين آبتك، وفرَّق جماعة قومك، وسفَّه أحلامهم، فنقتله،
فإنما رجلٌ كرجلٍ!...].

لو كان أبو طالب، لا يعرف للمواقف حقها، لكان له - بعد هذه القولة
المضحكة - صدى قهقهة عالية، تدوي بعيداً، وترنُّ حاملة كلَّ معاني الاحتقار
والاستخفاف، بسخف هذه القولة المنحطة...

ولكنه لم يزد على هذه القولة، وقد انطلقت من فيه، هادئةً ساخرة:

[والله! لبئس ماتسوموني! أتعطوني ابنكم أغذوه

لكم... وأعطيتم ابني تقتلوناه...!]

هذا والله! - مالا يكون أبداً!...].

حقاً! إنه لسخفٌ ما بعده سخف! وانحطاطٌ فكريٌّ، ليس يعدله انحطاطاً،
وحيفٌ من طرازٍ فدٍّ، لم يُرَ له ما يماثله...! إنَّ دلَّ على شيءٍ، فعلى: انعدام القيم،
وفجاجة الرأي، وتلاشي الفكر، وحيف الميزان.

وسمع المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف - وهو من أحلافه - يقول:

[والله! - يا أبا طالب! - لقد أنصفك قومك، وجهدوا على التَّخْلُصِ مِمَّا
تكرهه... فما أراك تُريد: أن تقبل منهم شيئاً...!].
فأجابه أبو طالب:

[والله! ما أنصفوني!... ولكنك قد جمعتَ خذلاني،
ومظاهرة القوم عليّ، فاصنع ما بدا لك...!]^(١).

* *

وقد نظم أبو طالب قصيدةً، عرَّضَ فيها بالمطعم بن عدي، على خذلانه إيَّاه!.
ثم عمَّم بها مَنْ خذله، مِنْ عبد مناف، وَمَنْ نصب له العدا، مِنْ قريش:
أَلَا قُلْ لِعَمْرٍو، وَالْوَلِيدِ، وَمَطْعَمِ:
أَلَا لَيْتَ حَظِّي مِنْ حِيَاظِكُمْ بَكْرُ^(٢)
مِنْ الْخَوْرِ حِجَابٌ، كَثِيرٌ رِغَاؤُهُ
يَرشُ عَلَى السَّاقِينَ مِنْ بَوْلِهِ قَطْرُ^(٣)
تَخَلَّفَ خَلْفَ الْوَرْدِ لَيْسَ بِلَا حَقِّ
إِذَا مَا عَلَا الْفِيَاءُ، قِيلَ لَهُ: وَبِرُ^(٤)
أَرَى أَخَوَيْنَا مِنْ أَيْنَا وَأُمْنَا
إِذَا سُنَلَا، قَالَا: إِلَى غَيْرِنَا الْأَمْرَا

(١) - الطُّوَيْ ٢:٦٧ - والعجاجة ثَمَّا بين القوسين عنه - والسَّيِّرة الحليَّة ١:٣٢٣، والنَّبِيَّةُ ١:١٩٧، والحشامِيَّةُ ١:٢٨٦، والحديديُّ ٣:٣٠٦، وأبو طالب ٦١، ٦٣، والبحار ٦:٤٤٦، وتذكرة الخواصِّ والقدير ٧:٣٦٠ مسندةٌ لمصادر عدَّة، والأعيان ٣٩:١٢٩.

(٢) - البكر: الفتيُّ مِنَ الْإِبِلِ

(٣) - الخور: الضَّعْف. الحِجَاب: القصور، الدَّمِيم، السَّيِّءُ الْخُلُق. ويُروى: «حِجَابٌ»، ومعناه: الكثير، غير أنَّ هذا لا يُمكن، مادامت بعدها «كثيرٌ رِغَاؤُهُ». ويُروى «حِجَابٌ»، بمعنى الهزيل. غير أنَّ الأقرب للمعنى هو: «حِجَابٌ»، كما في الأصل.

(٤) - الْفِيَاء: المفازة لاماء فيها. الوبر: دويَّة، تشبه السُّنُور، وهي دونه.

بلى! لهما أمرٌ، ولكن تجرّما
 كما جرّحت من رأسٍ ذي علقٍ صخر^(١)
 أخصّ خصوصاً: عبد شمس، ونوفلاً،
 هما بهذاناً، مثل ما يُبذ الجمرُ
 هما أغمزاً للقوم في أخويهما،
 فقد أصبحا - منهم - أكفهُم صفرُ
 هما أشركا في العبد، من لا أباً له
 من الناس إلا أن يرسّ له ذكر^(٢)
 وتيمّ، ومخزوم، وزهرة، منهم
 وكانوا لنا مولى، إذا بُني النصرُ
 فوالله لا تنفك منا عداوة،
 ولا منهم، ما كان من نسلنا شفر^(٣)
 فقد سفهت أحلامهم وعقولهم
 وكانوا كجفر، بنس ما صنعت جفراً
 وما ذاك.. إلا سودّد خصّاً به
 إله العباد، واصطفانا له الفخر^(٤)

(١) - تجرحم: سقط وانحدر. وذو علق: جبل لبني أسد، لهم فيه يومٌ على ربيعة بن مالك.

(٢) - رسّ الحديث، حدّث به في إسرار.

(٣) - يُقال: ليس هنا شفر - أي: ليس هنا أحد.

(٤) - ذكرها ابن هشام - في سيرته ص ٢٨٦: ١ - عدا هذه الآيات الثلاثة، وقال: تركنا من

بيتين أفذع فيهما.

وذكرها الأُميّي - في الغدير ص ٣٦١: ٧ - وذكر قول ابن هشام، وعقب عليه:

حذف ابن هشام منها ثلاثة أبيات، لا تخفى على أحد غاية الوحيدة... الخ.

وذكر - بعد - هذه الثلاثة.

رجالٌ قاتلوا حاسدين، وبغضةً
 لأهلِ العلى، فينبهم - أبداً - وترُ
 «وليد» أبوة، كان عبداً جلدنا
 إلى عجلة زرقاء حال بها السحر^(١)

* *

رأى أبو طالب - وقد أعلن رأيه للملأ من قريش، وعرفوا موقفه تجاههم - أن يتدرّع، ويستعدّ للطوارئ، التي تُواجهه بها قريش - بعد ما عرفوا رأيه - فلم يرَ غير بني هاشم، وبني المطلب: سيفاً صقيل الحدّ، رهيف المجسّ، يعترض به كلّ مَنْ رامه بسوء.

فدعاهم إلى أن يقوموا بجانبه، في الذود عن الدّين الجديد، بحماية ومنع صاحب الرّسالة، من عتاة قريش، والقيام دونه في وجوهم، إن بدت منهم للشّرّ طلائع... فكانوا له عند طلبه، لم يشدّ بينهم، إلّا ذلك الأخ الضّالّ، أبو هبّ المنكود...! ويرى أبو طالب منهم: مواقف مشرّقة، فيشيع السّرور في ملامحه، حتى يثلج منه القلب، ويقرّ الفكر، وتهدأ الخواطر، فهو في مأمن... فليس يخشى شراً على الرّسول، من مريديه بالشّرّ...

وليس يلبث، حتى يُقابل هؤلاء بالشّكر الموفور، والثناء العطر، يشكرهم موقفهم، ويثني على عملهم البارّ، ثمّا يكون لهم حافزاً ومشجّعاً، وينظم هذا الشّكر في بضعة أبياتٍ، لتلهج بها الألسن، وتهزج بها الشّفاة، وتتلقّفها الأسماع...

(١) - يُريد بوليد: الوليد بن المغيرة، الذي كان أبوه عبداً جلدّه.

كان الوليد هذا، من المستهزئين بالرّسول «ص»، وهو من بين الذين مشوا إلى أبي طالب، مع مَنْ مشى من قريش بشأن الرّسول. وهو الذي عناه الله تعالى، في قوله:

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾

فقد كان يُسمّى: الوحيد.

ولابدَّ له - وهو يذكر قديم هؤلاء، ويُثني على عملهم الحميد - لابدَّ له في هذا المعرض أن يذكر محمّداً، الذي كان له مِنْ هذا الشَّرَف أعمقه، وأبعده جدوراً، وجاء بجلال الأعمال، ممَّا لم يسبقه إليه سابق، ولا يُدانيه عمل:

إذا اجتمعت - يوماً - قريشٌ لمفخرٍ

فعبدٌ منافٍ سرُّها وصميمُها^(١)

فإن حصلت أشرافُ عبدٍ منافٍها

ففي هاشمٍ أشرافُها وقديمُها

وإن فخرت - يوماً - فإنَّ محمّداً

هو المصطفى - مِنْ سرُّها - وكرمُها

تدعَّت قريشٌ - غُثَّها وسمينُها -

علينا... فلم تظفر، وطاشت حلومُها^(٢)

وكنا - قديماً - لأنقر ظلاماً

إذا ماثوا صعرَ الحدود، نُقيمُها^(٣)

ونحمي حماها - كلَّ يومٍ كريهة -

ونضربُ عن أحجارها مَنْ يرومُها

بنا انتعشَ العودُ الدَّواء، وإنما

بأكتافنا تئدي، وتنمى أرومُها^(٤)

(١) - السرُّ: خالص الشيء، أطيبه وأفضله. وهو مِنْ صميم القوم، أي: مِنْ أصلهم وخالصهم.

(٢) - تدعَّت - هنا بمعنى: اندفعت بشدَّة وعنفر وجفوة. طاشت: ذهب عقله.

(٣) - ثنى الشيء: عطفه. صعر خده: أماله عن النَّظر إلى النَّاس تهاوناً، وكبراً.

(٤) - انتعش: نشط. ذوي الثِّبات: ذبل ونشف ماؤه. الكنف: الجانب، الظِّل. وكنف

الإنسان: حضنه، أو العضدان والصدر. الأرومة: الأصل.

تجد القصيدة في السِّيرة الهشامية ١:٢٨٨

وذكرت الثلاثة الأوَّل في النبوة ١:٢٠، والحليَّة ١:٣٣



قويت شوكة الرسول، فبعدت الشُّقة، بين الهاشميين والمطلبين، وبين قريشٍ.
 وصار أبو طالب يحذر قريشاً على الرسول، أشدَّ من ذي قبل، فصار يحوطه
 بعنايته، ويخاف عليه الطوارئ فلا يكاد يبعد عن عينيه، لنأى يبعث فيه هذا البعد:
 القلق، والرعب، والإضطراب... ففتنابه الأوهام، وتنوشه الظنون...
 افتقد أبو طالب ابن أخيه - مرةً - وبحث عنه، فلم يجده، فثار به القلق،
 وعصف به الخوف، وعلت وجهه خطوط باهتة، هي مزيجٌ من: الحزن،
 والإضطراب، والخوف، والعزم، والمضاء، للشار والانتقام... هي مزيجٌ من هذا
 كله... - ولاسيما وقد وصل إلى سمعه بأن قريشاً تنوي اغتيال محمد، لتجثت
 الدعوة من أبعد جذورها...

هناك... دعا إليه فتیان هاشم والمطلب، وأمر كلاً منهم أن يخبئ تحت ثيابه
 سلاحاً حديد الشفرة، ماضي الحد، لا يخون عند الضراب... وأمرهم أن يقف كلُّ
 واحدٍ منهم، عند زعيم من رجال قريش، وجعل بينهم وبينه شارة... فإن هو ينس
 من وجود محمد، فإن دمه لا يمضي هدرأ، وليس يعدل دمه المسفوح، حتى دم
 هؤلاء العتاة كلهم...

فعلهم - إن نفذ القضاء في محمد - أن يأتوا على هؤلاء، في لحظة واحدة. فلكل
 رجل أعزل منهم، رجلٌ بيده بئارٌ صقيل. فليس - ثمة - منجاة من الانتقام الصارخ،
 وليس لهم محيص، من جرّع صاب الموت، من هذا الحد الماضي، الناصع البياض...

➡️ وذكرت في الحجة ٧٩، ٨٠ - عدا البيتين الأخيرين - مسندة إلى: كنز الفوائد
 لأبي الفتح الكراچكي، ومتشابه القرآن لابن شهر آشوب.

وذكرت أبياتها الأربعة الأولى - باختلافٍ في كلماتها - في الأعيان ١٤٨: ٣٩.

وذكرت في الغدير ص- ٣٦٢، ٣٦٣-٧ - مسندة لعديب من المصادر.

وذكر لصاحب «أسنى المطالب» قوله، حول هذه الأبيات، هي:

[هذه الأبيات من غرر مدائح أبي طالب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، الدالة على

تصديقه].

وذكرت في شيخ الأبطح ٣٧ - مسندة - وقد ذكر هذه القولة أيضاً.

وكلُّ ذهب نحو غايته... فهؤلاء الفتية، قد أخذوا مكانهم، حيث أراد الشيخ... وهو قد ذهب، إلى حيث يبحث عن ابن أخيه، في مظانه...

وإذا وجدوه في خير، لم تمتد له يد بسوء، أخذه بيده، فوقف به على رؤوس الملا من قريش، صارخاً بهم:

«يامعشر قريش! هل تدرون ماهممتُ به...؟»

فقصَّ عليهم عزمه، وأمر فتياه: أن يكشفوا لهم عن سلاحهم المخبوء، ليتحدَّاهم ويدلِّهم على مدى قوته، فيها به. فبان الانكسار في وجوههم، وكان أشده وضوحاً، في وجه أبي الجهل العتي...! وقال لهم:

«والله! لو قتلتموه ما بقيتُ منكم أحداً، حتى نتفاني

نحن وأنتم»^(١)

ثم ينظم أبو طالب أبياتاً، يطري فيها ابن أخيه، بعد أن يُشنع على قريش موقفها، ويُعلن لها بأنه لخميد وآله، ذلك الراعي الحفيظ، الذي يكنُّ له الود، ما بين طوايا ضميره، وحنايا صدره، فما هو بقطاع للرَّحم:

ألا أبلغ قريشاً، حيثُ حلَّتْ

وكلُّ سرانيرٍ منها غرورُ

فإنِّي والضَّوايح عادياتِ

وما تلو السَّفاسرة الشَّهور^(٢)

(١) - ذكرت هذه الحادثة في الحجة ٦٦، وفي الغدير ٣٤٩، ٣٥٢: ٧ بالفاظٍ ثلاثة. ثالثها: لفظ كتاب الحجة. وبين الثلاثة بعض اختلاف، في خطوط الحادثة. وذكرت في شيخ الأبطح ٢٦، ٢٧، وذكرت - في صورة أخرى - في إثبات الرصيدة ٩٦ وذكرت في أبو طالب ٦٧، ٦٨.

(٢) - يروى: «فإنِّي والسَّوايح كلُّ يومٍ»، و«فإنِّي والضَّوايح كلُّ يومٍ»، والسَّفاسرة - جمع سفسير، وهو: القيم بالأمر، المصلح له، العالم بالأصوات، الرَّجل الظَّريف، الحدَّاد الماهر - الخ - ولكن العلامة الأميني، ذكر أنها أصحاب الأسفار: الكُتب. والشُّهور - جمع شهر - هي العلماء.

لآلِ مُحَمَّدٍ رَاعٍ حَفِيظًا...
 وودُّ الصُّدْرِ مِنِّي والصُّمَيْرُ
 فليستُ بقاطعٍ رَحِمِي وولدي
 ولو جرَّتْ مظالمُها الجُزورُ
 أيامُ جَعَلُهُمْ أَبْنَاءَ فَهَرٍ
 بقتلِ مُحَمَّدٍ...؟ والأمرُ زورُ
 فلا - وأبيكَ! - لأظفرتُ قريشَ
 ولا أمتُ رشاداً، إذ تُشِيرُ
 بُنيُّ أخِي، ونوطُ القلبِ مِنِّي،
 وأبيضُ، ماؤُهُ غَدِيقُ كثيرُ
 ويشربُ بعده الولدانُ رِيًّا
 وأحمدُ قد تضمَّنهُ القبورُ
 أيَا ابنِ الأنفِ - أنفِ بني قُصَيٍّ -
 كأنَّ جبينَكَ القمرُ المنيرُ^(١)

* *

وهناك حادثة أخرى، بدا فيها أبو طالب: صوّلاً على قريش، مدلاً عليهم
 بقوّته، متحدّياً لهم في فعالمهم الدون، يردُّ عليهم بأشدّ وأنكى.
 بينما الرّسول - في أحد أيامه - في مناجاة ربّه، قد ارتقى للعالم العلويّ،
 وغاب في دنيا الرُّوح، فإذا بقريش قد شاءت أن تسخر منه، وهو يؤدّي الصّلاة،
 فشاءت أن تُفسد عليه صلاته، وعهدت بهذه المهمّة الدُّون، إلى عبد الله بن
 الزُّبيري، وقام هذا بها تشيطاً، وقد أخذ فرثَ ودمَ جزورٍ، فجاءه - وهو ساجدٌ،
 غائبٌ في العالم الأفضل - فلطّخه بذلك...

(١) - الغدير مسندة، ص ٣٥٠، ٣٥١ ج ٧، والأعيان ١٤٩: ٣٩.

وليس للرَّسول غير أبي طالب، يفزع إليه، ويشكو إليه ما يناله مِنَ الأذى،
ليُدفع عنه الصَّيِّم، ويأخذ له بحَقِّه... فاندفع إليه - بعدما انفتل مِنْ صلاته - محزون
القلب، دافع العين، فهذه الإهانة أشدُّ أضراراً، وأعَمَقُ أَسَى، مِنْ ضرب، أو أيُّ
أذى... ففيها مِنْ أَلَمِ السُّخْرِيَّة، والاستخفاف، ما يفيض منه القلب، بالآلَمِ
النَّهَاش...!

وقد ساء أبا طالب: مانال ابن أخيه! . وعليه أن يأخذ منهم بحَقِّه، ويكيل لهم
الإهانة بصاعٍ طافح...

فاندفع إليهم - وقد أخذ ابن أخيه، ووضع سيفه على عاتقه - وخطوط
الغضب بارزة على صفحة وجهه، وسيماء الثَّأر ناطقة، حتى طلع على القوم في
ناديهم، فراعتهم منه هذه النظرة الغضبي، وحاولوا الهرب مِنْ وجهه، لولا أن
سَمَّوهم في أماكنهم صوتٌ جهيرٌ، انطلقت كلماته مجلجلة، مِنْ فَمِ الشَّيْخِ المهيب:

«وَاللَّهِ لَئِنْ قَامَ رَجُلٌ جَلَّتُهُ بِسِفْيَا»^(١)

فلصقوا بالأرض، كَمَنْ فَقَدَ الإرادة... فدنا منهم، والتفت لابن أخيه:

«يا بَنِيَّ! مَنْ الْفَاعِلُ بِكَ هَذَا...؟»

فدَلَّه الرَّسول على ابن الزُّبَيْرِ، وأدناه إليه، فوجأ أنفه، ثم مرَّ بالذَّمِّ والقرث،
على القوم، ولَطَّخَ به وجوههم ولحاهم وثيابهم، وأغلظَ لَهُمُ القولَ، وكالَ لَهُمُ
الإهانة.

وعاد لابن أخيه، يقول له بلهجة المتنصر، وإدلال القوي:

[يا ابنَ أَخِي! أَرْضَيْتَ؟]

سَأَلَتْ مَنْ أَنْتَ...؟

أَنْتَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ - وسرد النَّسَبَ الشَّرِيفَ -

أَنْتَ، وَاللَّهِ، أَشْرَفُهُمْ حَسِبًا، وَأَرْفَعُهُمْ مَنْصَبًا...

يا معشرَ قريش! مَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَحَرَّكَ، فَلْيَفْعَلْ...
أَنَا الَّذِي تَعْرِفُونِي^(١).

وَأَرَدَفَ عَلَى هَذَا قَوْلَهُ:

أَنْتَ النَّبِيُّ مُحَمَّدُ
قَرْنَمَ أَغْرُ، مَسْوُودُ
لَسْمِ الْوَدَيْنِ أَكْـ
طَابُوا، وَطَابَ الْمَوْلِدُ
نِعْمَ الْأُرُومَةُ أَصْلَهَا
عَمَرُزُ الْخَطِيمِ الْأَوْحَدُ
هَشَمَ الرَّيْبِكَةِ فِي الْجَفَانِ،
وَعِيشُ مَكَّةَ أَنْكَدُ^(٢)
فَجَرْتُ بِذَلِكَ سَنَةً
فِيهَا الْخَبِيزَةُ تُشْرَدُ
وَلَنَا السُّقَايَةُ لِلْحَجِيجِ
بِهَا يُمَاتُ الْعَنْجَدُ^(٣)
وَالْمَأْزَمَانِ وَمَا حَوَتْ
عَرَفَاتُهَا، وَالْمَسْجِدُ^(٤)

(١) - ذُكِرَتْ هَذِهِ الْحَادِثَةُ فِي: الْغَدِيرِ ٧:٣٥٩- وَشَيْخِ الْأَبْطَحِ ٢٨، وَبَيْنَهَا بَعْضُ الْإِخْتِلَافِ فِي الْخُطُوطِ، وَقَدْ أَخَذْنَا -هنا- النَّسِيجَ، مِنْ الرَّوَايَتَيْنِ.

وَذُكِرَتْ فِي الْحَجَّةِ ١٠٦، ١٠٨، وَثَمَرَاتِ الْأَوْرَاقِ ٢:٤٠٣، وَأَبُو طَالِبٍ ٦٣، وَالْمَنَاقِبِ ٣٥.
(٢) - هَشَمَ الثَّرِيدِ: كَسَرَ الْخَبِيزَ، وَفَتَّهُ، وَبَلَّهَ بِالْمَرْقِ، حَتَّى يَكُونَ ثَرِيدًا، الرَّيْبِكَةُ: الزُّبْدَةُ مَخْتَلِطَةٌ بِاللَّبَنِ. الْجَفَانِ، جَمْعُ حَفْنَةٍ -بِفَتْحِ أَوَّلِهَا- الْقِصْعَةُ الْكَبِيرَةُ. الْأَنْكَدُ: الْعَسِيرُ، الْقَلِيلُ الْخَيْرِ.

(٣) - يُمَاتُ: يُذَابُ. الْعَنْجَدُ -بِفَتْحِ وَضَمِّ أَوَّلِهَا- الرَّيْبُ، أَوْ قِسْمٌ مَخْصُصٌ مِنْهُ، أَوْ ذُو اللَّوْنِ الْأَسْوَدِ مِنْهُ.

(٤) - الْمَأْزَمَانُ: مَضِيقُ بَيْنَ: جَمْعٌ، وَعَرَفَةُ، وَبَيْنَ: مَكَّةُ، وَمِنَى.

أنى تضام، ولم أمت،
 وأنا الشجاع العربى^(١)
 وبطاح مكنة لا يرى
 فيها نجيح أسود
 وبؤ أيبك كأنهم
 أسد العرين توقدوا؟
 ولقد عهدت لك صادقاً
 فى القول لا تزيد
 ما زلت تنطق بالصواب
 وأنت طفل أمرؤ^(٢)

* *

لقد افتتح أبو طالب هذه القصيدة، بالاعتراف السافر، الذى لا يقي لتعنت
 سبيلاً، فى جدل، أو نقاش...
 فما الفرق: بين من يقول: «أشهد أن محمداً رسول الله» وبين اعترافه السافر:
 «أنت النبىُّ محمدٌ...؟!»
 إن الواقع يصرخ: أن لافرق! فكلاهما إقرار بنبوة محمد (ص).
 أمّا الأغراض الدُّون، والقلوب السُّود، والضمانر المعتلة، فلعل لها منطقاً، غير
 منطق الواقع الرهين...!

وبعد أن امتدح أرومته، وذكر فعال عمرو وهو: هاشم - الذى سنّ إطعام
 الحجيج، فى قحل مكة وجديها، وفى ذلك العيش الأنكد، ففرشها بالتماء والرخاء،

(١) - العربد - بكسر العين، وكسر وفتح الباء - الشديد من كل شيء، وذكر الأفاعي.
 (٢) - الحديدي ٣١٥: ٣، والحجة ٧٢ - بزيادة بيت - وشيخ الأبطح ٢٨، وهاشم وأمية
 ١٧٣، ١٧٤، وديوان أبي طالب ١٢، ١٣، والأعيان ١٤٣: ٣٩، والغدير ٣٣٦: ٧.
 وقد قال ابن أبي الحديد - بعد ذكره لها - إنها «من شعره المشهور».

وفضى على الجذب، ومحا العيش الأنكد... وأراح القلوب الخافقة، وأشبع البطون
السَّاعِبة، وأروى الحشاشات الملتهية.

بعد هذا... أبدى نحوه - أي: ابن أخيه - عاطفته الرُّؤوم، فإنه لن يُضام، وهو
على رقعة الأرض، يرفُّ له جفنٌ، وتمشي به قدمٌ... وماهو بالجبان الرُّعديد، ومن
حوله أسود العرين، تسحق كلٌّ من تشمُّ منه رائحة سوءٍ، أو مكروه...!

وبعد كلُّ هذا... اختتم قصيدته بيتين، هما - في اعترافهما السَّافر -
كافتتاحها... فكانتِ الفاتحة والخاتمة، من معدنٍ واحدٍ...

فهو - فيهما - يُصدِّق ابن أخيه في قوله... فإنه «لَهُو الصَّادِقُ الأمين»، لم يره
يقول غير الحقِّ والصَّواب، منذ نعمة أظفاره: ولم يجده مانلاً عن منهجه الوضَّاح،
ولاحانداً عن طريقه الأبلج...

وإنَّ الذي لايقول غير الحقِّ، حتى في دُنِّيَّات الأمور، لن يقول غير الحقِّ،
فيفتري على الله!، وإنَّ الذي لايكذب على مخلوقٍ، لن يكذب على الخلاقِ
العظيم...!

فليس هذا، سوى التَّصديق له في رسالته، والاعتراف منه، بأنها رسالة سماءية، لم
يتزَيَّد فيها محمدٌ (ص)، ولم يقل عنها، غير الصواب الثَّابت، والحقُّ الأبلج...

* *

ويجدر بنا: أنْ نُوافي القارىء، بهذين البيتين -أيضاً- وفيهما تصديقٌ بأنَّ
مايقوم به محمدٌ، هو الحقُّ الجليُّ. وفيهما تشجيعٌ له وتطمينٌ، للمضى في مهمته
العالية، بعزيمةٍ لا تُغلب.

ويقول الحديديُّ قبلهما:

[ومنْ شعره المشهور -أيضاً- قوله، يخاطب محمدًا، ويُسكِّن جأشه، ويأمره
ياظهار الدَّعوة]:

لَا يَمْنَعَنَّكَ مِنْ حَقِّ تَقْوَمُ بِهِ
 أَيْدٍ تَصُولُ، وَلَا سَلْقُ بِأَصْوَاتٍ
 فَإِنَّ كَفْكَ كَفِّي، إِنَّ مَلِيَتْ بِهِمْ
 وَدُونَ نَفْسِكَ نَفْسِي، فِي الْمَلَمَّاتِ^(١)
 إِنَّهُ لِلْفِدَاءِ الْعَظِيمِ، وَالْجُودِ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ جَوْذٌ...! فَهُوَ يَفْدِيهِ بِنَفْسِهِ، عِنْدَمَا
 تَلُمُّ بِهِ الْمَلَمَّاتُ...!

وإنَّه لَيَطُولُ بِنَا السَّيْرِ، وَيَتَشَعَّبُ الْقَوْلُ، لَوْ شِئْنَا أَنْ نَعْرُضَ لَشَعْرِهِ، الَّذِي يَتَعَلَّقُ
 بِهَذَا الْمَوْضُوعِ...! وَلَكِنْ فَلِنَأْخُذْ طَرِيقَنَا، الَّذِي إِلَيْهِ انْتَهَيْنَا.

عَلَى أَنَّنَا سَنَعْرُضُ لَهُ، فِي ثَنَائِهَا الْفُصُولَ الْآتِيَةَ، عِنْدَمَا تَدْعُو الْحَاجَةَ لِذَلِكَ...
 وَقَدْ نَضَعُ لَهُ «فَصَلًا» خَاصًّا، فَنَعْرُضُ فِيهِ لِحَفْنَةٍ مِنْ شَعْرِهِ، فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ...

* *

لَمْ يَكُنْ أَبُو طَالِبٍ، بِالَّذِي يَنْذِلُ النُّصْرَةَ لِمُحَمَّدٍ، فِي شَخْصِهِ، فَحَسَبَ، فَلَمْ تَكُنْ نَصْرَتُهُ،
 فِي نِطَاقِ ضَيْقٍ، فِي يَوْمٍ مَّا...! فَهُوَ: نَصِيرُ الرُّسَالَةِ فِي مَهْلَهَا، وَرَاعِي مُحَمَّدٍ فِي طُفُولَتِهِ...
 وَإِذْ هُوَ نَصِيرُ الرُّسَالَةِ ذَاتَهَا، فَهُوَ نَصِيرٌ لِكُلِّ مَنْ يَعْتَقُهَا... فَلَيْسَ يَرْضَى أَنْ
 يَنَالَ وَاحِدًا ضَمِيمًا، أَوْ أَذَى، بِسَبِّهَا...

وإنَّ لَهُ لَصَفْحَاتٍ رَائِعَةً الْإِشْرَاقِ، بَارِزَةً الْعُنْوَانِ، فِي هَذِهِ النُّصْرَةِ الْمُؤَزَّرَةِ...
 وَلَيْسَ لَنَا أَنْ نَمُرَّ بِهَا، دُونَ أَنْ نُشِيرَ إِلَى شَيْءٍ مِنْهَا:

* *

عَذَّبَ الْمُشْرِكُونَ عِثْمَانَ بْنَ مَظْعُونٍ الْجُمَحِيِّ، وَقَدْ اسْتَنَارَ بِهَدْيِ الْإِسْلَامِ،
 وَاسْتَجَابَ لِأَصْدَاءِ الدَّعْوَةِ الْاِحْمَدِيَّةِ، فَفَارَقَ ظِلْمَةَ الشُّرْكِ، إِلَى نُورِ الْإِيمَانِ...
 فَشَاءَتْ قَرِيْشٌ أَنْ تَفْتِنَهُ، وَتُضِلَّهُ عَنْ لَحَبِ الطَّرِيقِ، فَعَذَّبَتْهُ، وَنَالَتْ مِنْهُ...

(١) - الْحَدِيدِيُّ ٣:٣١٥، وَالْغَدِيرُ ٧:٣٣٨، وَالْحِجَّةُ ٧٤ - بِإِبْدَالِ «مَلِيَتْ» بِ«فَنَكْتُ» -

وَأَبُو طَالِبٍ ٣٣، وَدِيَّانُ أَبِي طَالِبٍ ١١، وَالْأَعْيَانُ ٣٩:١٥٠

ولا يسمع بذلك أبو طالب، حتى يثار له، من هذه الوحشية من قريش، وهذا العداء المستفحل. ثم يقول:

أَمِنْ تَذَكُّرِ دَهْرٍ، غَيْرِ مَأْمُونٍ
أَصْبَحْتَ مَكْتَبًا، تَبْكِي كَمَحْزُونٍ؟
أَمْ مَنْ تَذَكُّرِ أَقْوَامٍ ذَوِي سَفْهِ
يَغْشَوْنَ بِالظُّلَمِ مَنْ يَدْعُو إِلَى الدِّينِ؟
أَلَا تَرَوْنَ - أَذَلَّ اللَّهُ جَمْعَكُمْ -

أَنَا غَضَبًا لِعِثْمَانَ بْنِ مِطْعُونٍ
وَنَمْنَعُ الضَّيْمِ، مَنْ يَغْيِي مَضِيمَتَنَا
بِكُلِّ مَطْرِدٍ - فِي الْكُفِّ - مَسْنُونٍ
وَمَرْهَفَاتٍ، كَأَنَّ الْمَلْحَ خَالَطَهَا
يَشْفِي بِهَا الدَّاءَ، مِنْ هَامِ الْخَجَانِينَ
حَتَّى تَقْرُرَ رَجَالٌ لَا حُلُومَ لَهَا...

بَعْدَ الصُّعُوبَةِ، بِالْإِسْمَاحِ وَاللَّيْنِ
أَوْ تَوْمِنُوا بِكِتَابٍ مَنْزَلٍ عَجَبٍ

على نبيٍّ كموسى، أو كلذي النون^(١)
ماذا يعني - في بيته الأخير - من الكتاب العجيب، المنزل على نبيٍّ، كالنبيِّ
موسى، ويونس؟.

فهل بعد هذا، غير الإيمان بالقرآن الكريم، وأنه كتاب إلهي، منزل على رسول
من رسل الله، الذين اجتبي؟.

وهل بعده مغمز، أو مطعن، في إيمان هذا الشيخ، إلا من عدو ضال؟!

(١) - الحديدي ٣: ٣١٣، والحجّة ٥٠، والغدير ٧: ٣٣٥، وهاشم وأمية ١٦٤، وشيخ
الأبطح ٣٠، وفيه زيادة. وديوان أبي طالب ٩، ١٠ - زيادة - والأعيان ٣٩: ٤٢.

ثم إنه - إلى جانب ما يحمل من سافر الاعتراف - لدليل على ماسبق أن ذهبنا إليه - في هذا الفصل - من أن عند أبي طالب دراية وإحاطة بالأديان، التي سبقت الشريعة احمديّة، وهي دليل على امتداد الحنيفيّة البيضاء...

والأ... فلولا هذه الدّراية والإحاطة، لما كان يعرض لمثل هذه الأديان. والمفروض أنه - عند المفرضين - كاجاهليّين، تتعفّر منه الجبين، عند أقدام الأصنام - وأستغفر الله!.

ثم لا يكتفيه هذا، حتى يذكر هذا الدّين، بصورةٍ يحضّ فيها المشركين على اتّباعه، والأخذ بهديه... بل جعله مرفاً السّلامة: فإمّا المرهفات الحداد، حتى تقرّ الرجال، التي هي أشباه الرّجال، ولارجال - كما يقول ابنه الإمام - أو الإيمان بهذا الكتاب العجيب...

وصفة القرآن العظيم، بصفة «عجب»، لها نظيرها في القرآن ذاته، وذلك في حكايته عن مؤمني الجن:

﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا، يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ، فَأَمَّا بِه﴾^(١).

* *

عذبت قريش - في من عذبت من المسلمين، وأرادت أن تصدّهم عن الهدى، وتفتنهم عن الدّين - أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي. ولم ير غير أبي طالب مفزعاً، يلجأ إليه، ليقيه غواشي قريش وعوادبها، فراح يستجير به... ولا تعلم مخروم بأنّ أبا طالب، قد أجار صاحبها، حتى تُولف وقدأ من رجالها، فمشى إليه، قائلاً:

«يا أبا طالب! هبّك منعت منا ابن أخيك محمّداً... فما بالك ولصاحبنا تمنعه منا؟»^{١٩}.

(١) - الجن: ١.

فكان أن أجاب بهذا الجواب:

[إنه استجار بي، وهو ابن أختي - «لأن أم أبي طالب مخزومية».

وإن أنا لم أمنع ابن أختي، لم أمنع ابن أخي].

فيرتفع للفظ صدى، ويعلو للجدل صوت، ويخشى الوفد الفتنة، فيخاف وخيم

العاقبة، فيعود فارغ اليد، مغلوباً على أمره، فاشل المسعى^(١).

* *

وإذ رأى أبو طالب: أن أبا هب، قد قال كلمة - في هذه الحادثة - في جانب أبي

طالب، فقد طمع فيه أبو طالب، وراح يدعو لنصرة الرسول، وأن يقف إلى جانبه، في

حماية الدين الجديد - كما هو واقف - فراح يدعو لذلك، في قطعتين، هذه إحداها:

وإن امرءاً أبوء عتيبةً عمه...

لفي روضة، ما إن يسام المظالم

أقول له، وأين منه نصيحتي:

أبا معتب! ثبث سوادك قائماً

إلى أن يقول:

كذبتم - وبيت الله - نجزى محمداً

ولما تزوا يوماً - لدى الشعب - قائماً^(٢)

* *

لم يكن جهاد أبي طالب، محصوراً في دفع العوادي، وحياطة الرسول، ورعايته

من سوء قريش، أو أن يجبر أحد المعذبين من المسلمين، فيغضب لذلك غضبة

الليث المرعب، وقد تسورت عليه الذئاب عرينه الحصين...

(١) - شيخ الأبطح ٢٩، والنهج الحديدي ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٧، والسيرة المشامية ٢: ١٠،

والنبوة ١: ٢٥٦، والأعيان ٣٩: ١٣٠.

(٢) - الحديدي ٣٠٧، والسيرة المشامية ٢: ١١، والحجة ١٠٥ - بدون هذا البيت -

والغدير ٣٩٣، ٣٩٤: ٧.

لم يكن هو هذا فحسب... وإن كان هذا هو أوّل ما يرمى إليه الإنتباه...! ولكن له هناك ناحية أخرى، لها قيمتها المعنوية الفضلى، وإن كانت جهاداً صامتاً...

فأبو طالب، داعية إسلامية، يشيد بكلّ مأثرة، يراها لصاحب الرسالة - تارة - ويشيد بمنزلة الدّين، ويرفع من ذكره - مرّة أخرى - ويدعو الناس لتصديق الرّسول، واعتناق هذا الدّين - في جهةٍ ثالثة - ويحذّر قريشاً سوء المغيبة، إذا هي تمادت سادرةً في غيها، غارقةً في جهلها...

إلى آخر ما هنالك، من النّواحي المتعدّدة، التي يعرض لها أبو طالب، وينظم شعراً رفيعاً، تتناقله الألسن، وتلوّكه الشّفاة، وتزّعم به الحناجر.

كانت الهجرة للحبيشة، بعد ما أذاقت قريشٌ مستضعفي المسلمين: ألوان العذاب، وأغاط الإضطهاد، وميرير المذلة...

وكان في طليعة المهاجرين جعفر بن أبي طالب.

وما كانت هجرة جعفر، تحت تأثير مادعى غيره للهجرة، فهو: عزيز الجانب، مرهوب الشّوكة... فيكفيه أن يكون ابن أبي طالب، لتهابه قريشٌ، فلا تنال منه ما يكره...

ولكن هجرته كانت من طرازٍ غير هذا: فهي ذات هدفٍ سام، ليكون حافزاً للهجرة، وراعياً للمهاجرين - هناك - وسفيراً بينهم، وبين دينهم، الذي قضت عليهم القوّة الجائرة: أن يكونوا بعيدين، عن نبعه الرّوي... ولكن الحسّة والنّدالة، وسقوط النّفس، وعمى الأفئدة، ليس لها أن تقف عند حدّ...

فما كان من قريش، إلّا أن أوفدت عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد - كما يُقال - إلى الحبشة، ليكيّدا - تحت أستار الظّلام - هؤلاء المهاجرين، فيحيكا لهم المؤامرات، على نول الخبث، والغدر، والبهتان...! فيخلقا كلّ فريّة، ويتحلا كلّ

منقصة، لتصل قريبش إلى غايتها الدُّون... لولا أن جعفرًا - بنفاذ بصيرة، ورجاحة عقل، واتزان تفكير، وعمق إيمان - كشف عن وجه هذه المؤامرة، وردَّ سهام المكيدة والبغي، إلى نحر راميتها...

وليس من موضوعنا عرضُ هذه الحادثة، ولكن البراع شاء أن يضع من الحادثة خطوطها الأولى - فمن شاءها، فليرجع لها، في مظانها، من كتب التاريخ...

ونحن إنما نريد أن نقول: إنَّ أبا طالب، وقد وصلت إليه أصداء هذه المكيدة، بعث للنجاشي - ملك الحبشة - أبياتاً، يحضُّ فيها على إكرام جعفر، وأن لا يصغي للقول الزور، الذي يُلقيه الأفَّاك الأثيم ابن العاص.

وقد جاء في هذه الأبيات:

ألا ليت شعري! كيف في الناس جعفرٌ

وعمرؤ، وأعداء النبيِّ الأقاربُ؟

وهل نال إحسانَ النجاشي جعفرًا

وأصحابه، أم عاقَ عن ذلك شاغبُ؟

تعلّم - أيت اللعن! - إنك ماجدٌ

كريم، فلا يشقى إليك المجانبُ

تعلّم بأنَّ الله زادك بسطةً

وأَسبابَ خيرٍ، كلُّها بك لازِبٌ^(١)

ولاتصل الأبيات للنجاشي، حتى تشيع في جوانبه الغبطة، ويبدو عليه السُرور العظيم، حيث لم يكن طامعاً، في مدح أبي طالبٍ إياه... ولا يرى أحسن من أن

(١) - ذكر الحديديُّ ٢٠٣١٤ - البيتين الأولين - وقال: «في أبيات كثيرة» - والسيرة الهشامية ١: ٣٥٧، بزيادة بيت، واختلاف يسير في بعض الألفاظ - والحجة ٥٦ - مع اختلاف يسير، أيضاً، في الألفاظ - والغدير ٧: ٣٣٧، والأعيان ٣٩: ١٤٤، و١٦: ٢٧ - بزيادة بيت، وبعض الاختلاف - وذكر البنان الأزلان في هاشم وأمية ١٦٤.

يشكر أبا طالب -على عاطر ثنائه- بإكرام مثنوى مَنْ تركوا ديارهم، وهجروا
أوطانهم، ليكونوا بجواره، فزاد في إكرامهم.

ولا يعلم أبو طالب بذلك، حتى يبعث إليه آياتاً، يدعوه فيها للإسلام، وينصاع
للدعوة، التي جاء بها الرسول الأعظم «ص»:

أتعلم -مَلِك الحبش!- أَنَّ مُحَمَّدًا

نبيُّ كموسى، والمسيح ابنِ مريم^(١)

أتى بالهدى، مثل الذي أتى به

فكلُّ -بأمرِ الله- يهدي ويعصم

وإنَّكُمْ تَتْلُونَهُ في كتابكُمْ

بصدقٍ حديثٍ، لا حديثِ التَرْجُم

فلا تجعلوا لله ندًّا، وأسلموا

فإنَّ طريقَ الحقِّ، ليسَ بمظلم

وإنَّكَ ماتأتيكُ منَّا عصابةٌ

لقصديك، إلَّا أَرْجِعُوا بالتَّكْرُم^(٢)

وهذه الآيات صورةٌ أخرى لإيمانه، وبرهانٍ ناطقٍ على أنه «داعيةٌ إسلاميةٌ»،
يعمل على نشر الإسلام، واعتناقه ديناً إلهياً، وتصديق صاحب الدعوة رسولاً من
السماء.

وهي -إلى ذلك- برهان آخر، على تلك الإحاطة والدراية -كما سبق أن
أشرنا- لدى أبي طالب، بكتب السماء، ورسالات الله وأنبيائه.

(١) - في رواية: «وزيرٌ لموسى...» - ولكنها غير صحيحة.

(٢) - الحجة ٥٦، ٥٧، والبحار ٥٢١:٦، وإيمان أبي طالب ١٨، وشيخ الأبطح ٨٧، ٨٨،
وجمع البيان ٣٧:٧ - بدون البيت الأخير - والعباس ٢٢، والغدير ٣٣١:٧، والأعيان ١٩:١٦،
عدا البيت الرابع، مع اختلافٍ في بعض الألفاظ.

وهي تصيَّقُ شاملٌ لِمَا جاء مِنْ عند الله، واعترافٌ بنبوةِ رسل الله، كلٌّ مِنْ محمَّدٍ، وعيسى، ورسولٍ. فمحمَّدٌ قد أتى بالهدى، كما سبق أن جاء به المسيح والكليم. وليس هذا الهدى -لديهم كلُّهم- سوى هدى الله.

ودعّمَ مايقول، بالبيّنة، التي لايرُدُّها المخاطَبُ. فلمّا كان النّجاشيُّ مسيحيّاً، فإنه ليحجّهُ بكتابه المقدّس - الإنجيل - فإنه سوف يجد فيه مايبشّرُ برسولٍ يأتي، «اسمه أحمد».

وهنا... نلمس، جليّاً، إحاطته بالذّين العيسويّ.

وبعد ذلك.. يدعوهم لتوحيد الله، وأن يُدعّوا للإسلام، بعدما بان لهم سنان النّهج القويم... فطريق الحقّ أحب، ليس بمظلم...!

وأنّها للصّفاقة الوقحة، أن تقول بعد كلّ هذا: إنّ أبا طالب لم يُسلم، وهو يدعو النّاس للإسلام، وإنّه ليعرف طريق الحقّ، ويصرخ بأنه «ليسَ بمظلم»، بل مشعٌّ بالنور، يدعو إليه السّراة والضّلال، لينقذهم مِنَ التّيّه والعمى... دون أن يهتدي هو بهداه، ويقتبس مِنْ نوره... بل يتخبّط -والعياذ بالله- في دياجي الظّلم، وغياهب الباطل...

أسغفر الله! فلن يقول ذلك، سوى الصّفيق الأرعن، والغاوي الضّال، الذي لا يخشى مِنْ قول الزّور، ولا يأنّث مِنْ انتحال الباطل.

* *

وهو -إلى هذا الإيمان الوطيد، والمعتقد الرّسِيخ- مؤمّنٌ بالمعجزات، مصدّقٌ لها، لا يُخالجها فيها شكٌّ أو ريبٌ... فالإعجاز، لا يكون لإنسان، لاثمّيزه على غيره ميزة النّبوة والعصمة...

وإنّ الإعجاز، ليفرض الإيمان، حتى على ضعاف العقول... فكيف بِمَنْ كان مِنَ العقل على اكتمال، وكان مِنَ الأديان على الإحاطة...؟

جاء أبو جهل للرَّسول «ص»، ويده حجرٌ، وقد عزم أن يضربه به، حين ما يسجد في صلاته.

ولكن هذا العزم، يذهب بدداً، فلا يستطيع أن يُحقِّقه، وهذه أصابعه منقبضة على الحجر -ولا ككفُ البخيل على قبضةٍ من الذهب الوهاج- فهي لا تطاوعه في الانبساط...!

فيعود: مهلوع الفؤاد، مرضوض الهمة، مخدوش التفكير!، فالرُّعب قد زلزل منه عزمه، والخوف قد أنبت في عينيه القذى... فلا يُبصر منبسط طريقه، وقد رأى مأيزرع منه الرُّوع، فحال بينه وبين ما عزم عليه!

فيقول أبو طالب، وهو يقرأ المستقبل، فيخشى عليهم ما ستلد به لهم مقبيل الأيام، إن هم أصرُّوا على العناد، وأصمُّوا آذانهم، دون صافي النداء، وأغلقوا قلوبهم، دون باهر النور، ولألاء الحق...

فإنَّ نهايةَ ستحيق بهم، كما كان -قبلهم- قوم صالح، إذ عقروا ناقة الله، فدمدم عليهم ربُّهم بعذابه، وحق بهم غضبه:

أَفِيقُوا -بَنِي عَمَّالٍ- وَانْتَهُوا

عن الغيِّ، في بعضِ ذا المنطقِ
وإلا فإبائي -إذا- خائفٌ

بوائق... في داركم تلقيني...!
تكون لغايركم عيرة...

وربُّ المغسارِبِ والمشـرقِ!
كما ذاقَ مَنْ كان قبلكم:

ثمودٌ وعادٌ -فمن ذا بقي؟
غداةً أتَّهَّهم بها صرصرٌ

وناقةٌ ذِي العرشِ، إذ تستقي

فحلَّ عليهم -بها- سخطةٌ
 مِن الله، في ضربةِ الأزرقِ
 غداةَ يعرضُ بعرقوبِها
 حمامٌ -مِن الهندِ- ذو رونقِ
 وأعجبُ مِن ذاكِ في أمرِكُم:
 عجائبُ في الحجرِ المصقِ!
 بكفُ الذي قامَ في جنبهِ
 إلى الصَّابرِ الصَّادقِ المتَّقِي
 فأنبَتَهُ اللهُ في كفِّهِ

على رغمِ ذا الخائنِ الأحقِ^(١)
 وإنِّي لأحسُّ في هذه القصيدة - إلى جانب اللُّهجة الصَّادقة، التي ينضح بها
 كلُّ شعره...
 إنِّي لأحسُّ فيها لهجةً رائيةً حانيةً، تبدلُ النُّصح، وتمحض الخير، وتدلُّ على
 النُّور، يبعث ذلك: الشَّفقة، والرِّثاء، لِمَن سيسدر في غيِّهِ، ويعمه في ضلاله... فهو
 يخاف عليه سوء المنقلبِ!
 وإنَّها لظاهرةٌ إنسانيَّةٌ ساميةٌ، قلَّ أن تظفر بها عند إنسان!
 وهو، لِيُمْكِن قولته مِن قلوبهم، دَعَمها بما نال عاقري ناقة ذي العرش، حين
 أصرُّوا على العناد، ولم يأنبهُوا لإنذار نبيِّهم صالح!

(١) - الحجَّة ٦٢ وذكرها الحديديُّ ٣:٣١٤- وقال: «مِن جملة أبيات»، فذكر الأوَّلين
 والرَّابع، وقال: «ومنها»، فذكر الثَّلاثة مِن الختام، وفيها: «مِن حبسه» بدل -«في جنبه»-
 و«رغمة»، بدلاً مِن (رغم ذا).

وذكرت في الغدير ٣٣٦، ٧:٣٣٧- باختلافٍ في بعض الكلمات، وزيادة بيتٍ في ختامها-
 وفي الأعيان ١٤٢، ٣٩:١٤٣.

وذكر بعضها في ديوان أبي طالب، ص٩، وبعضها في ص١٠.

وإنَّ هؤلاء -إنَّ أصرُّوا على العناد- فنهايةً، كنتلك، ستُحقيق بهم!. وهامي
ذي النُذر، قد أخذت تبدو منها طلائع...!
فهذا الحجر، قد أثبتته الله، في كَفِّ هذا الخائن الأحمق، الذي شاء أن يرمي به
الصَّابر، الصَّادق، المتَّقِي...!
وإنَّها لصفاتٌ يخلعها -على الرَّسول«ص»- إيمانه، ومعتقده، الذي رأى في
هذا الإعجاز نذيراً لقومه... -وياهول نذر الله...!!!

الشَّعْبُ وَالصَّحِيفَةُ

أقضى مضجع المشركين: أن يكون الرسول بهذه المنعة، وأن تكون دعوته يمثل هذا الانتشار... فقد انحاز إليها الكثير، واعتنقها الوفير، من مختلف الطبقات، والتحل، والبلاد؛ فلاقت: صدى بعيداً، متجاوباً مرناً، وتعلق بها كثيرون... فوقعت من أفندتهم في الصميم، حتى أنهم ليؤثرون الموت، بعد أن يذوقوا ألوان العذاب، وأغاط الأذى، وأقصى الألم، وكأنهم يتمتعون ويلتذنون...!

فالألم - في هذا السبيل - ألد من النعيم؛ والهوان أحلى من الكثرة؛ والهجرة، بلفحها الوهاج، أوف من الظل الممتد...!

فليس للسان منهم أن ينسب بينت شفة، تشعر المشركين بأنه حاد عن دين الله القويم، وصراطه الألب!

وأنهم ليبرحون ديارهم، ويهجرون أوطانهم، ويقلون أحبابهم، في سبيل أن ينجوا بأنفسهم، وهم في سلامة من دينهم!.

وقفت قريش تتداول الرأي، وتعمل الفكر، وتبتدع الحيل، وتبحث عن المكاييد...

ماذا عساها أن تعمل، لتللم من بساط هذه الرسالة المنشور، وتلاشي من صداها البعيد، العميق الجهير، الذي لم يكدرن، حتى جاوبته القلوب، وأرهفت إليه الأسماع...!

إن كل الحيل، التي انتهجتها، لم تجدها نفعاً، ولم تنلها الغاية المرجاة، ولم تُشبع شهوتها الصارخة... فوحشتها على نهمها السَّعَّار، وخوفها وقلقها على مصائر آلتها، التي تعبد، تقض عليها المضاجع، وتنبو بها عن الرُّقاد...

أمّا خوفها على انفلات زمام الزَّعامَة، والتَّحكُّم في مصائر النَّاس، وسومهم الخسف والوبال - فهذا ما يبرز في طبيعة الأمور، التي تدعوها أن تفكر، وتعمل الرأي...!

إنَّها قد سعت لإخمادِ هذه الجذوة، وبعدُ لم يمتدُّ لها هيبٌ... وإخفات هذا الصَّوت، وقد كان همساً ناعماً... وكسَّرَ هذا الأملود، وبعدُ لم تصلبَ له قشرة... ولكنها عادت بحفٍّ حنين، صفر اليدين، خاوية الوقاض... فمحمَّد - بعَمِّه ورجاله- في حصنٍ منيع، وكهفٍ لا تدنو منه الأعاصير.

ولو أنَّها امتدَّت يدُ منها، لَتُخمد في محمَّد جذوة الحياة، وتسفك منه الدَّم على شفرات المواضي -فإنَّها سوف تجني من ذلك الوبال... فسوف تنبت من كلِّ قطرةٍ من دمه، سيوفٌ تجتثُ جذورهم...!

فواجب الأخذ بالثَّار، سوف ينبُّه الدَّفَّان، ويُشير الكوامن، ويشحذ الهمم، ويصقل المواضي...

وهو -إلى ذلك- سوف ترتوي دعوته من دمه، وإنَّ لها في نفوس بعض أصحابه لأقدس وأرفع منزلةً، فسوف يُذيعها بين النَّاس، فتكون أسرع انتشاراً، إذ سِيرافقها قصَّة دم مفسوك، بأيدي أئيمة، عشى أعينها هذا النُّور الجديد.

وإنَّها قد قاومت أصحابه، وفتنتهم، وصدَّتْهم فوجدت نفسها أمام حديدٍ، لا يُقْل، وأمام صخرٍ لا يُفْت، وأمام طودٍ لا يتزعزع...

فما العذاب والإضطهاد، بالذي يردُّ مؤمناً عن إيمانه، أو يفتن مسلماً عن إسلامه... بل إنَّ كلَّ ذلك ممَّا يُمكن للدَّعوة في القلوب، ويُرسِّخها في الصُّمائر - ولاسيَّما أنَّ هؤلاء مشوقون إلى روائح الجنَّة، ونعيمها الدَّائم، لينالوا فيها درجات الشُّهداء الصَّابرين.

إذن... فماذا تعمل، ولا ترى سبيلاً للعمل المثمر؟!.

وفي عتيِّ الحيرة، وفي أخرج المواقف، وفي أشدِّها أزمةً، انفرجت شفةٌ من أحد الأبالسة، وكأنه فحيح الأفاعي، فقد اهتدى لمحلٍّ يُرضي الحقد الثَّائر، وطريقٍ يصل بهم للهدف المنشود، ويُزيلهم البغية الحلوة، والرَّجاء الخميل...

عليهم أن يضربوا نطقاً من «الحصار السِّلْمِي» -الحصار الاقتصادي- على هؤلاء الذين يحمون محمَّداً.

عليهم أن يشنوها حرباً باردة، لينجوا فيها مِنَ الصُّحَايا والحَسائِر، ويقع كل ذلك، على عدوِّهم وحدهم! ولا بدَّ أن يستسلم هؤلاء... فرددوا صاحبهم عن دعوته، أو يُسلموه إليهم: ضحيَّة رخيصة، وفريسة سهلة الاضطداد، بخيسة الثمن. حينذاك... كتبوا صحيفة، كان مِنْ بنودها، أن يكونوا يداً واحدة، على بني هاشم والمطلب، وحرباً عليهم لايهادنونهم، فلا يتناكحون وإياهم، ولا يبيعون إليهم، ولا يتعاونون منهم، ولا يقبلون منهم صلحاً أبداً - إن أرادوه - وأن ينفذوا هذا الشرط، بدون رافعة، أو رحمة بهم...

وليس يشيهم عن عهدهم هذا، إلا أن يُسلموا إليهم محمّداً، ويُخلوا السَّيْلَ بينهم وبينه! فحينذاك، يرفعون عنهم هذا الحصار، وتعود لهم الحياة رويَّة، كما كانت في سابق عهدها.

وختموا الصَّحيفة - وقد تعاهدوا على تنفيذ ما جاءت به، وجعلوا نسخة منها، معلَّقة في الكعبة.

وكان ذلك في هلال الحَرَم، بعد سبعِ مِنَ السَّنِين، على البعثة.

* *

ماكاد يمسُّ طيلة أذن أبي طالب، ما عزم عليه قريشٌ مِنْ قطيعة آثمة، وعملٍ وحشيٍّ، يدلُّ على سفالة ضمير، واسوداد قلب، حتى نبض شعوره بشعر، نعى فيه على قريشٍ ما عزم عليه مِنْ ظلم، وحذرهما ما يعود عليها، مِنَ البلاء والحرب الضروس، في قصيدةٍ تجتريء ببعضها:

يُرْجُونَ مِنَّا خَطْئَةً، دُونَ نِيلِهَا

ضرابٌ وطعنٌ، بالوشيحِ المقوِّم!

يُرْجُونَ أَنْ نَسْخِيَ بِقَتْلِ مُحَمَّدٍ

وَلَمْ تَخْتَضِبْ سَمْرُ الْعَوَالِي مِنْ الدَّمِ!

كذبُهم - وَيَتَرِ اللَّهُ - حَتَّى تَفْلَقُوا

جَاحِمٌ تُلْقَى بِالْحَاطِمِ وَزَمْزَمُ

وَتَقْطَعُ أَرْحَامًا، وَتَنْسَى حَلِيلَةً
 حَلِيلًا، وَيُغْشَى مُحَرَّمٌ بَعْدَ مُحَرَّمٍ
 عَلَى مَا مَضَى مِنْ مَقْتِكُمْ وَعَقُوقِكُمْ
 وَغَشْيَايَكُم - فِي أَمْرِكُمْ - كُلِّ مَا نَمِ
 وَظَلَمَ نَبِيٌّ، جَاءَ يَدْعُو إِلَى الْهُدَى
 وَأَمْرٍ، أَتَى مِنْ عِنْدِ ذِي الْعَرْشِ، قِيمَ
 فَلَا تَحْسِبُونَا مُسْلِمِينَ، فَمَثَلُهُ

إِذَا كَانَ فِي قَوْمٍ، فَلَيْسَ بِمُسْلِمٍ^(١)
 لَيْسَ يَهْمُنَا مَا قَمَلَهُ الْقَصِيدَةُ، مِنْ التَّحْدِي الصَّارِخِ لِقَرِيشٍ، وَالتَّأْيِبِ هَا،
 وَالتَّخْوِيفِ مِنْ خَوْضِ غَمَارِ الْحَرْبِ - وَفِي مَا تَرَكْنَاهُ مِنَ الْقَصِيدَةِ، تَجَلَّى فِيهِ هَذِهِ
 النَّاحِيَةُ أَبْرَزَ وَأَشَدَّ.
 وَلَكِنْ يَعْنِيهَا مِنْهَا - قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ - هَذَانِ الْبَيْتَانِ، اللَّذَانِ اخْتَمَمْنَا بِهِمَا مَا شِئْنَا
 مِنْهَا.

فَالْبَيْتُ الْأَوَّلُ يَتَجَلَّى فِيهِ أَلْقَى الْإِيمَانَ، وَلِأَوْلَاءِ الْمُعْتَقِدِ... فَمُحَمَّدٌ نَبِيٌّ... وَدَعْوَتُهُ
 الَّتِي يَدْعُو إِلَيْهَا قَرِيشًا وَغَيْرَهَا، لَيْسَتْ غَيْرَ الْهُدَى... وَلَيْسَ هَذَا الْأَمْرُ، الَّذِي أَتَى بِهِ
 - وَهُوَ الْأَمْرُ الْقِيمَ - إِلَّا أَمْرُ ذِي الْعَرْشِ الرَّحْمَنِ الْعَظِيمِ.
 فَمَتَى كَانَ مِثْلُ مُحَمَّدٍ - وَأَنْتَى لَهُمْ بِمَثَلِهِ! - فِي قَوْمٍ، مَهْمَا كَانُوا، فَإِنَّهُمْ لَيْسُوا
 بِمُسْلِمِينَ، وَهُوَ رَسُولُ رَبِّهِمْ إِلَيْهِمْ، فَإِنَّهُمْ لَيُنَالُونَ الْعِزَّ بِهِ، وَالشَّرَفَ بِمَنْعِهِ مِنْ يَدِ
 أَعْدَائِهِ، وَالْهُدَى بِهَدَاهِ...
 وَمَاعَسَى أَنْ تَقُولَ - أَيُّهَا الْمُسْلِمُ، الَّذِي تَقُولُ فِي مُؤْمِنٍ قَرِيشٍ، قَوْلَ الزُّورِ...!؟

(١) - التَّهْجُ الْحَدِيدِيُّ ٣١٢، ٣: ٣١٣، وَالْحِجَّةُ ٣٧، ٣٨ - بِزِيَادَةِ خَمْسَةِ آيَاتٍ فِي أَوَّلِهَا، وَبَيْنَ
 بَعْدَ «وَتَقْطَعُ»، وَبَيْنَ فِي نَهَائِهَا - وَالْغَدِيرُ ٣٣٣، ٧: ٣٣٤ [مُسْنَدٌ] - بِزِيَادَةِ بَيْتٍ عَمَّا فِي الْحِجَّةِ.
 وَذَكَرَ بَعْضُهَا - بِاخْتِلَافٍ فِي الْأَلْفَاظِ - فِي إِيْمَانِ أَبِي طَالِبٍ ١٣.
 وَذَكَرْتُ فِي هَاشِمٍ وَأُمَيَّةٍ ١٧١، ١٧٢، وَالْأَعْيَانُ ١٤١: ٣٩، بِزِيَادَةِ بَيْتٍ فِي نَهَائِهَا.

ماعساك أن تقول، غير هذا القول، وتؤدي عن إيمانك بدعوة النبي، أحسن من هذا الأداء، وأفصح من هذا البيان... ١٩*

حينذاك... راح أبو طالب يعمل رأيه، فيرى نفسه في أزمة عاتية، وفي ضيق ومأزق حرج. فعليه أن يتخذ القرار الحاسم. فنأدى إليه رجال بني المطلب وهاشم، واجتمعوا على أمرهم أن يدخلوا «الشعب»^(١)، ليكونوا في منجى، بعد أن نفذت قريش صحيفتها، الظالمة القاطعة. فانغاز المطلبيون والهاشميون لأبي طالب، يأتمرون بأمره. فرأيهم لرأيه تبع، وهم لما يريد على انقياد.

ولم يشد عنهم، سوى ذلك الأخ الظلوم، الذي رين على قلبه، أبي هب الصال -تبت يداه!- الذي راح يُعين قريشاً عليهم^(٢).

تمضي الأيام عليهم رتيبة، لاتنفرج لهم كوة، من نور الرجاء، وشعاع الأمل، فهم في ضائقة وضنك، لايحده الوصف، ولا يأتي على تصويره القول... فالجوع حز في نفوسهم، ورسم خطوطه البشعة في أجسامهم!

وليست تعد قريش، من تمتد لهم منه يد بمعونة، غير خائن مجرم، فتشور في وجهه، لتصدّه وتعاقيه... فأصابهم الجهد، ونال منهم الضنى، وأضر بهم الجوع، حتى أنهم ليأكلون «الحب»^(٣)، وورق الشجر^(٤).

* *

(١) - ذكر ياقوت الحموي - في معجم بلدانه ٥: ٢٧٠ [٣: ٣٤٧] - الشعب (يكسر الشين)، باسم «شعب أبي يوسف»، فقال:

(وهو الشعب الذي أوى إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وبنو هاشم لما تخالفت قريش على بني هاشم، وكتبوا الصحيفة، وكان لعبد المطلب...) - الخ.

(٢) - الطبري ٢: ٧٤، والكامل ٢: ٥٩، والسيرة الهاشمية ٣٧٥، ١: ٣٧٦، والنبوية ١: ٢٧٢، والحليّة ١: ٣٧٤، والحديدي ٣: ٣٠٧، والغدير ٧: ٣٦٣.

(٣) - كذا ذكر من عرض لهذه الحادثة. والحَبْ - بفتح أوله وثانيه - ورق الشجر. والحَبْط - بفتح أوله، وضمة - جمع حَبْط - بفتح أوله، وسكون ثانيه - البقية من لاء واللبن، والشئ، لقليل. والخبطة: الجرعة من الماء، والبعض من الشئ، والقطعة منه.

وكان أبو طالب، ذلك الحفيظ المحترس على ابن أخيه، والحارس اليقظان عليه. فيخشى عليه من مؤامرة تحاك، أو دسيسة تنال منه شهوتها.

فإذا لفهم الليل بسحابته الذكاء، وحان وقت استسلامهم للنوم، فرش لابن أخيه فراشاً، يمتد عليه، يبرأى من هؤلاء جميعاً، حتى إذا استسلموا لغفوة عميقة - وهو ذلك اليقظان - قام، فأخذ ابن أخيه لفراش ابنه علي، وأخذ ابنه لفراش ابن أخيه... حتى لو كان هناك، من بات على سوء نية، وبیت سوء قصد، فإنّ السوء يقع على ابنه، لينجو منه رسول السماء! فليذهب ابنه ضحية، دون أن ينال الرسول سوءاً، وله عين تطرف!...

يا للتضحية الفذة، يُسجلها التاريخ بيد الإعجاب، بحروف مشرقة السني، تبقى مثلاً خالداً للفتاء، والتضحية، والحب والفناء، والإيمان والعقيدة!...

* *

يصم المغرضون دفاع أبي طالب وجهاده، فينسبون ذلك، إلى: أنه لا يقف، إلاّ حمية النسب... فهل القرابة، بينه وبين محمد - ابن أخيه - أوشج منها، بينه وبين عليّ ابنه؟! فماله يُضحّي بهذا، فداءً لذلك...؟!...

وفاتهم - إلى ذلك - أنّ حمية الدين، أقوى من حمية النسب! فلولا حمية إيمانه بنبوّة ابن أخيه، لمّا حماه للقرى، وفداه بأمسّ الناس إليه...! ولكانت حمية دينه - البريء منه، والذي ينسبه إليه المفترّون - تفرض عليه: أن يسحق هذه القرى، ويقطع جبل النسب!...

ولهذه الحمية ذاتها، وقف أبو هب ومن إليه، موقفهم ذاك، وهم كآبي طالب: منزلة وقرى، ومساس رحم، بمحمد الرسول!.

وليس أدلّ، من أنّ حمية الدين، لا تعترف بحمية القرى، إن كان بينهما خصام، من أنّ بعض المسلمين، قد أراد أن يُورد أباه - أو ابنه - حياض الموت، لما كان لشركه ذلك العنيد، وللإسلام ذلك العدوّ الجحود...! (١).

(١) - سوف ندلّل على هذه الناحية، بعرض مايدعمه - من صفحات التاريخ - في فصلٍ مقبل.

ونعود للطرف الآخر، ثمَّ وصلنا إليه:
لقد مرّت ليلةٌ، وقد أخذ أبو طالبٍ بيد ابنه عليٍّ، لنام ابن أخيه، قال فيها:
عليٌّ:

«يا أبت! إني مقتولٌ!».

وإذا بأبي طالبٍ يدعو ابنه للصَّبر، وأن لا يرهّب الموت -وهو غاية الحياة،
ومصير الوجود...! فما الحياة غير طريقٍ للموت، يقطعه هذا الشَّبح، المدعوُّ
بـ«الإنسان»...

وإنَّه قد بذله لهذا انفداء، وقَدَّمه ضحيَّةً، لهذا الحبيب، الأثير لديه:

اصبرن -يا بنيّ!- فالصَّبرُ أحجى

كلُّ حيٍّ مصيره لِشُعُوبٍ...

قدْ بذلناكَ -والبلَاءُ شديدٌ-

لفداءِ الحبيب، وابنِ الحبيب...!

لفداءِ الأغرُّ، ذي الحسبِ الثَّاقبِ

والباع، والكريمِ النَّجيبِ

إنْ تُصبِكَ المنونُ، فالنَّبلُ تُرى

فمصيبٌ منها، وغيرُ مصيبٍ^(١)

كلُّ حيٍّ -وإنْ تَمَلَّى بعمرٍ-

أخذ مِنْ مذاقِهَا بنصيبٍ!

وأجابه ابنه عليٌّ، وهو الشَّجاع المغوار، الذي لم يرهّب الموت، في لحظةٍ مِنْ
حياته، ولا يخشى الألم، وبه انصهرت حياته، ويغبط بفداء رسول الله (ص)، وقد
أوقف على ذلك حياته:

(١) - تُرى، في روايةٍ تترى، وأخرى: يرمى.

أَتَأْمُرُنِي بِالصَّبْرِ فِي نَصْرِ أَحْمَدٍ؟
 ووالله مَا قَلْتُ الَّذِي قُلْتَ جَارِعَا!
 وَلَكِنِّي أَحْبَبْتُ أَنْ تَرَى نَصْرَتِي
 وَتَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَزَلْ لَكَ طَانِعَا!
 سَأَسْعَى لَوَجْهِ اللَّهِ فِي نَصْرِ أَحْمَدٍ
 نَبِيَّ الْهُدَى الْمَحْمُودِ، طِفْلاً، وَيَافِعَا^(١)

* *

صار أبو طالب -مدة الحصار في «الشَّعب» كلَّ مائات به كوامن الألم،
 ورواسب الماراة، نفت شعوره، في شعرٍ ملتهب القوافي:
 أَلَا أَبْلَغَا عَنِّي - عَلَى ذَاتِ بَيْنَهَا -
 لَوْيَا - وَخَصًّا، مِنْ لَوِيٍّ، بَنِي كَعْبٍ
 أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَا وَجَدْنَا مُحَمَّدًا
 نَبِيًّا كَمُوسَى - خَطَّ فِي أَوَّلِ الْكِتَابِ^(٢)
 وَأَنَّ عَلَيْهِ فِي الْعِبَادِ مَحَبَّةً
 وَلَا حَيْفَ فِي مَنْ خَصَّهُ اللَّهُ بِالْحُبِّ^(٣)

(١) - ارجع للحادثة والشَّعر، لكلِّ مَنْ: التَّهَجُّ الحديديّ ٣:٣١٠، وفيه تحريفٌ مطبعي «بالطَّبع» وفي البيت الثاني والثَّالث مِنْ شعر أبي طالب والمناقب ١:٣٧، والحجَّة ٧٠، والغدير ٣٥٨، ٧، وأعيان الشَّيعة ١٢:٣٩.

وذكرت الحادثة - وحدها - في السِّيرة النَّبَوِيَّة ١:٢٧٦، والحليَّة ١:٣٨، وأبو طالب ٧٣، ٧٤.
 وذكرت أبيات أبي طالب في ديوانه ص ٩.

(٢) - ذكر - من القصيدة - هذا البيت، والبيت الثاني عشر، في مجمع البيان ٣٦:٧.

(٣) - الشَّطْر الأخير - عند «ابن هشام»: [وَلَا حَيْرَ يَمِّنَ] - إلخ - وقد تأوَّل له الشَّارح تأويلين، لحمل معناه على الوجه الصحيح. وفي هذه الرِّوَاية منجاة مِنَ التَّأْوِيلِ.

وَأَنْ الِذِي رَقَشْتُمْ فِي كِتَابِكُمْ
 يَكُونُ لَكُمْ -يَوْمًا- كِرَاجِيَةِ السَّعْبِ
 أَفِيقُوا! أَفِيقُوا! قَبْلَ أَنْ تُحْفَرَ الزُّبَى
 وَيُصْبَحَ مَنْ لَمْ يَجِدْ ذَنْبًا كَلِيًّا ذَنْبًا^(١)
 وَلَا تَتَّبِعُوا أَمْرَ الْغَوَاةِ، وَتَقْطَعُوا
 أَوَاصِرَنَا، بَعْدَ الْمَوْدَّةِ وَالْقُرْبِ
 وَتَسْتَحْلِبُوا حَرْبًا عَوَانًا... وَرَبِمَا
 أَمْرٌ عَلَى مَنْ ذَاقَهُ حَلَبُ الْحَرْبِ
 فَلَسْنَا -وَبَيْتِ اللَّهِ!- نُسَلِّمُ أَحْمَدًا
 لِعِزَاءٍ مِنْ عِضِّ الزَّمَانِ، وَلَا كَرْبِ
 وَلَمَّا تَبَنَّا مِنْكُمْ سَوَالِفُ
 وَأَيْدٍ أَتَرَّتْ بِالْمَهْنَدَةِ الشُّهْبِ
 بِمَعْرَكِ ضَنْكِ، تَرَى كِسْرَ الْقَنَا
 بِهِ، وَالضُّبَاعَ الْعُرْجَ تَعَكَّفُ كَالشَّرْبِ
 كَأَنَّ مَجَالِ الْخَيْلِ فِي حُجْرَاتِهِ
 وَمَعْمَعَةِ الْأَبْطَالِ، مَعْرَكَةُ الْحَرْبِ
 أَلَيْسَ أَبُونَا هَاشِمٌ شَدَّ أَرْزُهُ
 وَأَوْصَى بَنِيهِ، بِالطَّعْمَانِ، وَبِالضَّرْبِ
 وَلَسْنَا نَمْلُ الْحَرْبَ، حَتَّى قَتَلْنَا
 وَلَا نَشْتَكِي لَمَّا يَنْوِبُ مِنَ النُّكْبِ

(١) - يُروى: «الفرى»، بدل «الزُّبَى».

ولكننا أهل الحفائظ والنهي

إذا طار أرواح الكماة من الرعب^(١)

ويكفيها، من القصيدة، أبياتها الأولى، لتنهض: دليلاً نابضاً، وبرهاناً دامغاً، على إيمان قائلها، فهو يرى محمداً نبياً، كما كان - من قبله - موسى الكليم، وقد خُطت نبوته، وبشّرت بها، كتب السماء التي سبقته.

وكما تنهض دليل إيمانه، فإنها لتنهض - مرةً أخرى - كدليل مكرور - أيضاً - على معرفة أبي طالب بالأديان السماوية، وإيمانه بأنبياء الله، ورُسله، وكتبه.

فلم يكن - في يوم ما - ذلك المشرك، وهو البعيد الجدور، في الإيمان الثابت، والمبدئ الراسخ الوطيد...

وندع ماتحملة القصيدة - في أبياتها - من الجوانب الأخرى الرفيعة، التي سيحتليها القارئ الكريم...

ولعل من الخير أن نأتي بهذه القطعة، من إحدى قصائده - ولعلها مما قاله في «الشعب».

ونحن نقتصر منها، على هذه الأبيات، التي تنضح بالإيمان، وتجلو عن رائع المعتقد، وسافر اليقين:

ألم تعلموا أن القطيعة مائت

وأمر بلاء قائم، غير حازم؟!

(١) - التهج الحديدي ٣١٣ : ٣، والسيرة الهشامية - مع اختلاف في بضع كلمات - ٣٧٧ - ٣٧٩ : ١، والحجة - بدون البيتين الآخرين - ٣٩، ٤٠، وأسندها شارحة لعدة مصادر، وهشام وأمية ١٧٢، ١٧٣.

وذكر منها - في إيمان أبي طالب ١٥ - الثلاثة الأولى.

وذكر منها في المناقب ١: ٣٦.

وذكرت في شيخ الأبطح ٣٥، ٣٦، والغدير ٣٣٢، ٣٣٣ : ٧ مستندة لمصادرهما، والأعيان

١٤٠، ٣٩: ١٤١.

وَأَنْ سَبِيلَ الرُّشْدِ، يُعَلِّمُ فِي غَدٍ؟
وَأَنْ نَعِمْ الدَّهْرَ، لَيْسَ بِدَائِمٍ!
فَلَا تَسْفِهَنَّ أَحْلَامَكُمْ فِي مُحَمَّدٍ
وَلَا تَتَّبِعُوا أَمْرَ الْغُرَاةِ الْأَشَانِمِ!
تَمَيُّتُمْ أَنْ تَقْتُلُوهُ...؟ وَإِنَّمَا
أَمَانِيكُمْ -هَلِي-! -كَأَحْلَامِ نَانِمِ!
وَأَنْكُمْ -وَاللَّهِ!- لَا تَقْتُلُونَهُ
وَلَمَّا تَرَوْا قُطْفَ اللَّحَى وَالْغَلَاصِمِ! (١)

زَعَمْتُمْ بَأَنَّا مُسْلِمُونَ مُحَمَّدًا...
وَلَمَّا نُقَاذِفْ دُونَهُ وَنُزَاجِمِ!
مِنْ الْقَوْمِ مَفْضَالٍ، أَبِي عَلَى الْعِدَى
تَمَكَّنَ فِي الْفَرَعَيْنِ، مِنْ آلِ هَاشِمٍ
أَمِينٌ، حَبِيبٌ، فِي الْعِبَادِ مَسُومٌ
بِخَاتَمِ رَبِّ قَاهِرٍ، فِي الْخَوَاتِمِ
يَرَى النَّاسُ بَرَهَانًا عَلَيْهِ، وَهِيَّةً
-وَمَا جَاهِلٌ فِي قَوْمِهِ، مِثْلُ عَالَمِ
نَبِيِّ، آتَاهُ الْوَحْيُ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ
وَمَنْ قَالَ: لَا... يَقْرَعُ بِهَا سَنَ نَادِمِ! (٢)

(١) - يُرْوَى "الجماحم" - وقد ذكر الأُميُّ بعد هذا - بيتين، لم نذكرهما.

(٢) - ذكر هذه القطعة - عدا البيتَيْن الأولَيْن - الحديديُّ في شرحه ٣: ٣١٣.

وذكرت في : الحجة ٤٤، ٤٣ وشيخ الأبطح ٣٩، ٣٨، وهاشم وأُمَيَّة ١٧٣، والقدير ٧: ٣٣٢، ٣٣١.

وذكرت خمسة منها في إيمان أبي طالب ١٤.

وذكرت الثلاثة الأخيرة - كشاهد - في العباس ٢٢؛ والأعيان ١٤١، ١٤٢؛ ٣٩ عدا البيتَيْن الأولَيْن.

نعى على قريشٍ قطيعتها، التي تجلب لها المأثم، فتبوء بالخزي، والبلاء المقيم...
ثم حذرهما مغيةً عملها، وماسوف تحبته من شرٍ شجي...
فسييل الرشد، لاجبةً معالمة، سوف تُعرف ثماره في يوم الحساب، يوم تقدم كلُّ
نفسٍ على ماقدّمت...

أما نعيم الدنيا، فهو على وشك الفناء والتلاشي... وإنه لصائرٌ إلى هذه
النهاية، مهما امتدَّ به العمر، ولن يُكفل له اخلود والبقاء، إنه لآلى زوالٍ محتومٍ
يسعى إليه، مهما طال الطريق، أو قصر.
فعليلهم أن يقلعوا عن سفههم في الرّسول، فلا يسدرون في الغي، يتبعون هؤلاء
الغواة الآثمين...

وبعد أن أعلن عن موقفه --وهم له عارفون-- وأنه لن يُسلم إليهم محمدًا، حتى
تطاح رؤوسٌ، وتسيل دماءٌ، وتبعثر مجزرةٌ، من الأناسين...
وبعد أن راح يذكر مآتي ابن أخيه، ومحامده... أعلن عن رأيه «الذاتي» فيه،
وفي ما جاء به... فهو: نبيٌّ مرسلٌ، يتنزّل عليه الوحي من ربّه، فيصدع بأمره،
ويؤدّي رسالته.

أما مَنْ كان لديه -في ذلك- شكٌّ، وخالجته ريبةٌ، وقال: «لا...» فإنه سيقرع
بها سنّ الندم، يوم يعضُّ الظالم على أصابعه -ولات حين مندم!

فهل بعد هذا إقرارٌ...؟ وهل غير هذا... الإيمان، والتسليم، والاعتراف...؟!
ونعرد فنقول: هل من فرق بين: مَنْ يقول: «محمدٌ رسول الله»، أو: «محمدٌ
نبيٌّ يأتيه الوحي من ربّه»، أو ماشابه هذه الكلمة، في ما تحمله من معناها...؟!
ويقال لذلك: مؤمنٌ، وهذا: مشركٌ...!!

اللهم! إلاّ أنه الجهل، والضلال، والأغراض السُّود...!

ومن شعره في «الشعب»: هذه الآيات، التي نعى فيها على قريشٍ قطيعتها، وقطعها
حبل المودة، وعرى الإلفة، وتفرّقها الجماعة، لغاياتها السَّافلة، وشهواتها الحمقاء:

جَزَى اللَّهُ عَنَّا عَبْدَ شَمْسٍ، وَنُوفَلًا،
وَتِيمًا، وَمُحْزُومًا: عَقُوقًا، وَمَأْتَمًّا -
بِتَفْرِيقِهِمْ - مِنْ بَعْدِ وَدٍّ وَالْفَةِ -
جَمَاعَتَنَا ... كَيْ مَا يَأْلُوا الْحَارِمَا ...
كَذَبْتُمْ - وَبَيْتَ اللَّهِ! - نَجَزَى مُحَمَّدًا
وَلَمَّا تَرَوْا يَوْمًا - لَدَى الشُّعْبِ - قَائِمًا^(١)

دار الزَّمن، عدَّة دوراتٍ، والنَّبِيُّ وحاميه، والمُطَلِّبِيُّونَ والهاشمِيُّونَ، في الشُّعْبِ،
يَلْقَوْنَ الْأُمْرَيْنِ، وَيَتَجَرَّعُونَ صَابَ الْأَلَمِ، وَيَنَالُونَ أُنْمَاطَ الْأَذَى، وَالْوَنَانَ الْعَذَابِ،
وَمِرَارَةَ الْحَرَمَانِ ... وَأَبُو طَالِبٍ، يَنْفَثُ بِحِمَمٍ مِنْ شَعْرِهِ، كُلُّ مَا هَاجَ - فِي بَاطِنِهِ -
الْأَلَمُ، وَغَلَى مَرَجِلُ الْحِمِيَّةِ، وَثَارَتْ رَوَاسِبُ النَّفْسِ، وَأَلْهَمَهَا الْكَمِينَ.
وَمَضَى عَلَى هَذِهِ الْحَيَاةِ الرَّثِيَّةِ عَامَانِ - فِي قَوْلٍ - أَوْ ثَلَاثَةٍ - فِي قَوْلٍ آخَرَ ...
فَكَانَ يَوْمٌ، أَوْحَى اللَّهُ فِيهِ إِلَى الرَّسُولِ الْعَظِيمِ (ص)، بِمَا سَلَطَ عَلَى الصَّحِيفَةِ الظَّالِمَةُ
الْجَائِرَةُ ...

فَقَدْ أَكَلَتْ «الْأَرْضَةُ»^(٢) جَمِيعَ مَا تَحْمِلُهُ الصَّحِيفَةُ، مِنْ الظُّلْمِ وَالْقَطِيعَةِ، وَلَمْ تَبْقِ
عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا، بِسُوءِ اسْمِ اللَّهِ.
وَأَلْقَى الرَّسُولُ، بِهَذَا النَّبَاِ الْمَشْرِقِ الْخَوَاشِي، إِلَى عَمِّهِ، فَسَرَتْ فَرَحَةً فِي
جَسَمِهِ، وَبَانَ الْإِطْمِنَانُ فِي وَجْهِهِ، وَنَامَ الْقَلْقُ وَالْأَلَمُ، وَقَدْ كَانَتْ لهُمَا ثَوْرَةٌ فِي
بَاطِنِهِ، وَسَالَ ابْنُ أَخِيهِ، سُؤَالَ مَنْ يُرِيدُ الْمَزِيدَ مِنَ الطُّمَأْنِينَةِ:

(١) - معجم البلدان ٥: ٢٧٠ [٣: ٣٤٧]، والسِّيَرَةُ الْهَاشِمِيَّةُ ٢: ١١.
وَذَكَرَ الْبَيْتَ الْأَوَّلَ، عَلَى أَنَّهُ مُسْتَهْلٌ قَصِيدَةٍ لِأَبِي طَالِبٍ، فِي السِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ ١: ٢٧٣، وَالْخَلِيبَةُ
١: ٣٧٥.

وقد ذكرنا - في الفصل السابق - البيت الثالث، مِنْ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ، فِي قِطْعَةٍ، نَقَلْنَاهَا مِنْ
مَصَادِرِهَا، الَّتِي تَقُولُ: إِنَّ أَبَا طَالِبٍ، قَالَهَا فِي دَعْوَةِ أَبِي هَبٍ، لِنَصْرَةِ الرَّسُولِ (ص).
(٢) - الْأَرْضَةُ - عَمْرُكَةٌ - ذَوِيَّةٌ تَأْكُلُ الْخَشَبَ، وَجَمْعُهَا أَرْضٌ - بِالْفَتْحِ، أَيْضًا.

«يا ابن أخي! أربك أخبرك بهذه...؟».

ولمّا كان جواب الرّسول إيجابيّاً، أردف شيخ الأبطح:
«والتّواقب ما كذّبتني قطاً».

فخرج أبو طالب -مِنَ الشّعب- تحيط به بضعة من بني هاشم والمطلب، حتى أتوا إلى المسجد الحرام... فلما رأتهم قريش، ساورها الظّن بأنهم جاءوا ليُسلموا إليها محمّداً، تحت شدّة الوطاة. وزحمة الحصار...

وهنا... هتَف أبو طالب، بمن رأى من قريش، بصوت الرّابط الجاش:
«يا معشر قريش! جرت بيننا وبينكم أمور، لم تُذكر في صحيفتكم، فأتوا بها، لعلّه أن يكون بيننا وبينكم صلح».

وهو قد سلك هذا المنهج من القول -كما يقول التّاريخ- ليُعْمي على هؤلاء، فلا يُبادههم بالنتيجة، فيفتحون الصّحيفة، قبل أن يُؤتى بها، فتضيع الفائدة.

واذ جاءوا بها، لم يكن يُساورهم شكٌّ، ولا يُخالجهم ريبٌ، في أن محالهم، قد نشبت في فريستهم، التي نصبوا لاصطيادها شتى الأحاييل، ومختلف الشّباك!!

فهاهو ذا أبو طالب، قد جاءهم -بعد الجهد المضي- يُسلم لهم محمّداً، لينالوا منه ما يشاءون، ويقضوا فيه ما هم عليه عازمون...

ولكنهم فوجئوا بقوله:

«قد آن لكم أن ترجعوا، عمّا أحدثتم علينا، وعلى أنفسكم!».

قال هذا، بعد أن جاءوا بالصّحيفة -أو المعاهدة- فوضعوها بينهم، وقبل أن تُفتح، أخذ أبو طالب في البيان، بلهجة المطمئن، الوطيد الإيمان، العارف بالنتيجة، دون أن تناله زعزعة، أو خوف...

فهو يقرأ المستقبل، وينظر إليه بعين، تخترق حجبه الكثيفة، فيقرأ ما بين سطور هذه الصّحيفة التي بين يديه، فلا يجد فيها غير ما قاله له، ذاك الذي لم يكذبه قط، فيأخذ في القول:

«أَتَيْتُكُمْ فِي أَمْرٍ، هُوَ نَصْفُ بَيْنِنَا وَبَيْنَكُمْ... إِنَّ ابْنَ أَخِي أَخْبَرَنِي، وَلَمْ يَكْذِبْنِي قَطُّ: أَنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ عَلَى صَحِيفَتِكُمْ دَابَّةً، فَلَمْ تَرَكَ فِيهَا، إِلَّا اسْمَ اللَّهِ فَقَطُّ، فَإِنْ كَانَ كَمَا يَقُولُ، فَافِيقُوا عَمَّا أَنْتُمْ عَلَيْهِ، فَوَاللَّهِ لَا نُسَلِّمُهُ حَتَّى تَمُوتَ مِنْ عِنْدِ آخِرِنَا. وَإِنْ كَانَ بَاطِلًا، دَفَعْنَاهُ إِلَيْكُمْ، فَكُلْتُمْ، أَوْ اسْتَحْيَيْتُمْ...!»

وإذ رضوا بذلك... فتحوا الصَّحِيفَةَ، فكانت تطالعهم بما أخبرهم به، تدمغهم بالبرهان، وتؤنبهم، وتخزهم في السُّوَيْدَاءِ، وتسمهم بميسم العار... ولكنهم أصرُّوا على البغي والعناد، قائلين:

— هذا سحر ابن أخيك!...

فنادى فيهم أبو طالب، وقد كسب الموقف، وَصَدَّقَ فِي الْمَقَالِ، فَكَانَ لَهُ طَاقَةٌ فِي الْقُوَّةِ وَالْإِدْلَالِ:

— عَلَى مَ نُحْصِرُ، وَقَدْ بَانَ الْأَمْرُ، وَتَبَيَّنَ أَنْكُمْ أَوْلَى بِالظُّلْمِ وَالْقَطِيعَةِ!؟

وحينذاك... قام هو وَمِنْ مَعِهِ، فَأَخَذَ بِاسْتَارِ الْكَعْبَةِ، يَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَمْدِّهُمْ بِنَصْرِهِ، وَبَنِيَّةِ الْمَظْلُومِ صَاحٍ:

— اللَّهُمَّ انصِرْنَا عَلَى مَنْ ظَلَمَنَا، وَقَطَّعَ أَرْحَامَنَا، وَاسْتَحْلَّ مَا يَحْرُمُ عَلَيْهِ مَنْ...!

وعند ذاك... كانت قد مشت طائفةٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَقَدْ رَأَتْ ظُلْمَهَا الْقَطِيعَ، وَجُورَهَا الْقَاسِي، وَعِنَادَهَا الْبَغِيزَ...

مشت في نقض الصَّحِيفَةِ، فَكَانَ ذَلِكَ... وَرُفِعَ عَنْ هَؤُلَاءِ الْحَصَارُ، وَعَادَتْ لَهُمُ الْحَيَاةُ، فِي مَجْرَاهَا الطَّبِيعِيِّ، بَعْدَ عَامَيْنِ، أَوْ ثَلَاثَةٍ — كَابَدُوا فِيهَا: الْأَلَمَ، وَالْجُوعَ، وَالْعَرِي...! (١)

(١) - السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ ٢٧٦، ٢٧٧؛ وَالْحَلِيبَةُ ٣٨١، ٣٨٢؛ وَالْهَشَامِيَّةُ ١٦٠، ٢؛ وَالْكَامِلُ لِابْنِ الْأَثِيرِ ٧١؛ وَالْحَجَّةُ ٤١، وَالْغَدِيرُ ٣٦٤. وَذَكَرَ الْجَانِبُ لِلَّهِمْ مِنْهَا فِي الْبَحَارِ ٤٢٥، ٥٢٣؛ وَعَلَى هَامِشِ السِّيرَةِ ٩٧، ٣؛ وَأَعْيَانُ الشَّيْخَةِ ١٣٠، ١٣٢، ٩.

وإننا لنجد في كل كلمة، من كلمات أبي طالب -هنا- صوراً زاهية الألوان، بارزة التقاطيع، صارخة بما تحمله من الإيمان العميق، والاطمئنان الرأسخ...! يخبره الرسول، عما فعلته الأرضة بصحيفة قريش الظالم، فيسأله عن علمه هذا، فهل أوحى إليه ربُّه بذلك...؟ وما كان سؤاله عن أصل علمه، إلا ليكون إيمانه إيمان الباحث الخبير، والمنقَّب الحاذق، لا إيمان المستسلم الغرّ.... وهو من نوع الإيمان، الذي ذكره الله، في القرآن العظيم:

«أَوَلَمْ تُؤْمِن؟ قَالَ: بَلَى! وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي»^(١)

لذلك لم يكِد الرسول (ص)، يُنهي لعنه الجواب، وإذا به يُجيب جواب المطمئن المصدّق، فهو الذي لم يأخذ عليه قولة، تنحرف عن مسلك الصدّق، ومهيع اليقين... وبهذا الإيمان المكين، والاطمئنان الثابت، اندفع أبو طالب لقريش، يتحدّاهم، ويباهلهم بثبات واطمئنان ويقين، لا يعتوره الشكُّ، ولا يخالجه الرّيب...! وإلاّ لولا هذا... فهل كان يجزم أبو طالب أن يدع لهم الخيار، بين اثنتين: إن كان صادقاً، في ما أخبره ابن أخيه، فهو له كما كان... وإن يكن كاذباً، فعليه أن يُسلمه إليهم، يفعلون به ما يشاؤون...! وهل بعد هذا إيمان، ومعتقد صلب...؟ ثم إنه بعد أن ركز بين اثنتين... وبأن له صدق ما قال ابن أخيه، ووجده صادقاً، في كلّ قوله -ولم يكن قد جرّب فيه غير المقال الصادق... ثم إنه بعد هذا... لو فرضنا -ونستغفر الله!- عدم إيمانه من قبل، وتركنا كلّ ما يدلُّ على ذلك، وتركنا مقدّمات مقاله:

«أرئيتُ أخبرك بهذا...»

و«ما كذبتني قطّ».

لو تركنا كلَّ ذلك... فهل يصدر لعاقلي، وقد شاهد صدق مقال إنسان، في خبرٍ بالغيب، عن الله تعالى أن لا يؤمن، ولا يتبع دعوة هذا الصادق في القول، الشَّريف في العمل...؟

ولكننا -في الواقع- نلمس الإيمان العميق، في كلِّ كلمةٍ، قالها أبو طالب. ونرى في هذه الحادثة أبرز برهان، وأثبت دليلٍ عليه، ولاسيَّما بعد أن دفعه الإطمئنان والإيمان، على «المباهلة» - وهي غاية الإيمان...! فليس يجزم -على ذلك- شيخ الأبطح، لو لم يكن بالنتيجة على علمٍ و يقين، لا يتطرَّق إليه الشكُّ، ولا يساوره الخوف...

فإن كان ابن أخيه صادقاً، فهو -كما يعلم- رسول الله... فتجب عليه النُصرة والفداء، حتى آخر أنفاس حياته.

وإن كان كاذباً -وهذا ما لا يكون- فهو مسلَّمه إليهم، بعد أن كذب على الله... وليس جزاء المقتري على الله، إلاَّ القتل، وخنق الحياة فيه.

ولو لم تكن نصرته للذين وحده، والرَّسالة ليس إلَّا... لَمَا دعاهم لهذه «المباهلة»، مادامت نصرته للرَّحم فحسب -كما يقول المغرضون- فهو لن ينسلخ من حِمته، إن كان كاذب المقال... ولن يزداد منه مساس رحم، إن كان صادق القول... ولكن... لَمَا كانت نصرته للرَّسالة، ولربِّ السماء فإنَّ للكذب والصدق. أمسَّ العلاقات بموقفه...

لذلك... ركز لهم بين الإثنين، وهو العارف بما حبلت به الأيام، وسيتمخض به المستقبل...!

* *

وإذ خرجوا من «الشَّعب» ورُفِع عنهم نطاق الحصار المضروب، فإنَّ أبا طالبٍ لاتفوته هذه المناسبة -وقد كان الظفر فيها من نصيبهم، حيث أسفر الحقُّ فيها عن وجهه، وبأنَّ مقدار صدقهم، وظلم الجانب الآخر لهم...

لأنفوتة أن يتناولها بالذكر من شعره، وهي مادة ثرة، وأرض خصبة، تأتي
بالثمر النضيج، والزهر الفواح:

وقد كان في أمر الصحيفة عبرة

متى يُخبر غائب القوم يعجب

محا الله -منها- كفرهم وعقوقهم

وما نقموا من ناطق الحق معرباً!

فأصبح ما قالوا من الأمر باطلاً

ومن يخلق ما ليس بالحق يكذب^(١)

وهذه الأبيات الثلاثة -من قصيدة له- خطوط متممة للصورة، التي تناولناها

بعض من العرض، في الصفحات التي سلفت...

فهو -هنا- يعتبر ماجرى على الصحيفة: عبرة، ونذراً إلهية، تبعث في النفوس

العجب، وتدعوهم للإيمان بالدعوة، والكف عن الظلم والعدوان، والكفر

والعقوق... بل وتفرض عليهم الإيمان، إذا تجردوا من العصبية الهوجاء.

ونجد -في البيت الثاني- كيف ينسب محو الكفر والعقوق لله -وهو ما يدعو

للعبرة، ويبعث العجب، ويستثير الخوف والرثاء...

وهو يقول: إن ما نقموه، من ناطق الحق، وظاهر اليقين، الذي جاء به الرسول،

لن يستقر، فهو: معرب -أي: ظاهر، من أعرب الشيء: أبانه.

(١) - قال ابن الأثير - في كامله ٢:٦٢، ٦١ - مانصه:

[وقال أبو طالب في: امر الصحيفة، وأكل الأرض ما فيها من ظلم، وقطعة رحم، أياتاً؛ منها].

- وذكر هذه الثلاثة.

وذكرها صاحب الحجة ٤٥، ٤٦، في ١٢ بيتاً؛ قبل هذه الثلاثة بيتان، وبعدها:

(فأسمى ابن عبد الله - فينا - مصدقاً

على سخط من قومننا، غير متعبر. إلخ)

وذكرت منها ثمانية أبيات في: البحار ٥٢٣، ٦، والأعيان ١٤٦، ٣٩، ٧ أبيات في إيمان أبي

طالب ١٥، ١٦، وقسمها الأخير في المناقب ٣٧، ١، والثلاثة فقط في الغدير ٣٦٩، ٧.

وذكر البيتان الأولان والبيت الذي في الهامش: [فأسمى... في مجمع البيان ٣٧، ٧.

ولمّا كانوا لم ينقموا سوى الحقّ، فإنّ كلّ ما أتوا به باطلٌ - وما بعد الحقّ إلّا الضلال - ومن يخلّق الباطل، ويخالف الحقّ، فإنّه - لامحالة - كاذبٌ، وسوف يفتضح، وتُعرف اسوداد طويّته، وسوء دخلته...

* *

وله - في الموضوع - قصيدةٌ، غير هذه، ذكر فيها، صنع الله بالصّحيفة، ثم ذكر فيها ماضيهم التّليد، وحاضرهم المشرق، بهذا الرّسول العظيم (ص).
ونحن نجتزئ منها بأبياتٍ، قد لا تكون منسّقة في ترتيبها الأصيل:

ألا هل أتى بحرئنا صنع ربّنا

على نأبيهم؟ والله بالنّاس أروذ^(١)

فيخبرهم أنّ الصّحيفة مرّقت

وأن كلّ ما لم يرضه الله مفسدٌ

تراوحها، إفكٌ وسخرٌ مجمّع

ولم يلفَ سحرٌ - آخرَ الدهر - يصعدُ

تداعى لها من ليس فيها بقرقر

فطائرُها - في رأسِها - يردّد^(٢)

* *

فمن ينش من حضار مكة عزّه

فعرّتنا في بطن مكة أتلد^(٣)

(١) - البحريّ: نسبة للبحر. ويُراد به - هنا - مهاجرو المسلمين للحبشة. الأروذ: لئِن المعاملة.

(٢) - القرقر: اللّين السّهّل: الضّحوك بترجيع وعلو واستغراب.

فيجوز أن يكون المراد: ليس بذليلٍ - على معنى الكلمة الأولى - أو ليس بهازلٍ، ضدّ الجاد - على المعنى الثاني.

ويُراد من "الطّائر" - هنا الحظّ من الشرّ والشّوم، وقد جاء في القرآن الكريم:

﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمَانَهُ طَائِرَةٌ فِي عُنُقِهِ﴾ - الإسراء: ١٣.

(٣) - ينش: ينشأ، فحذف منها المهمزة. التّليد: القديم، والأتلد: الأقدم.

نشأنا بها، والناس فيها قلائل
 فلم ننفك، نزدادُ خيراً، ونحمدُ
 ونطعمُ، حتى يترك الناس فضلهم
 إذا جعلت أيدي المفيضين ترعد^(١)

* *

ألا إن خير الناس نفساً، ووالداً
 -إذا غدت سادات البرية- أحمدُ
 نبي الإله، والكريم بأصله
 وأخلاقه، وهو الرشيد المؤيدُ
 جريء على جلى الخطوب كأنه
 شهاب، بكفى قاسٍ يتوقدُ
 من الأكرمين، من لوي بن غالب
 إذا سيم خسفاً، وجهه يرتد^(٢)
 طويل النجاد، خارج نصف ساقه
 على وجهه يسقى الغمام ويسعد^(٣)
 عظيم الرماد... سيّد وابن سيّد،
 يحض على مقرى الضيوف ويحشد^(٤)

(١) - علق الأميئي على هذا البيت بقوله:

[المفيضين: الضاربون بقُداح الميسر. يُريد سلام الله عليه: أنهم يطعمون، إذا بخل الناس].

(٢) - سام: كلف. سامه خسفاً: أذله. ترد اللون: تغير. وهو يُريد: أنه ليس يرضى الذل.

(٣) - النجاد: حائل السيف. وطويل النجاد. كناية عن طول القامة.

(٤) - عظيم الرماد: تعبير رمزي، يُراد منه الرجل المضيف، ذو الجود القياض، واليد النديانة، وعُبر عنه بذلك، لكثرة ما يطهي من الطعام، لضيوفه.

وهذا التعبير دليلٌ يُدعم رأياً ترتأيه، وهو: وجود الأدب الرمزي، في أدبنا العربي القديم.

ويبني لأبناء العشرة صالحاً،

إذا نحنُ طفناً في البلادِ ومهدُ الخ^(١)

هل رأيت: بماذا يُطري أبو طالب ابن أخيه؟ وفي أي منزلة، يراه فيها، بين الناس...؟
فهو: خيرهم: «ذاتاً ونسباً»...! وله القيمة الفضلى، والرُّجحان في ميزان
القيم، إذا قيس بساتات الإنسانية، ورجالها...
وهو - إلى ذلك - «نبيُّ الإله» العظيم، و«الكريم بأصله» ومحتده، و«أخلاقه»،
ومآتيه...

وهو «الرشيد المؤيد»، بنصر الله العظيم...

وهو «الجريء» الشديد، الذي لا يهين ولا يستكين، ولا تلين قناته، لشديد
الخطب، وهول النازلة...

فهو «كالشهاب»، الذي لا تنطفئ منه اللهب، ولا يتلاشى منه الشعاع، في
العواصف المعرّدة، والأعاصير المحتاجة، يُنير سُبُلَ الطريق، ويدلُّ السُّرّة، إلى حيث
المهيح الأبلج، والمنهج الأقوم...

إلى آخر ما تحمله القصيدة، من النعوت والصفات، التي يذكرها أبو طالب، ثَمَّ
لابن أخيه، من محامد فضلى، وخصالٍ رفيعة... من: إباء، وكرم، وخلُق،
وشجاعة، وطيب منبى، وعملٍ للصالح العام، وطلاقة وجه، يُستسقى به الغمام...
وهذا المدح والإطراء، لا يصدر، من عمّ، وشيخ كبير، وزعيمٍ مبجلٍ - لولا
الإيمان بالدعوة - في مدح ربيب، وابن أخ، هو بمنزلة ولده...

إنه لا يصدر، إلا من نصيرٍ للرّسالة، لا نصيرٍ للرّحم والقربى...
لا يصدر إلا من نصيرٍ للرّسول محمد(ص)، لا من نصيرٍ لثمّود بن عبد الله، أخ
أبي طالب...!

(١) - السيرة الهشامية، ١٧، ١٩: ٢.

وذكرت بعض أبياتها في الاستيعاب ٢: ٩٢، وفي نسب قريش ٤٣١.

وذكرت كاملةً مسندةً، في الغدير ٣٦٥، ٣٦٦: ٧ وديوان أبي طالب ٧٠٦.

وذكرت الثلاثة الأولى في أعيان الشيعة ٣٩: ١٣٤.

عند الاحتضار

إنَّ تلك الشَّجرة الفارعة، التي أظَلَّت الإسلام، وأقالت نبيَّ الإسلام عن حرِّ
الهجرة... قد امتدَّت لها يد الدُّبُول، فهصَّرت منها الأغصان، وقطعت عنها نبع
الحياة الدَّاقيق، فاصفَّرت منها الوريقات سراعاً، وسرت صفرة الموت في أجزائها
جمعاء...

لقد آن لذلك الشَّيخ المجهَّد، الذي بذل طاقته، وأفرغ وُسعه، وأدَّى جهده: أن
يُريح جسمه المتعب، وروحَه المنهوكة، وأعصابه المكدودة، ونفسه الحزينة
الضَّاخكة...

الحزينة، لِمَا ينال هذا الدِّين وأتباعه، مِنْ أذى هؤلاء السُّفهاء...
والضَّاخكة، لأنَّه امتدَّ به العمر، فقام بهذه الخدمات الفضلى، وقام بالواجب
المفروض - ولم ينثنِ، ولم يستخذل - وآمَنَ بالدِّين الذي بشرَّ به أبوه، وأوصاه بأتباعه
ونصرته، عند الإحتضار...

لقد آن له - الآن - أن يستلذَّ بحلاوة ثمر جهوده، وينال جزاء عمله الأوفى...
ولكن أبا طالبٍ - حتى عند الإحتضار - لا ينسى أن يُوصي بابن أخيه، هذه الهالة
التي تحوط به، مِنْ بنيه وأهليه، فيُلقي على عواتقهمُ المهمَّة، التي قام بها وحده...
- وبهذه السراعد المفتولة، ستقرُّ عينه، فلن تتخاذل، أمام قوى الشُّرك
المظلم... ستقوم بالمهمَّة، وإن كانت ثقيلة الحمل، عظيمة الجهد...

وإنَّ بين هؤلاء ابنه عليّاً، المؤمنَ الأوَّل، والنَّصير الأُوحد! فلسوف يُتمُّ
الرَّسالة، التي قام بها أبوه، سيُضحِّي بأعلى ما في الحياة، في سبيل نصره رسول
السَّماء...

**

هاهو ذا أبو طالب، يُدير عينيه، وقد أخذت جذوة الحياة منهما، في
الخمود...

ثم يَنْبُرُ بصوتٍ خاشعٍ، تُجَلِّلُهُ هَيْبَةُ الْمَوْتِ، وخشوع الشَّيْخُوخَةِ الْوَاهِنَةِ،
لِيُلْقِيَ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الْوَصِيَّةَ الْفَذَّةَ، الَّتِي شَاءَ أَنْ يُشْرِكَ فِيهَا وَجْهَاءَ قَرِيشٍ -مِمَّنْ دَعَا
إِلَيْهِ مِنْهُمْ- لَعَلَّ اللَّهَ يَهْدِي لِدِينِهِ مَنْ يَشَاءُ:

يَا مَعْشَرَ قَرِيشٍ! أَنْتُمْ صَفْوَةُ اللَّهِ مِنْ خَلْقِهِ، وَقَلْبُ الْعَرَبِ.
فِيكُمْ السَّيِّدُ الْمَطَاعُ، وَفِيكُمْ الْمَقْدَامُ الشَّجَاعُ، الْوَاسِعُ
الْبَاعُ، وَاعْلَمُوا:

أَنْتُمْ لَمْ تَرْكُوزُوا لِلْعَرَبِ، فِي الْمَآثِرِ، نَصِيحاً، إِلَّا
أَحْرَزْتُمُوهُ... وَلَا شَرَفاً، إِلَّا أَدْرَكْتُمُوهُ...

فَلَكُمْ -بِذَلِكَ- عَلَى النَّاسِ الْفَضِيلَةُ، وَهُمْ بِهِ الْيَكْمُ
الْوَسِيلَةُ، وَالنَّاسُ لَكُمْ حَرْبٌ، وَعَلَى حَرْبِكُمْ الْبُ...

وَأَنْتِي أَوْصِيكُمْ بِتَعْظِيمِ هَذِهِ الْبُنْيَةِ^(١)، فَإِنَّ فِيهَا: مَرَضَاءَ
لِلرَّبِّ، وَقَوَاماً لِلْمَعَاشِ، وَثَبَاتاً لِلْوَطْأَةِ...

صَلُّوا أَرْحَامَكُمْ، وَلَا تَقْطَعُوا هَا، فَإِنَّ صَلَاةَ الرَّحِمِ: مَنْسَأَةٌ
فِي الْأَجْلِ، وَزِيَادَةٌ فِي الْعَدَدِ.

وَاتْرَكُوا الْبَغْيَ وَالْعُقُوقَ، فَفِيهِمَا هَلَكَتِ الْقُرُونُ، قَبْلَكُمْ.
أَجِيبُوا الدَّاعِيَ، وَأَعْطُوا السَّائِلَ، فَإِنَّ فِيهِمَا: شَرَفَ

الْحَيَاةِ وَالْمَمَاتِ.

وَعَلَيْكُمْ بِصَدَقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، فَإِنَّ فِيهِمَا: مَحَبَّةً
فِي الْخَاصِّ، وَمَكْرَمَةً فِي الْعَامِّ.

وَأَنْتِي أَوْصِيكُمْ بِمُحَمَّدٍ خَيْرًا...! فَإِنَّهُ الْأَمِينُ فِي قَرِيشٍ،
وَالصَّدِيقُ فِي الْعَرَبِ، وَهُوَ الْجَامِعُ لِكُلِّ مَا أَوْصَيْتُكُمْ بِهِ... وَقَدْ

جَاءَنَا بِأَمْرِ، قَبْلَهُ الْجَنَانُ، وَأَنْكَرَهُ اللَّسَانُ، مَخَافَةَ الشَّنَّانِ...

(١) - يعني الكعبة.

وأيُّمُ الله! كأنِّي أنظرُ إلى: صعاليكِ العربِ، وأهلِ
الأطرافِ، والمستضعفينَ مِنَ الناسِ، وقد أجابوا دعوتهُ،
وصدَّقوا كلمتهُ، وعظَّموا أمره...

فخَنَ بهم غمراتِ الموتِ.... وصارتِ رؤساءُ قريشٍ
وصناديدها أذناناً، ودورها خراباً، وضعفاؤها أرباباً... وإذا
أعظمهم عليه أحوجهم إليه! وأبعدهم منه أخطاهم عنده!، قد
محضته العربُ ودادها، وأصفت له فوادها، وأعطته قيادها...
دونكم - يا معشرَ قريشٍ! - ابنَ أبيكم...

كونوا له ولاةً، ولجزية حماة...
والله لا يسلك أحدٌ سبيله، إلاَّ رشداً، ولا يأخذُ أحـ
بهديهِ، إلاَّ سعداً...

ولو كانَ لنفسي مدَّة، وفي أجلي تأخيرٌ، لكففتُ عنه
الهزاهزَ، ولدافعتُ عنه الدَّواهي...^(١)

* *

(١) - السِّيرة النبويَّة ٨٦، ٨٧، ١:، والخلبئة ٣٩٠، ٣٩١، ١:، ولمرات الأوراق ١٤، ١٥، ٢:.
وذكرت - مسندة لعدَّة مصادر - في شيخ الأبطح ٣٩ - ٤١؛ وقد ذُكر: أنَّ في أحد المصادر،
زيادة هذه الجملة:

[غير أنَّني أشهدُ بشهادتي، وأعظَّم مقالته].
وقد جاءت هذه الجملة - أيضاً، مع كامل الرِّسالة في أعيان الشيعة، ١٦٤، ١٦٥، ٣٩:.
وذكرت في الغدير، بمصادرها العديدة، ٣٦٧، ٣٦٨، ٧:.
وذكر بعضُ منها - حسب حاجة المؤلف - في العباس ٢١، وأسندت لبعض مصادرها الوفيرة.
كما ذُكر قسمها الأخير في الإمام عليٍّ صوت العدالة ص ٣٦ [١: ٥٩، ٦٠] وفي آخرها
زيادة عمداً ذكرنا، ماسيأتي:

[إنَّ محمَّداً هوَ الصادقُ الأمينُ، فأجيبوا دعوتهُ، واجتمعوا
على نصرته، وارموا عدوةً مِن وراءِ حوزته، فإنَّ الشرفَ الباقي
لكم على الدَّهر].

يا لروعة الإيمان، يحوطه جلال المغيب!

لو لم يكن لأبي طالب، غير هذه الوصية من دلائل إيمانه، السافرة الوجه،
لكانت تفرض علينا هذه الوصية: الاعتقاد بإيمان قائلها، وتبين لنا عن مذهبه
ودينه، وكل كلمة نقرأها منها، نجد لها: صراحة بالإيمان السافر، تدل على المعتقد
الرئيسخ.

إنها قطعة فذة، من الإيمان، لا تقبل الشك ولا الريب، وتجهز على كل فرية،
يرتعش بها لسان المغرضين الأفاكين، وتفضح سوء دخلتهم، والتواء طريقهم،
وسود أغراضهم!...

راح يوصيهم بوصايا، لاتصدر إلا عن مؤمن عميق، له إحاطة بباطن التشريع،
وظاهره، ومعرفة بأسراره، وله عين تخترق حجب المستقبل، وسدومه الكثيفة، لتتظر
ماسيق، وتنقل منه صوراً، جليلة التقاطيع...

أوصاهم بالكعبة -وهي بيت الله وحرمة- وتعظيمها، لأنها من شعائر الله...
ففي ذلك مرضاة للرب... إذ أن تعظيمها دليل على: أن الإيمان يغمر قلب هذا
المعظم، فيقوم باداء ما فرضه الله عليه...

وإنهم -بتعظيم هذه البنية- سيجنون جني الثمر ونضيره...
فالذين يعطيهم طاقة، لقوام المعاش، والقبات أمام الزعازع النكباء، وتحت
الوطاة البهيضة الثقل...

ويأمرهم بصلة الأرحام، لأن فيها: منسأة في الأجل، وامتداداً في فسحة
العمر، ورقعة الحياة، وزيادة في العدد...

وينهاهم عن قطعها -ففيه: ضد ما في صلتها...
ونجد -بعد ذلك- التشريع الإسلامي، يطابق ما جاء على لسان نصير
الرسول (ص)، فيحض على صلة الرحم، «ولو بالسَّلام»، ويُعلل ذلك بمثل هذا
التعليل...

وينهاهم عن البغي والعقوق، فهما: معولا هدم في المجتمع، يأتيان على قيم الإنسانية، ويمحوان منها الأثر، ولهم العبرة في مَنْ هلك -قبلهم- مِنَ القرون الكثار...

وأمرهم بإجابة دعوة الدّاعي، وإعطاء السّائل، فهما يضمنان لهم شرف الحياتين: الدّنيا والآخرة...

ففي الأوّل: الإسم الباقي، والذّكر العطر، والثّناء الخالد، والقُدوة الفضلى. وفي الأخرى: الجزاء الأوفى، والكفّة الرّاجحة، في ميزان الأعمال... وأمرهم بصدق الحديث، وأداء الأمانة، فهما ميزتان إنسانيتان، وصفتان خيرتان... بهما تكمل خصائص الإنسان ومزاياه، فهما دليلان على رفعة النّفس، وارتفاعها عن وهدة الانحطاط والدّناءة، وعلى طهارة الضّمير، فخلجة الحياة فيه دافقة، ونبعها ثرّ روي...

وكلّ هذه قوانين إنسانية، وفروض إسلاميّة، جاء بها دين الله، الذي اختار لأدائه ابن أخيه وربيّه... فهو دليل على: أنّ أبا طالب قد استقى من نبع هذه التّعاليم، وانتهج هذه القوانين، على أنّها دين الله...

وقد شاء أن يُوصي بها وجهاء قريش -وهم يحوطون به، في لحظاته الأخيرة، من الحياة- ليكون إيمانهم، خطوة أوّل، للتّصديق بمحمّد (ص).

... فهذه هي التّعاليم، التي جاء بها... وهي -كما رأوا- تعاليم إنسانيّة، وقوانين رفيعة، لا ينافيها النّقد...

لذلك... لم يكد يصل عند هذا الحدّ -وقد شاء أن يقف عنده... لم يكد يصل عند هذا الحدّ، من عرضه للتّعاليم الإسلاميّة، حتى أخذت وصيّته منهجاً آخر، غير الأوّل، فقصر وصيّته بمحمّد ابن أخيه، «الجامع لكلّ ما أوصاهم به»، والحامل للرّسالة العظمى، والتي هذه من أهدافها.

* *

وهنا - في هذه السطور - النقطة الحساسة، من إيمانه السافر الصريح...
فهو يقول: إن محمداً هو الأمين في قريش - وليس الأمين «بالطبع» من يخون
الله...!

وهو الصديق في العرب - وليس الصديق، بالذي يقول الكذب على الله...
وإن اعترافه له بالصدق والأمانة: اعتراف له بالنبوة والرئاسة...^(١)
ومحمداً - إلى هذا كله - هو الجامع لكل الخصال، التي أوصاهم بها، وحضهم
على انتهاجها، فهو المعظم لبيت الله، والوصول للرحم، التارك للبغي والعقوق،
النجيب لدعوة الداعي، والمعطاء للسائل، الصديق في العرب والأمين في قريش...
ولم يقف من اعترافه بنبوة ابن أخيه، عند هذا الحد فحسب! بل أعقب ذلك
باعتراف، أشد وضوحاً، يبين عن موقفه من دين ابن أخيه، في هذه اللحظة الحرجة،
وهي خاتمة الأعمال...

فهل - ثمة - غير إيمان وإسلام مكين، بعد هذه القولة:
«وقد جاءنا بأمر، قبله الجنان، وأنكره اللسان،
مخافة الشئان»؟.

يقول: إن محمداً قد جاء بأمر - ويريد «الرئاسة» - قبله الجنان، قامن به، وأقر به...

(١) - هذه نتيجة حتمية، لأنه شهد لمحمد بالصدق والأمانة المطلقتين، ومادام هذا الصادق
الأمين، يقول: "إنه رسول الله خلقه"، فإن هذا الشاهد له بالأمانة والصدق، مصدق له في مايقول،
تصديقاً مطلقاً...

ومن هنا.. نرى أن المشركين، الذين لم يؤمنوا لمحمد بالرئاسة، والذين كانوا - سابقاً -
يصفونه بهاتين الصفتين، توقفوا عن ذلك، منذ صدع بالرئاسة، وراحوا يصفونه بضدّها.
فهو - لديهم، لعنهم الله - ساحر وكذاب، لأنهم لو لم يسلبوه ماكانوا يصفون عليه - سابقاً -
لكانوا، بذلك وحده، معترفين له بالرئاسة.

فإن كذبوه فيها، كذبوا أنفسهم، وهم يرونه الصادق الأمين.
لذلك.. لو لم يكن لأبي طالب، سوى اعترافه بصدق وأمانة ابن أخيه - بعد صدوعه بالرئاسة
- لكان هذا كافياً، للدلالة على إيمان ابن عبد المطلب!

وأنكره اللسان، فلم يجهر بإقراره ذلك، لغاية تفرض عليه هذا الموقف، ليؤدي رسالته، ويؤدي واجبه، وينصر الرسالة، النصر المؤزر...

فقد أنكره مخافة الشَّان -والشَّان هو: البغض، مع العداوة، وسوء الخلق- ليستطيع أن يؤدي رسالته، ويحوظ رسول الإسلام برعايته.

ثم ينظر -مِنْ وراء ستر الغيب- ليقراً منه سطرأً، نصيب الحرف، فيرى: كيف تمتدُّ دعوة ابن أخيه... وكيف تقرأ في القلوب، حتى تخضع لها صاغرة... وكيف تنال هذه الطَّاعة جزاء عنتها وجبروتها، فتذلُّ منها الهامات، وتكون هذه الرؤوس العاتية، كالأذنان الذَّليلة... وكيف يقوى المستضعفون مِنَ المسلمين... وكيف...

ثم يعود، ليحضِّهم على اتِّباع منهجه، وسلوك لاحب طريقه، فيبدلوا له النُّصرة، ويكونوا له أولئك الأولياء الخُلصان، ولأتباعه أولئك الحماة الحفظة...

فإنهم إن سلكوا مسلكه، وانتهجوا نهجه، كان الرُّشد إلى جانبهم... وإن أخذوا بهديه، واقتبسوا مِنْ نوره، كانوا أولئك السُّعداء...

ثم يأسف، فيطلب المزيد مِنْ شرف نصرته وحياطته، ليكفَّ عنه الهزاهز، ويقيه الإعصار، ويردَّ عنه الدَّواهي، ويحميه مِنَ العتاة، ويردَّ عنه الأذى والمكروه.

إنها -أي: الوصية- نموذجٌ فذٌّ، للإيمان العميق، والتَّفاني في سبيل المبدأ والمعتقد، لا يتنكَّر له، ولا يتأخَّر عن الدَّعوة إليه، حتى في أدقِّ السَّاعات، وأحرج الظروف...!

وقد شاء أن يعلن رأيه، ويبدل باعترافه، ليُسجِّله التَّاريخ، سلاحاً ماضياً الثَّغرة، يُجهز على كلِّ فريسة، يفترسها الجهلة المغرضون، وتأتي على أسس بنائهم المنهار...!

* *

هذه الوصية، شاء منها أبو طالب، أن تكون عامّة لقريش، ليعلم مَنْ كان يظنّ منهم،
بأنه على دينهم، أنه قد اهتدى بهدي الإسلام، واستجاب لدعوة رسول الله «ص». !
ثم شاء أن يخصّ بني عبدالمطلب، وبني هاشم، بنصحه، ليتبعوا محمّداً، فينالوا
الخير والرشد.

[لنْ تَزَالُوا بخير، ما سمعتم من محمّد، وما اتبعتم أمره،
فاتبعوه، وأعينوه ترشدوا].

«يا معشر بني هاشم! أطيعوا محمّداً، وصدقوه، تفلحوا
وترشدوا»^(١)

ثم خصّ من بني هاشم أربعة منهم، ليبدلوا النصرة والفداء، في حياة
الرسول «ص»:

أوصي بنصر نبيّ الخير أربعة:

ابني عليّاً، وعمّ الخير عبّاسا...

وحزّة، الأسد المحشيّ صولته

وجعفرأ - أن تذودوا دونه النّاسا

كوفوا - فداء لكم أمي، وما ولدت -

في نصر أحمد، دون النّاس، أتراسا

بكلّ أبيض مصقول عوارضه

تخاله في سواد الليل مقياسا^(٢)

(١) - السّيرة النبويّة ٨٦ و٢٨١: ١ والحبّية ٣٨٨ و٣٩١: ١، وأبو طالب ٩١، والغدير -
مسندة لمصادر عدّة - ٧: ٣٦٨.

(٢) - الغدير "مسندة" ٣٤٢ و٤٠١: ٧.

وذكر البيتان الأوّلان في إيمان أبي طالب ١٧، وذكرت الثلاثة في الحجة ٩٨، ٩٧ وارجعها
الشّارح لبعض المصادر.

وذكرت في: المناف ٣٥: ١، والأعيان ١٢٠، ١٢١: ٢، و١٤٥: ٣٥، وجمع البيان ٣٧: ٧.

ليس من العقل: أن الذي يدعو لاتباع دعوة محمد، وتصديقه، وإعانتته، لأن
دعوته مصدر: فلاح، ورشد، وخير...
ليس من العقل، في شيء: أن يدعو للرشد والفلاح، والخير... والتصديق
بدعوة من جاء بها... من لم يكن ذلك المتبع المؤمن...!
ليس من العقل: أن الذي يعترف لدعوة بالرشد، والفلاح، والخير، يكون
كافراً بها، ولا يأخذ بهديها... بل يعمه -والعياذ بالله!- في الضلال... ويسدر -
وأستغفر الله!- في الغي...!

* *

بتلك السطور النيرة، الملتهبة الإيمان، والمضمخة بطيب المعتقد، والسافرة
عن المبدأ -اختتم أبو طالب، صفحة حياته المشرقة، النصيحة البيضاء...
اختتم صفحة حياته، المليئة بالجهاد والتضحية، في سبيل الدين الحنيف،
بكلمات، يغمرها الإيمان السافر، والدعوة الطيبة، والوصايا المكرورة، لنصرة
الرسل، وحياطته...

فأي رجل مؤمن هذا...؟

وأي نصير فذ، وراعي أمين...؟

الجزء الثاني

فِي ذِمَّةِ النَّارِ

بعد الموت

ماكان الرسول «ص» -وهو مثال: الوفاء، والعدالة، والإنصاف- بالجحود،
الذي يُنكر فضل ذي فضل، أو يتناسى معروف ذي معروف...
لذلك... كان أثر موت أبي طالب، في نفسه عميقاً، انعكس على صفحة
وجهه... فجمد أمام شدة الأمر الواقع، وأحسَّ بالفراغ، الذي سيخلقه عمه، بعد
حياته...!

فلم يكده يُلقي عليه الإمام عليٌّ، نبأ الفاجعة -كما حدّث عن عليٍّ: عبيد الله
ابن أبي رافع- حتى انهمرت عيناه بالدموع الغزار...
وبعد أن كفّف الدموع، نَبَرَ بصوتٍ خاشعٍ، ورثةً حزينةً، يأمر عليّاً:
«أذهب، فاغسله، وكفّفه، ووارِه - غفرَ الله لَهُ ورحمةً...!»^(١)
وهذا دليلٌ -إلى جانب دلائل ودلائل، تأبى الحصر- على إيمان هذا الشَّيخ
الكريم.

فالرَّسول يأمر عليّاً -ولانظُنْ أحداً، يُخالجه الشُّكُّ في إسلام عليٍّ «؟!»- بأن
يغسل أباه. وليس الإسلام، بالذي يُجيز للمسلم: أن يغسل كافراً...
والرَّسول يستغفر الله لعمه، ويدعو له بالرحمة والغفران - والنَّبيُّ شديدٌ على
الكافرين، بالمؤمنين -وحدّهم- رؤوفٌ رحيمٌ...!
وإذ ذهب عليٌّ، وأنجز غسل أبيه، وحملت جنازة نصير الإسلام، على أعناق
الرَّجال، عاد عليٌّ، لِيُنهي للرَّسول الخبر... فقام الرَّسول، واعترض الجنازة، ليشيعَ
عمه بآيات المدح والإطراء، وفيه له بحقه على الرِّسالة الإسلاميّة:

(١) - ذكر ذلك في السيرة النبويّة ١: ٨٤ - مروياً عن: أبي داؤود: والنسائي، وابن الجارود، وابن
خزيمة - والقدير ٣: ٩٩، و ٣: ٣٧٣ - عن طبقات ابن سعد، والواقديّ، وابن عساكر، والبيهقيّ، وسبط
ابن الجوزي، والبرزنجي، وغيرهم - وشيخ الألبطح ٤: ٤٤، عن مصادره، والحجّة ٦٧، ومعجم القبور
١: ٢٠٤، وتذكرة الخواص ١٠، ولیمان أبي طالب ١٠، وفي أعيان الشيعة ٣٩: ١٦١
[امضي فتولّ غسله، فإذا رفعته على سريره، فأعلمني].

«وصلنك رحم - يا عم! - وجزيت خيراً، فلقد ربيت،

وكفلت صغيراً، ونصرت وآزرت كبيراً»^(١).

وسار مع الجنابة، حتى إذا أُلحِد، وقف عليه، فقال:

«أما والله! لأستغفرنَّ لك، ولأشفعنَّ فيك، شفاعاً،

يعجبُ لها الثقلان»^(٢).

فالرَّسول (ص): يذكر مآثر عمه، وحسن عمله، فيدعو له بجزاء الخير... ثمَّ

يستغفر الله له، ويعلِّمه بشفاعة يعجب لها الثقلان...!

وماعسى أن تكون هذه الشَّفاعَة، التي تُعجب الثقلين...؟!

لِنفرض - وفرض الحال، ليس بالحال - أنَّ أبا طالبٍ [وأستغفر الله، والحق،

والضَّمير الواعي، والوجدان!]، لم يكن مؤمناً، ولم يُحطِ الرَّسول بنصره ومؤازرته،

فشفع له الرَّسول، وأدخله الجنَّة... فإنَّ هذه الشَّفاعَة، ليست بالتي تُعجب

الثقلين... على أنَّ الرَّسول ليس بالذي يشفع في كافر!

أما أنَّ الجنَّة، هي جزاء - باستحقاقٍ - لعمله الطَّيب... فإنَّ شفاعَة الرَّسول

إليه، هي فوق دخوله الجنَّة - وهو من أهلها - وهي التي تُعجب الثقلين...!

وقد شاء الرَّسول، بقولته هذه - فوق وفاته لحقِّ عمِّه، وقيامه بواجبه - أن

يُزيل الظَّنَّ الآثم، ممَّن لم يكن بإيمان أبي طالبٍ على معرفةٍ، نتيجةً لِتسُّرِّه، بإيمانه،

في بعض الأحيان، حين مالا تسمح بالجهر به الظُّروف السُّود، والحن الصَّلاب،

ليُؤدي بهذا الكتمان، ما يعود على صاحب الدَّعوة، بالخير العميم...

* *

(١) - النهج الحديديُّ ٣: ٣١٤، والبحار ٤٤٥، ٥٢٣، ٥٢٩، ٦: ٥٢٩، وشيخ الأبطح "مسنداً: ٤٣، والغدير

٣٧٤ و ٣٨٧: ٧ "مسنداً" والحجَّة ٦٧، وأبو طالب ٨٩، ومعجم القبور ١٩١ و ٢٠٤: ١، وتفسير علي بن

إبراهيم ٣٥٥، وتذكرة الخواص ١٠، وإيمان أبي طالب ١٠، والأعيان ١٣٩ و ١٦١: ٣٩.

(٢) - المصادر الخمسة الأولى، ومعجم القبور ٢٠٤: ١، وإيمان أبي طالب ١٠ - وقد أسنده

الشَّارحُ للإصابة وغيره - والأعيان ١٦١: ٣٩.

وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ قَوْلَهُ التَّائِبِينَ -إِلَيْكَ- بِهَذِهِ النَّدْبَةِ الْحَزِينَةِ:

[وَأَبْتَاهُ! وَأَبَا طَالِبَاهُ! وَاحْزَنَاهُ عَلَيْكَ، يَا عَمَّاهُ!]

كَيْفَ اسْلَوْ عَنْكَ، يَا مَنْ رُبِّيتَنِي صَغِيرًا، وَاجَبْتَنِي كَبِيرًا،
وَكَنْتُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةِ الْعَيْنِ مِنَ الْحَدِيقَةِ، وَالرُّوحِ مِنَ
الْجَسَدِ^(١).

وهذه النَّدْبَةُ -هي الأخرى- شهادة صريحة مِنَ الرَّسُولِ، يَا إِيْمَانُ أَبِي طَالِبٍ:
«وَأَجَبْتَنِي كَبِيرًا».

وَلِنَتَصَوَّرَ هَذَا التَّعْبِيرَ الدَّقِيقَ... فَهُوَ يَقُولُ:

إِنَّهُ كَانَ عِنْدَ عَمِّهِ -وَمَكَانِهِ مِنْ نَفْسِهِ- بِمَنْزِلَةِ الْعَيْنِ، وَهِيَ: مُصْدِرُ النُّورِ،
وَالْعَدْسَةُ الْبَاصِرَةُ، الَّتِي تَعَكْسُ مَا تَرَى، وَبِفَقْدِهَا، يَفْقِدُ الْإِنْسَانُ النُّورَ، فَلَا يُبْصِرُ
الضِّيَاءَ، بَلْ يَغْمُرُهُ الظُّلَامُ الْأَفْحَمُ... وَآيَةُ قِيَمَةِ لِلْحَدِيقَةِ، بَعْدَ فَقْدِ النُّورِ...!؟
وَهُوَ -أَيْضًا- بِمَنْزِلَةِ الرُّوحِ مِنَ الْجَسَدِ... الرُّوحُ الَّتِي تَخْفِقُ بِالْحَيَاةِ، وَبِدُونِهَا
يَكُونُ الْجِسْمُ خَشَبَةً بَالِيَةً، لَا تَسْمَعُ، وَلَا تَعْي...! بَلْ تَفْقِدُ قِيَمَتَهَا الْإِنْسَانِيَّةَ، وَتَتَحَوَّلُ
عَنْ قِيَمِهَا الْمَعْنَوِيَّةِ...

وَلَيْسَ لِلْجِسْمِ -بَعْدَ مَا تَبَارَحَهُ الرُّوحُ- سِوَى أَعْمَاقِ الْقَبْرِ، يُوَارَى مِنْهُ: الْأَثَرُ
الْكَرِيمُ، وَاللُّونُ الْحَانِلُ، وَالْمَنْظَرُ الْبَشِعُ، وَالرَّائِحَةُ الْخَانِقَةُ...

إِنَّهُ تَصْوِيرٌ دَقِيقٌ، يُعْطِينَا مَدَى حُبِّ أَبِي طَالِبٍ لِلرَّسُولِ، بِشَهَادَةِ الرَّسُولِ ذَاتِهِ...!
وَلَنْ تَكُونَ مَكَانَةُ الرَّسُولِ -فِي قَلْبِ امْرِئٍ- بِهَذِهِ الْمَكَانَةِ، وَذَلِكَ الْقَلْبُ،
لَا يَسْتَجِيبُ لِدَعْوَتِهِ، وَلَا يُصَدِّقُ رِسَالَتَهُ... فَإِنَّ ذَلِكَ أَبْعَدُ وَقَوْعًا مِنَ الْخَالِ!، إِنْ كَانَ
بَعْدَ الْخَالِ، مَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْهُ!.

* *

(١) - شيخ الأبطح ٤٤، مستدأعِنِ الْخُلَاسِيَّ، عَنِ الْمَفِيدِ: وَعَنِ ابْنِ حَجَرٍ فِي إِصَابَتِهِ ١١٢: ٧ مِنْ
طَبْعَةِ مِصْرَ عَامِ ١٣٢٥، وَقَالَ: "بِتَصَرُّفٍ وَاجْتِصَارٍ".

أما -الآن- وقد انهذ الحصن، الذي بقي الرسول غواشي قريش...
 أما وقد افترش الأسد المصور رغام القبر، وأطبق على جسمه اللحد
 الضنك... فإنّ الوحوش -من قريش- تجدد الطريق خالياً، وقد تلاشى زئير الأسد،
 من حصنه المنع، لتتال من الرسول، مالم تنله في حياة عمه، وقد كان له المانع
 القوي... فتتاله بألوان الأذى، ومختلف العذاب، وآلم السخرية، ولاذع الإهانة
 والتكيل...

لذلك... لم تكن صورة أبي طالب، لتزائل خيال الرسول، أو تتلاشى من بين
 عينيه، وهو يحسّ مسيس حاجته إليه...

* *

يدخل -مرّة- داره، وقد حثا بعض السفهاء التراب، على رأسه، فتقوم ابنته
 محزونة القلب، دامعة العين، لتزيل التراب... فيصبرها الرسول، بقوله:
 «لَا تَبْكِي -يا بنية!- فإنّ الله مانع أبالك».

ويُعقب -وقد عاد للماضي، من حياة عمه... وكيف كان ينال مثل هذا السّفيه، لو
 كانت باصرة عمه، لتلقط ماحدث له اليوم، ليأخذ بحقه، ويردّ كيد هذا المعتدي الأثيم:
 «مَا نالتْ مِنِّي قريشٌ شيئاً أكرهه، حتّى ماتَ
 أبو طالب!»^(١)

وفي كلّ مناسبة، كانت تنبّذ من شفثته، مثل هذه القولة، التي تُعبّر عن حنينه
 لعمه، وتُصور حاجته إليه، وتعرض ماضيه الحميد:

«يا عمّ! ما أسرّعَ ما وجدتُ فقدك...!»^(٢)

* *

(١) و (٢) - السيرة النبوية ١: ٢٨١ و ١: ٢٨١ والحليّة ١: ٢٩١، والمنهاية ٢: ٥٨، والطبري ٢: ٨٠، وابن الأثير ٢: ٦٣، والمناقب ١: ٣٨، والبحار ٤٣٠ و ٥٢٨، وشيخ الأبطح ٥١، ومعجم القبور ١: ٢٠٢، وأبو طالب ٩١، والغدير - في عدّة مصادر - ٣: ٣٧٧.
 - وذكرت الكلمة الأولى في الإمام عليّ صوت العدالة ٣٦ - [١: ٦٠] والثانية في الأعيان

لقد شاء الله: أن يتلى رسوله، فقدّر عليه أن: يُواجه محنتين، وتنصبّ عليه مصيبتان... الواحدة منها تهدّد الجُلْد، وتأتي على القوى... فيفتقد -في أيامٍ متقاربة- سنديّن، طالما شدّاً أزره...

فأبو طالب: بحبّه ورعايته، وحياطته ومنعته... فلا تصل إليه قريشٌ بمكرهه، ولا يعرضه، دون أداء رسالته، ما يصدّه عنها... فلا يصل إليه الأذى...

وخديجة: بمالها وحنانها، وإخلاصها وتفانيها... فتُساعدُه على احتمال الشّدائد، وتُهوّن عليه الآلام، وتأسو منه الجراح، التي يُدميها الألم القتال لصدّ قريشٍ عنه، وأعمالها القباح معه...

وهاهو ذا يفتقدُهما، في وقتٍ عَصيبٍ... فيضيق عليه رحيب الفضاء، وتسودُ في وجهه رقعة الوجود، لولا فيض الله عليه، وثقته به، واتكاله عليه...

لقد افتقدُهما، بعد تلك السنين الصّلاب القاسية، التي قضوها في الشّعْب... وكان عمّه، يُثَفّ على الثّمانين مِنْ سنيه، فكانت مليئةً بالعمل الجسيم، ثمرةً بالثمار النّضرة، مخلفةً الأثر الحميد، والذّكر الباقي، والأثر الجميل... قد آتت أكلها، وضاعفت ثمارها...(١)

* *

في ساعة، مِنْ ساعات ألمه، وقد ثار منه الدّفين، تنبعث مِنْ حنجرته هذه الكلمات المثقّلة بالحزن، والمغمورة بالثّقة بالله، والأمل في رضاه، والصّبر على قضائه... والصّارخة بالشّكوى لرَبّه في ماناله، مِنْ الأذى، وهوان، والآلام.

[اللّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ...]

(١) - اختلف في: الشّهر، الذي تُوفي فيه سيّد البطحاء، بين: رجب، ورمضان، وشوّال، وذِي القعدة.

وفي العام، بين: العاشر، والحادي عشر - للمبعث النّبويّ..

وفي أيّهما مات، قبل الآخر: أبو طالب، وخديجة.

وفي عدد الأيام، التي فصلت، بين افتقاد هذا، وهذه..

اللَّهُمَّ ۱- يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ ۱- أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَغْفِرِينَ،
وَأَنْتَ رَبُّنِي، إِلَى مَنْ تَكَلَّمُنِي...؟ إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي...؟
أَوْ عَدُوٍّ مُلْكَتَهُ أَمْرِي...؟
إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ، فَلَا أَبَالِي...! وَلَكِنْ عَافَيْتُكَ
هِيَ أَوْسَعُ لِي...
إِنِّي أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ، الَّذِي أَشْرَقَتْ بِهِ الظُّلُمَاتُ،
وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، مِنْ أَنْ يَنْزِلَ بَنِي
غَضَبُكَ، أَوْ يَحِلَّ عَلَيَّ سَخَطُكَ...
لَكَ الْعُتْبَى، حَتَّى تَرْضَى...
لَا حَوْلَ، وَلَا قُوَّةَ، إِلَّا بِكَ...[^(١)]

* *

لم يبقَ له -بعد أبي طالب- مأوى في مكة، وقد انهدم منه الحصن، الذي يقيه
الزَّعَازِعُ، والكهف الذي يدرأ عنه المكروه، والنَّصِيرُ الذي يسخر عليه بالنفس
والنَّفِيس...
وفي غمرة من غمرات الحزن والألم، يُلقِي عليه الملاك، هذا الأمر الصَّادِعُ:

[اخرج منها -أي: مكة- فَقَدْ مَاتَ نَاصِرُكَ].^(٢)

(١) - الطَّبْرِيُّ ٢: ٨١، وابن الأثير ٤: ٦٤، والحلي ٣: ٣٢٢، والحلي ١: ٣٥٣، والنَّبَوِيُّ ١: ٢٨٦، والحاشية ٢: ٦٢، ٦١، والمنقب ١: ٣٨، والبحار ٦: ٥٢٩، وشيخ الأبطح ٥٢، وعلى هامش السيرة ١٤٩، ١٥٠، ٣: ١٥٠، ومحمد النبي العربي ٦٥، ٦٦.

وقد ذكره بعض هؤلاء في صورته هذه وآخرون اقتصرُوا على بعضه.

(٢) - النَّهْجُ ١: ١٠، والحجة ١٧ و١٦٤ و١٠٣، والبحار ٦: ٥٤٣، وشيخ الأبطح ٥١، ومعجم القبور ١: ١٩٧، وأعيان الشيعة ٣: ٧ ق ١، و١٢٧: ٣٩.

ذِكْرُ عَطْرِ

على لسان الرسول (ص)

لم تكن مواقف أبي طالب، والتي تُزِيل ذاكِرة الرسول (ص)، ولا صورته، والتي تبرز باصرته...

لذلك لم يكذب ينسأه، ولا يزال يذكره الذكر العطر، ويُثني عليه الثناء الموفور، ويشكر له أعماله الباقية، ومآتيه الخيرة، ومواقفه المشرفة... ليفي له، ويحفظ اليد، التي أسداها إليه... وما كان الرسول، بالذي يغض الطرف، عن معروف يُسدى... بل إنه ليذكر ذلك، مكافأةً للجميل - من ناحية - وتشجيعاً للعمل، من جانب الآخرين، ليحتدوا هذا المنهج الحميد، والمسلك الأبلج - من ناحية أخرى.

* *

أتى الرسول أعرابي، وعليه خطوط من الأسي، ويُخالطه بريق نفاذ، من عينه، يحمل الرجاء الحلو، والأمل الحضل...! فوقف بين يدي رسول الله (ص)، ليقول له: [يا رسول الله! لقد أتيناك، ومالنا بغير ينط، ولا صبي يصطحب].

وأعقب قوله، فأنشد أبياتاً، يُصور فيها حالتهم المرة، تصويراً دقيقاً:

أتيناك، والعذراء يدمى لباثها

وقد شغلّت أم الصبي عن الطفل^(١)

وألقى بكفيه الصبي، استكانة

من الجوع، ضعفاً، ما يمر ولا يحلي

(١) - العذراء: البكر. اللبن - بفتح اللام - الصدر: أو ما بين الثديين. وهو تصوير للمجاعة، التي اجتاحتهم، فأدمت حتى صدر العذراء!

ولا شيء مما يأكلُ الناسَ عندنا

سوى الخنظلِ العاميِّ، والعِلْهَزِ الفَسْلِ^(١)

وليسَ لنا، إلَّا إليك، فرارُنا

وأيَنَ فرارُ الناسِ إلَّا إلى الرُّسُلِ؟!

فقام الرُّسولُ الرَّحيمُ - وقد أثرت فيه هذه الصُّورةُ الباكِيةُ - حتى وصل، وهو
يَجُرُّ رداءه، إلى المنبر، فانفجرت شفتاه، عن دعواتٍ رقاقٍ، بعد حمده لله تعالى،
وثنائه عليه:

[اللَّهُمَّ! اسقِنَا غِيثًا مغيثًا، سَحًّا طَبَقًا غَيْرَ رايثٍ، تُنبتُ بِهِ

الزَّرْعَ، وتُغَلِّقُ بِهِ الضَّرْعَ، وتُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا -

وكذلك تُخْرِجُ جُودًا].

ولم يُشارفَ مِنَ الدُّعاءِ النِّهايةَ، إلَّا والسَّماءُ تلتَمِعُ بالبرقِ، والأرضُ تُغسلُ
بالمطرِ الفَيَّاضِ، فجاء إلى الرُّسولِ مَنْ يصيحُ:

«يا رسولَ اللهِ! الغرق... الغرق...!»

فترفعُ كَفَّانَ، لا يردُّ اللهُ طلبَتهما، وتنبسُ شفتان، لا يُخَيِّبُ اللهُ رجاءَهما:

«حوالينا ولا علينا».

فتتجاب السُّحبُ عَنِ المدينة، بعد تلك الزَّحمةِ المزاكِمَةِ، لِتُسْتَدِيرَ حوْها،
وتتعتقد كالإكليل...

(١) - الخنظل، نباتٌ يمتدُّ على الأرض، كالبطيخ، ولَمَرُهُ يشبهه، لولا أَنه أصغرُ منه بكثيرٍ،
وهو مضربُ المثلِ للمرارة.

العاميُّ: لعلَّه صفةٌ مِنْ صفاتِ الخنظل، أو هو الطَّويلُ منه.

والعِلْهَزُ - كما في الحِجَّةِ - بكسر العين وسكون ثانية وكسر هاته: طعامٌ مِنْ: الدَّمِ، والوبرِ،
كان يُتَّخَذُ في الجماعة.

والفَسْلُ - بفتح فائه - الرديء.

ويُروى: [والطَّهْلُ الفتل].

وعلى كلتا الرِّوایتين، فهو: تصوُّرٌ للجماعة، التي حَلَّتْ بهم، حتى اضطرتهم لأكلِ ما لا يؤْكَلُ...!

وتبلغ من الرسول الفرحة: أن تنفج شفتاه، عن ضحكة ناعمة، تبدو فيها نواجذه...

ثم تختلج شفتاه بنبرة، فيها عبر الماضي الحنون:
[لله در أبي طالب! لو كان حياً لقرت عيناه. من الذي يُنشدنا شعره...؟]
فيقف على قدميه: ذاك الذي حفظ أباه في ابن عمه - الإمام عليّ «عليه السلام» - ليقول:

يَا رَسُولَ اللَّهِ! لعلك أردت قوله:
وَأَبْيَضُ يُسْتَقَى الْعَمَامُ بِوَجْهِهِ
ثمّالُ اليتامى، عصمة للأرامل
وإذ كان جواب الرسول: «أجل!»، راح عليّ يُنشده أبياتاً، من رائعة أبي طالب هذه، والرسول - وهو على المنبر - يتابع استغفاره لعمه الوفي...!
وحينذاك... قام رجلٌ، من كنانة، لِيُشَدَّ:
لَكَ الْحَمْدُ، وَالْحَمْدُ مِمَّنْ شَكَرَ
سُقَيْنَا بِوَجْهِ النَّبِيِّ الْمَطْرُ
دَعَا اللَّهَ - خَالَقَهُ - دَعْوَةً
إِلَيْهِ، وَأَشْخَصَ مِنْهُ الْبَصَرُ
فَلَمْ يَكْ، إِلَّا كَالْقَا الرُّدَا،
وَأَسْرَعَ، حَتَّى رَأَيْنَا الدُّرَّرَ
دَفَاقُ الْعِزَالِي جُمُ الْبُعَاقِ
أَغَاثَ بِهِ اللَّهُ عَلَيْنَا مُضَرَّ
فَكَانَ - كَمَا قَالَهُ عُمُّهُ
أَبُو طَالِبٍ: أَبْيَضُ، ذُو غُرَرٍ

بِهِ اللَّهُ يَسْقِيهِ صُوبَ الْغَمَامِ

وهذا العيانُ لذلك الخَبَرُ...^(١)

* *

وهل لنا أن نقف -هنا- عند (استغفار الرسول) (ص) لعمِّه، وقد واره الموت؟!.

وليس ذكرُّه له، عند كلِّ مناسبةٍ تمرُّ، إلاَّ لأنَّه يشغل منه البال، وهذه أعماله الحسان، تُجَدِّدُ ذكرَه عند الرسول...؟

«للهِ درُّ أبي طالبٍ...! -الح-»^(٢):

كلماتُ عطرةٍ، يَضْمَحُّها طيب الاعتراف والإطراء... فالرسول يعرف أنَّ أبا طالبٍ، لَتَقَرُّ منه العين، لو شهد هذه المأثرة للرسول...

«واللهِ درُّه!» دعاءُ وإطراءٍ له، من ابن أخيه -والرسول لا يُطْري مَنْ ليس أهلاً، ولا يذكر مَنْ لا يستحقُّ الذكر...-

وهو يُلاحقُ الإستغفار لعمِّه، في الوقت الذي ينشده عليٌّ شعر أبيه -والرسول لا يدعو الله بالمغفرة، لِمَنْ لم يعمر الإيمان قلبه...-

* * *

إنَّ الرسول -وقد رعى لأبي طالبٍ يده- ليحفظها له في ولده، وهو يقول:

«يُحْفَظُ المرءُ في ولده»...

ومَنْ أولى مِنَ الرسول، مِنْ تطبيق أقواله، على أفعاله؟!.

(١) - الحديديُّ ٣١٦: ٣ - والحجَّة ٨٨ - ٩٠، والبحار ٦: ٣٨٨، وشيخ الأبطح ٤٦، ٤٥، الغدير ٣٧٦، ٣٧٥: ٧ - مسندٌ لمصادر عدَّة - ٢: ٤٠٣، والأعيان ١٥١، ١٥٢: ٣٩. وذكرَت الحادثة - بإيجازٍ، وبدون ذكر الشعر - في: السَّيرة المَهْشَمِيَّة ١: ٣٠٠، والنَّبَوِيَّة ١: ١٨١، وأبو طالبٍ ٩٣.

(٢) - للبرزنجيِّ كلمةٌ قيِّمةٌ - حديرةٌ بالإلتفات - تتَّصل بهذا الموضوع، موجودةٌ في الغدير

مرّة، يقول لعليّ «عليه السّلام»:

[ليس أحدٌ أحقُّ منك بمقامي... لإقْدِمِكَ في الإسلام،
وقربِكَ مِنِّي، وصهرِكَ لِي، عِنْدَكَ فاطمةُ سَيِّدَةِ نساءِ الْمُؤْمِنِينَ.
وقبلَ ذلكَ، مَا كَانَ مِن حَمَاةِ أَبِيكَ - أَبِي طَالِبٍ - وَبِلَائِهِ
عِنْدِي، حِينَ نَزَلَ الْقُرْآنُ، وَأَنَا حَرِيصٌ أَنْ أَرعى ذَلِكَ،
فِي وَلَدِهِ، بَعْدَهُ] (١).

أرأيت كيف كانت منزلة أبي طالب - لدى الرّسول - إذ يعدُّ بلاء أبي طالب،
لديه، حين نزول القرآن، مِنَ الميزات التي تَمَيَّزُ عَلَيَّاءُ، وتفرض عليه: أَنْ يراه أَحَقُّ
إنسانٍ بمقامه - وهو مقام النّبوة - ويعدّها ضمن ميزاتهِ الأُخرى، مِنْ: قديمِ سابقته،
وقرابتِهِ منه، ومصاهرتِهِ له...

ويُبيدي إليه حرصَهُ على أَنْ يرعى يدَ أبي طالبٍ، في ولده، بعده، ليفي إليه بحَقِّهِ
وفضله، ويُجازِيه على عمله الأسمى...
فليس غير عليّ، خليفةً للرّسول...
وليس مَنْ هو أَحَقُّ منه، بعدَ كُلِّ هذه المميزات!...

* *

ومرّة أُخرى، يقول لعقيل:

[يَا أَبَا يَزِيدَا إِنِّي أَحْبَبْتُ حَبِيبَ: حَبَّاً لِقَرَابَتِكَ مِنِّي، وَحَبَّاً
لِمَا كُنْتُ أَعْلَمُ مِنْ حَبِّ عَمِّي [يَاكَ] (٢).

ما هذا الحبُّ الطّاغي مِنَ الرّسول، لعمِّه...!؟

(١) - ينابيع المودة ٢٦٣ [٢: ١٤١]، وغاية المرام ٤٩٧ - مسنداً فيها عن أبي إسحاق الثعلبي،
في تفسير القرآن - والغدير ٣٧٨ و٣٨٨، ٧: مسنداً للحافظ الكنجي في الكفاية ص ٦٨، مِنْ طريق
الحافظ ابن فنحويه، عن ابن عَبَّاسٍ، مرفوعاً.

(٢) - الاستيعاب ٣: ١٥٧، والحديدية ٣: ٣١٢، والحجة ٣٤، وتذكرة الخواص ١٥، ومعجم
القبور ١: ٢٠٢، والغدير ٣٧٧ و٣٨٧، ٧: مسنداً لعدّة مصادر.

فهو : يُحِبُّ عَقِيلًا، لماس رحمة به -هذا حبٌ...
 ويُحِبُّه -وهو الحبُّ الآخر- لأنه يعلم بالغ حبِّ عمِّه إليه...
 فهو يرى: أنَّ حبَّ عمِّه لشخصٍ يفرض عليه هو أن يُحِبُّه... فمحبوب عمِّه،
 محبوبٌ لديه، والقريب منه، قريبٌ إليه...
 وإنَّها لشهادةٌ صادقةٌ، تدلُّنا على بالغ حبِّ الرُّسول لعمِّه... وإيُّ حبٍّ أرفع
 درجةً، من هذا الحبِّ، الرَّفِيع الدُّرَى...!؟

* *

وفي يوم بدرٍ، والمركة الفاصلة في هياجها، بين: الحقِّ والباطل، بين: التوحيد،
 والشُّرك -خرج أبو عبيدة بن الحرث بن المطَّلَب، ليلقى المشركين، منافعاً عن عقيدته،
 مجاهدًا عن دينه، فقطع رجله عتبة بن ربيعة -وقيل: شيبة- فانقضَّ عليه سيفان
 مصلتان، من سيفِ الله -هما: عليٌّ، والحمزة- فاستنقذا صاحبهما، وخطا عدوَّهما،
 بصارميهما الحديدين، واحتملا صاحبهما إلى العريش، حيث هناك الرُّسول (ص)...
 وإبَّ مخٌ ساق أبي عبيدة -وهو يسيل- لم يشغله عن أن يفتح عينين، قد ذوت
 منهما لُبة الحياة، ليقول بصوتٍ مرتعشٍ:

- يا رسول الله! لو كان أبو طالب حيًّا، لَعلم: أنه قد صدَّقَ في قوله:
 كذبتم -وبيتِ الله!- نُخْلِي مُحَمَّدًا

وَلَمَّا نَطَاعَنْ دَوْلَهُ وَنَاضِلًا

وَنَصْرَهُ، حَتَّى نُصْرَعَ حَوْلَهُ

وَنُذْهِلَ عَنْ أُبْنَانِنَا وَالْحَلَاتِلِ

فهاجت برسول الله ذكرى عمِّه، وتفتحت نفسه المشرقة، لذكره، وراح
 لسانه يلهج بالاستغفار له، ولأبي عبيدة معاً^(١).

(١) - الحديديُّ ٣١٦ و٣٣٤ و٣، و ٣٠٥، ١: ٣٠٦ والحجَّة ٨٤، وشيخ الأبطح ٤٧، ٤٨،

والأعيان ١٥١: ٣٩.

وذكرت في البحار ٦: ٥٩٥، بصورة تختلف عن هذه.

ثم تحين -ذلك اليوم- من رسول الله نظرةً، بعدما دارت الدائرة على قريشٍ،
وتكشّف الموقف عن هزيمتها النكراء...

تحين من الرسول هذه النظرة، الهادئة الرّزينة، وهي تنتقل بين هذه الجثث
الهامدة، التي حُمدت فيها جذوة الحياة، وكانت تحرق الأرم، وتُضرم وقيد النار،
وتُسعر أوار الحرب على الرسول...

تحين هذه النظرة منه (ص)، فيرى إلى جانبه أبا بكرٍ، ليقول له:
«لو أنّ أبا طالب حيٌّ، لعَلِم أنّ أسيفنا قد أخذت
بالأمثال»^(١).

يُشير إلى بيت أبي طالب، من رثعته اللامية:
كذبتم -وبيت الله!- إن جدّ ما أرى
للتبسّين أسيفنا بالأمثال
* *

وهذا العبّاس، يسأل الرسول:
- يا رسول الله! أترجو لأبي طالب؟
فيكون جواب الرسول بهذه اللّهجة المطمئنة:
«كلّ الخير أرجو من ربّي»^(٢).
* *

وقد صحّح الرواة حديثاً، نذّت به شفتا الرسول (ص)، وهو:

(١) - الأغاني ١٧:٢٨، والغدير ١:٣٧٨، و٢:٤، عن الأغاني، وطلبة الطالب ٤٨.
وأشير إليها في الشرح الحديديّ ٣:٣٠٩.

(٢) - الحديديّ ٣:٣١١، والحجة ١٥، وتذكرة الخواصّ ١٠، ومعجم القبور ١:١٨٩،
والغدير ٣٧٤ و٣٨٧: ٧ - عن طيقات ابن سعد، بسند صحيح، وعن مصادر عدّة غيره - والأعيان
٣٩:١٣٦.

[إذا كان يومُ القيامةِ، شفعتُ لأبي، وأمِّي، وعمِّي
-أبي طالب- وأخ لي كان في الجاهليَّة].

وقد ورَدَ هذا الحديث، في صورٍ مختلفةٍ، لكنه ينتهي إلى غايةٍ واحدةٍ، ولا يختلف
في مفاده^(١).

* *

إنَّ هذه الأحاديث، تُفرض علينا أن نُقرَّ بإيمان نصير الرُّسول «ص»، وهذا هو
الرُّسول لا يذكِّره، إلَّا بعاطرِ الشَّاء، ولا يُجَازيه، إلَّا بخيرِ الجزاء، فيدعو له ربُّه أحرَّ
الدُّعاء... والرُّسول لا ينساق مع عاطفةٍ، ولا يذكُر فرداً، إلَّا بعمله، إن خيراً، أو
شراً.

ولو كان ذكُر الرُّسول واستغفاره لعمِّه، وهو لم يكن مسلماً -وهذا ما لا يجوز
على الرُّسول، بالطبع- لكان قد وقع الرُّسول «ص» - (وأستغفر الله) في مانهاه الله
عنه، في عدَّة آيات:

١- ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ،
يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانُوا
آبَاءَهُمْ، أَوْ إِخْوَانَهُمْ، أَوْ عَشِيرَتَهُمْ - أُولَئِكَ كَتَبَ
فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ - الخ^(٢)..

فالقرآن الكريم، نفى وجود قومٍ، يُؤمنون بالله واليوم الآخر، وتكون في
قلوبهم ذرَّة من حبٍّ، لِمَنْ يُعادي الله ورسوله، حتى ولو كانت بين هذا المؤمن،
وذاك الجاحد، روابط النِّسب واشجَّة، وتشدُّهما أواصر القربى...
لقد جعل ذلك، مِنْ باب «النقيضين» اللذين لا يجتمعان في حالٍ...

(١) - التَّهَجُّج ٣: ٣١١، وتفسير عليِّ بن إبراهيم ٤٩٠ و ٣٥٥، والحجَّة مِنْ ص ٣ إلى ٥ - وهي
الصحيفة التي رُصدت "٩" في الكتاب، غلطاً، وعليها بُني ترقيم الكتاب - والغدير
٣٧٩ و ٣٨٦، مستنداً لمصادر عدَّة.

(٢) - المجادلة ٢٢ .

فلا يقع الإيمان، وحبُّ الجاحدين، في قلب... وليس يتسع، إلا لأحدهما فحسب.
ولعلَّ مِنَ المناسب: أن تأتي على مفسِّر به الزُّمخشري، هذه الآية الكريمة:
(خُيِّلَ أَنَّ مِنَ الْمَمْتَنِعِ الْخَالِ: أن تجد قوماً مؤمنين يُوالون المشركين. والغرض به:
أنه لا ينبغي أن يكون ذلك.. وحقُّه أن يمتنع، ولا يُوجد بحال، مبالغة في النهي عنه،
والزجر عن ملاسته، والتوصية بالتصلُّب في مجانبة أعداء الله، ومباعدتهم،
والاحتراس من مخالطتهم ومعاشرتهم.
وزاد ذلك تأكيداً وتشديداً بقوله:
﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ﴾.

ويقوله:

﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾.

ومقابلة قوله:

﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾.

يقوله:

﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾.

فلا تجد شيئاً أدخل في الإخلاص، من موالاة أولياء الله، ومعاداة أعدائه، بل
هو الإخلاص بعينه) - الخ (١).

وقد ذكر بعد ذلك حديثاً عن الرسول، هذا نصُّه:

(اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ لِفَاجِرٍ وَلَا لِفَاسِقٍ عِنْدِي نِعْمَةً...! فإنِّي

وجدتُ في مأوحي إليَّ: لَا تَجِدُ قَوْماً) (٢).

وفي مجمع البيان: (والمعنى: لا تجتمع موالاة الكفار مع الإيمان) (٣).

* *

(١) و (٢) - الكشف ٤٤٤: ٢ (٣٩٦: ٤) وتجد الحديث في تفسير ابن كثير ٣٣٠: ٤.

(٣) - ٢٨: ١٩.

ب- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا: لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ، تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ﴾^(١).

لقد نهى الله - في هذه الآية - المؤمنين: أن يتخذ الكفار أصدقاء لهم، أو يوالوهم، ويحقق قلبهم بالحبّ وتنطوي منهم الجوانح منهم على المودّة لهم، أو يستنصروهم وينصرونهم.

* *

ج- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا: لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ، إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ. وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ، فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ. قُلْ: إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ، فَتَرْبِّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾^(٢).

ففي الآية الأولى، نهى المؤمنين أن يتخذوا آباءهم وإخوانهم - وهم المرتبة الأولى التصاقاً وقرباً للمرء - أولياء، إذا كان هؤلاء، ممّن يفصل بينهم الكفر... فإنّ الإيمان يقطع جبل المودّة، بين: المؤمن والكافر، حتى لو كان هذا الكافر أباً للمؤمن، الذي هو خالقه الثاني، وله على ابنه فضل الإيجاد والرعاية - بعد الموجد الأوّل. ثم قال: إنّ موالاتهم وحبهم، يُخرجهم من حظيرة الإيمان، ليضيفهم إلى عداد الظالمين.

وفي الآية الثانية جعل فيها حداً فاصلاً... فإمّا أن يرغبوا إلى الله ويدعوا هؤلاء... وإلاّ فليربّصوا، حتى ينالوا الجزاء، ويروا أمر الله فمأهم سوى قوم فاسقين!

(١) - الممتحنة: ١.

(٢) - التوبة: ٢٣، ٢٤.

وقد ذكر الزمخشري، بعد تفسير هذه الآية، أنَّ النبيَّ «ص»، قال:

[لَا يَطْعَمُ أَحَدُكُمْ طَعْمَ الْإِيمَانِ، حَتَّى يُحِبَّ فِي اللَّهِ،
وَيُغِضَ فِي اللَّهِ، حَتَّى يُحِبَّ فِي اللَّهِ أَبْعَدَ النَّاسِ، وَيُغِضَ
فِي اللَّهِ أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَيْهِ] (١).

[وهذه هي آيةٌ شديدةٌ، لا ترى أشدَّ منها، كأنها تنعى على النَّاسِ ما هم عليه،
من رخاوة عقد الدِّينِ، واضطراب جبل اليقين...]

فلْيُنْصَفْ أَوْرَعُ النَّاسِ وَأَقَامَهُمْ مِنْ نَفْسِهِ، هل يجد عنده مِنَ التَّصَلُّبِ فِي ذَاتِ
اللَّهِ، والثَّبَاتِ عَلَى دِينِ اللَّهِ، مَا يَسْتَحِبُّ لَهُ دِينُهُ عَلَى الْآبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ...؟] الخ (٢).
وفي مجمع البيان:

[إِنَّ أَمْرَ الدِّينِ مُقَدَّمٌ عَلَى النَّسَبِ. وَإِذَا وَجِبَ قَطْعُ قَرَابَةِ الْأَبْوَيْنِ فَالْأَجْنَبِيُّ
أَوَّلَى] - [قال الحسن: مَنْ تَوَلَّى الْمُشْرَكَ، فَهُوَ مُشْرِكٌ] (٣).

د- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا! مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ
دِينِهِ، فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ -
أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ» (٤)
«وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ،
مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ. وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ» (٥).

ففي تلك الآية: جعل من شروط الإيمان: هذا التَّذَلُّلُ والْحَبَّةُ - بينهم - والتَّآلَفُ
والتَّقَارُبُ، ليكونوا يداً واحدةً، كالبنیان المرصوص، يشدُّ بعضه بعضاً...

(١) و (٢) - الكشف ٥٤٨ «٢٠٢، ٢٠١: ٢».

(٣) - ٣٤: ١٠.

(٤) - المائدة: ٥٤.

(٥) - المائدة: ٨١.

وهذه العزّة والقوّة والبطش، على الكفار المشركين، لئلاّ يعيشوا في هذا البنيان، المشتدّ الصليب، ويفتؤوا هذه الوحدة المتناسكة...

وفي الجمع: [رحماء على المؤمنين، غلاظاً شداذ على الكافرين، وهو من الدّل، الذي هو اللّين، لا من الدّل، الذي هو الهوان.

قال ابن عبّاس: تراهم للمؤمنين كالولد لوالده، والعبد لسيّده، وهم في الغلظة على الكافرين كالسّع على فريسته^(١).

وفي الآية الثّانية: نفى عن أولئك الإيمان، لموالاتهم الكفار، واتّخاذهم إيّاهم أولياء، فاستحقّقوا بذلك غضب الله، وسخطه عليهم، فخلّدهم في العذاب المهين - كما في آية مرّت، لما ذكرنا - وأنّ الأكرية من هؤلاء لفسقاء...

وإنّ [موالاته المشركين كفى بها دليلاً على نفاقهم، وإنّ إيمانهم ليس بإيمان، ولكنهم متمردون في كفرهم ونفاقهم]^(٢).

وقد علّل [وصفهم بالفسق - وإن كان الكفر أبلغ في باب الذّم - لأمرين: أحدهما: أنّهم خارجون عن أمر الله، وهذا المعنى لا يظهر بأنّ يصفهم بالكفر. والآخر: أنّ الفاسق في كفره هو المتمرد فيه. والكلام يدلّ على: أنّهم فاسقون في كفرهم، أي: خارجون إلى التمرد فيه]^(٣).

و= ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، وَالَّذِينَ مَعَهُ: أَشِدَّاءُ

عَلَى الْكُفَّارِ، رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ﴾^(٤).

وذكر المفسرون - بعد هذه الآية - قولاً، عن الحسن:

(١) - ١٢٢: ٦ .

(٢) - الكشاف ٤٣٠: ١ [٥٢٠: ١] .

(٣) - الجمع ١٧١: ٦ .

(٤) - الفتح - ٢٩ .

[بلغ من تشدُّدِهم على الكفار: أنهم كانوا يتحرَّزون من ثياب المشركين، حتى لا تلتزق بشياهم، ومن أبدانهم، حتى لا تمس أبدانهم] (١).
وبعد أقوال ذكرها الزُّنخسريُّ، يقول:

[ومن حقَّ المسلمين في كلِّ زمانٍ، أن يُراعوا هذا التشدُّد، وهذا التعطُّف، فيتشدَّدوا على مَنْ ليس على ملَّتْهم ودينهم، ويتحاموه (٢)، ويُعاشروا إخوتهم في الإسلام، متعطفين بالبرِّ والصِّلَّة، وكفِّ الأذى، والمعونة، والاحتمال، والأخلاق السَّجيحة] (٣).

ولكن... فَيَا لِمَسْ حَظَّ المسلمين!، وهامهم أولاء يعملون على عكس هذه القولة، وقد انقلبت -لديهم- الآية، فكانوا رحماء بغيرهم، أشدَّاء على أنفسهم!... وإنَّ بعضهم لَيُقَدِّم البعض، ضحيَّةً للعدوِّ...! وينال بعضهم البعض، مالا يناله الجاهل، في نفسه، أو في عدوِّه!...

(١) - المجمع ٨٠: ٢٦، والكَشَّاف ١١٥: ٣ [٣٧٥: ٤].

(٢) - ليس يفرض الإسلام هذا التشدُّد - الذي يُظَنُّ منه: المقاطعة، أو المحاربة - على كلِّ مَنْ ليس مسلماً، حيث جعل لأهل الذمَّة حقوقاً، كحقوق المسلمين، في حفظ: أموالهم، وأنفسهم، وأعراضهم...! وقنَّ لذلك القوانين الرُّقيَّة للثلى، وهو الدِّين السَّامي، الرُّقيع الذُّرى.. ولكنَّ هذا التشدُّد يفرضه على كلِّ مَنْ لم يَقم بالحفاظ على تلك القوانين، ولم يَقم من جانبِهِ بما يجب عليه..

فهنا... يجب مكافحته، وهو العدوُّ الصَّريح، أو العدوُّ المتستر، المبطن بالغشِّ والنِّفاق. على أنه فرقٌ بعيدٌ، بين أهل الذمَّة - وهم من أهل الكتاب، موحدون للخالق - وبين المشركين، الذين يُشركون في العبادة، غير الله سبحانه، أو الكفار، الذين وصل بهم الجهل إلى رواسيه، فأنكروا الخالق العظيم!..

فهؤلاء ليس يُمكن - بحالٍ من الأحوال - سوى التشدُّد معهم، والتَّحامي عنهم!.. وهؤلاء هم المعنيون - بصورةٍ أحصَّ - بهذه الآيات الرَّاحِرة النَّاعية. وأبو طالب - في رأي المغرضين المفرزين - ليس من أهل الكتاب. وإنَّما هو من هؤلاء الكفار، أو المشركين - وعفو الحقِّ والعدل! - فهو داخلٌ - على رأيهم التَّفسيه سفي نطاق المنهي عن: موالاتهم، وقربهم، وودِّهم!..

(٣) - الكَشَّاف ١١٥: ٣ [٢٧٥: ٤].

في حين أنه يحضّ عدوّه في الدّين، أو الوطن -سواء كان شريكاً، أو غريباً- خالصَ الودّ، ويذلّ من أجله ما تطلّبه المصلحة العملية، من تفانٍ في الإجرام والخيانة، فيضحي ببني قومه، ويُقدّم وطنه لقمة سائغة، لقم العدو المستعمر البغيض، في ثوبه الأحمر الدّامي، أو ثوبه الأسود المظلم...

وهو -في النهاية- لا ينال سوى سيء الجزاء -وهو من جنس عمله- حتى ممّن كان له ذلك الذّنب العميل الحقير، وما للذّنب من قيمة، متى استغني عنه، فلا يبقى له سوى البتر...

وبذلك... انقصمت العرى، وفُتّت الوحدة، وسرت نار الخلف، كما يندلع اللّهب، في الهشيم اليبس...

* *

ولنُعُدّ إلى موضوعنا، فنُعِدّ نظرةً فاحصةً، في هذه الآيات، وفي آياتٍ أُخرى، تدور حول هذا الموضوع، وتلمس هذه النّاحية -شئنا أن لا نتقصّها، فتطول بنا الخطي، ويتشعب بنا الطّريق...

نُعِدّ هذه النظرة، لنرى ما تعنيه هذه الآيات الكريمة... ثم نتساءل:

هل يجوز على نبيّ الإسلام، أو له -وهذه تعاليمه- أن يكون ذلك الرّحيم مشرك، أو كافرٍ -والعياذ بالله!- لأنه قريبه، فحسب... ويضرب، عرض الجدار، بهذه التعاليم التي جاء بها الوحي الصّادع المجلجل...؟

وهل يجوز أن يتقبّل دفاع رجلٍ -عنه، وعن دينه- ممّن لم يعمر قلبه الإيمان، ولم يطمئنّ للدّعوة، وهو الذي رُوي عنه:

«اللّهُمَّ لَا تَجْعَلْ لِفَاجِرٍ وَلَا لِفَاسِقٍ عِنْدِي نِعْمَةً»...؟

وتعليل ذلك: أن من أسدى إليه يد المعروف، ومدّ إليه يد النّصرة، كانت له عليه النعمة الفضلى... وحينذاك وجب عليه الشّكران والمكافأة، وكانت له في قلبه، منزلة سامقة، ومحبة عميقة...

وهذا كله يتخالف، وما جاءت به الآيات، التي فيها شدة، وفيها إنذار، وفيها نفى، وفيها زجر، وفيها وعيد...

اللهم! إلا أن نقول: إن الرسول، لا يتمشى ونصوص دستور ربّه، وما ينزل عليه من وحي السماء...!، فيخالف حرقية القرآن، وما جاء فيه -وأستغفر الله!- ليمسني لنا -حينذاك- القول بكفر مؤمن قريش، بعدما ثبتت لنا فعالة ونصرته، ومواقفه الصّلاب، في حياطة الرسول، ونصرة الدعوة، وحفظ كيانه الوطيد...!!!
وإذ ليس -ثمّة- من يقول هذا... فهو على الاعتراف بإيمان أبي طالب مجرّب...
وقد سُدّت عليه السُّبل، بعد أن ثبت عن الرسول -هذا الإستغفار، وهذا الذّكر المتجدّد، والثناء العطر، والتّمجيد المستمرّ، والتّعظيم الرّفيع...

وكلّ هذا... مع إغضاء النظر عن العمل، الذي قام به أبو طالب، والاعتراف الذي سجّله على صفحة الوجود، وشَفَّ به مسمع الدهر، يتألّق بنور الإيمان، ويشعُّ بالألاء اليقين...!

على لسان الإمام علي (ع):

إذا - انتقلنا إلى الإمام علي «عليه السلام»، لنجد ما يذكر به أباه، فإننا لنجد في أقواله ما ينضح بالدليل، على إيمان أبيه، ويُبدّد بألق اليقين عتمة الشك... ويقضي على المزاعم والتقول...

أغمض أبوه عينيه، فجاء للرّسول، وأنهى إليه خبر فقده، فألقى إليه الرّسول تعاليمه، فاستمر بما ألقى إليه النّبيّ من قول... فغسل أباه، وحنطه، وكفّنه، وشيّعه...

وهل يكون هذا لغير المسلم...؟! أنا لا أدري...!!!

ثم رأى الرّسول (ص)، وهو يعترض جنازة أبيه، ويُتحفه زكيّ القول، وتنهمر من عينيه دموع الأسى، وزفير الألم...

ثم تمضي الأيام -تباعاً- فيرى الرّسول في ضائقته، قد اشتدّت عليه الأمور، وتأزّم به الحال... فلا يلبث أن يثّ الشكوى والألم، لفقد عمّه الحنون...

وتطوف بعليّ صورة أبيه، وتمرّ به مواقفه من الدّين، وذُبه عنه، وحياطته للرّسول، ومنعته به، فتشور فيه كوامن الوجد الدّفين، وتخزّ جنبه شوكة الألم المستفحل، فتسيل منه الدّموع، في انسكابٍ وهو يُتمتم بهذه الأبيات، التي تعكس لهبة ألمه الكمين:

أبا طالب! عصمة المستجير!

وغيث المحول! ونور الظلم!

لقد هَدَّ فقدك أهل الحفاظ،

فصلّى عليك ولي النعم!

وَلَقَدْ كُنتَ لِرَبِّكَ رَضَوَانَهُ

فَقَدْ كُنتَ لِلْمَصْطَفَى خَيْرَءٍ مِّنْ (١)

وهكذا تمضي السُّنُونُ... فتعمل أُمِّيَّةٌ عملها السيِّء، وتضع الأحاديث الزُّور، فيُشاهد منها الإمام عليٌّ شرَّ قذحها، ويمرُّ به شيءٌ مِنْ هبها المحرق -وهي فاتحة عمرها المسودَّ...-

ففي يومٍ كان الإمام عليٌّ، في الرُّحبة، والنَّاس حوله، إذ قام إليه رجلٌ، مِمَّنْ وصل إلى سمعه سوء القالة، وزور الحديث، فَلَبَسَ عليه الحقُّ، بالباطل المفترى... وقال له:

[يا أمير المؤمنين! إنَّك بالمكان الذي أنزلك الله، وأبوك معذبٌ في النَّار...!؟]
فتطبع صفحة وجه الإمام بالغضب، وتشور نفسه أن ترجف أُمِّيَّة، هذا الإرجاف الذَّنْي، فتنسى كلَّ واجبات الإنسانيَّة، فلا تحفظ ميتاً، قد حاطه الموت، وصانه الخلود... وأصبح لايزاحمها في الحياة، حتى بطله -اللَّهِمَّ إلا باقي الذِّكر، ورفيع العمل - فلاكتفي بأن تتناسى عمله الباقي، وفعله الحميد، ومقاومته لها على شركها ورجسها، حتى تضع في حقِّه، ما يُدَنِّس صفحة الصُّدق، النَّصيعة البياض...!

ويُجيبه الإمام بجوابٍ، يكشف له فيه، عن كذب هذه القولة:

[مَهْ! فَضَّ اللَّهُ فَالَكَا.]

وَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ نَبِيًّا! لَوْ شَفَعَ أَبِي فِي كُلِّ

مَذْنِبٍ، عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، لَشَفَعَهُ اللَّهُ...!

أَبِي مَعْدَبٌ فِي النَّارِ، وَابْنُهُ قَسِيمُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ...!؟

(١) - الحجة ٢٤، وتذكرة الخواص ١٢، وشيخ الأبطح ٥٠ - بدون الثالث - ومعجم القبور

٢٠٦: ١ - بدون الثاني - والغدير ٩٩: ٣ و٣٧٩ و٣٨٩: ٧ - مسندة - والأعيان ١٤٠: ٣٩ .

إِنَّ نَوْراً أَبِي طَالِبٍ - يَوْمَ الْقِيَامَةِ - لَيُطْفِئُ أَنْوَارَ الْخَلَائِقِ،
إِلَّا حَمْسَةً أَنْوَارٍ... - الخ^(١).

فَمَنْ كَانَ بِهِذِهِ الْمَنْزِلَةُ الْفَضْلَى، وَالذَّرَجَةُ السَّامِقَةُ، حَتَّى أَنَّهُ لَهُو «قَسِيمُ الْجَنَّةِ
وَالنَّارِ»^(٢)، لَا يَكُونُ مِنَ الْفَضْلِ، إِلَّا عَلَى اكْتِمَالٍ... وَإِنَّهُ لَا يَلِيقُ لَذَلِكَ، إِلَّا مَنْ كَانَ
مِنَ الْإِيمَانِ ذَلِكَ الْعَرِيقَ الْجَدُور... لَمْ يُدْنَسْ بِأَدْنَسِ الشَّرِّكَ، وَلَا بِأَوْضَارِ الذَّنَاءَةِ...
وَإِنَّهُ لِمِمَّا يَنْقُصُهُ: أَنْ لَا يَكُونُ أَبُوهُ مُؤْمِنَ الْقَلْبِ، أَوْ أَنْ يَكُونَ مَدْنَسَ الصَّفْحَةِ
بِالشَّرِّكَ... فَإِنَّهُ لَيَعْلُقُ بِهِ مِنْهُ، مَا يَلْمِلُ مِنْ فَضْلِهِ، وَيُلَاشِي مِنْ قِيَمَتِهِ، وَيَخْدُشُ مِنْ
مَنْزِلَتِهِ.

* *

وَمَرَّةً أُخْرَى يَقُولُ:

- وَاللَّهِ! مَا عَبْدَ أَبِي، وَلَا جَدِّي عَبْدُ الْمَطْلَبِ، وَلَا هَاشِمٍ،
وَلَا عَبْدُ مَنْافٍ، صَنَمًا، قَطُّ!

- فَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ؟

- كَانُوا يُصَلُّونَ إِلَى الْبَيْتِ، عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ «عَلَيْهِ
السَّلَامُ»، مَحْتَمِسِينَ بِهِ^(٣).

وَحَدَّثَ أَبُو الطُّفَيْلِ - عَامِرُ بْنُ وَائِلَةَ - عَنْ عَلِيٍّ «عَلَيْهِ السَّلَامُ»:
[إِنَّ أَنَبِيَّ حِينَ حَضَرَهُ الْمَوْتُ، شَهِدَهُ رَسُولُ اللَّهِ (ص)،
فَأَخْبَرَنِي عَنْهُ بِشَيْءٍ، خَيْرٌ لِي مِنَ الدُّنْيَا، وَمَا فِيهَا]^(٤).

(١) - الْحَجَّةُ ١٥، وَتَذَكُّرَةُ الْخَوَاصِّ ١١، وَشَيْخُ الْأَبْطَحِ ٣٢، وَالْغَدِيرُ ٣٨٨: ٧، مُسْنَدُ لَعْنَةِ
صَادِرٍ، وَمَرْوِيًّا عَنِ الْإِمَامِ الْحُسَيْنِ السَّبِيطِ «عَلَيْهِ السَّلَامُ».

(٢) - حَدِيثٌ صَحِيحٌ مُتَكَثِّرُ الرَّوَاةِ. وَقَدْ أُسْنَدَ لِأَبِي بَكْرٍ، فِي الرِّيَاضِ النَّضْرَةِ ١٧٧ وَ ٢٤٤:

٢.

(٣) - الْغَدِيرُ ٣٨٨: ٧ - مُسْنَدُ وَالْعَبَّاسِ ١٨ - مُسْنَدُ لِمَرْأَةِ الْعُقُولِ ٣٦٢: ١ - وَمَعْجَمُ الْقُبُورِ ٢٠٠:

١.

(٤) - الْحَجَّةُ ٢٣، وَالْغَدِيرُ ٣٨٨: ٧.

ومرّة أخرى يقول -ويوضح السرّ في كتم أبي طالب إيمانه:

[كان -والله!- أبو طالب عبد مناف بن عبد المطلب

مؤمناً مسلماً، يكتُم إيمانه مخافةً على بني هاشم، أن

تبادلها قريش^(١)].

ومرّة يقول:

[مَا مَاتَ أَبُو طَالِبٍ، حَتَّى أُعْطِيَ رَسُولَ اللَّهِ (ص) -مِنْ

نَفْسِهِ- الرُّضَا^(٢)].

هذه الأقوال مِنَ الإمام عليّ «عليه السّلام»، في حقّ أبيه، وهذه الشّهادة

السّافرة، والتي تصدر عن قصديّ، بعد أن يسمع سوء القالة، وأراجيف التّهم -

ماعسى أن يكون باعثها...؟

وماالذي يدعوه إلى نشرها...؟

وماالذي يدفعه إلى الحديث، عن أبيه...؟

فهل نعوّدها إلى العاطفة الأبويّة، وحميّة الرّحم، دون أن يكون لها مساسٌ

بالواقع، وصلةً بالحقّ...؟

لأظنّ واحداً -مِمَّنْ قرّ في قلبه الإسلام -بقادم على سلوك هذا الطّريق

المنقاد... وهو مِنَ الوعورة، بحيث يُخرج سالكه عن حصن الإسلام وحظيرته، لأنّه

تسوّر على مقام إمام المسلمين، وحامي الإسلام ونصيره... وخلافٌ سافرٌ، لِمَا

نصّ به الرّسول (ص)...!

فعليّ ليس بالذي يميل عن الحقّ -وهو معه- كما نصّ الحديث، المتفق عليه،

بين المسلمين أجمع:

«عليّ مع الحقّ، والحقّ مع عليّ، يدور معه حيث مادار».

(١) - الحجّة ٢٤، والغدير ٣٨٩: ٧، ومعجم القبور ٢٠٠: ١ .

(٢) - الغدير ٣٧٠ و٣٨٩: ٧ . وفي الحجّة ٢٣ مروياً عن الصادق «عليه السّلام». والأعيان

ولسنا بحاجة لأن نسرد كلَّ مائدَت به شفتا الرسول الأعظم (ص) في حقِّ وصيِّه - وهي التي تُضارع نور الشَّمس: ظهوراً، وشهرة...

وإن كان -ثُمَّ- مَنْ يُحْمَلُ أقوال الإمام، شيئاً مِنْ عاطفةٍ، فإنَّه لَيُطعن نبيَّ الإسلام، حيث أشاد بفضل رجل، تتغلب عاطفته على دينه، ويُفضِّل رحمه على مبدئه... فينساق مع شهوةٍ، لِيُغَيِّرَ حقّاً، ويُحقِّقَ باطلاً...

إذ أنَّ واجبه المقدَّس، يفرض عليه: أن ينفض يده مِنْ أبيه -على فرض موته على الشُّرك- ويرأ منه، وهو العدوُّ لله، ولا يسدل على سوائه ستراً... فما حقُّ الأب بأعلى مِنْ حقِّ الله عليه...

وله بسيرة أبيه إبراهيم الخليل، خير نبراس، في ماقصَّ الله عنه:
«فَلَمَّا تَبَيَّنَ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ»^(١).

فليس له: أن يُوالي عدوَّ الله، إذا شاء أن يُخلص العبادة لله وحده، ويوثق الصِّلَة بينه، وبين الخلاق العظيم، وهو وليُّ النعم...!
وليس بين المسلمين مَنْ يُداني -بله يرجح- عليّاً: إيماناً، وإسلاماً، وطاعةً لله ورسوله...

وإنَّا لَنرى بينهم: مَنْ ضرب المثل الرَّائع، في: رسوخ المعتقد، ووطادة الإيمان، والفناء في جنب الله، وتقديم الواجب الدِّينيِّ على العاطفة النَّسيبيَّة - فما حبل النَّسب، بالذي لا يَنْبَتُ، إذا تعارض وقوَّة الدِّين، الرِّسْخ في القلب...
وليس شيءٌ، مهما كانت له القوَّة والمنعة، ومهما اشتدَّ وصلب، بالذي يقف أمام قوَّة الدِّين الجارفة المشتدَّة، وهي كالتَّوء الغاضب، يأتي على كلِّ شيءٍ يعترض دربه، ويصدِّه عن وجهته، التي يُريد...

* *

(١) - براءة ١١٤ .

وإنَّ التَّارِيخَ لَيَقْصُ عَلَيْنَا: موقف عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول^(١)، مِنْ أبيه، حيث فاه أبوه بكلمات النفاق، في غزوة بني المصطلق، فأحدث في صفوف المسلمين الفساد...

فلا يسمع بذلك ابنه عبد الله -وهو أقرب الناس إليه- حتى يذهب للرَّسول (ص) ليقول له:

يَا رَسُولَ اللَّهِ! بلغني أَنَّكَ تُريدُ قَتْلَ أَبِي، فَإِنْ كُنْتَ فاعِلاً فَمُرْنِي بِهِ، فَإِنَا أَحْمِلُ إِلَيْكَ رَأْسَهُ. وَأَخْشَى أَنْ تَأْمُرَ غَيْرِي بِقَتْلِهِ، فَلا تَدْعِنِي نَفْسِي أَنْظِرْ إِلَى قَاتِلِ أَبِي، يَمْشِي فِي النَّاسِ، فَاقْتُلْهُ، فَاقْتُلْ مُؤْمِنًا بِكَافِرٍ، فَادْخُلِ النَّارَ^(٢).

إِنَّهُ لَيَرْجُو الرَّسُولُ أَنْ لَا يُطِيعَ مِنْ أَبِيهِ رَأْسَهُ الشَّمُوخَ، أَحَدًا سِوَاهُ...!

ولماذا...؟

-
- (١) - يقول الرَّخْشَرِيُّ: إِنَّ اسْمَ عَبْدِ اللَّهِ هَذَا، هُوَ: حَبَابُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي، وَلَكِنَّ الرَّسُولَ غَيَّرَ اسْمَهُ لِعَبْدِ اللَّهِ، وَقَالَ: إِنَّ حَبَابًا اسْمُ شَيْطَانٍ..!
- (٢) - فِي رِوَايَةِ الرَّخْشَرِيِّ: إِنَّ عَبْدِ اللَّهِ بْنَ أَبِي، لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَ الْمَدِينَةَ، اعْتَرَضَهُ ابْنُهُ هَذَا، وَقَالَ:

وَرَاكَ! وَاللَّهِ لَا تَدْخُلُهَا، حَتَّى تَقُولَ: رَسُولُ اللَّهِ الْأَعْزُ، وَأَنَا الْأَذَلُّ..!

فَلَمْ يَزَلْ حَبِيسًا فِي يَدِهِ، حَتَّى أَمَرَ الرَّسُولُ بِتَخْلِيَتِهِ.

وَقِيلَ إِنَّهُ قَالَ لَهُ:

لَئِنْ لَمْ تَقْرَأْ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ بِالْعِزَّةِ، لَأَضْرِبَنَّ عُنُقَكَ..!

فَقَالَ: وَيْحَكَ! أَفَاعِلُ أَنْتَ؟!

قَالَ: نَعَمْ..!

فَلَمَّا رَأَى مِنْهُ الْجَدُّ: قَالَ:

أَشْهَدُ أَنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ لِابْنَتِهِ:

جِزَاكَ اللَّهُ عَنْ رَسُولِهِ، وَعَنْ الْمُؤْمِنِينَ خَيْرًا.

لأنه يخشى أن يقوم بهذه المهمة غيره، فتنبت في قلبه بذرة الحقد، لهذا القاتل،
ويقع منه ما لا يحمد لنفسه، ويُعرض نفسه لِمَا لا يرضاه لها، مِنْ عاقبة سوء...

فإن نفسه قد لاترضى منه: أن يصفح عن قاتل أبيه، فتمتدُّ إليه منه يدٌ بمكروه،
فينال بذلك جزاء السوء...!

ولكنه إذا قام هو بالمهمة، فلتأكل قلبه نيران الألم، ويتلوَّى على مذبح الوجد،
دون أن تُدنس منه صفحة الإيمان، ونقاوة المعتقد...

ولكنَّ الرسول الصَّفوح الرَّحيم، يُريحه مِنَ الإثنين، فيعفو عن ذاك المنافق، مِنْ
أجل ابنه المؤمن^(١).

* *

وهذه حادثة أخرى، تدلُّنا على مدى طغيان العاطفة الدَّنيَّة، وتغلبها على
عاطفة الرَّحم...

فقد مرَّ عديُّ بن حاتم، ومعه ابنه زيدٌ -بعد المعركة الدَّامية بين: الحق والباطل،
في صفين- فوجدوا رجلاً، مِنْ بين قتلى جيش معاوية الباغي الضَّالَّ، وكان هذا
القتيل خال زيد بن عدي، فراح يُصوِّت، يسأل عن قاتل خاله، فوافاه رجلٌ طوال،
وهو يقول: أنا قتلته...

وإذ أجابه القاتل على سؤاله، عن صفة القتل، وَكَبَّ عليه زيدٌ برمحه، قطعنه به
وأرداه قتيلاً...

وحينذاك... حمل عديُّ على ابنه، يكيل له السُّباب، ويزفُّ الشَّتْم لأُمِّه، ويقول له:
[يا ابن الماتقة! لستُ على دين محمد، إن لم أذفَعك إليهم].

(١) - ذكر الحادثة، كلُّ مَنْ عرض لغزوة بني المصطلق، كالكمال ١٣١، ١٣٢: ٢، والطَّبري
٢٦٠- ٢٦٣: ٢، والكشَّاف ٤٦١، ٤٦٢: ٢ [٤٢٣- ٤٢٤: ٤]، وتفسير علي بن إبراهيم ٦٨٠-
٦٨٢؛ وأشير إليها -بصورة أخرى- في مجمع البيان ٨٥- ٨٧: ٢٨.

لولا أن زيدا قد هربَ من وجه أبيه، ونجّاه منه - كما نجّى معاوية - «سابع ذو علالة»^(١)، فلحق بمعاوية، فنال من معاوية ضروب الإكرام، فرفع عديّ يديه، داعياً عليه: [اللّهم! إن زيدا قد فارقَ المسلمين، ولحقَ بالملحدين...^(٢) اللّهم! فارمه بسهم من سهامك لآلتوي...^(٣)]

لَا وَاللّهِ! لَأَكَلِمُهُ مِنْ رَأْسِي كَلِمَةً، أبدأ... وَلَا يُظَلِّني وَإِيَّاهُ سَقَفٌ أبدأ^(٤).
وعاطفة الأبوة، أشدُّ قوّةً وأمضى، من عاطفة البنوة، فانت تجد عدياً، قد أراد أن يُورد ابنه حياض الموت، لولا فواره منه...! فلم يسق له، سوى الدُّعاء الحارّ، وقد أفلت من يده، ولحق بالحزب الملحد الباغي...!

* *

وليست هذه الحادثة - في وقعة صفين - بالولد البكر، فقد سجّلت حادثة أخرى، هي صورة ثانية لهذه، نرى عرضها هنا:

(١) - إشارة لقول النجاشي - أيام صفين:

ونجّى ابنَ حربٍ سابعُ ذو علالة

أحشُ هزيمٍ، والرّماحُ دوانِي

إذا قلتُ: أطرافُ الرّماحِ تنوشُهُ

مرتنةٌ لهُ السّاقانِ والقدمانِ.

(٢) - في وقعة صفين: بالخلين.

(٣) - في الوقعة: لايشوي - أو: لأخطي - وبعدها: فإنّ رميتك لاتنمي - وأشوي: رمى فأصاب الشئ، أي: الأطراف - دون المقتل.

(٤) - كُنّا قد استقينّا خطوط الحادثة - فيما نتصوّر - من الغدير، وفاتنا أن نضع الصّفحة والجزء، فلم نعر عليها فيه، رغم إعادة البحث، ولا ندري فقد تكون من مصدرٍ آخر.

وقد ذكرت في وقعة صفين ٥٩٩، ٦٠٠.

وأشير لها في كامل ابن الأثير ١٦٥: ٣ - وذكر أنّ القتل مع معاوية، هو: حابس بن سعيد الطائي، حال زيد.

خرج من الفتنه الباغية من يطلب البراز، ولم يكذب يسمع النداء حزب الحق. حتى يخرج على الصوت من يجيبه، ويقتل الرجلان، مثلاً فيهما: الباطل المفضوح، والحق الأبلج، ويشهد بينهما الصراع، بين الصنفين، حتى اعتنق الرجل الحق - العراقي - ذلك المبطل - الشامي - فيقعا تحت قوانين فرسيهما، ويجلس هذا على صدر الشامي، ويكشف المغفر عن وجهه، ليجهز على رمق الحياة فيه، وإذا به يكشف عن وجه أخيه، لأبيه وأمه... ولكنه يسمع أصواتاً، تتعالى من حزبه، وتدعوه:

«أجهز على الرجل!».

ولكنه يتأني ويحجب: «إنه أخي».

فيسمع جواب قوله: «فاتركه!».

وقد كان له في ذلك مخرج ومنجاة، ولكنه لا ينعى بذلك حتى يتلقى مأبراً مقامه وساحته، فما هو بالذي يقدم عاطفة الدم على واجب الذين وخدمة المبدأ، فيجيب بعناد وإصرار:

[لَا! حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ].

فيخير عليّ «عليه السلام» بذلك، فيضع الحد الفاصل:

«دَعَا!»^(١)

ولو لم يلق الأمر من قائد البار، لما دعاه يفلت من سيفه، ولأورده حياض الموت... وليس هؤلاء بأشدّ محزنة في جنب الله، وتفانياً في سبيل المبدأ، ممن قام الإسلام، على ساعديه: قوياً ناشطاً، وممن أطاح بسيفه المهف، رؤوساً مشرقة شامخة، وهذا حصوناً من الشرك، على منعة، ودعائم على قوة ومتانة... وما هو بالذي يخرج عن الحق، أو يفرق عنه طرفة عين، كي ينفلت منه للسان، بغير حق المقال، ويذكر أباه بغير الواقع الصادق!.

(١) - وقعة صفين ٣٠٨ .

فلو لم يكن عليّ بإيمان أبيه ذلك العليم، لما نفى عنه سوء القالة، رذكره بعاطر
 الفناء... ولكان إلى جانب الثالين، لايهدُّ مِنْ تهمهم واهي الأسس...!
 فإنه أولى بأن يقول الحقّ، ولو على أبيه، أو نفسه، وله مِنْ إيمانه، وملازمة الحقّ
 إيّاه، مالا تزلُّ به القَدَم...

وهو الأوّل - بعد الرسول (ص) - بأن يتمسّك بما جاء في القرآن العظيم،
 وينتهي عمّا ينهى عنه...

وقد مرّت بنا تلك الآيات الكريمة، التي تحمل الوعيد الزّاجر، والنّهي الرّاعد،
 لِمَنْ يتوالى مَنْ لم ينتهل قلبه، مِنْ نبع الإيمان الرّوي...
 وماعليّ، بالذي يخالف القرآن، في: نهْي، أو أمر - وهو الحقّ مجسّداً..

* *

ومناسِبٌ جدّاً أن نضع - أمام القارئ - هذه الفقرة، مِنْ قولهِ، ألّقاها الإمام،
 في أحد أيام صفين، أمام العدو، والصّديق:

[ولقد كنّا مع رسول الله (ص)، نقتلُ آباءنا، وأبناءنا،
 وإخواننا، وأعمامنا، وما يزيدنا ذلك إلا إيماناً وتسليماً،
 ومضياً على أمضٍ الألم، وجدّاً على جهادِ العدو،
 والاستقلالَ بمبارزة الأقران] - الخ^(١).

وإنّها لصورة رائعة، تكشف لنا عمّا كان عليه المسلمون، مِنْ شدّة، وقوّة،
 وصلابة في إحقاق الحقّ، وإزهاق الباطل، حتى لو كان ضحيّة ذلك الآباء والأبناء -
 كما وصفهم لنا القرآن الكريم، وكما أمر به دستورهِ الخالد...

على لسان أهل البيت:

إذا ماتت سيرة أهل البيت الأطهار، وجدنا كل واحدٍ منهم، يهدُّ حصون التَّهم، التي شيدت حول إيمان بيضة البلد، ويكشف السُّرَّ المسدل الذي أُريد منه أن يحجب السُّنى، من إيمان شيخ الأبطح، ويسعى ليردَّ للحقِّ رواءه، ويهدُّ من الباطل دعائمه الواهية البناء... ليَجَارَ بكلمة الحقِّ -وهي الصَّافية النُّيرة- في مجتمع، قد أصمَّ آذانه صراخُ الباطل...

وكلُّ ما ازدادت هذه الأصوات، والجلبة الكاذبة، وجدنا مثل هذه الكلمة الحقَّة، يمتدُّ منها النَّفس، وتطول المقاطع، وتزدَّد من الحناجر...

وكلُّ ما اشتدَّت زحمة الظُّلمة، وحلولكت من الوجود رقعته، كانت الإشعاعة أشدَّ لمعاناً، وأطول بقاءً، لتفري شيئاً من هذه الظُّلمة المتلبِّدة، ولتأخذ بيد مَنْ ضلَّ الطريق، من زحمة الظُّلام، عن غير قصدٍ، وراح يبحث عن الصُّوء، ليسير على سنائه، ويعود إلى المنهج الأقوم...

* ٩ *

سأل الإمام السَّجَّاد -علي بن الحسين «عليهما السَّلام» -واحدٌ من هؤلاء، الذين وصلت إلى سمعهم ضوضاء الباطل، من السُّحب، التي أثَّرت حول إيمان أبي طالب... فكان جواب الإمام:

نعم!

وأعاد السَّائل القول، ليقف على مصدر هذه التَّهم، ويعرف مدى الواقع منها...

-إنّ هنا قوماً، يزعمون أنّه كافر!.

فتنفلت من صدر الإمام أنّه جريح، وصرخة مهتضمّ مظلوم، مفترى عليه:
[واعجباً كلّ العجب!]

أبطعون على أبي طالب...؟

أو على رسول الله (ص)، وقد نهاه الله تعالى أن يقرّ

مؤمنة مع كافر، في غير آية من القرآن؟!

ولاً يشكّ أحد أنّ فاطمة بنت أسد «رضي الله عنها»

من المؤمنات السابقات.

فإنّها لم تنزل تحت أبي طالب، حتّى مات أبو طالب

«رضي الله عنه»^(١).

* *

إنّ قولة الإمام السّجّاد -هذه- تعني: أنّ القول بشرك أبي طالب، ليس غير

طعن على الرّسول (ص)، الذي تهاون في إنفاذ ما استنه الله في كتابه، فقد جاءت

فيه غير آية، تنهى: أن يُطلّ امرأة، قرّ في قلبها الإيمان: جناح رجل، لم يهتد بسنى

الدين...

ولم يكن -ثمة- من شكّ، في إيمان فاطمة بنت أسد -أمّ عليّ، وزوج أبي

طالب- التي لم تنل من إيمانها الدّعايات، ولم تحكّ حولها الدّسائس.

وليس -ثمة- أيضاً- من يقول: إنّ الرّسول قطعّ جبل الزّوجيّة بينهما، والذي

بته القرآن، لو لم يكن أبو طالب مؤمناً!...

واذ بقيت فاطمة -وهي المسلمّ بإيمانها- تحت جناح أبي طالب، فإنّ القائل

بشرك أبي طالب، بين:

(١) -الحجّة ٢٤، والنّهج الحديديّ ٣١٢: ٣، وشيخ الأبطح ٧٦، والغدير ٣٨١ و٣٩٠،

٣٩١: ٧، مستنداً للمصدرين الأولين، وللدرجات الرّفيعة، وضياء العالمين، الذي قال عنه قيل: إنّها

متواترة عندنا - والأعيان ١٣٦، ١٣٧: ٣٩٠، بصورة مختصرة.

طاعنٍ على أبي طالب، إذ افترى عليه ما هو منه بريء، وناله بالظلم، حين ينسبه إلى الشرك، وهو المؤمن...

وطاعنٍ على الرسول، إذ لو ثبت شرك أبي طالب - وذلك ما لا يجوز - فإنَّ طاعن يتوجَّه للرسول ذاته، إذ كان ذلك المهاون، في ما يتلقاه من وحي السماء، بعد أن نهاه الله: أن يقرَّ مؤمنةً مع كافرٍ، فلا ينفذ ذلك، ويقطع هذا الحبل المتدبِّين: فاطمة، وعمه... إذن... فالقول بشرك أبي طالب، يتطلَّب جرأةً فذةً، وصلابةً وقحةً، لأنَّه طعنةٌ توجَّأ إلى صميم الدين الإسلامي الحنيف... إلى صميم رسوله الأقدس... إذ لم يكن ذلك الصُّلب في جنب الله، والشَّديد في ذاته، والعامل بما يتنزَّل عليه، من وحي مقدَّس...

* ٢ *

وهذا ابن السَّجَّاد - الإمام الباقر «عليهما السَّلام» - يُسأل عن فرية، من تلك المفتريات الشَّائنة، وهي: ذلك الحديث المختلق المكذوب، الذي تلهج به السنة، من مراض القلوب، وهو: أن أبا طالب في ضحضاحٍ من نارٍ:

[لو وُضعَ إيمانُ أبي طالب، في كِفَّةٍ ميزانٍ، وإيمانُ هذا الخلق، في الكِفَّةِ الأخرى، لَرَجَحَ إيمانُهُ].

ثم يقول:

[ألم تعلموا: أنَّ أميرَ المؤمنين علياً «عليه السَّلام» كان يأمرُ: أن يُحجَّ عن: عبدِ الله، وآمنة، وأبي طالب، في حياتِهِ - [أي: علي] - ثمَّ أوصى، في وصيَّتِهِ، بالحقِّ عنهم^(١).

(١) - النهج ٣: ٣١١ - وتجدر الإشارة، إلى غلطةٍ مطبعيةٍ، في النهج، عند ذكر هذا الحديث، فقد جاء فيه: [وقد روي عن علي بن محمَّد]. والصحيح: [عمد بن علي]. ومعجم القبور ١: ١٨٩، والحجَّة ١٨، وشيخ الأبطح ٣٢ و٧٦، والغدير ٣٨١ و٣٩١: ٧ - مرجعاً لعدَّة مصادر والأعيان ١٣٦: ٣٩.

إنه يقول: إِنَّ لإيمان أبي طالب رجحاناً ذاتياً، إلى إيمان الخلق... فهو إيمان عارف، لامقلد... إيمان نصير مكافح..
 فإيمان، يصدر من زعيم قبيلة -هي لباب العرب- وبلدة يؤمُّها العرب أجمع...
 وتحوطها بالتقديس والإجلال قلوب، على وفرة عدد... فلا يلبث هذا الزعيم المتبوع أن يتخلّى عن زعامته، ويكون تابعاً ليتيم، نشأ في حضانتها، وتحت رعايته...
 إنَّ ذلك لإيمان رجيج، له قيمته الفضلى، وقمّته السّامقة، ولاسيّما أنّ هذا الإيمان، يحطُّ من رفيع قيمة هذا المؤمن، وسامق منزلته... يحطُّ ذلك منه، في أعين قومه...!

ثم راح يستدلُّ على ذلك، بعمل، كان يقوم به إمام المسلمين عليّ «عليه السّلام»:

فقد كان يأمر أن يُحجَّ عن أبي طالب، ولم يقتصر على ذلك في حياته... فأوصى به، بعد موته...

والحجُّ ركنٌ من أركان الدّين الإسلاميّ... فليس يجوز على عليّ: أن يأمر به عمَّن لم يضمّه الإسلام إليه...

* ٣ *

أمّا الإمام الصّادق -«عليه السّلام»- فإننا نقف على ثروة، فما قاله في حقِّ جدّه، ودخض التّهم الملتصقة به...

ذلك أنّ عصر الصّادق -«عليه السّلام»- وقد كان بعد انحطاط دولة غاشمة، سقت الأمة كأساً مميّرة... وقيام دولة، اتّخذت لها شارة العلويّة... وحدّدت لها هدف ردّ الحقِّ إلى اهله، لتجعلهما سلاحاً، وحجر الزّاوية في تأسيس دعامة الدّولة الحديّدة...

وكان مِنْ ثَمَارِ هَذَا أَنْ تَرَفَعَ السَّيْفُ -لَحْدُ مَا، وَلَوْ قَتِ مَحْدُودٌ- عَنِ الرَّقَابِ
الْعُلْوِيَّةِ... وَتَرَفَعَ الْكِمَامَاتُ عَنِ الْأَفْوَاهِ، لَوْ قَتِ مَعْلُومٌ... عَلَى أَنْ تَعُودَ لَذَلِكَ كُلُّهُ،
مَتَى اسْتَقَرَّ بِهَا الْحَالُ، فَتَسْتَوِي فِي مَافَاتٍ، وَالصَّاعُ صَاعِينَ...

ذَلِكَ أَنَّ هَذَا كَانَ سَبَبًا فَعَالًا، لِجُلْجُلِ صَوْتِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، بِكَلِمَةِ الْحَقِّ،
وَيُؤَثِّرُ عَنْهُ فَيُضُّ مِنْ سَنَى نَوْرِهِ، وَرَفَعَةِ تَعَالِيمِهِ... وَكَانَ -مِنْ بَيْنِ هَذَا- شَيْءٌ، لَهُ
قِيَمَتُهُ فِي حَقِّ نَصْرِ الرَّسُولِ...

فَمَرَّةٌ يَجِيبُ سَائِلًا، قَالَ لَهُ:

[إِنَّ النَّاسَ يَزْعُمُونَ: أَنَّ أَبَا طَالِبٍ، فِي ضَحَضَاحٍ مِنْ نَارٍ].

فَيَقُولُ الْإِمَامُ:

[كَذِبُوا! مَا بِهِذَا نَزَلَ جَبْرِئِلُ!]

ثُمَّ قَالَ:

[إِنَّ مِثْلَ أَبِي طَالِبٍ مِثْلُ أَصْحَابِ الْكَهْفِ: أَسْرُوا]

الْإِيمَانَ، وَأَظْهَرُوا الشَّرْكَ، فَآتَاهُمُ اللَّهُ أَجْرَهُمْ -مَرَّتَيْنِ-

وإِنَّ أَبَا طَالِبٍ أَسَرَ الْإِيمَانَ، وَأَظْهَرَ الشَّرْكَ، فَآتَاهُ اللَّهُ

أَجْرَهُ -مَرَّتَيْنِ...

وَمَا خَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا، حَتَّى أَتَتْهُ الْبَشَارَةُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِالْجَنَّةِ].

ثُمَّ قَالَ:

[كَيْفَ يَصِفُونَهُ بِهِذَا؟! وَقَدْ نَزَلَ جَبْرِئِلُ، لَيْلَةَ مَاتَ أَبُو]

طَالِبٍ، فَقَالَ:

يَا مُحَمَّدُ! أَخْرِجْ مِنْ مَكَّةَ، فَمَا لَكَ بِهَا مِنْ نَاصِرٍ، بَعْدَ أَبِي

طَالِبٍ^(١).

* *

(١) - الْحَجَّةُ ١١٥١٧، وَالنَّهْجُ ٣: ٣١٢، وَالْغَدِيرُ ٣٨١ و ٣٩١: ٧ - مُسْنَدًا - وَمُعْجَم

الْقُبُورِ ١٩١: ١، وَجَاءَ شَطْرُ مِنْهَا فِي الْأَعْيَانِ ١٣٦: ٣٩.

إنَّ الإمام يقول: إنَّ الله قد أتى أبا طالب، ضعفي المثوبة والأجر، إذ استطاع أن يكتم إيمانه، لمَّا رأى الكتمان هو الأصلح... فله أجر الإيمان، وأجر الكتم هذا...

فما كلُّ مؤمنٍ، بقادرٍ على أن يكتم ما يؤمنُ به، وإن كان ذلك في صالح الدَّعوة...

وإنه ليقول ذلك، بعد أن مثله بأهل الكهف، الذين حكى قصَّتَهُم القرآن الكريم.

فما مضاعفة الأجر بكثيرٍ، على مَنْ بلغ به الإيمان، هذه الدَّروة الرَّقِية... وما الكتم -إذا فرضته المصلحة- ببدعٍ على أبي طالب، أو بممتنع الوجود، بعد أن نجده في أهل الكهف!.

... وبعد أن يقول: إنَّ الله بشَّره بالجنة، قبل أن يبرح هذه الدَّار الفانية... وليس في هذا كبير أمرٍ، بعد أن ذكروا أنَّ النَّبي «ص»، بشَّر بالجنة أناساً بالذَّات...

ولعلَّ فيهم مَنْ لا يُقاسُ بأبي طالب: نصرة للإسلام، وذنباً عنه... بعد أن يقول ذلك... يُدعَّم قوله بإيمانه، بدليلٍ رسيخ، وحقَّةٍ لا تُدحض... فَمَنْ كان موته يهدُّ ركن الرُّسول، فلا يبقى له بمكَّة قرار... بل ينزل عليه الوحي صادعاً، يأمره بالخروج، بعد فقدان الناصر... مَنْ كان كهذا.... فهل مِنْ الجائز أن يكون كافراً، أو تمسَّ النار شعرةً مِنْ جسده...؟!.

إذن... فليتساوِ المؤمنُ والملحد، والمسلم والمشرِك!...

* *

ويدور مع الإمام الصَّادق، ويونس بن نباتة - حديثٌ، يسأل فيه الإمام:

- يا يونس! ما يقول النَّاسُ في أبي طالب؟

- هو في ضحضاحٍ من نارٍ، يغلي منها أمُّ رأسه! -
 - كَذَبَ أَعْدَاءُ اللَّهِ! إِنَّ أَبَا طَالِبٍ مِنْ رَفَقَاءِ النَّبِيِّينَ
 وَالصُّدُوقِينَ، وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَحَسُنَ أَوْلَاكَ
 رَفِيقًا^(١).

* *

ومرّة يقول له سائلٌ: إنَّهم يزعمون أنَّ أبا طالبٍ، كان كافراً.
 فقال:

كَذَّبُوا!! كيفَ وهو يقولُ:
 أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَا وَجَدْنَا مُحَمَّدًا
 نَبِيًّا - كَمَوْسَى - خُطَّ فِي أَوَّلِ الْكِتَابِ^(٢)

* *

ومرّة أخرى يقول:

كيفَ يكونُ أبو طالبٍ كافراً، وهو يقولُ:
 لَقَدْ عَلَّمُوا أَنَّا ابْنَنَا لَا مَكْذَبَ
 لَدَيْنَا، وَلَا يَعْبا بقولِ الأباطيلِ
 وَأَيُّضُ يُسْتَسْقَى الْعِمَامُ بِوَجْهِهِ
 ثِمَالُ الْيَتَامَى عَصَمَةٌ لِلْأَرَامِلِ^(٣)
 يقول الإمام: كيفَ يكونُ كافراً، مَنْ يَعْتَرِفُ لِلرَّسُولِ، بِالنُّبُوَّةِ وَالصِّدْقِ، وَأَنَّهُ
 نَبْعَةُ السَّمَاءِ وَالْمُعْتَصِمُ لِلْأَرَامِلِ، الْمُبَارَكُ الْوَجْهَ، الْمِيْمُونُ الطَّلُوعَةُ... ١٩

* *

وَيُحَدِّثُ الْإِمَامُ الصَّادِقُ:

(١) - الْحَجَّةُ ١٧، وَشَيْخُ الْأَبْطَحِ ٣٢ وَ ٧٥، وَالْغَدِيرُ ٣٩٤: ٧ - مُسْتَدْرَأٌ لَكُنْزِ الْفَوَائِدِ،
 وَضِيَاءُ الْعَالَمِينَ.
 (٢) وَ (٣) - الْغَدِيرُ ٣٩٢: ٧ لِمَصَادِرِ عِدَّةٍ.

[كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ «عَلِيهِ السَّلَامُ» يُعْجِبُهُ أَنْ يُرَوَى شَعْرُ
أَبِي طَالِبٍ «عَلِيهِ السَّلَامُ»، وَأَنْ يُدَوَّنَ. وَقَالَ:
تَعْلَمُونَهُ وَعَلَمُونَهُ أَوْلَادَكُمْ، فَإِنَّهُ كَانَ عَلَى دِينِ اللَّهِ، وَفِيهِ
عِلْمٌ كَثِيرٌ^(١).

وهذا الحديث - بالإضافة إلى الشَّهادة السَّافرة، مِنْ عَلِيِّ يَأْمَنُ أَبِيهِ - يكشف
لنا، عن قيمة أبي طَالِبٍ، ومنزلته السَّامية... فَإِنَّ الإِمَامَ عَلِيًّا، لَيْثَرُ إعْجَابِهِ أَنْ
يُرَوَى شَعْرُ أَبِي طَالِبٍ...!
ولذلك... فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بتَعْلُمِهِ وتَعْلِيمِهِ، فَهُوَ يَحْفَلُ بِالْعِلْمِ الْكَثِيرِ، وَهُوَ عَلَى دِينِ
اللَّهِ، وَلَهُ إِحَاطَةٌ وَمَعْرِفَةٌ بِأَدْيَانِ اللَّهِ...

* ٤ *

وهذا دُرُوسَتُ بَنِ أَبِي مَنْصُورٍ، يَسْأَلُ الإِمَامَ الْكَاسِمَ مُوسَى «عَلِيهِ السَّلَامُ»، عَنْ
أَبِي طَالِبٍ،
وهذا السَّائِلُ لَا يَسْأَلُهُ عَنْ إِيمَانِهِ - وَهُوَ بِهِ ذَلِكَ الْعَلِيمُ، وَلَدِيهِ ذَلِكَ الثَّابِتُ -
وَأِنَّمَا يَسْأَلُهُ عَنْ شَيْءٍ، فَوْقَ الْإِيمَانِ:
- أَكَانَ رَسُولَ اللَّهِ «ص» مُحْجُوجًا بِأَبِي طَالِبٍ؟
- لَا! وَلَكِنَّهُ كَانَ مُسْتَوْدَعًا لِلْوَصَايَا، فَذَفَعَهَا إِلَيْهِ.
- فَذَفَعَ إِلَيْهِ الْوَصَايَا، عَلَى أَنَّهُ مُحْجُوجٌ بِهِ؟
- لَوْ كَانَ مُحْجُوجًا بِهِ، مَا ذَفَعَ إِلَيْهِ الْوَصِيَّةَ!
- فَمَا كَانَ حَالُ أَبِي طَالِبٍ...؟
- أَقَرَّ بِالنَّبِيِّ، وَبِمَا جَاءَ بِهِ، وَذَفَعَ إِلَيْهِ الْوَصَايَا^(٢).

* *

(١) - الْحَقَّةُ ٢٥ - مُسْنَدُ عَنْ أَبِي الْفَرَجِ الْأَصْفَهَانِيِّ - وَالْغَدِيرُ ٣٩٥: ٧، مُسْنَدُ لَعْدَةُ مَصَادِر.

(٢) - الْعَبَّاسُ ١٨، وَالْغَدِيرُ ٣٩٥: ٧ - مُسْنَدُ.

وهذا الحديث، هو إحدى الدِّعَامَات، التي تسند ماقلناه، حين تحدَّثنا عن «شخصيَّة» أبي طالب - مِنْ هذا الكتاب...

فإنَّ مثله ضروريُّ الوجود، ليصل الأشعاع، المنبثقة مِنَ الدَّعوة الحنيفيَّة - التي نادى بها إبراهيم الخليل - بهذا القبس المشعِّ، الذي رفعته المحمَّديَّة البيضاء!. وسير الحديث، يدلُّنا على أنَّ السَّائل، كان مطمئنًا لإيمان أبي طالب، ومعتقدًا بأنَّه مستودعٌ للوصايا، يُسَلِّمها لخاتم النَّبيين.

وليس يُستودع هذا الإرث الإلهيُّ، مَنْ أغلق قلبه ظلام الشُّرك!.. وليس السَّؤال، إلَّا عن شيءٍ، هو فرق الإيمان... وإلا فلَهجة السَّؤال، تدلُّ على الإيمان والوصايا...

وإنَّما ظنَّ السَّائل - مِنْ عَظِيم معرفته بمنزلة أبي طالب - أنَّ الرُّسول كان، قبل البعثة، محجوجاً بهذا الوصي... فدفع هذا الوهم مِنَ السائل: جوابُ الإمام الصَّريح...

وأكد الإمام ذلك، في جوابه على السَّؤال الثَّاني، مِنَ السَّائل، الذي شاء الإحاطة والتَّقصِّي...

وبعد أنَّ انقلعت مِنْ نفسه، سحب الوهم، خصَّ بالسَّؤال حال أبي طالب، بعدما دفع لابن أخيه: ما استودع مِنَ الميراث النَّبوي... فأجابه الإمام: بأنَّه أقرَّ بالنُّبوة، وآمن بالله... ومادفعه الوصايا، سوى الإقرار العملي...!



وكتب أبان بن محمود، إلى الإمام عليِّ الرُّضا «عليه السَّلام»، وقد كادت قوله الزُّور، تُزعزع منه الإيمان:

«جعلتُ فداك!. إنِّي قد شككتُ في إسلام أبي طالب».

فما كان مِنَ الإمام إلَّا أن كَتَبَ إليه:

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ
الْهُدَىٰ، وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ، نُوَلِّهِ مَا
تَوَلَّىٰ، وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ، وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾^(١).

- وبعدها:

إِنَّكَ إِنْ لَمْ تُقَرَّ - بِإِيمَانِ أَبِي طَالِبٍ، كَانَ مَصِيرُكَ إِلَى النَّارِ^(٢).

إِنَّ جواب الإمام الرضا، يدلُّ على أَنَّ الشَّكَّ في إيمان أبي طالب، شيءٌ يتنافى
والإيمان بالرَّسول...

فإنَّ إيمان أبي طالب، مِنْ الوضوح والثبوت، بحيث لا يتسرَّب إليه شكٌ...
وَمَنْ كان منه على شكٍّ، فإنه مِنْ الإيمان على زعزعةٍ، لأنَّه مشاقَّةٌ للرَّسول،
وتعامٍ عن الهدى، بعد معرفةٍ منه به...

وَمَنْ يتعامى عن الهدى، ويتبع غير سبيل المؤمنين، فإنه قد خَرَجَ مِنْ دائرة
الإيمان، وزَلَّتْ به القدم، عن منهج الحقِّ الألب، وصراطه الأقوم... وبذلك يكون
مصيره إلى النَّار، بعدما سلك الطَّرِيق، التي تذهب بسالكها، إلى حِمِّ الحميم...!

على أَنَّ هذا إيذاءٌ للرَّسول الأعظم (ص)...!

وإيذاء الرَّسول - هو الآخر - ذنبٌ، يستوجب النَّار، لقوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، لَعَنَهُمُ فِي
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾^(٣)
﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٤).

(١) - النساء: ١١٥ .

(٢) - التَّهَجُّج ٣: ٣١١، والحجَّة ١٦، والغدير ٣٨١ و٣٩٦: ٧ - مسنداً لمصادر عدَّة -
ومعجم القبور ١٨٩: ١، والأعيان ١٣٦: ٣٩ - بدون ما بعد الآية.

(٣) - الأحزاب ٥٧.

(٤) - التوبة ٦١ .

وفي حديثٍ، رُوي عنه:

«مَنْ آذَى شَعْرَةَ مَنْي، فَقَدْ آذَانِي... وَمَنْ آذَانِي، فَقَدْ آذَى اللَّهَ»^(١).

* ٦ *

وهذا الإمام العسكري -الحسن بن علي- «عليهما السلام» يقول، في حديثٍ طويل، يُسندُه لآبائه الأطهار:

[إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، أَوْحَى إِلَى رَسُولِهِ (ص):
إِنِّي قَدْ آيَّدْتُكَ بِشِيعَتَيْنِ: شِيعَةٍ تَنْصُرُكَ سِرًّا، وَشِيعَةٍ
تَنْصُرُكَ عَلَانِيَةً.
فَأَمَّا الَّتِي تَنْصُرُكَ سِرًّا، فَسَيِّدُهُمْ وَأَفْضَلُهُمْ: عَمُّكَ أَبُو
طَالِبٍ.
وَأَمَّا الَّتِي تَنْصُرُكَ عَلَانِيَةً، فَسَيِّدُهُمْ وَأَفْضَلُهُمْ ابْنُ عَلِيٍّ بْنِ
أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ].

ثم قال:

[وإِنَّ أَبَا طَالِبٍ كَمُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ، يَكْتُمُ إِيمَانَهُ]^(٢).

يقول: إِنَّ اللَّهَ نَصَرَ الرَّسُولَ بِشِيعَتَيْنِ...
وإِنَّ إِحْدَاهُمَا: لَاتَقُومُ بِالْمَهْمَةِ إِلَّا فِي الْخِفَاءِ، مَا دَامَ الْجَهْرُ يَتَعَلَّرُ عَلَيْهَا، وَلَا تَسْتَطِيعُ الْقِيَامَ
بِهَا، إِلَّا فِي السِّرِّ، لِأُمُورٍ تَحْتَمِ ذَلِكَ... كُنُصْرَةِ الْمَلَايِكَةِ، فِي مَاقَصِّهِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ:
﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾^(٣).

(١) - الصَّوَاعِقُ ١١١ .

(٢) - الْحِجَّةُ ١١٥ وَالْغَدِيرُ ٣٦٨: ٧ مَسْنَدًا.

(٣) - التَّوْبَةُ ٢٦ .

﴿وَأَيُّدُهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾^(١).

﴿أَنْ يُمَدِّدَكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُتَرَلِّينَ﴾^(٢).

﴿يُمَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾^(٣).

﴿إِنِّي مُمَدِّدُكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْفِقِينَ﴾^(٤).

إلى آخر ما هنالك مِنْ آيَاتٍ تَعْلُقُ بِهَذَا الْمَوْضُوعِ.

... وكنصرة أبي طالبِ الفعالة، وكانت في حكم السرِّ، مادام يكتُمُ إيمانه. فإنَّ النُّصرة لم تكن لتتأتى له، لولا هذا الكتمان...

وإنَّ مثله، كمثُل مؤمِنِ آلِ فرعون، الذي نقرأ قصَّته في مانتلوه مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ^(٥).... فإنه لولا كتمانُه الْإِيمَانَ، لكان قد نَفَذَتْ الْفِرَاعنة ما عَزَمَتْه مِنْ قَتْلِ الْكَلِيمِ موسى... ولكنَّه وَقَفَ مَوْقِفُهُ الْفَعَالُ ذاك، وقومه لَا يَعْرِفُونَ مِنْهُ: مُؤْمِنًا... وإنَّما يَظُنُّونَهُ مِثْلَهُمْ... ولم يَلْقِ إِلَهُهُمْ بِهَذِهِ النِّصَانِحِ، إِلَّا لِأَنَّهُ مُتَّفِقٌ مَعَهُمْ عَلَى الْمَبْدِإِ. وكذلك كان مَوْقِفُ أَبِي طَالِبٍ، مِنْ دَعْوَةِ الرَّسُولِ (ص).

وإلى هذا يُشِيرُ الْإِمَامُ، فِي مَاقِصِّهِ مِنْ حَدِيثٍ، أَسْنَدُهُ -عَنْ آبَائِهِ الْأَطْهَارِ- إِلَى جَدِّهِ الرَّسُولِ (ص).

* *

وَلَيْسَ مَنْ يَسْتَطِيعُ: أَنْ يَظُنَّ بِأَقْوَالِ الْعِزَّةِ النَّبَوِيَّةِ، شَيْئًا غَيْرَ الْحَقِّ، فَيَحْمِلُهُ عَلَى هَيْئَةِ النَّسَبِ، وَرَابِطَةِ الرَّحِمِ، بَعْدَمَا جَاءَ الْقُرْآنُ بِطَهَارَتِهِمْ:

(١) - التَّوْبَةُ ٤٠ .

(٢) و (٣) - آلِ عِمْرَانَ ١٢٤ و ١٢٥ .

(٤) - الْأَنْفَالُ ٩ .

(٥) - افْتَتَحْنَا الْكِتَابَ، بِهَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ، لِشَبِيهَاتِهَا بِالْمَوْضُوعِ.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ
الْبَيْتِ - وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾^(١).

وهي آية تفصح لنا عن عصمة العروة الطاهرة، رغم المواقف المخزية، والتحدق
البغيض، في تفسيرها، مِنْ بعض المنحرفين، عن أهل البيت، «عليهم السَّلام».

وأهل البيت: عدل القرآن - المعجزة الخالدة - وحبلٌ ممدودٌ، بين: الأرض
والسَّماء... مَنْ أخذ به، فإنه مرتفعٌ إلى القمَّةِ مِنَ الخلود... وَمَنْ لم يكن له منه
نصيبٌ، فهو في السَّفْح، لن يرتفع مِنَ الوهدة، وقد أحاط به الهلاك والدَّمار:

[إِنِّي مَخْلَفٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ... مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا لَنْ تَضَلُّوا:
كِتَابُ اللَّهِ، وَعِزَّتِي أَهْلَ الْبَيْتِ، لَنْ يَفْترَقَا حَتَّى يردا عَلَيَّ
الْحَوْضَ].

وهذا الحديث -الجمَع عليه بين المسلمين- شاهدٌ آخر على عصمتهم.
فَمَنْ نال منهم بنقدٍ أو ذمٍّ، فإنه قَدْ نَالَ القرآن -وهم عدله- وَمَنْ تَخَلَّفَ
عنهما، فَمِنْ الهلاك، وإليه...

هذا إلى أحاديث وأحاديث... وآياتٍ وآياتٍ... ليس مِنْ موضوعنا عرضها،
بله تقصِّيها، وكلُّها شاهد صدقٍ على طهارة أهل البيت.

فليس يجوز أن يُجانب الحقُّ: مَنْ نِيطت بالتمسُّك به، نَجاة العباد... وليس
يقول غير الحقِّ: مَنْ كان عدلاً للقرآن - وهو: الدَّستور الإلهي، والمعجزة الباقية.
وهم أوَّلَى النَّاسِ بأنْ لا يُخالِفُوا القرآن، في ماسنَّه مِنْ دستورٍ، وفي ما جاء به،
مِنْ: نهْيٍ، وأمرٍ...

وقد وقفنا عند تلك الآيات، النَّاهية الرَّاجرة، عَنِ اتِّخَاذِ أعداءِ الله أولياء،
وهو الذي يُنافي الإيمان - فكيف بهم «عليهم السَّلام»، يندحون لسببٍ، أو

(١) - الأحزاب ٣٣ .

نسب... ويقولون في شخص -ولو كان أباهم- غير الحق، وينسبون إليه، ما لم يصح منه، أو يُرْتَوَى لهما هو به ألصق...؟!

وإن النّـل فيهم، «عليهم السّلام»، مثل هذا القول: متسوّر على مقامهم، الذي هو مقام رسول الله (ص)... ونائل من قدس الرّسالة المحمّديّة، وقداسة رسوّلها الكريم...!

على لسان الصحابة وآخرين:

إننا لنجد، بين الصحابة - مِمَّنْ لم تَعْمِ عينه الشهوات، ولم تنحرف به الأغراض،
عن سويِّ الطريق - مَنْ يشهد لأبي طالب بالإيمان، ويذكره خير الذكر...
ولسنا نريد أن نتقصَّى جميع مقالاته الصحابة، فنطيل البحث والعرض...
ولكننا نُشير إلى قولاتٍ لبعضهم، كدليلٍ على وجود ذلك بينهم، ليس إلّا...

* ٢ و ١ *

فهذا الخليفة أبو بكر، يقول:
[إنَّ أبا طالبٍ، ماماتٌ، حتَّى قال: لا إله إلاَّ الله، محمَّدٌ رسول الله^(١).
وكذلك قال العباس، بمثل مقال أبو بكر^(٢).

* ٣ *

وهذا عبداً لله بن العباس، يسأله رجلٌ:
يا ابنَ عمِّ رسول الله! أخبرني عن أبي طالبٍ، هل كان مسلماً؟
فُجِيبه:
وكيف لم يكن مسلماً، وهو القاتل:

(١) - النّهج ٣: ٣١٢، وشيخ الأبطح ٧١، والغدير ٣٧٠ و ٤٠١: ٧، والأعيان ١٣٦: ٣٩.

(٢) - شيخ الأبطح ٧١ و ٧٣، والغدير ٣٩٩: ٧ مروياً عن ابن عباسٍ، عن أبيه - وص ٤٠١:

٧، والأعيان ١٣٦: ٣٩.

وقد علموا أنَّ ابْنَنا لَأَ مَكْذَبٌ

لدينا، ولأَ يعبأُ بقولِ الأباطيل...!

إنَّ أبا طالبٍ، كان مثله كمثل أصحاب الكهف، حين أُسروا الإيمان، وأظهروا الشُّركَ، فأتاهمُ الله أجراًهم مرتين^(١).

* ٤ *

وهذا أبو ذرٍّ -وهو الصَّحابيُّ الجليل، الذي لم يغم عينيه بريق الذهب، ولم يُرهبه بطش معاوية! - يقول:

[والله الذي لا إله إلا هو! مامات أبو طالب -رضي الله عنه- حتى أسلم]- الح^(٢).

* ٥ *

وفي أبياتِ حسان بن ثابت:

فإِذا نَدَبْتُمُ هالِكاً

فابْكُوا الوفيَّ أَخا الوفيِّ

قال سبط بن الجوزي: «يعني: حمزة، وأبا طالب»^(٣).

* ٦ *

ماكانت هذه الشَّهادات، لِتختصَّ بعصرٍ دون عصرٍ، أو طبقةٍ دون غيرها...
فإنَّ كُلَّ مَنْ لم تفرض عليه الأغراض، أن يقول ماتشأء - ولو حول هذا الموضوع، بخاصَّة - نجد لديه بصيصاً من نورٍ، ينبعث في زحمة الظلام، لِينير الطَّرِيق السَّوي...

(١) - الحجَّة ٩٤ و ١١٥، والغدير ٣٩٧: ٧.

(٢) - الغدير ٣٩٩: ٧.

(٣) - تذكرة الخواص ٣١.

وهذه كلمة حق، تنبعث من حنجرة الملك العباسي عبداً لله المأمون - وهو هو... ولكنها كلمة حق، لأبد وأن تنفلت من صدره، حتى ولو شاء أن يطول لها الحيس... فقد كان يقول:

أسلم أبو طالب - والله! - بقوله:

نصرت الرسول رسول المليك

بيض تلالاً، كلمع البروق

أدب وأحمي رسول الإله

حامية حام، عليه شفيق

وما إن أدب لأعدائهم

ديب البكار، حذار الفتيق^(١)

ولكن أزيروهم سامياً

كما زار ليث يغيل مضيق^(٢)

* ٧ *

وهذا أبو جعفر الإسكافي، يذكر أبا طالب -عَرَضاً- وهو في سبيل «نقض العثمانية» الرسالة التي يردُّ فيها، على رسالة الجاحظ: «العثمانية» - فلا يسعه، حينئذٍ، إلا أن يُتحفه بالثناء ثم يستحق... فإنه ليَقول:

[وكان أبو طالب أباه - يعني: الرسول - في الحقيقة، وكافله، وناصره وحاامي

عنه، ومن لولاه لم تقم له قائمة. ومع ذلك لم يُسلم - في أغلب الروايات^(٣)

ونحن نستغرب، بل لانتظن أن أبا جعفر قد قال هذا الذليل، الذي ينقض مقدمة كلامه،

مضافاً إلى أن أبا جعفر، من القائلين بإسلام أبي طالب - كما سنشير إليه في الفصل الأخير.

(١) - البكار، جمع بكر: الفتيق من الإبل. الفتيق: الفحل المكرم، لا يؤذى ولا يُركب، لكرامته.

(٢) - النهج الحديدي ٣١٤: ٣، والغدير ٣٣٧: ٧، والحجة ٥٤، وديوان أبي طالب ١٠.

(٣) - رسائل الجاحظ ٣٢.

وَمَا يُضَاعَفُ الشَّكُّ عِنْدَنَا هُوَ: أَنَّ مَصْدَرَنَا فِي هَذَا، هُوَ خِلَاصَةُ رِسَالَتِهِ، لَارِسَالَتِهِ بِالذَّاتِ، وَجَامِعُهَا هُوَ: حَسَنُ السَّنَدِوِيِّ، الَّذِي وَقَفْنَا مَعَهُ فِي مَقْدَمَةِ الْكِتَابِ: «عَلَى الْعَتَبَةِ».

ثُمَّ لَوْ ثَبِتَ هَذَا الذَّلِيلُ لَهُ، فَهُوَ لَمْ يُوضَحْ رَأْيُهُ الذَّاتِيَّ، فِي الْمَوْضُوعِ... وَإِنَّمَا أَشَارَ إِلَى أَنَّ مِنَ الرُّوَايَاتِ، مَا تَعَمَّلَ إِلَى عَدَمِ إِسْلَامِهِ...

وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ، حَيْثُ عَرَضَ لِمَنْ أَسْلَمَ بِحَسَنِ دَعَاءِ أَبِي طَالِبٍ، وَإِقْبَالِهِ عَلَى الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ(ص)، يَقُولُ حَوْلَ ذَلِكَ:

(وَلَأَجَلُهُ - يَعْنِي: أَبَا طَالِبٍ - صَبَرَ بَنُو هَاشِمٍ عَلَى نَصْرَةِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - وَسَلَّم - بِمَكَّةَ - مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ، وَبَنِي سَهْمٍ، وَبَنِي جَحْجَحٍ.

وَلَأَجَلُهُ صَبَرَ بَنُو هَاشِمٍ عَلَى الْحَصَارِ فِي الشُّعْبِ... وَبِدَعَائِهِ وَإِقْبَالِهِ عَلَى مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - وَسَلَّم - أَسْلَمَتِ امْرَأَتُهُ فَاطِمَةُ بِنْتُ أَسَدٍ، فَهُوَ أَحْسَنُ رَفَقًا، وَأَيْمَنُ نَقِيَّةً مِنْ أَبِي بَكْرٍ، وَغَيْرِهِ.

وَمَامَنَعَهُ عَنِ الْإِسْلَامِ - إِنْ ثَبِتَ أَنَّهُ لَمْ يُسْلَمْ - إِلَّا تَقِيَّةً^(١).

وَهَذَا الذَّلِيلُ - أَوْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ الْإِعْرَاضِيَّةُ الدَّخِيلَةُ، إِنْ ثَبِتَتْ مِنْهُ، كَمَا قُلْنَا، لَيْسَتْ تَعْنِي قَوْلَهُ بَعْدَ إِسْلَامِهِ، بَعْدَ أَنْ نَقَفَ عَلَى قَوْلِهِ بِإِسْلَامِهِ، كَمَا يُصَرِّحُ بِذَلِكَ تَلْمِيزُهُ ابْنَ أَبِي الْحَدِيدِ.

وَقَدْ تَكُونُ هَذِهِ الْقَوْلَةُ - إِنْ كَانَتْ لَهُ - قَبْلَ جُزْمِهِ بِإِسْلَامِهِ، حَيْثُ يَجُوزُ أَنَّهُ كَانَ فِي شَكٍّ مِنْهُ، ثُمَّ بَانَ لَهُ الْحَقِيقَةُ، بَعْدَ وَحْصِهَا، وَالْبَحْثِ عَنْهَا، فَتَنَطَّقَ - بَعْدَئِذٍ - بِمَا بَانَ لَهُ.

عَلَى أَنَّ كَلِمَتَهُ هَذِهِ، إِنْ نَفَتْ شَيْئًا، فَإِنَّمَا تَنْفِي إِعْلَانَهُ بِإِسْلَامِهِ، حَيْثُ تَقْضِي التَّقِيَّةَ بِالْكَتْمَانِ.

* ٨ *

وإنَّ الجاحظ -على موقفه المخزي والجاهل، في رسالته: «العثمانيَّة» - لم يستطع، وقد ذَكَرَ أبا طالب، ليحطَّ مِنْ قيمة سَبَقِ عليٍّ للإسلام، إلَّا أن يقول: [وأولست تعلم أنَّ قريشاً خاصَّةً، وأهل مكَّة عامَّةً، لم يقدروا على أذى النَّبيِّ - صلَّى الله عليه «وآله» وسلَّم - ما كان أبو طالب حيًّا؟!]^(١).

* ٩ *

وفي تذكرة الخواص، بعد عرضٍ بالحديث لأبي طالب، في ثنايا الكلام عن الإمام عليٍّ «عليه السَّلام»، وبعد ذكر شيءٍ مِنْ: فعل أبي طالب الحميد، وقوله السَّافر عن المعتقد، وذكر الرُّسول (ص) له، وترحمه عليه... إنَّ فيها مثل هذه القولة:

[أقول: كون أبي طالبٍ مِنْ أهل الجنَّة مالا ينبغي التَّأمُّل فيه. وإنَّ شواهد أكثر مِنْ أن تُذكر:

«اهتمامه» بكفالة النَّبيِّ المختار، ونصرته له.

«واهتمامه» بدفع أذى الأشرار والكفَّار عنه، وجزع النَّبيِّ (ص) عليه عند موته، وتسمية عامه بعام الحزن، لموته وموت خديجة، وترحمه «واستغفاره له»، خصوصاً في طول أيام.

ولأُرتاب في استجابة دعائه، لاسيَّما مع الإصرار]^(٢).

ثم نجد - في حديثٍ طويلٍ - الاستدلال على ذلك، بذكر الأئمة الأطهار له، وأقواله هو في الرُّسول، وفي دينه...

(١) - المصدر ص ٥ .

(٢) - تذكرة الخواص ص ١٠، ١١ .

وَمِنَ الْخَيْرِ: أَنْ نَأْتِيَ بِهِذَا الْمَقْطَعِ مِنْهُ:

[وَأَيْضاً لَمْ يُرَوَّحْ أَحَدٌ مِنْ أَعْدَائِهِ: اسْتِثَاءً وَلَدَهُ بِأَنَّ أَبَاكَ مِنَ الْكُفَّارِ.

هذا معاوية، أعدى «أعدائه» ومنازعيه، وهذا عمرو بن العاص، وهذا عبداً لله بن الزبير، وهذا مروان، وغيرهم، مع قدحهم فيه، عليه السَّلام، وإسنادهم ورميهم إليه ما هو بريء منه -وماعابوه، وماشنعوا عليه بذلك^(١)... وهو، عليه السَّلام، يذكرهم بكفر الآباء والأُمّهات، ورذالة النِّسب، وماقابلوه بالمثل...!

بل هذا أقوى شاهدٍ على إسلامه، وعلى شدة تعصُّب مَنْ أسند الكفر إليه مِنَ الْعَامَّةِ. فانظر -أيها المنصف!- إلى سوء سريرة أشباه الخفافيش، في عداوتهم لشمس الإسلام ونوره...[^(٢)].

وإنَّه لبرهانٌ نصيغٌ، وحبَّةٌ دامغةٌ: هذا القول المنطقيُّ، المستمدُّ مِنَ الْوَاقِعِ...! فلو كان هؤلاء -وهم مِنْ أَعْدَاءِ الْإِمَامِ- لا يعرفون مِنْ أَبِي طَالِبٍ: ذَلِكَ الْمُؤْمِنَ -بل لو يشكُّون فيه، فحسب- لَمَا تَرَكُوا تَنْقُصَ الْإِمَامِ مِنْ هَذَا الْجَانِبِ، وهم الذين يرمونه بما هو منه بريء، ويلصقون به ما هو منه بعيدٌ... وليس مِنْ: إِيْمَانٍ، أَوْ إِنْسَانِيَّةٍ، أَوْ ضَمِيرٍ، يَحْدُّ مِنْ غِلْوَاءِ بَغْضِ هَؤُلَاءِ، وَلَكِنْ السَّبِيلَ عَلَيْهِمْ مَقْطُوعٌ...

* ١٠ *

ولأبدٌ لنا في هذا الفصل -مِنْ أَنْ نَأْتِيَ عَلَى هَذِهِ الْقَوْلَةِ الصَّرِيحَةِ الْمَجْلُجَلَةِ، نَنْطَلِقَ مِنْ فَمِ مَسِيحِي، عَرَفَ الْحَقَّ، فَنَصَرَهُ... وَرَأَى النُّورَ، فَدَلَّ عَلَيْهِ... ونحن نأتي بها هنا، ولانرى أن نُعَلِّقَ عَلَيْهَا بِحَرْفٍ وَاحِدٍ، فَتَكْفِي الْحَقَائِقُ الَّتِي ضَمَّتْهَا هَذِهِ السُّطُورُ، عَنْ: تَعْلِيْقٍ، أَوْ تَوْضِيْحٍ...!

(١) - يعني: لم يعيبوا ولم يُشْنَعُوا عَلَى عَلِيٍّ: أَنَّ أَبَاهُ كَافَرٌ.

(٢) - تَذَكُّرَةُ الْخَوَاصِّ ص ١١ .

يقول الكاتب المؤرخ عبدالمسيح الأنطاكي:

[وقد اختلف المؤرخون في إسلام أبي طالب، أو بقاءه على الشرك. ولكل فريق أدلة، يرتكزون إليها، وأحاديثُ نبويةٌ يستشهدون بها. وليس لثلي أن يبت في مثل هذا الأمر الخطير.

وإنما الاستدلال من واقع الحال، يرجح قول الذين يقولون بإيمانه، لأن الإنسان مهما تعالى في صلة رحمه، وفي حبه لابنه، أو ابن أخيه، أو نسيبه، لا يسهه أن يغض الطرف عن ذاك المنتسب إليه، المحبوب منه، إذا رآه يتعدى على دينه، ويحاول أن يدك أركانه، ويقيم في موضعه ديناً آخر، إن لم يكن هو -أيضاً- معه في الاعتقاد، لما تعلم من تمسك الناس بأديانهم، ومبالغتهم بتقديسها، وتفضيلهم لها على كل اعتبار آخر، حتى أن المؤمن ليقتل ابنه، أو أباه، إذا رآه يحقر دينه، ويستهين بمعبوده^(١).

وإذا صدق هذا على عامة الناس، فبالأولى: أن يصدق على خاصتهم، مثل أبي طالب، الذي كانت له المكانة العليا في قريش، فهو ملزم من جهة نفسه، وجهة مركزه، أن يدافع عن الدين الذي يدين به، هو وقومه، كي لا تسقط مكانته من عيونهم، وكي لا تعرض نفسه لغضب معبوداته، فيخسر آخرته.

وعلى هذا فأبو طالب، لأبد وأن يكون قد آمن برسالة ابن أخيه -عليه «وآله» الصلاة والسلام- في قلبه، ولكنه لم يجهر بها، لاعتبارات تقتضيها الحكمة، وتدعو إليها السياسة.

فإنه لو جهر بإيمانه، في بدء البعثة، وفجر الدعوة، لانتقلت عليه قريش بجملتها، وأسقطته من حلق مجده، وعشت بحرمة...

وحينئذ يعجز عن رد الأذى عن ابن أخيه، وهو لا يزال ضعيفاً... وهذا الذي جعله يكتنم ما في نفسه من الإيمان...

(١) - دللنا على ذلك - من صفحات التأريخ - في إحدى حلقات هذا الفصل.

وظاهر أعماله وقصائده وخطبه، تُظهره بأجلى بيان، إذ رأيناه يُدافع عن المصطفى بنفوذه وجاهه، ويمدحه بقصائده وخطبه، حتى آخر لحظةٍ من حياته، على ما رأيتَ من وصيته.

وعلى هذا فيكون أبو طالبٍ من خير الصحابة والأنصار، بغير جدال. وحجداً لو وفق الله الإسلام - في عصر الناس هذا - إلى مَنْ يحمون ذماره، ويُعلون كلمته، كما فعل أبو طالب، في فجر البعثة، إذن لظلَّ الإسلام في خير. هذا هو أبو طالب كفيل المصطفى وعمه، وحبيبه، ونصيره، ووالد سيدنا أمير المؤمنين، يعسوب الدِّين، أسد الله الغالب، عليّ بن أبي طالب...! بل هذا هو الرجل العظيم، الذي ربّى هذين النُّيرين، فأضاء في سماء الدُّنيا والدِّين^(١). ولانرى حاجةً لتعليقٍ، على هذه القولة الواضحة، الناصعة الحجة، والدائمة البرهان...!

وإنَّ من صفحات التَّاريخ - كما عرضنا نماذج منها، في الحلقة الثانية، من هذا الفصل - ما يؤيد ذلك، ويدعمه في قوله: إنَّ العاطفة الدِّينية أقوى وأمضى مِنَ العاطفة الدَّمويّة... فإنَّهما كانتا في حلبة صراع، كانت الغلبة المحتومة للأولى، والخذلان للثَّانية...

* ١١ *

ويقول الدكتور طه حسين:
[عطف أبي طالب على النُّبيِّ معروف، وقيامه دونه بحميه، ويحمي دينه من قريش، مستفيض^(٢)].

(١) - معجم القبور ١٩٤، ١٩٥، ١، عن هامش شرح القصيدة العلوية ص ٥٨ .

(٢) - الفتنة الكبرى: عثمان ص ١٥١ .

وقد وضع الأستاذ المنصف عبدالعزيز سيّد الأهل كتاباً، عن أبي طالب^(١).
وقد لاحظ عليه بعض القراء: أنه لم يقل بإسلام أبي طالب...
وأنا على النقيض منه، فبأنّي أرى الأستاذ قد اعترف، أصرح ما يكون
الإعتراف، وأوضح وأجلى ما يكون الإيضاح: أنّ أبا طالب من المؤمنين الأوّل،
والمسلمين السّبِق، فله الفضل على الإسلام.
ولو لم يكن فيه، سوى بضعة، من السّطور النّاصعة، في مقدّمته - لكانت خير
دليل، وخير برهنة، على ما يراه ويكنّه، تجاه شيخ بني هاشم...
ومجدد عرض بعض، من سطور هذه الصّفحات النّواصع:
[وليس من المحمود للنّاس، في سبيل رجلٍ رعى النّبي وحماه، أكثر من أربعين
عاماً: أن تُقتضب أخباره، كما اقتضيت، وأن تُنثر، وتُبعر، كما نُثرت وتُبعرت،
وأن يقلّ روايتها، ويضطربوا، كما قلّوا، واضطربوا...
ثم يُنسى فضله كلّ، ويقف التّاريخ منه، في ساعة موته، موقفأً واهناً عجيباً،
يتحدّث عن الرّجل الذي حمى النّبوة، ونافح عنها بقوةٍ وتضحيةٍ وإيمانٍ، وكأنّما
يتحدّث بلسان خُلِق من الهوى، عن رجلٍ دخيلٍ، أو عن وافرٍ غريب...!!!
أنفد الرّجل حياته كلّها في نصرة النّبي، وألزم أهله باتباعه، وأنفق عليه جهده
وحبه وماله، وخاصم أعداءه وضربهم وقهرهم. وأعدّ من نفسه عزمةً صادقةً،
تحفّ إلى المستغيث بها، في طريق الهوموم.
وكان وجود أبي طالب لنصرة رسول الله ضرورةً من ضرورات الخلق، وسنداً
لأبد منه لظهور البعثة، وانتشار الدّعوة - كما يقول ابن خلدون في نظريته^(٢)...]

(١) - هناك العديد من الكُتب، التي وُضعت في حقّ شيخ الأبطح، من: الشيعة، وأهل السنة.

(٢) - كنّا نتمنّى لو أسند قولهُ ابن خلدون هذه!

وتلك مشيئة الله، فليس ينتصر رجلٌ، ولا مبدأٌ، ولا دينٌ، ما لم يستند إلى ما يشدُّ أزره، وينصره من العصبيَّة المهيبة، كما ينتصر بالأتباع والأنصار، إلا أنَّ ذلك هو: أوَّلٌ، ولا بُدَّ منه، ولولاه ما كان الأتباع والأنصار^(١).

[وأبو طالب لم يفتِّه أن يعرف الواجب الذي يَسطُّ به، ولم يُثقله العبء الذي ألقي عليه، فنصر النبيَّ وأيّده، وخاصم الناس جميعاً فيه، ولم تأخذه العزَّة بالإثم، كما أخذت غيره من الكبراء، الذي أضلُّوا الناس السبيلَ.

وقد كان أبو طالب -غير مدافع- سيِّد قريش جميعاً^(٢).

[وبكى رسول الله لنعي عمِّه، ومن الذي يبكي رقةً ورحمةً ووفاءً، إذا لم يملك محمدٌ -وقد أحسن ربه تأديبه- عمّاً، كفله وربَّاه ونصره، وتقصى عذره في التَّحُمُّل، فكان له أبا، حين فَقَدَ الأب، وكان له عضداً، حين احتاج إلى النصير، وكان له حزباً، حين احتاج إلى حقٍّ قويٍّ، يقهر الباطل، ويمحق الطُّغيان!]^(٣).

لقد حاولنا أنْ لَنُكثِرَ من هذه الكلمات، المبثوثة في الكتاب... إلا أننا -رغم هذه المحاوله- لم نستطع إلا أنْ نأتي بما أتينا به... وأنْ نسأل مثل ذلك القارئ الكريم:

هل يجوز القول: بأننا لم نجد الكاتب قد قال بإسلام شيخ بني هاشم، بعد كلِّ ما بثه في كتابه -وما هذه سوى «عيَّنة» له- من: قول واضح صريح، وشهادة، هي أرفع وأحقُّ ما تكون الشَّهادة الصَّادقة...!

* ١٣ *

ونجد الأستاذ جورج جرداق -في كتابه الفدَّ «الإمام عليُّ صوت العدالة الإنسانية»- يُتحف أبا طالب بباقاتٍ، من معطار الثناء، وعبارات الإجلال والتَّعظيم.

(١) - أبو طالب شيخ بني هاشم ص ٦٥ .

(٢) - نفس المصدر - ص ٧ .

(٣) - نفس المصدر - ص ٨٩ .

وَمِنْ الْمُنَاسِبِ جَدًّا: أَنْ نَقْتَظِفَ شَيْئاً، مِنْ هَذَا الذِّكْرِ الْعَطْرِ:
 [وَلَمَّا تُوفِّيَ جَدُّهُ -يعني: عبدالمطلب، جدُّ الرَّسُولِ- كَفَلَهُ عُمُّهُ أَبُو طَالِبٍ -
 والد عليّ- فاستمرَّ الغلام يحيا في جوِّ الحنان، والدِّعَةِ، وحسن التَّربِيَةِ، الذي خَلَفَهُ
 الأب الرَّاحِلُ لِلأبنِ المقيم^(١).
 وبعد أن ذكر استخلاف عبدالمطلب أبا طالب، لرعاية حفيده، عَقَّبَ ذَلِكَ
 بقوله:

[وهو ما اختار أبا طالب إلا استناساً بما يعرف مِنْ أمره وما يُدرك.
 فَإِنَّ الحنان والعطف، وإنْ كَانَ لأكثر ولد عبدالمطلب منهما نصيبٌ، لم يبلغا في
 قلوبهم -مِنَ القوَّةِ، والبُعد- ما بلغا في قلب أبي طالب.
 وأثر الحنان والعطف، في حسن الكفالة والرعاية، أظهر مِنْ أثر المال.
 لذلك كُلَّهُ اختار أبا طالب أبوه لرعاية مُحَمَّدٍ.
 أضف إلى هذا: أَنَّ أبا طالب كَانَ يُضْمِرُ مِنَ العطف على ابن أخيه: ما يدفعه
 دفعاً إلى رعايته، وإنْ لم يكلفه ذلك أبوه!.
 فكيف إذا اجتمع هذا العطف. وهذا التكليف...؟!
 ومَّا لامرأ فيه أَنَّ أبا طالبِ شَخْصِيَّةً جَمِيلَةً وَحَبِيبَةً.
 شَخْصِيَّةً جَمِيلَةً، تُطَالَعُنَا بِحِكْمَةِ الشَّيْخِ الطَّيِّبِ الأَمِينِ المَجْرَّبِ، الذي يضع كُلَّ
 مَا أُوتِيَ مِنْ: طَبِيعَةٍ، وَأَمَانَةٍ، وَتَجَرِبَةٍ، مَوْضِعَ العمل والتَّنْفِيدِ، في كُلِّ حَالٍ^(٢).
 ولتروِّفِ السَّمْعَ هَذِهِ الْكَلِمَةَ الرَّائِعَةَ:
 [حتى لَكَأَنَّ اللَّهَ لَمَّا اخْتَارَ رَسُولَهُ مِنْ بَنِي عَبْدِالمطلبِ اخْتَارَ لِنَشْتِنْتِهِ هَذَا الْعَمَّ
 الْكَرِيمِ!.

(١) - ص ٣٤ (١٥٤ : ١).

(٢) - ص ٥٥، ٥٤ : ١.

وكان قوة الوجود الشاملة، هيأت لأبي طالب: أن يعلم من أمر ابن أخيه
مالاً يعلمه سواه^(١).

وكلمة أخرى، لانتقل عن هذه روعة، ووضوح أداء في ما تحمله من تحليل
شخصية أبي طالب، وما تحمله من المعاني الخيرة:

[فإذا ما بنفس أبي طالب من معاني الطبيعة، يشف في نفس محمد، فإذا هي
جزء من ذاته، يتكون وينمو تحت نظرة العم الحب]^(٢).

[وكان أبو طالب أول من قال شعراً في الإسلام، يفيض بالحب محمد ويدعو
إلى نصرته.

وكان يكثر عليه كل عمل، أو قول، فيه بعض الأذى لابن أخيه]^(٣).
[ولم ينس أبو طالب دقيقة واحدة، في حياته، أن محمداً إنما هو استمرار عبقرية
الخلق، التي يتميز بها بصورة عقويّة: هو، وأخوه عبد الله، وأبوهما عبد المطلب]^(٤).
[ولما توفي أبو طالب، شعر النبي بأنه فقد أعظم ركن، يستند إليه، ويدفع عنه
أذى قريش.

وما كان هذا الشعور إلا تدليلاً على تجاذب أسباب الخير بين: محمد، وعمه
رب البيت، الذي نشأ فيه وسما خلقه!.

وإذا كان من أسباب هذا الشعور بخسارة أبي طالب: أن محمداً فقد به نصيراً،
بفديه بدمه، ويدفع عنه الأذى، وملجأ حصيناً ضد قريش، والمستبدين الغلاة من
بنيتها، حتى أنه قال:

«ما نالني من قومي سوء، حتى مات عمي أبو طالب».

فما تعليل هذا الحزن العميق، الذي غزا قلب محمد بموت عمه؟.

(١) - ص ٥٥ : ١ .

(٢) - ص ٣٤ (٥٦ : ١).

(٣) - ص ٣٥ (٥٨ : ١).

(٤) - ص ٣٦ (٥٩ : ١).

وماعلّة هذه الكآبة، وماكان محمّد إلاّ صبوراً، حازماً، وثاقاً بنصر رسالته،
 مهما كثر العدو، وقلّ الصديق، ومهما كان من شأن الأختيار والأشرار؟
 أجل! ماعلّة هذه الكآبة، إن لم تكن الكارثة، التي حلّت بمحمّد، هي كارثة
 الإنسان بأعزّ من يعطف عليه ويحميه؟
 وما تكون هذه الدُموع الغزار، إن لم تكن شاهداً على أنّ النبيّ - كرجلٍ -
 أحسّ بأنه فقد شيئاً من ذاته، من حاضره، وماضيه؟[١] (١).

ثم يعود في فصلٍ آخر، يعرض للصّلات، التي تتماسك في الأعماق، على
 اتّحاد الودّ بين: محمّد، وعليّ، كما كان بين: أبي طالب، ومحمّد، وكيف أثمر هذا
 الاتّحاد الثّمار الطّيبة:

(وتستمرّ صلات المودّة والإخاء بين: محمّد، وعليّ).

ويستمرّ بينهما تعاظمي الخير على إنجاح الرّسالة، هذا التعاطي، الذي يتماسك
 في أعماقه، ويتحد منذ أن عرّف محمّد أبا طالب، ومنذ أن عرف عليّ محمّداً، ومنذ
 أن اجتمع الثلاثة في بيتٍ واحدٍ، قام على مزايا الشّهامة!

وماكانت خصائص البيت الطّالبيّ إلاّ حافزاً لأبي طالب، وابنه عليّ، على فهم
 عبقرية محمّد، فهما يتمثّل لدى الأوّل: شعوراً وتضحيةً، ولدى الثّاني: فكراً جبّاراً،
 وشعوراً عميقاً شاملاً، وتضحيةً أشبه بصنع المعجزات! (٢).

* *

وقد يقول قارئ: أن ليس - في ماأتخف به الكاتب الكبير شيخ البطحاء -
 شيء، يُنبئ عن قوله بإسلامه، إذ ليس فيه سوى الإشادة بمزايا وخصائص أبي
 طالب، وتقانيه في حبّ وخدمة الرّسول، والدعاية لدعوته ونصرته...

(١) - ص ٣٦، ٣٧ (٦٠: ١).

(٢) - ص ٤٦ (٧١: ١).

ونحن نكتفي بهذا... فإنَّ مفكراً - كجرداق - لا يحتاج منه لأن يقول لنا عن النور: إني المحم...! فإذا ما وُصفَ الضوء، وعرضَ لمزاياه، ودلَّ عليه... فإنَّ هذا يُشعرنا بأنَّ هذا المفكر، يسير في دربه على هذا النور، الذي يُطري ويُشيد...

لذلك... فإننا لا نحتاج لأن ندلَّ القارئ، ونأخذ بيده، فنضع النقط على الحروف - وهي موضوعة وضعاً فنياً - لنشير له عمّا تزخر به هذه الكلمات القيّمة - والتي شئنا أن نقتصر على أقلِّ ممّا أتينا به، فلم نستطع، إذ أسرتنا بعلوِّ ماتهذف إليه، من حقٍّ صريح...

... هذه الكلمات التي تزخر، بما شحنت به، من صريح الإعتراف الواضح،
ياسلام أبي طالب...

ولكننا نشير إلى ما أوضحه، من ضرورة وجود أبي طالب، حيث هيّاته قوّة الوجود الشّاملة، لاكتشاف أمر ابن أخيه...

وكيف يكون محمّدٌ استمراراً لعبقريّة الخلق الرّفيع المتميّز بها - بصورة عفويّة - كلّ من: أبي طالب، وأخيه عبد الله، وأبيهما عبد المطلب... كيف يكون محمّدٌ استمراراً هؤلاء، إذا كانوا مشركين - ومعاذ الحق؟!!!

ثم ماهذه النفس الجبّارة، التي تشفّ في نفس محمّد، لتنصهر، وتخرج النّفسان، لتكونا جزئين لشيءٍ واحد، ويكون أبو طالب، ومحمّد، وعليّ، كلّاً لا يتجزأ...؟!!

إنّ خصائص البيت الطّائبيّ، تكون الحافظ القويّ، الذي يدفع الأب والولد، على فهم عبقريّة الرّسول: فهماً عميقاً، حتّى أنّه ليتمثّل شعوراً وتضحيةً، فيتماسك تعاظمي الخير، من أجل إنجاح هذه الرّسالة - بكل ما يتطلبه هذا الإنجاح، من: الشّعور العميق الشّامل، والفكر الجبار، والتّضحية الشّبيهة بصنع المعجزات!

وإنّ هذا الشّعور السّامي، يّتحد بين: الرّسول، وعمّه، وابن عمّه، منذ عرف محمّد عمّه، ثم عرفه ابن عمّه، ويجمع ذلك في وحدة متماسكةٍ مرآصيّةٍ، لأفضل بينها، ولافرقة، منذ اجتمع الثّلاثة في بيت، ابتني على مزايا الشّهامة، وتدعّم بمخاضات الفضيلة والسّموّ...!

فما هو هذا الخير، الذي يتجاذب أسبابه محمدٌ، وعمُّه، وعليٌّ...؟
فهل يتجاذب محمدٌ أسباب خيرٍ، يكون فيه المشركُ: الطرفُ الثاني، في تجاذب
أسبابه...؟!

وهل يُوجي خيرٌ من مشركٍ عنيدٍ...؟!
بل هل يمكن أن يكون فيه أدنى خيرٍ، لأن يكون شريكاً، في تجاذب أسبابه،
لحامل رسالة التوحيد...؟!

إذن... فطبيعيّ -أن يشعر النبيُّ، بفقد عمِّه: أنه افتقد أعظم ركنٍ، يستند
إليه، ويشدُّ أزره، ويحمي دعوته... وهو ربُّ البيت، الذي نشأ فيه الرّسول، وسما
خلّقه...

وطبيعيّ -أيضاً- أن يغزو الحزن العميقُ قلب محمدٍ(ص) ويطفح أثره على
وجهه، بالرغمِ ممّا تحفل به شخصيته من: الصبر، والحزم... وبالرغم من امتلاء
قلبه: ثقةً بربه، المتكفل بنصر رسالته، وإن تضاعلت أسباب النصر الظاهرية، بكثرة
العدو، وقلة الصديق، أو ازداد عدد الأشرار، وتضاعل عدد الخيرين...

ولكنه الحزن، الذي تُبقية كارثة الإنسان، بأعزّ من يعطف عليه ويحميه، حيث
افتقد شيئاً، هو جزءٌ من ذاته، يمتدُّ من حاضره لماضيه...!

* *

إن كان ولا بُدَّ أن نقف عند حدٍّ، من هذا الذّكر العطر -بعد أن قدّمنا منه
باقاتٍ، تحفل بكلِّ ما يضمُّه الزّهر، من: فواح الأريج، ونضارة اللون، وفنّ
التنضيد...

إن كان ذلك... فعلينا أن نقف عند هذا الحدِّ، ونكتفي بما قدّمنا، بعد أن طفنا
بعديد العصور والأزمان، وقدّمنا شهادات العديد من الشخصيات، التي قد تختلف
في كثيرٍ من أسباب الاختلاف، سواء كانت: قيميةً، ودينيةً، أو زمنيةً، أو في:
الهوى، والمشرّب...

ولكنها تجتمع عند نقطة واحدة، تربط بينها كلُّ الرُّبُط، وتوثقها بكلُّ الصُّلَّة، هي: نصرَةُ الحقِّ المهتَضَم، والكشفُ عن الحقيقة المستورة، والجأْرُ بالقول الصَّريح، في الوسط المملوء بالجليلة الصَّاحبة الكاذبة، والزُّعاق النَّابح البغيض، والفحيج مِنْ أنيابِ زاعفة بالسُّم القتال...!

ولكنه الحقُّ الأبلج، والحقيقة النَّاصعة...!

ولا بدَّ أن يُقيِّضَ اللهَ لهما مَنْ ينصرهما، ويدلُّ عليهما، ويُعلي مِنْ قيمتهما، لنلا تتساوى الفضيلة والرَّذيلة، أو ينتصر الباطل المزخرف، على الحقِّ الصَّريح الواضح...!

وقفه مع الحديدي^٩

ذاك.. حديث، يطول بنا مداه، وتتشعب منه الطرق والمسالك، لو شئنا أن
نقصي كل كلمة، قيلت في الموضوع، أو إشارة أو مآت نحوه...

ولابد - كما قلنا - أن نقف منه، عند هذا الحد، بعد أن أتينا على وفر، من
الشهادات الصادقة الصادعة، ممن لا يشك في صدق حديثهم مسلم، أقر
بالشهادتين - وهم: الرسول، وعزته الطاهرة، بنص الكتاب المبين - وأقوال أناس
لمحوا النور، فدلوا عليه، وعرفوا الحق، فسلخوا منه لاحب الطريق.

ولكن لابد لنا - وقد تناولنا، من هذا الموضوع، طرفاً على اتساع مدى - أن
نأتي على قولات لابن أبي الحديد، عثرنا عليها عند التنقيب، في شرحه لنهج
البلاغة، لنقف منه موقف المحاسب، على قوله له - أيضاً - حول الموضوع.

* *

يقول، وقد عرض للأمة، التي بُعث فيها الرسول «ص»، وقسمها إلى أقسام...
فمنها: «المعطلة» وغير المعطلة - ومن المعطلة: من أنكر الخالق، ومن يدين
بالتناسخ، وأرباب الهامة، وعبد الأصنام الخ... حتى قال:

[فأما الذين ليسوا بمعطلة من العرب، فالقليل منهم، وهم المتألهون، أصحاب
الورع والتحرُّج عن القبائح، كعبد الله، وعبد المطلب، وابنه أبي طالب^(١).

فأنت تراه - هنا - يقول: إن أبا طالب كان من المتألهين - أي: الذين يقرُّون
بوحداية الله، ويؤمنون بوجود خالق الوجود - وذلك بعد أن عرض لمن ينكر
وجود الخالق والبعث، ومن يعبد الأصنام، وغيرهم - وأن أبا طالب، كان من
أصحاب الورع، ومن يتحرُّج عن القبائح...

وليس أقبح من أن يرى هذِّي الرسول، فلا يسلك لاحب منهجه...!

* *

(١) - النهج ٣٩: ١ - وقد أتينا على هذه الجملة، في حديثنا عن عبد المطلب؛ ولكن الحاجة دعتنا،
لنعلمها.

ويقول: في تعداده لميزات الإمام عليّ «عليه السّلام»، وعرضه لبعض خصائصه وفضائله:

[وما أقول في رجلٍ، أبوه أبو طالبٍ، سيّد البطحاء، وشيخ قريشٍ، ورئيس مكة؟!].

إلى أن يقول:

[وأبو طالبٍ، هو الذي كفل رسول الله «ص» صغيراً، وحماه وحاطه كبيراً، ومنعه من مشركي قريشٍ، ولقي لأجله عنتاً عظيماً، وقاسى بلاءً شديداً، وصبر على نصره، والقيام بأمره... وجاء في الخبر:

أنه لما توفي أبو طالبٍ، أوحى إليه، عليه «وآله» السّلام، وقيل له:

[أخرج منها، فقد مات ناصرك^(١)].

فالحديديّ يعدّ الانتساب لأبي طالبٍ شرفاً... وأنّ ذلك إحدى الميزات، التي يمتاز بها الإمام الأعظم.

أي: إنه يقول: إنّ للإمام من الشرف العظاميّ ثروة ثرة، وميراثاً ضخماً... فمن كان أبو طالبٍ أباه، فإنه لضاربُ الجدر، في الشرف العظامي، نائلٌ منه بكلتا يديه!.

ثم ذكر ميزات فضلي، لأبي طالبٍ، وهي: كفالته: وحايته، وحياطته للرّسول، ومنعه له من أذى قريشٍ، حتى أنّ ذلك عرضه لأن يلقى العنت العظيم، ويُقاسى البلاء الشّديد، فصبر على ذلك، وقام مقامه الحمود، مع شدّة الحال، وتأزم الأمر...

وحتى أنه لم تقرّ بالرّسول أرض مكة، بعد ما افتقد من وجهها ظلّ عمّه، الحاني الظليل، فجاءه الأمر صاعداً بالخروج، من أرض، افتقد فيها: الحصن الواقعي، والجنة المنيعه!.

(١) - النهج ص ٩، ١٠: ١.

وقد أشار هذه النقطة -أي: الأمر للرَّسول بالخروج- مرَّةً أخرى، بقوله:
 (لَمَّا مَاتَ أَبُو طَالِبٍ بِمَكَّةَ، طَمَعَتْ قَرِيشٌ فِي رَسُولِ اللَّهِ «ص» وَنَالَتْ مِنْهُ مَا لَمْ
 تَكُنْ تَنَالُهُ، فِي حَيَاةِ أَبِي طَالِبٍ، فَخَرَجَ مِنْ مَكَّةَ، خَائِفًا عَلَى نَفْسِهِ، مَهَاجِرًا إِلَى
 رَبِّهِ) (١).

وَمَا يَتَنَاوَلُ هَذِهِ النُّقْطَةُ -أَيْضًا- هَذِهِ الْقَوْلَةُ:

[وَأَعْلَمُ: أَنَّ عَلِيًّا «عَلَيْهِ السَّلَامُ»، كَانَ يَدَّعِي التَّقْدُّمَ عَلَى الْكُلِّ، وَالشَّرْفَ عَلَى
 الْكُلِّ، وَالتَّعَمُّدَ عَلَى الْكُلِّ، بِابْنِ عَمِّهِ «ص»، وَبَنَفْسِهِ، وَبَأَبِيهِ أَبِي طَالِبٍ «عَلَيْهِ
 السَّلَامُ»... فَإِنَّ مَنْ قَرَأَ عُلُومَ السِّيَرِ، عَرَفَ أَنَّ الْإِسْلَامَ، لَوْلَا أَبُو طَالِبٍ، لَمْ يَكُنْ
 شَيْئًا مَذْكُورًا...!]

وليس لقائل: أَنْ يَقُولَ: كَيْفَ يُقَالُ هَذَا... فِي دِينٍ تَكْفَّلَ اللَّهُ تَعَالَى بِإِظْهَارِهِ،
 سِوَاءَ كَانَ أَبُو طَالِبٍ مُوجُودًا، أَوْ مَعْدُومًا...

لَأَنَّا نَقُولُ: فَيَنْبَغِي عَلَى هَذَا أَنْ لَا يُمَدِّحَ رَسُولَ اللَّهِ «ص»، وَلَا يُقَالَ: إِنَّهُ هَدَى
 النَّاسَ مِنَ الضَّلَالَةِ، وَأَنْقَذَهُمْ مِنَ الْجَهَالَةِ، وَأَنَّ لَهُ حَقًّا عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَأَنَّهُ لَوْلَاهُ لَمَّا
 عُبِدَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْأَرْضِ...].

إِلَى أَنْ يَقُولَ:

[فَإِنْ قُلْتُمْ فِي كُلِّ ذَلِكَ: إِنَّ هَؤُلَاءَ يُحْسَدُونَ، وَيُثْنَى عَلَيْهِمْ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى،
 أَجْرَى هَذِهِ الْأُمُورَ عَلَى أَيْدِيهِمْ، وَوَفَّقَهُمْ لَهَا، وَالْفَاعِلُ بِذَلِكَ بِالْحَقِيقَةِ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى،
 وَهَؤُلَاءَ آلَةٌ مُسْتَعْمَلَةٌ، وَوَسَائِطُ تَجْرِي الْأَفْعَالُ عَلَى أَيْدِيهِمْ، فَحَمْدُهُم وَالثَّنَاءُ
 عَلَيْهِمْ، وَالاعْتِرَافُ لَهُمْ، إِنَّمَا هُوَ بِاعْتِبَارِ ذَلِكَ -قِيلَ لَكُمْ فِي شَأْنِ أَبِي طَالِبٍ
 مِثْلَهُ...!] (٢).

(١) - المصدر نفسه ص ٣٢٢ : ٣ .

(٢) - المصدر ٤٧ : ١ .

ولعل من الخير: أن نُشير إلى: أنَّ قولَ ابن أبي الحديد -هذه- جاءت عند شرحه، لخطبة للإمام عليٍّ «عليه السَّلام»، بعد انصرافه من صفين، وبعد هذه الفقرات منها، بِخاصَّة:

(لأَيُّقَاسُ بآلِ مُحَمَّدٍ «ص»)، مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، أَحَدٌ،
وَلَا يَسُوَّى بِهِمْ مَنْ جَرَتْ نِعْمَتُهُ عَلَيْهِ أَبَدًا.

هَمْ: أَسَاسُ الدِّينِ، وَعِمَادُ الْيَقِينِ.

إِلَيْهِمْ يَفِيءُ الْغَالِي، وَبِهِمْ يُلْحَقُ التَّالِي.

وَلَهُمْ خِصَانَصُ حَقِّ الْوَلَايَةِ، وَفِيهِمُ الْوَصِيَّةُ وَالْوَرَاثَةُ).

ثم هل لنا أن نقف، عند هذه النقاط، التي جاءت في قولَ ابن أبي الحديد

تلك...؟

هل لنا: أن نضع النقط على الحروف، عند قوله: إِنَّ عَلِيًّا «عليه السَّلام»،
كَانَ يَدْعِي التَّقْدُمَ وَالشَّرْفَ وَالنِّعْمَةَ عَلَى الْكُلِّ، بِأَبِيهِ أَبِي طَالِبٍ كَمَا يَدْعِيهِ
بِنَفْسِهِ، وَكَمَا يَدْعِيهِ بَسِيْدُ الْرَّسُولِ الْأَعْظَمِ «ص»...!

وَلَكِنَّا نَكْتَفِي بِاسْتِعْاِءِ إِنْتِبَاهِ الْقَارِئِ الْكَرِيمِ، لِتُعِيدَ الْفِكْرَ فَاحِصًا، فِي مَا تَحْمِلُهُ
هَذِهِ الْفَقْرَةُ، وَمَا تُشِيرُ إِلَيْهِ مِنَ الْوَحْدَةِ، الَّتِي تَجْمَعُ بَيْنَ الثَّلَاثَةِ، فِي التَّقْدُمِ، وَالشَّرْفِ،
وَالنِّعْمَةِ عَلَى الْكُلِّ...!

وَلِنَتَقَصَّى، فَتُشِيرَ إِلَى قَوْلِ ابْنِ أَبِي الْحَدِيدِ: «عليه السَّلام»، بَعْدَ ذِكْرِ اسْمِ
أَبِي طَالِبٍ...

فَإِنَّ «السَّلامَ» عَلَى شَخْصٍ، يَدُلُّ عَلَى رَأْيِ الْقَائِلِ فِي هَذَا الشَّخْصِ، وَمَنْزِلَتِهِ
الرَّفِيعَةِ، الَّتِي لَا تَكُونُ، إِلَّا لِمَنْ هُوَ فِي دَرَجَةِ: الرُّسَالَةِ، أَوِ الْإِمَامَةِ، أَوِ الْوَصَايَةِ، أَوْ
مَنْ هُوَ فِي عِدَادِهِمْ، أَوْ يَتَدَنَّى مِنْ دَرَجَتِهِمْ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الصَّحَابَةِ، لَا تُقَالُ فِي
حَقِّهِمْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ...!

ولم يقل ابن أبي الحديد، لأبي طالب: «عليه السَّلام»، إلّا لأنّه هو العمدة
الوطيد، في توطيد دعامة الإسلام، وأنّ الإسلام، لولاه - كما يقول - لم يكن شيئاً
مذكوراً^(١)...

وصوّر: أنّ هناك مَنْ سيعترض على هذا القول، فردّ على هذا الاعتراض، وهذا
منه بواقعي البناء... إذ لو قدر: أنّ لأفضل لأبي طالب، في نصرته للرَّسول - كما
يقول هذا المعارض - لمّا كان للرَّسول ذاته، فضلٌ في ذلك، وهو مبلغ الرِّسالة،
ورافع مشعل الهداية والنور...

وليس لنا: أنّ نُطيل التعليق على هذه الفقرات، من قولة الحديديّ، وهي من
الجلء والوضوح - في ما تُشير إليه وتعييه - بمكان، لا يحلّو معه قول، أو تعليق...!

* *

وإنّي لم آت على هذه الفقرات المنفرقة، من أقوال ابن أبي الحديد - في حقّ
شيخ الأبطح - إلّا لأقف معه، في ما وقع فيه، من اضطراب متلجلج، وتناقض
مفوض، في ختام حديثه الطويل، عن أبي طالب^(٢)، وقد أتى فيه على بضع، من
المفتريات البغيضة، في حقّ أبي طالب: «الكافل والحامي» - كما يقول
الحديديّ^(٣).

وهذه الفقرات الواهية النسيج، لا تتجاوز أحد عشر سطراً^(٤)، من هذه الصّفحات
الطّوال، التي تنضح كلّ سطورها بالحجج الدّامغة، والبراهين السّاطعة، التي تدلّ على
إيمانه، وتُبرهن عن صحّح معتقده، من: فعلٍ حسيّد، وأقوالٍ سافرة الوجه، عن إيمان
قائلها، وشهاداتٍ ممّن لا تنالهم الظّنون، ولا يعلو إليهم شكّ، أو ريب...

(١) - أمانة التّحقيق، دعت "محمّد أبو الفضل إبراهيم"، إلى حذف هذه الكلمة من الأصل! -
راجع ص ١٤٢ ج ١، من تحقيقه لشرح النّهج.

(٢) - النّهج ٣٠٥ - ٣١٨: ٣.

(٣) - ٣١٠: ٣.

(٤) - ٣١٠، ٣١١: ٣.

ولكنه شاء أن يختتم هذا الحديث، بهذه القولة المتداعية المتهافئة...! ونودُّ أن نتناول منها: فقراتٍ، فقراتٍ، لنقف وإيَّاه موقف المحاسبة، ونُشير إلى النُّقاط المتداعية منها...

* *

يقول، بعد ذلك الحديث الطويل، وقد أتى فيه على دماغ الحجج، وسافر البراهين، على إيمان أبي طالب «عليه السَّلام»... يقول بعد هذا:

«قلتُ: فأما أنا فإنَّ الحال ملتبسةٌ عندي، والأخبار متعارضةٌ، والله أعلم بحقيقة حاله، كيف كانت...!»

ويقف في صدري رسالة: «نفس الرُّكيَّة، إلى المنصور، وقوله فيها: فأنا ابن خير الأخيار، وأنا ابن شرُّ الأشرار، وأنا ابن سيِّد أهل الجنة، وأنا ابن سيِّد أهل النَّار.

فإنَّ هذه شهادةٌ منه على أبي طالبٍ بالكفر، وهو ابنه، غير متَّهمٍ عليه، وعهده قريبٌ من عهد النَّبيِّ «ص» لم يطل الزَّمان فيكون الخبر مفتعلًا^(١).

يقول: إنَّ الحال ملتبسةٌ عنده لتعارض الأخبار! - ويُريد بتعارض الأخبار: الأخبار التي أتى بوفرٍ منها، وكلُّها تشهد على إيمان أبي طالبٍ، عن مصادر لا يتطرَّق إليها الرَّيب، فهي عن: الرُّسول، وعزته الطَّاهرين ممَّا قد أتينا على الوفر منها... ومن: أقوال أبي طالبٍ، وأفعاله، نفسه، التي هي شاهد صدقٍ، على ذلك، أيضاً.

ولكنَّه يُريد أن هذه الأخبار الثَّابتة، قد عارضتها تلك الأخبار المفتعلة المكذوبة: والتي اشتراها معاوية، ورواها المغيرة، ومن إلى هذه السُّلسلة التَّنَّة... وسوف نهذُّ منها واهي البناء في فصلٍ مختصٍّ - إن شاء الله!.

(١) - النهج ٣١٧: ٣ .

والتعارض بين حديث وحديث، لا يكون إلا إذا حصل بينهما تكافؤ، بأن تكون رواية الحديثين ثقة، لا يسقط واحد، من السندين، في ميزان الرجال، بل ولا ترجح كفة جانب على أخرى، بأي وجه من أوجه الترجيح، لأنه إن رجحت إحداهما، غول على الراجحة...

وهذا شيء لا يحصل في موضوعنا، بحال من الأحوال...!

فهل يتساوى حديث، ترويه العزة المطهرة، عن الرسول الأعظم (ص)، مع حديث يرويه المغيرة، ومن إليه...؟!

وإذ ليس ثمة من تكافؤ، فإن التعارض معدوم...!

* *

ثم راح يتشَبَّث برسالة: النفس الزكية - وهو محمد بن عبد الله، بن الحسن، بن الإمام السبط الحسن، «عليه السلام» - إلى المنصور الدوانيقي.

وقد رجعنا لهذه الرسالة، في مواطنها، من كتب التاريخ، فوجدنا فيها ثما نقله الحديدي، هذا المقطع:

«فما زال الله يختار لي الآباء والأمهات، في الجاهلية والإسلام، حتى اختار لي في «النار».

فأنا أرفع الناس درجة في الجنة، وأهونهم عذاباً في النار.

وأنا ابن خير الأخيار، وابن خير الأشرار، وابن خير أهل الجنة، وابن خير أهل النار.

النار - الخ^(١).

وقد قمنا بالبحث عن روايتها، فلم نجد لهم - في «كامل ابن الأثير» - ذكراً.

(١) - الطبري ١٩٦: ٦ - وتجدها في كامل ابن الأثير ٥: ٥، وفيه بدل "النار" - الأولى المقوسّة - "الأشرار". وليس فيه: "وأنا ابن خير - إلخ".

وتجدها في "محاضرات تاريخ الأمم - الدولة العباسية" ٦٥ - وتختلف عن هذه الصورة.

أما المبرد، فلم يأتي بشيء مآ، من هذا المقطع، عندما أتى على هذه الرسالة، في كامله ص ١٢٧٤، ١٢٧٥: ٣.

ولكن صاحب «شيخ الأبطح» ذَكَرَ أَنَّ رَوايَها هو: عثمان بن سعيد، بن سعد، المدنيُّ. وقال:

[وهذا سعيدٌ مِنْ مجاهيلِ الرِّوَاةِ] ^(١).

وأما الطَّبْرِيُّ، فقد ذَكَرَ لها إسنَاداً مَبْتوراً.

ونحن نَأْتِي به، لِنَرَى مَوْضِعَ هَؤُلاءِ الرِّوَاةِ، المَبْتوريِ النَّسَبِ:

[قال: وَحَدَّثَنِي مُحَمَّدٌ بْنُ يَحْيَى، قال: نَسَخْتُ هَذِهِ الرِّسَالَةَ، مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ بَشِيرٍ،

وَكَانَ يُصَحِّحُهَا، وَحَدَّثَنِيهَا أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ، مِنْ كِتَابِ أَهْلِ الْعِرَاقِ، وَالْحَكَمِ بْنِ

صَدَقَةَ بْنِ نَزَارٍ، وَسَمِعْتُ ابْنَ أَبِي حَرْبٍ يُصَحِّحُهَا] ^(٢).

وهذا الإسناد - كما تراه - مَبْتور الصَّلَة، لا يَسْتَطِيعُ إِنْسَانٌ أَنْ يُعَوَّلَ عَلَيْهِ:

نَجِدُ فِي السَّنَدِ:

١ - مُحَمَّدٌ بْنُ يَحْيَى. وَلَا نَعْلَمُ مَنْ جَدُّهُ؟.

ولَكِنَّا إِذَا رَجَعْنَا إِلَى «مِيزَانِ الْإِعْتِدَالِ»، وَبَحَثْنَا فِي مَنْ جَاءَ عَلَى هَذَا الْاسْمِ،

فإنَّا لَا نَقِفُ عَلَى وَاحِدٍ مِنْهُمْ - وَقَدْ بَلَّغُوا سَبْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، عَلَى هَذَا الْاسْمِ، وَعَلَى

كُنَى مُخْتَلَفَةٍ...

لَا نَقِفُ مِنْ بَيْنِ هَؤُلاءِ، إِلَّا عَلَى مَرْوَكٍ ضَعِيفٍ، وَذِي حَدِيثٍ مُنْكَرٍ، وَأَحَادِيثٍ

مُظْلَمَةٍ مُنْكَرَةٍ، وَضَعِيفٍ لَا يَجُوزُ الْإِحْتِجَاجُ بِخَبَرِهِ، وَدَجَّالٍ يَضَعُ الْحَدِيثَ ^(٣)، وَذِي

أَحَادِيثٍ مُفْرَدَةٍ، وَمَنْ لَا يُدْرِي مَنْ يَرَوِي عَنْهُ، وَرَاوِي مُنَاكِيرٍ، وَأَحَادِيثٍ مُوَضَّوعَةٍ،

وَمَنْ لَيْسَ بِثَقَّةٍ، وَمَنْ يَرَوِي عَنِ الضُّعَفَاءِ، وَمَنْ لَيْسَ بِالْمُرْضِيِّ، وَمَنْ يُحَدِّثُ بِمَا لَمْ

يَسْمَعُ، وَمَنْ يُزَوِّرُ ^(٤).

(١) - شيخ الأبطح ٨١ .

(٢) - الطَّبْرِيُّ ١٩٥ : ٦ .

(٣) - في الغدير - ٣٢٩ : ٥ - في "سلسلة الكذابين والوضَّاعين". مُحَمَّدٌ بْنُ يَحْيَى بْنُ رَزِينِ

المُصَيِّصِيُّ: دَجَّالٌ يَضَعُ الْحَدِيثَ. وَكَذَا جَاءَ فِي مِيزَانِ الْإِعْتِدَالِ ١٤٧ : ٣ .

(٤) - مِيزَانُ الْإِعْتِدَالِ ١٤٦ - ١٤٨ : ٣ .

٢- ويؤاينا، بعد هذا: محمد بن بشير، ونجد شخصين على هذا الاسم:
 آ- محمد بن بشير بن مروان الكندي الواعظ. وهو ليس بثقة. وقال
 الدارقطني: ليس بالقوي في حديثه.
 ب- محمد بن بشير بن عبد الله القاص، وهو - كما يقول ابن معين - ليس
 بثقة^(١).

٣- ولنا ندرى مَنْ هو ذا «أبو عبد الرحمن»، ولَمْ مَنْ هو «ابن أبي حرب».
 ٤- ولم نجد، في الميزان، ذكراً، للحكم بن صدقة هذا.

* *

وندع السند المبسور، ولا نقل الوقت بحثاً عن حلقاته المتفككة، وأجزائه
 المتباعدة، لنعود فنبحث في ذات الكلمة، الواقعة في صدر الحديدي، مِنْ رسالة
 النفس الزكية.

ولنا نقف عند هذا الاختلاف المعنوي، في ما وقع مِنْ تغيير، بين: رواية ابن
 أبي الحديد ورواية: الطبري، وابن الأثير، والحضري^(٢).

ولكننا نقف مشدوهين، عند هذا الفخرا، بأن ينتسب - مفتخراً! - لشر
 الأشرار، أو خير الأشرار - وهل في الشر خير، وبين الأشرار خير؟! وليس أهل
 النار - وهل بين النار خير؟!

أما أن يكون ابن سيد أهل النار... فإن كانت في النار سيادة لواحد، فلن
 يحوزها، إلا مَنْ كان شر الأشرار، وَمَنْ كان أشدّهم عذاباً..

وهذا لما يتنافى، والفرية المكذوبة على الرسول (ص)، مِنْ أن أبا طالب، أخف
 أهل النار عذاباً..

وهذا لديهم - هو: ثمرة شفاعة الرسول لعمّه..!

(١) - الميزان ٣١: ٣.

(٢) - ذكر الحديدي: "وأنا ابن الأشرار". وذكر غيره: "وابن خير الأشرار".

وبالعظمة هذه الشُّفاعة، التي يَجْجَل منها أبْجَل والأُم النَّاسِ! - فكيف بِمَنْ بُعثَ لِيُتِمَّ مَكَارِمَ الأخلاقِ؟!..

وهل يصدر، إلّا من غير عاقلٍ، مثل هذا الفخر، الذي ليس هو غير اعترافٍ بالمنزلة المنحطّة، التي لا تتفق وموقف النَّفس الزَّكِيّة، مِنْ هذا الفخر، وهو يطلب الخلافة، ويُقاوم الملكَ المَرْبُوعَ على العرش، فهو - بهذه الرُّسالة - يخضم نفسه..! ذلك.. نجد، في ما ذكرُوا مِنْ جواب المنصور، على هذه الرُّسالة، قوله حول هذه النُقطة:

(وزعمت: أنكَ ابن أخفُ أهل النَّارِ عذاباً، وابن خير الأشرار..
وليس في الكفر بالله صغيرٌ، ولا في عذاب الله خفيفٌ، ولا يسيرٌ، وليس في الشرِّ خيارٌ، ولا ينبغي لمؤمنٍ يُؤمنُ بالله أن يفخر بالنَّارِ؛ وسرّد فتعلم...
﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مَتَقَلِّبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾^(١).
وهذا الجواب ينطبق - أتمّ الإنطباق - على تلك الفقرة، المنسوبة للنَّفس الزَّكِيّة، وهو الجواب الحتميُّ، والدَّامِغ لها، سواء كان الأصل والجواب، قد قاله مَنْ نُسب إليهما، أو وُضع على لسانهما..!

أمّا قول النَّفس الزَّكِيّة: "وأنا ابن شرِّ الأشرار" - على رواية ابن أبي الحديد، الذي اضطرنا أن نقف وإياه، في نقاشٍ! - فهذا ما لا ينطبق، بأيِّ حالٍ، على أبي طالبٍ..!
لأنّ مفاد معنى هذه القولة: أن ليس أشرَّ مِنْ أبي طالبٍ، في قومِهِ وفي عصرِهِ - على الأقلِّ..! وإلّا فالمعنى يُفيد الاستمرار.. أي: إنه ابن أشرَّ مَنْ ينتسب للشرِّ...!!!

(١) - الطُّبري ١٩٧: ٦، والكمال ٥: ٦، ومحاضرات الأئم - العباسية ٦٦، والكمال في اللغة ١٢٧٧، ٣ - في صورةٍ غير هذه.

وحتى لو خصصناه بأنه ابن أشرُّ أهل عصره وقومه - فهل هذا المعنى، هو أبو طالب...؟!

لم نجد واحداً مِنَ الكاذبين، والوضَّاعين، والمفتزين، مَنْ وَصَلَ إلى هذه الوهدة، مِنَ الانحطاط...!

فلم يقل واحداً منهم: إن أبا طالب كان مِنَ الأشرار - بله أشرُّهم! - وخيره يقطر بالنعماء، ويفيض بالنماء، ويُؤتي خير الثَّمار...!

وهل يكون ابن شرِّ الأشرار: ابن مَنْ كان العمدة لبناء الإسلام، ولولاه لَمَا كان الإسلام شيئاً مذكوراً - كما نقلناه عن الحديديّ؟-!

وهل يجوز أن تكون يدٌ لرجلٍ، عند الرُّسول (ص)، وهو في هذه الدَّرَجَة مِنَ الشرِّ - والرُّسول هو القائل:

(اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ لِفَاجِرٍ وَلَا لِفَاسِقٍ عِنْدِي نِعْمَةً).

في الحديث الذي أتينا عليه، في ماسِقٍ، عن الرَّحْشَرِيِّ؟! وهل يكون أبو طالب أشرُّ من: أبي هبٍ، وأبي الجهل^(١) - وهما اللذان ملأَّ الوجود شرّاً وفساداً، وأنزلا بالرُّسول أنواع الأذى، وأنماط الهوان؟! اللهم! إلا أن تكون نصرة الرُّسول وحياطته شرّاً، وأشرُّ مِنَ: النِّيل منه، وأذاه...!!!

إذن.. فكيف يجوز للنفس الزَّكِيَّة: أن يفخر بمثل هذا الدَّمِ المنقَّص، والعيب المخزي، وهو في هذا الموقف الحرج الدَّقِيق؟!

ولتَنزِّل.. فنُسلم صدور هذه الرُّسالة مِنَ النفس، فنتساءل عن الدَّلِيل، الذي دعى ابن أبي الحديد، لِإِنْ يَخْصُّ به "شر الأشرار": أبا طالب؟!

أليس ذلك، سوى الظَّنِّ والتَّخمين، إذا شئنا أن لا نجهر بالقول الحقُّ الصَّراحُ...؟! وإلا فليس ذلك، سوى الغاية والغرض...!

(١)- هذا السؤال، ليس سوى تنزُّل.. وإلا فليس بين أبي طالب، وهذين مشاركةً في الشرِّ، حتى يصحَّ التساؤل عن أيَّهم أشرُّ؟.

ولِمَاذَا لا يكون المعنيُّ به: طلحةُ بن عبيد الله - وهو: والد أمِّ إسحاق، التي هي: جدَّة النفس - أو عبد العزَّى، وهو: جدُّه لأُمِّه..؟ فأُمُّ النفس الزَّكيَّة، هي: هند بنت أبي عبيدة، بن عبد الله، بن زمعة، بن الأسود، بن المطَّلِب، بن أسد، بن عبد العزَّى^(١) - وعبد العزَّى، هذا، كان علماً بين كفرة قريش!

ونحن لانقول إنَّ أحدَ هذين هو المعنيُّ، مِن قولِة النفس، ليس إلا.. فما هو سوى الظنِّ والتَّخمين، اللَّذين دفعا ابن أبي الحديد، لأنَّ يخصَّ بها أبا طالب، وحده! وغمضي في التَّنزُّل.. ونُسَلِّم بأنَّ النفس الزَّكيَّة، لم يعن بشرُّ الأشرار، سوى أبي طالب!.. فلِمَاذَا تقف هذه القولة - وهي هي.. في مجانبتها للحقِّ، في جميع نواحيها - في صدر الحديدِيّ، ولا يقف في صدره شيء، مِن أقوال الإمام الصَّادق، وقد عاش هو والنفس الزَّكيَّة، في رقعةٍ مِنَ الزَّمنِ واحدةٍ، وقد وقف الحديدِيّ على الكثير مِن أقواله!؟

وأيْن النفس مِنَ الصَّادق، في أيِّ منزلةٍ مِنَ العلم، أو المعرفة، أو الإِصْدَاق، أو ملازمة الحقِّ والجهر به!.

وهل بينهما ما يميز النِّظَر، في المقارنة، أو التَّفضيل لأَيِّهما؟! ليس بينهما شيءٌ مِن هذا.. والحديدِيّ يعلم بذلك، ولا يجهله!.. ولكن - مع هذا - وقفت في نفسه، هذه الرُّسالة.. تقف في حلقة شعرةٍ مِن بعيرٍ، وبيتلع الأباغر بأخفافها، متى شاء..! فحلقة مطَّاطٍ، يتَّسع عند الحاجة، فيبتلع ما يشاء، ويضيق - عند الحاجة - حتى عنِ الشعرة!..

ثم لِمَاذَا لا تقف في صدره، شهادات ابنه الصُّلبيِّ الإمام عليٍّ، "عليه السلام"، وولده مِن بعده، مِن الأئمَّة المعصومين وهم هم.. مِن لا ينفرد عنهم، مِن وقفت رسالته في نفسه، في فضيلة.. وقد انفردوا عنه بفضائل، وتميَّزوا بميزاتٍ، لا تقع تحت الحصر!

(١) - نسب قريش ٢٢٧ و ٥٣ و شيخ الأبطح ٨٢ -

وإذا كان النفس الزكية، ابناً لأبي طالب، "غير متهم عليه" .. فهل شهادات الإمام الأعظم، وولده من الأئمة، تكون مغرصة، لأنهم متهمون لأجله، يُضيفوه إلى عداد المسلمين، وهو في قائمة الكفار..؟؟

فهل النفس أكثر ورعاً وأصدق حديثاً، من: عليّ والأئمة، حتى يقول هذا: مالا تتهمه عليه، ويقول أولئك: مالا يمتُّ للحقِّ بصلة..؟

أما أنا فلا أعتقد أنّ النفس، قد قال تلك المقالة، بعد ما أَلَمْنَا بالكثير من البراهين، التي تمنع أن يقول مثل هذا، حتى المعتوه والمجنون..^(١)

وإن قالها، فما كان بالذي يعني بها: "الكافل والحامي" ..

وإن عناه بها، فما نحن بالذين نتمسكُ بها، لنضرب صفحاً بأقوال مسلمة، ممن لا يُظنُّ فيهم مجانبة الحقِّ، في فعل، أو قول..

ويقول: إنَّ "عهده قريبٌ من عهد النبي (ص)، لم يطل الزَّمان، فيكون الخبر مفتعلاً". فالخديديُّ، يأخذ بقولة شخص، بعد مضيِّ ما يقارب قرناً ونصفاً، على وفاة مَنْ قيلت فيه - كما حملها - ولا يأخذ بقولة إمام، يُلازم الحقِّ، وقد عاش في كيف مَنْ شهد له، وشاهد ظله، واستظلَّ بوريف ظلاله.

ولا يحمل الخبر على الافتعال، حيث لم يطل الزَّمنُ!، ولكنه يروي الوفّر، من مَخْتَلَق الحديث، ومزوَّر القول، على عهد معاوية، وهو الذي ولد في عهد الرسول (ص) ..

فلو كان السبب هو: امتداد العهد وقصره، لَمَّا كُنَّا نُشاهد ذلك الزُّور في عهد معاوية!

ولا أدري على مَ أحمل قولة الخديديِّ هذه؟

وما السبب الذي دفعه لِتبني هذا الرأي؟

(١) - الواقع يُشير إلى: أنّ الرِّسالة مفتعلة، أو على الأقلّ مدسوسٌ فيها، مثل هذه الفقرات، التي هي للتفنُّص، لا للفتخر...

وليس داساً عليها، سوى السِّياسة الغاشمة.. فهي من أنصار الملك العبَّاسيِّ قربانٌ وزلفى!.

وما الذي دعاه لأن تقف هذه القولة - دون غيرها - في صدره، دون غيره؟
ولكننا لأنسيء الظنَّ به! مادامت "إساءة الظنِّ بالمسلم حرامٌ"، و"حرمة أعظم
من حرمة الكعبة" كما يقول الغزاليُّ، في مانقلناه عنه، عند حديثنا "على العتبة"،
من هذا الكتاب!.

وبعد سيرٍ في طريقٍ رجراجٍ، سار عليه الحديديُّ خطواتٍ هزيلةً، عاد فناقضه
بقوله:

[وصنّفَ بعضُ الطّالِبِينَ، في هذا العصر، كتباً في إسلام أبي طالب^(١)، وبعثه إليَّ
وسألني أن أكتب عليه بخطِّي، نظماً، أو نثراً، أشهد فيه بصحّة ذلك، وبوثاقة الأدلّة
عليه، فتحرّجت أن أحكم بذلك، حكماً قاطعاً، لِمَا عندي مِنَ التَّوقُّفِ فيه..
ولم أستجزّ أن أقعد عن تعظيم أبي طالب، فبأنّي أعلم أنّه لولاه لَمَّا قامت
للإسلام دعامةٌ، وأعلم أنّ حقّه واجبٌ على كلِّ مسلمٍ، في الدُّنيا، إلى أن تقوم
السّاعة.. فكتبتُ على ظهر المجلّد:

وَلَوْلَا أَبُو طَالِبٍ وَابْنُهُ
لَمَّا مَثَلَ الدِّينُ شَخْصاً، فَقَامَا
فَإِذَاكَ بِمَكَّةَ: آوَى وَحَامَى
وَهَذَا يَثْرِبَ جَسَّ الْحِمَامَا
تَكْفُلَ عَبْدٌ مُنَافٍ بِأَمْرِ
وَأَوْدَى، فَكَانَ عَلَيَّ تَمَامَا
فَقُلْتُ: فِي ثَبِيرٍ مَضَى، بَعْدَ مَا
قَضَى مَا قَضَاهُ... وَأَبْقَى شَمَامَا

(١) - هر: كتاب "الحجّة على الذّاهب إلى تكفير أبي طالب"، للسّيّد شمس الدين، وهو أحد
مراجعتنا، لهذا الكتاب.

فَللّهِ ذَا فَاتَحْأَ لِلْهُدَى..

وَلِلّهِ ذَا لِلْمَعَالِي خَتَامًا..

وَمَا ضَرَّ مَجْنَدَ أَبِي طَالِبٍ

جَهْلٌ لَفَا، أَوْ بَصِيرٌ تَعَامَى!

كَمَا لَا يَضُرُّ آيَاتِ الصُّبْحِ

مَنْ ظَنَّ ضَوْءَ النَّهَارِ الظُّلُمَا!

فَوَقَيْتَهُ حَقَّهُ، مَنِ: التَّعْظِيمِ، وَالْإِجْلَالِ، وَلَمْ أَجْزَمْ بِأَمْرِ، عِنْدِي فِيهِ وَقْفَةٌ^(١).

* *

وإننا لنجد التناقض صريحاً، في الفقرة التي قبل آياته! فهو يقول:

إنه تحرّج عن الحكم بإسلام أبي طالب، لتلك الوقفة في نفسه.. ولكنه لم

يستجيز القعود عن تعظيم مَنْ كان السُّنَادُ لبناء صرح الإسلام الشُّموخ؛ وَمَنْ لولاه

لَمَّا كانت للإسلام دعامة قائمة.. وحَقُّه واجبٌ على كُلِّ مسلمٍ، في الدُّنْيَا، وَجَدَ،

أو كان في عالم الإيجاد، حتى فناء الدُّنْيَا، وقيام يوم الدِّين..!

فهذان ضدّان لا يجتمعان: أبو طالب كافرًا، ولكنه لو لم يكن، لَمَّا كان للإسلام

دعامة! وبذلك له الحقُّ المفروض، في عنق كُلِّ مَنْ يمتُّ للإسلام بسببٍ.

فأيُّ كافرٍ هذا..؟

وَمِنْ أَيْنَ له هذا الحقُّ الرَّجِيعُ؟! هل كان مِنْ كُفْرِهِ؟ وكيف كان العضد

والدَّعامة، في بناء الإسلام، ذلك الكافر؟؟

ولكنّه - بعد ذلك كلّه - كَتَبَ على الكتاب، تلك الآيات، التي نَطَقَ الحقُّ فيها..

فراح يعرِّضُ لِمَا قام به أبو طالب، وابنه الإمام، مِنْ رفيع العمل، وفدَّ النُصرة،

وهم دعامتا الإسلام، الَّتِتان لولاهما، لَمَّا مثل الدِّين، وقامت له قائمة.

فالأب: بدأ العمل الرَّفِيع، وأسس دعامة البناء.

(١) - النهج ٣١٧، ٣١٨: ٣.

والولد: أتم العمل، وزاد في البناء.

الأب: حاط الرسول، ونَصَرَه.

والولد: لاقى الحِمام، حتى جَسَّ منه الملمس، في سبيله.

فالمهمّة الفضلى، التي تكفّل بها الأب الكريم، وأودى، بعد أن لم تصلِ الغاية..
كان لها الإبن العظيم، ذلك المتّم، فكان تماماً للجهد، الذي قام به الأب.

فأبو طالب، هو الفاتح للهدى.

وابنه: كان الحتام للمعالي.

ماتقول في هذا: "فَلِلَّهِ ذَا فَاتِحًا لِلْهَدَى"؟.

وما الهدى هذا؟.

أليس يعني هدى الإسلام؟.

فهل الفاتح لهدى الإسلام، يكون ذلك الكافر الجاحد؟! - أستغفر الله!

ولكنّه، وقد وفّاه حقّه مِنَ التّعظيم والإجلال - كما يقول - لم يجزم بإسلامه،
وقد وقّف في حلقة ما وقّف..

ولعله قد "شرق بالماء"، أو قد امتلأ به فوه، فلم يستطع النطق..!

ولكنّا نقف عند قوله:

وَمَا ضَرَّ مُحَمَّدَ أَبِي طَالِبٍ

جَهْلٌ لَفَا، أَوْ "بَصِيرٌ تَعَامَى"؟

كَمَا لَا يَضُرُّ آيَاتِ الصَّبَّاحِ،

مَنْ ظَنَّ ضَوْءَ النَّهَارِ الظَّلَامَا!

فأيُّ ضررٍ على مجد أبي طالب الأنيّل، وإيمانه الرّسِيخ، وإسلامه الثّابت: أن

يتعامى عنه ابن أبي الحديد - وهو به ذلك البصير - لأشياء.. قد تكون فرضت

عليه: أن يسلك هذا الطّريق المتناد، ويتجنّب المهيّع الأبلج..؟!

افتراء وتزوير

اشرنا - في حديثنا "على العتبة" - إلى السوق السوداء، التي أقامها معاوية ، وأنفق عليها، مِنْ مال المسلمين، إنفاق مَنْ لَا يُحْسُ بالمسؤولية، ولا يخشى سوء مغبة العمل: فكثُر فيها زور الحديث، وتأويل الآيات، وتحريفها عمَّا أنزل الله..

ومضت هذه السوق - وقد احتشدت فيها البضائع الزائفة - تسجل على جبين الدهر، ماتسودُّ منه الصفحات، بحروفها القائمة، حتى مسخت الحقائق، وشوَّهت وجه التاريخ.

وقد كان لأبي طالب - وهو أبو عليّ البطل - نصيبٌ مِنْ ذلك الظلم الشنيع، هو مِنْ طراز "جزاء ستمار"!!

فوضعت في حقِّه الأراجيف، لئثال مِنْ وضيء إيمانه، وتطفئ مِنْ لألاء معتقده، وتتناسى صلابة جهاده.. بل إنها تُريد أن تنتقم منه.. مِنْ صلابة هذا الجهاد، الذي حال بينها، وبين خنق الرسالة في مهدها، يوم جاء بها ابن أخيه.. فراحت تختلق في حقِّه الأراجيف، مِنْ الأحاديث المزورة، وتحريف الآيات، عمَّا أنزل الله.

فعلينا أن نطوف - في هذا الفصل - بهذا الزور مِنْ التهم، التي حيكت حول أبي طالب، والأغراض التي افترت عليه ماهو منه براء، وما هو منه نقى الصفحة، نصيع البياض، طاهر الذيل.

علينا أن نطوف بهذا الزور المفتعل، والتأويل المختلق، فنلقي عليه النظرة الفاحصة، ونضعه على مطرقة النقد، ونحت مجهر التحليل، لنرى ماذا هناك..

الآية الأولى:

﴿وَمِنْهُمْ: مَن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ، وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا. وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا، حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ، يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا: إِنَّ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ، وَيَأْوَنَ عَنْهُ؛ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ. وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ ذُوقُوا عَلَى النَّارِ، فَقَالُوا: يَالَيْتَنَا نُرَدُّ، وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١).

**

أنت تجد: أنَّ هذه الآيات الثلاث - في سياقها المتصل - تعرض لنا عمل بعض المشركين الذين يستمعون للرَّسول، في ما هو يتلو الوحي، الذي يتنزل عليه بالقرآن الكريم، ولكنَّهم لا يفقهون شيئاً ممَّا يتلو، وقد جعل الله الأكنة على قلوبهم أن تعي، والوقر في آذانهم أن تسمع، فلا يؤمنون بهذه الآيات، التي يرونها، من الرَّسول (ص)..! وهم - بعد ذلك - يُجادلون الرَّسول، في هذه الآيات الوفيرة.. ويقولون من صلابة عنادهم: أنَّ هذه الآيات، ليست سوى أساطير الأوَّلِينَ.

(١) - الأنعام ٢٥ - ٢٧ .

فما هي سوى خرافات باطلة، وأكاذيب مفتعلة - فهي: غاية الكفر والضلال^(١). وليس يقف عنادهم، عند هذا الحد...! بل يُوغلون في عملهم المنكر، فينهون الناس: أن يستمعوا للقرآن الكريم، لأنهم يخشون أن يُسيطر عليهم بجلاله وهيئته، ويستحوذ منهم على القلوب، بعظمته وسلاسته.. أو ينهون عن الرسول، فلا يتبعه أحد من المشركين، فيؤمن بما يحمل من رسالة سامية، فيحولون بين هؤلاء زبين الإيمان.. وينأون عنه - والتأي هو: - البعد - فهم يتباعدون عن الرسول. وليسوا يبعدون إلا عن مصدر النور، فيضلون غيرهم بنهيهم، ويضلون أنفسهم بنأيهم.. وما ذلك سوى الهلاك؛ ولكنهم من الشعور على فقدان...! ولكنهم وقفة على النار، يعضون فيها الأنامل، من الغيظ والألم، ويندمون على ما فرط منهم، من تكذيب الآيات الباهرة، فيرجون عودة، ليكونوا فيها من المؤمنين، حتى ينجوا من أليم العذاب..

* *

وأنت ترى من سياق الآيات الثلاث: أنها متحدة الغرض، تعني موضوعاً واحداً، وتتناول عرض عمل بعض المشركين. ولكن محرفي الكلم عن مواضعه، جازأ، فتأولوا الآية الوسطى - من الثلاث - وحرّفوها عما أنزل الله.

فقد أخرج الطبري وغيره، من طريق سفيان الثوري، عن حبيب بن أبي ثابت: عن سمع ابن عباس، أنه قال:

(١) - يقول الزّخشي - في كشفاته: ٤٤٧: ١ (١٠: ٢) - عند حديثه على هذه الآيات: [رؤي: أنه اجتمع أبو سفيان، والوليد، والنضر، وعتبة، وشيبة، وأبو جهل، وأضرابهم، يستمعون تلاوة رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فقالوا للنضر: يا أبا قتيلة! ما يقول محمد؟

فقال: والذي جعلها يته - يعني: الكعبة - ما أدري ما يقول، إلا أنه يُحرّك لسانه، ويقول أساطير الأولين]. إلى أن قال الزّخشي: "فنزلت".

وقد ذكرها البيضاوي، أيضاً، في تفسيره - ١٨٤: ٢ - وذكرت في مجمع البيان ٣٣: ٧ .

إنها نزلت في أبي طالب، ينهى عن أذى رسول الله صلى الله عليه، وآله، وسلم أن يؤذى، وينأى أن يدخل في الإسلام^(١).

ونُجمل ملاحظاتنا عليه في مايلي:

أ - نجد في هذه السلسلة: سفيان الثوري. وقد كان يُدلس عن الضعفاء، ويكتب عن الكذابين^(٢)، ويروي عن الضعفاء^(٣).

قال ابن مبارك: حَدَّثَ سفيانٌ بِحَدِيثٍ، فَجَنَّتْهُ وَهُوَ يُدْلِسُهُ، فَلَمَّا رَأَيْتَنِي اسْتَحْيَى، وَقَالَ: نَرُوهُ عَنْكَ^(٤).

وقال ابن معين: مرسلات سفيان، شبه الرِّيح^(٥).

ونقل عن الذهبي في تذكرة الحفاظ: أن الفرياني، قال: سمعتُ سفيان يقول:

لو أردنا أن نُحدِّثَكم بالحديث، كما سمعناه، ما حَدَّثناكم بِحَدِيثٍ واحدٍ^(٦).

وسفيان هذا، يحدِّث عن الصلت بن دينار الأزدي، والصلت هذا، مِمَّنْ ينال علياً وينقصه، وهو مِمَّنْ طعن فيه أرباب الجرح والتعديل.

ومع هذا كله، فسفيان يروي عنه، ويقول إذا حَدَّثَ عنه: حَدَّثَنَا أَبُو شَعِيبٍ، وَلَا يُسَمِّيهِ، حتَّى قال شعبة: إذا حَدَّثَكم سفيان عن رجلٍ لا تعرفونه، فلا تقبلوا منه، فَإِنَّمَا يُحَدِّثُكم عن مثل أبي شعيب المجنون^(٧).

وهناك مَنْ جعل سفيان هذا، مِنْ عداد الشيعة.

ونجدنا بين نقیضین: نسبته للتشیع؛ وصحة رواية هذا الحديث عنه..!

(١) - تفسير ابن كثير ١: ٢٧، والغدير ٣: ٨، مسنداً له، ولغيره.

(٢) - ميزان الاعتدال ٣: ٩٨، ودلائل الصدق ٣٤: ١.

(٣) - إسناف المبطأ، ص ٢، ودلائل الصدق ٣٤: ١.

(٤) - دلائل الصدق ٣٤: ١، وأعيان الشيعة ١٣٨: ٣٥.

(٥) و (٦) - المصدر الأول - الدلائل.

(٧) - دلائل الصدق ص ٣٨ - ١. وقد جاء ذلك، في ميزان الاعتدال ص ٤٦٨: ١، في ترجمة

الصلت.

فهما ضدَّان لا يجتمعان: التَّشْيُعُ؛ وتكثير أبي طالب؛ حيث أنَّ أهل البيت "عليهم السَّلام" - وتبعضهم شيعةهم - مجمعون على إيمان أبي طالب الثَّابت؛ ومثلهم كلُّ عاقلٍ منصفٍ، والخروج عن هذا الإجماع خروج عن التَّشْيُعِ.. فإن ثبت شيعةُته، تنفي بذلك هذه الرواية عنه..

وقد ترجم له الإمام الأمين - في أعيانه^(١) - وَذَكَرَ فِيهِ: التَّجْرِيعُ، والتَّعْدِيلُ؛ إلَّا أَنِّي أُمِيلُ إِلَى التَّجْرِيعِ، لِتَعَدُّدِ جَوَانِبِهِ، وَلَا سِيَّما أَنَّ فِيهِ كَثِيرًا مِنَ الِاعْتِرَاضِ، عَلَى إِمَامِ الْمَذْهَبِ الشَّيْعِيِّ: جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلام^(٢).

وهناك قول بتشيُّعه، وعُدوله عن ذلك^(٣)؛ وقول آخر، بزيديته^(٤).

ب - إرسال الحديث، بما بين: حبيب، وابن عباس،! وقطع الصَّلَّةَ بين الاثنين، يكشف لنا السَّرَّ الكمين، ويفضح اللُّغْزَ الخفيَّ.

ج - يقول الأُمِينُ: إِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ، ثَمَّا انْفَرَدَ بِهِ حَبِيبٌ، وَلَمْ يُشَارِكْهُ أَحَدٌ فِي مَارَوِيٍّ؛ وَقَدْ قَالَ عَنْهُ ابْنُ حَبَّانَ، وَابْنُ خَزِيمَةَ: إِنَّهُ كَانَ مَدْلُوسًا. وَقَالَ الْعَقِيلِيُّ: غَمَزَهُ ابْنُ عَوْنٍ، وَلَهُ عَنْ عَطَاءِ أَحَادِيثٌ، لَا يُتَابَعُ عَلَيْهَا.

وقال القُطَّانُ: لَهُ غَيْرُ حَدِيثٍ عَنْ عَطَاءٍ، لَا يُتَابَعُ عَلَيْهِ، وَلَيْسَتْ بِمَحْفُوظَةٍ.

وقال الآجَرِيُّ، عَنْ أَبِي دَاوُدَ: لَيْسَ لِحَبِيبٍ، عَنْ عَاصِمِ بْنِ ضَمْرَةَ، شَيْءٌ يَصِحُّ^(٥).

وقال ابن جعفر النَّحَّاسُ: كَانَ يَقُولُ: إِذَا حَدَّثَنِي رَجُلٌ عَنْكَ بِحَدِيثٍ، ثُمَّ حَدَّثْتُ بِهِ عَنْكَ، كُنْتُ صَادِقًا^(٦).

أَرَأَيْتَ تَسَاهَلَ الرَّجُلَ، فِي رَوَايَتِهِ؟ وَهَزَّءَهُ فِي حَدِيثِهِ؟

(١) - ص ١٢٧ - ١٤٨: ٣٥ .

(٢) - ص ١٤٢ - ١٤٨: ٣٥ .

(٣) - ص ١٤١: ٣٥ .

(٤) - ص ١٣٩ - ١٤١: ٣٥، كما ذُكِرَ فِي الزُّيْدِيَّةِ، فِي الْفَهْرَسْتِ ٢٥٣ .

(٥) - الْغَدِيرُ ٤: ٨، عَنْ تَهْذِيبِ التَّهْذِيبِ ١٧٩: ٢ .

(٦) - دَلَائِلُ الصَّدَقِ ٢٦: ١ .

د - إن القرطبي قال: معنى الآية عامٌ في جميع الكفار - أي: ينهون عن اتباع محمد، ويناؤون عنه - عن: ابن عباس، والحسن^(١).

وفي ما نقله الأميني، عن الطبري، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، من طريق علي بن أبي طلحة، والعوفي: إن الثابت عن ابن عباس - عن هذه الطرق العديدة - يراها أنها في المشركين، الذين كانوا ينهون الناس عن محمد، أن يؤمنوا به، ويناؤون عنه^(٢).

ونقله الأميني أيضاً - مخرجاً، عن عديد الطرق، وكلهم يرون في تفسير الآية: ينهون عن القرآن، وعن النبي، ويناؤون عنه: يتباعدون عنه^(٣).

هـ - ليس بين هؤلاء من فسرها على ما نقله سفيان الثوري، بعدما نقل عن ابن عباس - من عديد الطرق ما يخالف ما رواه الثوري عنه، في تفسير هذه الآية بالذات، وفي رأيه حول عمه أبي طالب، ولا سيما بعد صريح ما نقلناه من رأيه في عمه، في الفصل السابق^(٤).

و - إن ما نجده من سياق الآيات الثلاث، واتحادها في ما ترمي إليه، يقف مانعاً، أمام من يريد: أن يُحرّف من بينها الآية الثانية، وهي متصلة بما سبق، وما لحق.

ز - إن تحريف معنى الآية الوسطى - في ذاتها - عن معناها، يتنافى ووضوح ما ترمي إليه من معنى..

فيبينما سياق الآية - كما فسرها بذلك المفسرون - ينهون عن استماع القرآن، والإصغاء للرّسول، ويتباعدون عنه.. وإذا بالنّهي يخصّون به الحياطة، ونصرة الرّسول - أي: ينهون عن أذاه!

فمن أين نحصل على هذا المعنى، من هذه الآية الكريمة؟!

(١) - الغدير ٣: ٨ .

(٢) - الغدير ٣: ٨ . وذكر ذلك عن ابن عباس، في المجمع ٣٥: ٧ .

(٣) - الغدير ٣: ٨ .

(٤) - تحت عنوان على "لسان الصحابة وآخرين".

ح - وليس أكذب من هذا التأويل، إلا مَنْ خصَّ به أبا طالب، وحده! كما قيل.
هو خاصٌّ بأبي طالب، ينهى الكفار عن أذى الرُّسول، ويتباعدون عن الإيمان به^(١).
فإنَّ الضمير في الآية - ضمير الجمع، وهو: "ينهون، ويتأون".. ولو كان
مختصاً بأبي طالب، لَكُنَّا نجد الخطاب، خطاب المفرد، لا الجمع!!
ثم كيف يصحُّ انطباق معنى "يتأون عنه" على أبي طالب، وهو الذي لم ينأ
عنه طرفة عين^{١٩}.

فمتى كان هذا: لتأيي؟!

أفي نصرته، وحياطته، والقرب منه، والدُّعَاية له ولدينه، والدُّفَاع عنه، وعن
أتباع وأتباع دينه..؟!

فكيف تجتمع هذه الأعمال منه، مع نأيه عنه..؟!

ط - لعلَّ من الخير: أن نأتي - هنا - على أقوال بعض المفسرين، في ما قالوه
حول هذا الموضوع.

ونحن نأتي على هذا، نقلاً عن الأُميِّنيِّ - وهو الثِّقة الأُمِين - لتعلُّد بعض
المصادر، التي أخذ منها:

[وَذَكَرَ الرَّازِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ ٤ : ٢٨ قَوْلِينَ: نَزَوَّهَا فِي الْمُشْرِكِينَ، الَّذِينَ كَانُوا
يَنْهَوْنَ النَّاسَ عَنْ اتِّبَاعِ النَّبِيِّ، وَالْإِقْرَارِ بِرِسَالَتِهِ، وَنَزَوَّهَا فِي أَبِي طَالِبٍ خَاصَّةً،
فَقَالَ: وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَشْبَهُ، لَوَجْهِينَ:

الأوَّل: إِنَّ جَمِيعَ آيَاتِ الْمُتَقَدِّمَةِ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ، تَقْتَضِي ذِمَّ طَرِيقَتِهِمْ، فَكَذَلِكَ
قَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾، يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مَحْمُولاً عَلَى أَمْرِ مَذْمُومٍ، فَلَزَّ حَمْلُهُ
عَلَى أَنَّ أَبَا طَالِبٍ، كَانَ يَنْهَى عَنْ إِيْذَانِهِ، لَمَّا حَصَلَ هَذَا النَّظْمُ.

والثَّانِي: إِنَّهُ تَعَالَى قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿وَإِنْ يَهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ يَعْنِي بِهِ
مَاتَقَدَّمَ ذِكْرُهُ، وَلَا يَلِيقُ ذَلِكَ بِأَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ -
النَّهْيُ عَنْ أَذْيَتِهِ، لِأَنَّ ذَلِكَ حَسَنٌ، وَلَا يُوجِبُ الْهَلَاكَ.

(١) - القدير ٣ : ٨ .

فإن قيل: إن قوله: ﴿وَإِنْ يُهْلَكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ يرجع إلى قوله: ﴿وَيَتَأَوْنَ عَنْهُ﴾، لا إلى قوله: ﴿يَنْتَهُونَ عَنْهُ﴾، لأن المراد بذلك: أنهم يعدون عنه بمفارقة دينه، وترك الموافقة له، وذلك ذم، فلا يصح ما رجّحتم به هذا القول. قلنا إن ظاهر قوله: ﴿وَإِنْ يُهْلَكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾، يرجع إلى كل ما تقدّم ذكره، لأنه بمنزلة أن يقال: إن فلاناً يبعد عن الشيء الفلاني، وينفر عنه، ولا يضرّ بذلك إلا نفسه، فلا يكون هذا الضرر، متعلقاً بأحد الأمرين، دون الآخر - اهـ. وذكّر ابن كثير في تفسيره ٢: ١٢٧: القول الأول نقلاً عن: ابن الحنفية وقتادة، ومجاهد، والضحاك، وغير واحد، فقال: وهذا القول أظهر - والله أعلم - وهو اختيار ابن جرير^(١).

وذكّر النسفي في تفسيره بهامش تفسير الخازن - ٢: ١ - القول الأول. ثم قال: وقيل: غني به أبو طالب - والأول أشبه.

وذكّر الزمخشري في الكشاف ١: ٤٤٨^(٢)، والشوكاني في تفسيره ٢: ١٠٣ وغيرهما: القول الأول، وعزّوا القول الثاني إلى القليل. وجاء الآلوسي، وفصل القول الأول، ثم ذكر الثاني، وأردفه بقوله: وردّه الإمام. ثم ذكر محصل قول الرازي^(٣).

وهناك من عمّم هذه الآية، فرآها: نازلة في عمومة النبي (ص)، [وكانوا عشرة، فكانوا أشدّ الناس معه في العلانية وأشدّ الناس عليه في السر]^(٤). وليس خفي أن من بين أعمام النبي (ص): حمزة سيّد الشهداء، والعبّاس!

(١) - كذلك وجدناه، عند رجوعنا إليه، في تفسير ابن كثير. وذكّر هذا القول - في الجمع ٣٦: ٧ - عن: ابن عبّاس، ومحمد بن الحنفية، والحسن، والسدي، وقتادة، ومجاهد، واختاره الجبائي.

(٢) - ص ١٠: ٢.

(٣) - القدير ٧، ٨: ٨.

(٤) - أسباب النزول ٩٨ عرجاً عن أبي حاتم، عن سعيد بن أبي هلال. وتفسير ابن كثير ١٢: ٢، عرجاً عنهما.

ولك - بعد ذلك - أن تحكم، في ما إذا كان هذان مِمَّنْ يقفون على النار، فيقولون
ما حكاها الله سبحانه، عنهم، في هذه الآية، مِنْ إبداء النَّدَم، حيث لا تَنْفَع فيه!.

أم ماذا يتأَوَّل المهوِّسون المغرضون!؟.

أمَّا أنا فلا أستبعد وجود مَنْ يقول ذلك، بعد أن عرضنا نماذج، في الفصل

الأوَّل - "على العتبة" - مِنْ هذا الكتاب...!

ومنها: ما حدَّث به عروة، مِنْ أَنَّ العَبَّاسَ وعلِيَّاً، مِنْ أهل النار!.

وما الحمزة بالذي يُداني عَلِيَّاً في فضله، وقد قيل فيه ما قيل!!!.

ي - مِنْ هذا كله... ينكشف لنا السُّرُّ المسدَّل، وتنفضح الغايات الدُّون، مِنْ

تحريف الآية، وتحويلها مِنْ المشركين، إلى أَبِي طالب، المؤْمِنِ العميق...

مِنْ حيث السند، فهو واهٍ متهاك...

ومِنْ حيث المعنى، فهو مُتَّصِلٌ متماسكٌ، لا يفصل بينه شيء..

ومِنْ حيث آراء المفسِّرين، الذين عرضنا البعض مِنْ آرائهم..

ومِنْ حيث الثَّابت، مِنْ سيرة أَبِي طالب - قولاً، وعملاً - وشهادات الرُّسول

وآله، ممَّا عرضنا...

كلُّ هذه.. تفرض علينا أن نصفح بذلك التَّأْوِيلَ الخَرِّفَ، عَرَضَ الجدار،

ولا نلتفت للافتئات المغرضة... والذي نال بعضه، في مانال، سيُدُّ الشُّهداء حمزة،

وأبا الفضل العبَّاس!.

الآية الثانية والثالثة:

- ١ - ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ، وَلَوْ كَانُوا أَوْلِيَٰ قُرْبَىٰ، مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾^(١).
- ٢ - ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(٢).

* *

نودُّ هنا - حول حديثنا عن تأويل هاتين الآيتين الكريمتين، وتحريفهما عمّا أنزل الله، إلى النّيل من أبي طالب - أن نأتي، أولاً، بالأقوال، التي حرّفتها، وصرفتها إليه، لنناقش السّند، ونفضح الرواة، واحداً بعد آخر.

* *

- ١ - [عن إسحاق بن إبراهيم، حدّثنا عبد الرزّاق، أخبرنا مَعْمَر، عن الزُّهري، عن سعيد بن المسيّب، عن أبيه، قال:
- لما حضرت أبا طالب الوفاة، دَخَلَ عليه النّبيُّ صَلَّى الله عليه "وآله" وسلّم، وعنده أبو جهل، وعبد الله بن أبي أميّة، فقال النّبيُّ صَلَّى الله عليه "وآله" وسلّم:
- أي عمّ! قل: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، أحاجّ لك بها عند الله!.
- فقال أبو جهل، وعبد الله بن أبي أميّة: يا أبا طالبٍ أترغب عن ملة عبد المطلب؟
- فقال النّبيُّ صَلَّى الله عليه "وآله" وسلّم:

(١) - التوبة ١١٣.

(٢) - القصص ٥٦.

«لَاَسْتَغْفِرُكَ لَكَ مَا لَمْ أَتُكْ عَنْكَ» فنزلت:
﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ (الآية^(١)).

* *

٢ - وعن أبي اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، قال: أخبرني سعيد بن المسيب، عن أبيه قال:

لما حضرت أبا طالب الوفاة، جاءه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فوجد عنده: أبا جهل، وعبد الله بن أمية بن المغيرة، فقال:
«أي عم! قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله».

فقال أبو جهل، وعبد الله بن أمية: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يعرضها عليه، ويُعيدان بتلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«والله لأستغفرنَّ لك، ما لم أنه عنك»، فانزل الله:
﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾.

وانزل الله في أبي طالب، فقال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:
﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ؛ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (١).

* *

(١) - البخاري ٢٠١: ٢، و ٨٧: ٣.

(٢) - المصدر ١٠٧: ٣.

٣ - [وعن حرملة بن يحيى التجيبي، أخبرنا عبد الله بن وهب، قال: أخبرني يونس، عن ابن شهاب، قال: أخبرني سعيد بن المسيب، عن أبيه، قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة، جاء رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إلخ^(١).

* *

٤ - [عن محمد بن عباد، وابن أبي عمر، قالوا: حدثنا مروان، عن يزيد - وهو ابن كيسان - عن أبي حازم، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعنه عند الموت:

قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، أَشْهَدُ لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

فأبى. فأنزل الله:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾^(٢).

* * *

٥ - [عن محمد بن حاتم بن ميمون، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا يزيد بن كيسان، عن أبي حازم الأشجعي، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعنه:

قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَشْهَدُ لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

قال: لولا أن تعيرني قريش، يقولون: إنما حملة على ذلك الجزع من الموت، لأقررت بها عينك، فأنزل الله:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي - الْآيَةَ﴾^(٣).

* * *

(١) - صحيح مسلم ٤٠ : ١ .

(٢) و (٣) - المصدر ٤١ : ١ .

رواة الأحاديث الثلاثة الأولى

نبدأ النظر في سلسلة الأحاديث، بالثلاثة الأولى، وهو من جوانب:

- ١ -

نجد في الحديث الأول، من بين رواته:

أ - إسحاق بن إبراهيم: مبتور الاسم.

ولانعلم به هل هو الضعيف؟^(١) أو من شيخه ساقط؟ أو من ليس بثقة؟

أو من لا يعرفه الذهبي، وضعفه الدارقطني؟

أو من كذبه ابن عدي والأزدي، لوضعه الحديث؟

أو من قال عنه الحاكم: ليس بالقوي؛ ومرة أخرى: ضعيف؛ وقال الدارقطني:

ليس بالقوي؟

أو من قال عنه النسائي: ليس بثقة؛ وأبو داؤود: ليس بشيء؛ وكذبه محدث

جمص: محمد بن عوف الطائي؟

أو من روى الأحاديث المنكرة؟ أو من ترك الأخذ عنه؟^(٢).

ولكن فلعله إسحاق بن إبراهيم الديري، صاحب عبد الرزاق، الذي قال عنه الذهبي:

"ما كان الرجل صاحب حديث" إلى قوله: "لكن روى عن عبد الرزاق أحاديث منكرة، فوقع

التردد فيها: هل هي منه، فانفرد بها؟ أو هي معروفة لما انفرد به عبد الرزاق؟"^(٣).

(١) - الميزان ٨٤ - ٨٦ : ١ .

(٢) - المصدر ٨٥ : ١ .

ولكن صاحب شيخ الأبطح - وقد عَرَضَ لهذا الحديث - يقول: إنه إسحاق بن إبراهيم، بن راهويه^(١).

وهذا قد ذكره الذهبي، فقال عنه:

[وقال أبو عبيد الآجري: سمعت أبا داؤود يقول: إسحاق بن راهويه، تغيّر قبل أن يموت، بخمسة أشهر، وسمعتُ منه في تلك الأيام، فرميت به] - حتى يقول: [وذكر لشيخنا أبي الحجّاج حديث، فقال: قيل: إسحاق اختلط في آخر عمره].

ثم أورد عنه، ما رآه مِنْ مناكير حديثه^(٢).

غير أَنَا نُقَرِّبُهُ بالدبري، صاحب عبد الرزّاق. ودليلنا على ذلك إسناده الحديث لعبد الرزّاق.

ب - ونجد، بعدئذٍ، عبد الرزّاق.

وَمَنْ عبد الرزّاق هذا؟

هل هو عبد الرزّاق بن عمر الثَّقَفِيُّ، الذي قيل عنه: ضعيف، ليس بثقة، منكر الحديث؛ وقال عنه الدّارقطني: هو ضعيفٌ مِّنْ قِبَلِ أَنَّ كتابه ضاع. وقال أبو مسهر: ضاع كتابه عن الزُّهري، فكان يتبعه بعد أن ذَهَبَ، فيأخذ عنه ماسواه؟^(٣). ولكن فلعلّه هو الذي قال عنه الذهبي، في حديثه عن إسحاق بن إبراهيم، وهو مانقلناه: "لكن روى عن عبد الرزّاق أحاديثٌ منكّرة" - إلخ.

وهو الرّواي عشرة آلاف حديث، عن معمر بن راشد^(٤).

ج - وكذلك نجد ماذكر، مِنْ اسم معمر. فليس غير الكذاب المجهول، راوي المناكير^(٥).

(١) - الميزان - ٧٠ .

(٢) - الميزان ٨٦ : ١ .

(٣) - الميزان ١٢٦ : ٢ .

(٤) - الميزان ١٨٨ : ٣. وعبد الرزاق، هذا، كان ينال مِنْ عثمان - كما في الغدير ٢٥٢ : ٥ .

(٥) - الميزان ١٨٨ : ٣.

وفي ما نظنُّ أنَّ معمرًا هذا، وهو معمر بن راشد^(١). وقد قال عنه الذهبي:
"وله أوهامٌ معروفةٌ، احتملت له. وقال أبو حاتم: وما حدث به - بالبصرة -
ففيه أغاليط"^(٢).

وقد قال عبد الرزاق عنه - وهو أحد حلقات السُّند، الذي روى عنه إسحاق منكرَ
الحديث، الذي نحن بصدد رجاله الكذبة: "إنه كُتِبَ عن معمرٍ عشرة آلاف حديث"^(٣).
أرأيت هذه الكثرة؟! ربُّ زُذٍّ وبارك!.
وهل رأيتَ ما في هذه الحلقات المفرغة من: الكذب، والإفراء...؟! فما في
حلقات سلسلة الحديث، إلا عرى متفصِّمة^(٤).

- ٢ -

ويُوافينا - في الحديث الثاني - هذا السُّند:
أ - وهكذا لا تنتهي سلسلة الأسماء البتراء!.
فَمَنْ أبو اليمان هذا؟
فإننا لانجد، سوى اسمٍ واحدٍ، أرسل حديثاً^(٥).
ب - والثاني فيهما، هو: شعيب.
ونجد - على هذا الاسم - سلسلة، ليس فيها غير الوضَّاع، الكذوب،
الضعيف، والراوي للمناكير، والمجهول، إلى آخر السلسلة^(٦).

(١) - إلى هذا ذهب شرف الدين، في شيخ الأبطح ص ٧٠ .

(٢) - الميزان ١٨٨ : ٣ .

(٣) - الميزان ١٨٨ : ٣ .

(٤) - تفصُّم: دسَّدع.

(٥) - الميزان ٢٨٨ : ٣ .

(٦) - المصدر ٤٤٧، ٤٤٨ : ١ . وفي الغدير ٢٠٤ : ٥ : [شعيب بن عمرو الطُّحَّان. وقال

الأزدِي: كَذَّابٌ] .

وهنا... تلتقي سلسلة الحديثين بالزُّهريّ. وإنّها لعروة مفكّكة الأجزاء!
ولاندري، فهل يُؤخذ حديثٌ عن الزُّهريّ، وهو الرّأوي ذلك الحديث المفتعل،
عن: عليّ، والعبّاس - في مانقلناه، في حديثنا "على العتبة" وهو حديث:
إنّ عليّاً والعبّاس، مِنْ أهل النار، وأنهما يموتان على غير ملة الرّسول^(١).
فهل يُؤخذ حديثٌ في أبي طالب، يرويه هذا الطّاعن في عليّ، القائل الزُّور
والإفك، بكلّ قحّة، وصلافة وجهٍ وتقلُّص إيمان؟!

إنّ الباعث بارز، أوضح مِنْ الشّمس... وإنّهُ لهُو المنتظر منه...
فما عسانا نتظر منه أن يقول عن أبي طالب، غير ما قال، بعد أن قال في
عليّ، مثل هذا القول، النّابي، والتهمة الفاحشة...!
أليس يكفي أن يكون أبو طالب أباً لعلّي، ليقول فيه أشدّ ممّا قال...؟! ولسنا -
بعد هذا - في حاجة لأن نقول: إنّه كان مِنَ المدلسين^(٢).
فيكفيّا عنه هذان الحديثان - في عليّ والعبّاس - ليسقط، عندنا، مِنْ ميزان
الرّجال...!

ومِنْ الخير أن نُشير إلى أنّ الحديث الأوّل، الذي أتينا عليه، والمفتعل في حقّ أبي
طالب، والذي رواه عبد الرزّاق، عن معمر، عن الزُّهريّ...
مِنْ الخير أن نُشير إلى أنّ عبد الرزّاق ومعمراً - هذين اللذين اجتماعاً مع
الزُّهريّ، وشاركاه في نسج خيوط ذلك الحديث الكذوب - لم يستطيعا أن يُسيرا
الزُّهريّ في بهتانه، إلى الشّروط الأخير... فإنّ النّفس قد قصر منهما، أن يمتدّ حتى
نهاية الشّروط...

(١) - ذكرنا الحديثين - في حديثنا "على العتبة" - عن النّهج ٣٥٨ : ١ .

(٢) - الميزان ١٢٦ : ٣ .

لذلك... روى عبد الرزاق، عن معمر، فقال: كان عند الزُّهريّ حديثان، عن عروة، عن عائشة، في عليّ، "عليه السّلام" فسألته عنهما يوماً، قال: ماتنّعه بهما وبحديثهما؟ الله أعلم بهما...! إنّي لأتّهمهما في بني هاشم^(١). يعني بذلك الزُّهري، وعروة. ويعني بالحديثين ما اختلق في حقّ عليّ والعبّاس: بأنّهما من أهل النار. يموتان على غير الدّين الإسلاميّ الخفيف. ولعلّ من الخير أيضاً - أنْ نعرض عن الزُّهريّ، هذه الحادثة: شهد شاهدٌ مسجد المدينة، فإذا الزُّهريّ، وعروة بن الزُّبَيْر، جالسان يذكران علياً، "عليه السّلام"، فقالا منه، فبلغ ذلك عليّ بن الحسين، "عليهما السّلام"، فجاء حتّى وقف عليهما، فقال: أمّا أنتَ - يا عروة! - فإنّ أبيّ حاكمَ أباك، فحكّم لأبيّ عليّ أبيلك...! وأمّا أنتَ يا زهريّ! - فلو كنتَ بمكّة، لأريتكَ بيتَ أبيلك!^(٢).

- ٤ -

وفي سلسلة الحديث الثّالث، نجد بينهما هذه الأسماء:
أ - حرمة بن يحيى التّجيبّي - أو التّحيبّي - انفراد بغرائب.
قال أبو حاتم: لا يحتجُّ به. وضعّفه عبد الله بن محمّد الفرهاذان، في ما نقلَ عنه ابن عديّ.
واشتهر عن حرمة أنّ "لديه ألف حديثٍ، كلّها عن ابن وهبٍ" - وهذا الحديث، الذي نحن بصددّه، رواه حرمة، عن ابن وهبٍ - فقد أخذ حرمة هذا، حديث ابن وهبٍ كلّهُ، ماعدا حديثين^(٣).

(١) - النّهج ٣٥٨ : ١ .

(٢) - النّهج ٣٧١ : ١ .

(٣) - الميزان ٢١٩ : ١ .

ب - وهنا... نقع في البلبلة، إذا قرأنا ما قيل، عن عبد الله بن وهب - وهو الثاني في سلسلة الحديث المكذوب - فإنه قيل عنه: إنه صنّف مئة ألف، وعشرين ألف حديث، وحديثه كله عند حرمة، سوى حديثين^(١).

وسأل الإمام أحمد بن حنبل سائل عنه: أليس يُسيء الأخذ؟ قال: بلى!^(٢).
أليس يكفي - لو قدر صحّة توثيق مَنْ وثّقه! - أن يكون سيّئ الأخذ وأن ينفرد برواية مئة وعشرين ألف حديث؟!.

فما هذه الوفرة الهائلة، والكثرة المتضخّمة، مِنْ هذه الأحاديث؟!.
فما عليه، إلّا أن يقول: حدّثني، وأخبرني، وروى لي، وقال لي، حتى تتمّ هذه الوفرة، وتتضاعف هذه الروايات!.

ج - ولسنا نعرف يونس هذا.
فإنّ بين هذا الاسم، سلسلة، فيها: الكذوب، والسيّء الحفظ، والمنكر الحديث... وحتى أنّ فيهم مَنْ لُقّب بـ "الكذوب"^(٣).
د - وأما ابن شهاب، فهو أكثر غموضاً، وأغرق في الخفاء، مِنْ أن نستطيع معرفة شيء عنه!.

- ٥ -

وهكذا تتّصل سلسلة الأحاديث الثلاثة: بسعيد بن المسيّب، عن أبيه.
أ - ونحن لانستطيع أن نأخذ بهذا الحديث، بعدما وجدنا فيه، ما وجدنا...
ولانستطيع أن نأخذ به، وإن كان عن سعيد بن المسيّب؛ حيث أنّه قد اختُلف في سعيد هذا، اختلافاً كبيراً جدّاً، بين: التعديل، والتّجريح...

(١) - إذا أردنا الجمع بين القولين، في ما قيل عن حرمة، وفي ما قيل عن ابن وهب، فإنّ الظاهر سقوط جملة "مئة ألف حديث وعشرين"، عند الكلام عن حرمة.

(٢) - الميزان ٨٦: ٢ .

(٣) - الميزان ٣٣٦ - ٣٤٠: ٣ .

فِيمَنْ بَيْنَ الْقَادِحِينَ فِيهِ ابْنُ أَبِي الْحَدِيدِ، حَيْثُ سَلَكَ فِي عِدَادِ الْمُنْحَرِفِينَ عَنْ عَلِيٍّ، "عَلِيهِ السَّلَامُ" وَأَنَّ فِي قَلْبِهِ شَيْئاً مِنْهُ^(١)، وَأَنَّهُ مِنَ الْقَائِلِينَ لَهُ، الْقَائِلِينَ فِيهِ، الْمُبْغِضِينَ إِيَّاهُ...

وَمَتَى ثَبَتَ بَغْضُهُ لِعَلِيٍّ، لَا يُمَكِّنُ - بَأْيٍ حَالٍ - أَخَذَ حَدِيثَ مِنْهُ، فَكَيْفَ بِمَحْدِثٍ فِي أَبِي طَالِبٍ - وَالِدِ عَلِيٍّ - لِأَنَّ عَلِيًّا هُوَ مَحْكُ الْإِيمَانِ وَالنِّفَاقِ، إِذْ لَا يُجِبُهُ مُنَافِقٌ، وَلَا يُبْغِضُهُ مُؤْمِنٌ... كَمَا جَاءَ فِي الْمُسْتَفِيزِ مِنَ الْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ.

وَعَلَيْنَا أَنْ نَعْرُضَ الْخَوَادِثَ، وَالْكَلِمَاتِ، الَّتِي وَقَفْنَا عَلَيْهَا عَنْهُ...! وَبَدَأُ بِتَسْجِيلِ هَذِهِ الْمَخَاوِرَةِ، بَيْنَهُ، وَبَيْنَ عُمَرَ بْنِ عَلِيٍّ - كَمَا سَجَّلَهَا ابْنُ أَبِي الْحَدِيدِ: [وَجَبَّهَهُ عُمَرُ بْنُ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فِي وَجْهِهِ، بِكَلَامٍ شَدِيدٍ. رَوَى عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْأَسْوَدِ، عَنْ أَبِي دَاوُدَ الْهَمْدَانِيِّ، قَالَ: شَهِدْتُ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيَّبِ، وَأَقْبَلَ عُمَرَ بْنَ عَلِيٍّ ابْنَ أَبِي طَالِبٍ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ لَهُ سَعِيدُ:

يَا ابْنَ أَخِي! مَا أَرَاكَ تُكْثِرُ غَشْيَانَ مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ (ص)، كَمَا يَفْعَلُ إِخْوَتُكَ، وَبَنُو أَعْمَامِكَ؟]

فَقَالَ عُمَرُ: يَا ابْنَ الْمُسَيَّبِ! أَكَلَّمَا دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، أَجِيءُ فَأُشْهِدُكَ؟]

فَقَالَ سَعِيدٌ: مَا أَحَبُّ أَنْ تَغْضِبَ! سَمِعْتُ أَبَاكَ يَقُولُ:

إِنَّ لِي مَقَامًا، لَهُوَ خَيْرٌ لِبَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، مِمَّا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ.

فَقَالَ: وَأَنَا سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ:

مَا كَلِمَةُ حَكِيمَةٍ، فِي قَلْبِ مُنَافِقٍ، فَيُخْرِجُ مِنَ الدُّنْيَا، إِلَّا يَتَكَلَّمُ بِهَا.

(١) - كَانَ سَعِيدٌ مِنَ الْمُنْحَرِفِينَ عَنِ الْإِمَامِ، "عَلِيهِ السَّلَامُ" - كَمَا فِي النَّهْجِ - ٣٧٠: ١، وَالْغَدِيرِ ٩ و ٥٦: ٨.

فقال سعيد: يا ابن أخي؟ جعلتني منافقاً؟!

فقال هو ما أقول لك!.

ثم انصرف[^(١)].

وهكذا... خرجت هذه الكلمة الحقّة، مِنْ قلب ابن المسيّب، قبل أن يلفظ منه النَفْسَ الأخير...!

وهذه الشدّة في المقابلة، والمخشنة في الحديث - مِنْ عمر بن عليّ، مع ابن المسيّب، قد تدل على موقف ابن المسيّب، مِنْ عليّ، وانحرافه عنه، وبغضه له، والواقعة فيه...!

وهذه حادثة، هي الأخرى تدل على انحراف، عن أهل البيت، "عليهم السّلام":

فقد مرّ سعيد بن المسيّب هذا، بجزاة الإمام السّجّاد، عليّ بن الحسين، "عليهما السّلام"، ولم يصلّ عليها، فجاء إليه، مَنْ استنكر منه هذا العمل، قائلاً له: - ألا تُصليّ على هذا الرّجل الصّالح، مِنْ أهل البيت الصّالحين؟! فكان جوابه إليه، هو هذا:

- صلاة ركعتين، أحبُّ إليّ مِنَ الصّلاة، على الرّجل الصّالح!^(٢).

كيف بنا نستطيع أن نأخذ حديثاً، ضدّ عليّ، مِنْ شخصٍ متهمٍ عليه؟! وإذا عرفنا أنّ سعيداً، هو القائل:

[مَنْ مات محبّاً لأبي بكرٍ، وعمر، وعثمان، وعليّ، وشهد للعشرة بالجنّة، وترحمّ علي معاوية "١٢" كان حقّاً على الله أن لا يناقشه الحساب]^(٣).

- فحينئذٍ نعرف، بعد ما أوضح موقفه مِنْ معاوية، أيّ قيمة لهذا الحديث، يُوضع في حقّ شيخ الأبطح...

(١) - التّهج ٣٧٠: ١، والغدير ٩: ٨، وأعيان الشّيعة ٧٨، ٧٩: ٣٥.

(٢) - شيخ الأبطح ٦٦ والغدير ٩: ٨، والأعيان ٧٢، ٧٣: ٣٥.

(٣) - الغدير ١٣٨: ١٠، عن تاريخ ابن كثير ٨: ١٣٩، ١٤٠.

وليس موقف ابن المسيّب من معاوية، بمحلّ نكران، بعد أن قال عن معاوية، أيضاً:
[لقد رغب إلى من لا مرغوب إلا إليه؛ وإنني لأرجو أن لا يُعَذِّبَهُ الله] (١).

وهل تعرف ما الذي دفعه هذه القولة، الجانية على الحق، ودعته لتناسي الذماء
المهراقة، والحقوق المغتصبة والمُضاعة، وتجاهل كل الأعمال الشّائنة والأفعال
القياح، التي يقوم بها معاوية... ١٩

إنه ليتعلّل بقولة، قالها معاوية، عند احتضاره، حين ما رأى أجنحة الموت تُخَيِّم
عليه، والمقامع مسددة له، ففاه بهذه القولة المانتة:

[اللهم أقل العثرة، واعفُ عن الزّلة، وعُدْ بحلمك على من لم يرجُ غيرك، ولم
يتقُ إلا بك، فإنك واسع المغفرة، وليس لذي خطيئة مهرب إلا إليك] (٢).

ولعلّ قولة معاوية هذه، هي حجر الأساس، في بدعة المرجئة. ومنها عُدّ من
أوّل المرجئين.

والترجيئُ يُشيد من هذا البناء الظلوم - الذي أقامه معاوية - المبيح لاعتراف
الجرائم والآثام، وتقوية الرّذيلة، وإشاعة الظلم...

ثم ما على هذا الظلوم، إلا لقلقة باللسان - عند الاحتضار - يُتمتم بها، دون
أن يُقرّها قلبه، ولم يعرفها عمله المبين لها... ليجيء من بعده، من يرجو: أن
لا يعذب الله هذا السّفاح الإباحي، والوصولي المتاجر... ويُحاول أن ينسى الله -
وأستغفره! - مانسيه هذا. أو ذاك، من أعمال هذا الظلوم... ١

ولعلّ من الخير - أيضاً - أن نقف من سعيد بن المسيّب، على مدى تقديره
لمعاوية، ومن هو من سنخه، من البيت الأمويّ اللّثيم، حيث قيل له:

من أبلغ الناس؟

فقال: رسول الله (ص)...

(١) - أعيان الشّيعّة ٨٠: ٣٥.

(٢) - أعيان الشّيعّة ٨٠: ٣٥.

فقليل له: ليس عن هذا نسألك!.

عندئذ لم يرَ غير معاوية، وابنه يزيد، وسعيد بن العاص، وابنه عمرو:
الأشدق^(١).

ونحن - بهذا - نعرف فيه انحرافاً عن عليٍّ وأهل بيته...
إذ ما بلاغة هؤلاء؟!.

وما هي - لو كانت - غير نقطة متلاشية، إلى بحرٍ ثجاج. اللهم! إلا أن يُعتذر
عنه بأنَّ السائل لم يسأله عن هؤلاء، حيث دلَّ على رسول الله (ص)، بجوابه الأول،
فعدل السائل؛ لأنَّ الرسول خارجٌ مِنَ السُّؤال بالدليل - كما يقولون - وهو،
وعليٌّ: نفسٌ واحدة.

ولكن هذا يأتي، لو كان الجواب، مِنْ غير مَنْ اتَّهم بالانحراف!.
وقد اختلف في سعيدٍ اختلافاً كبيراً، وتضاربت الآراء فيه - كما أشرنا...
فمنهم مَنْ يعلِّفه شيعياً، ومن حوارِيٍّ عليٍّ بن الحسين، "عليهما السلام".
وهذا لا يكون مِنْ عِدَّة نواحٍ: لانحاول بسطها، هنا...

وتكفيها هذه الروايات، في حقِّ أهل البيت، وحقِّ أبيهم العظيم شيخ الأبطح،
حيث يتناقض قول سعيدٍ، مع أقوالهم، في حقِّ أبي طالب، ومع قوله السَّجَّاد نفسه،
التي مرَّت في فصلٍ سابقٍ، والذي غدَّ هذا مِنْ حواريه؟!.

فإن ثبتت شيعيته، انتفت هذه الرواية عنه.

ومنهم - كالمفيد - مَنْ يعلِّفه، مِنْ لا يُدفعُ نُصبُهُ.

ومنهم - كما لك - مَنْ يعلِّفه مِنَ الخوارج الأباضية^(٢).

وعلى كلِّ فإن تغلب جانب التعديل على التجريح - في هذا الرجل، وهو
مانودٌ - فإنَّ هذه الرواية منتفية عنه، قطعاً...

(١) - البيان والتبيين ٣: ٣٠٢.

(٢) - أعيان الشيعة ٨٠: ٣٥.

ثم يكفي ما في هذه السلسلة، مِنْ عَرَى مَفْصُمةٍ، هي التي وضعت الحديث،
على لسان سعيدٍ - إِنَّ كَانَ مَقْطوعاً بِصَلاحه...!

ب - أمّا والد سعيدٍ، وهو المسيّب بن حَزَن، هذا الاسم الذي ورث ولدّه منه
"حزونةٌ وسوءُ خُلُقٍ"^(١) فما هو إلّا مِنْ "مسلمة الفتح"^(٢)...!
فَمِنْ أينَ شهد احتضار أبي طالبٍ؟!

وإنَّ شهدّه، فكيف يُؤخذ قوله، وهو يُريد أن يُكثّر المشركين، الذين يجتمعون
معه في الرأْي، تبريراً لموقفه المشرك...؟!

على أنّا لم نقف عنه على توثيقٍ له. فأقلُّ ما يُقال عن حديثه هذا: إِنَّ فيه
انقطاعاً، بالإضافة إلى تفصُّم السلسلة، ومعارضة الحديث بالأقوى.

(١) - نسب قريش ٣٤٥ .

(٢) - الإصابة ٤٠١ : ٣ ، عن مصعب الزبيريّ.

رواة الحديثين الآخرين

نخلص - الآن - للنظر في سلسلة رواة كلٍّ من: الحديث الرابع والخامس.

- ١ -

ننظر في سلسلة الحديث الرابع، لنرى الأقوال فيها:

أ - محمد بن عباد - هذا - مَنْ هو؟.

فليس بين هذا الاسم، غير المجهول الذي لا يُعرف، وغير مَنْ لم يكن البصير بالحديث، وَمَنْ لم يُحمد عليه، وفي أمره نظرٌ، وَمَنْ ضَعُفَ الدَّارِقُطِيُّ^(١).

ب - ابن أبي عمر، مَنْ هو هذا...؟ فلندعه في غمار المجهولين.

ج - ثم مَنْ مروان هذا؟.

فلدينا حفنةٌ مِنْ هذا الاسم، فيهم: الكدوب، والمجهول، والضعيف، وذو المنكر مِنْ الحديث، والراوي عَمَّنْ هَبَّ ودَبَّ، وَمَنْ لا يُوثَقُ بحديثه، وَمَنْ لا يُحتَجُّ به^(٢).

- ٢ -

ننظر في سلسلة الحديث الخامس، فما عسانا أن نرى فيها؟.

أ - محمد بن حاتم بن ميمون، القطيعي - المعروف بالسَّمين - قال ابن معين، وابن المديني: كذاب. وقال الفلاس: ليس بشيء^(٣).

ب - يحيى بن سعيد، قال عنه البخاري وأبو حاتم: منكر الحديث. وقال النسائي: يروي عن الزُّهري أحاديثَ موضوعةً.

(١) - الميزان ٧٧ : ٣ .

(٢) - الميزان ١٥٩ - ١٦١ : ٣ .

(٣) - الميزان ٣٧ : ٣، ودلائل الصدق ٥٩ : ١ .

وقال ابن عدي وغيره : يروي عن الثقة البواطيل.

وقال ابن حبان : كان ممن يُخطئ كثيراً^(١).

وقال يحيى بن سعيد القطان : يُدلس. وقال الدُمياطي : يُقال : إنه يُدلس^(٢).

ويحيى بن سعيد، هو الذي يقول : إن في نفسه شيئاً من جعفر الصادق^(٣).

- ٣ -

وهنا تتصل سلسلة الحديثين، يزيد بن كيسان، عن أبي حازم، عن أبي هريرة :

أ - أمّا يزيد بن كيسان، فقد ذكر الذهبي - على هذا الاسم شخصين - فالأول

منهما، هو مايعنينا أمره، حيث أشار إلى أنه يروي عن أبي حازم الأشجعي وغيره،

ويروي عنه يحيى القطان. ثم قال :

[وقال أبو حاتم : لا يُحتجُّ به. وقال يحيى بن سعيد القطان، وهو صالح وسَطّ -

ليس ممن يُعتمد عليه]^(٤).

ولاندري هل يعني الذهبي يحيى القطان، الذي يروي عن يزيد : يحيى بن سعيد

- الطاعن فيه - أم غيره ؟

ب - لم نعرف اسم أبي حازم الأشجعي، فلم نستطع أن نقف عنه، على قول.

ج - أمّا أبو هريرة، فهذا الذي اختلف في اسمه، واسم أبيه، ونسبه، حتى تكاد

تظنُّ هذا اللقب، لعددٍ من الشخصيات...^(٥)

(١) - الميزان ٢٨٩ : ٢ .

(٢) - دلائل الصدق ٦٨ : ١ .

(٣) - الغدير ٢٥٢ : ٥ .

(٤) - الميزان ٣١٨ : ٣ .

(٥) - ارجع لذلك لرجلته، في كل من : الإصابة والإستيعاب - ص ٢٠٠ : ٤ - فإنك تجد

فيهما أكثر من صفحتين، في اختلاف اسمه ونسبه.

وكذلك في ترجمته في سير أعلام النبلاء ٤١٧ : ٢ .

هذا المكثّر من الحديث، الذي أجمع على أنه أكثر الرواة حديثاً^(١)، فَقَدْ وَجَدَ له في مسند واحد - هو مسند تقيّ بن مخلدٍ - ما ينيف على خمسة آلاف، وثلاثمائة حديث^(٢).

هذا هو الذي كان يضع رداءه - في ما حدّث هو بذلك - ويسطه، ليملاه من الأحاديث، فيضمّه إليه^(٣).

ولاندري ماعسى أن تكون هذه الأحاديث، التي يمتلئ بها الرّداء^(٤)؟
ولاندري ماذا عساه أن ينطوي عليه الرّداء... في ما هو يضمُّ إليه رداءه هذا المليء!

ولست أظنُّ، إلّا أن هذا الحديث - المسند إليه - من تلك الأحاديث، التي علقت بهذا الرّداء...! فرواه على أنه حديثٌ، ولم يدرِ عنه: أنه لما علق بالرّداء...!!!

ونحن لا نقبل هذا الحديث منه، لأمرٍ عديدة...
فأبو هريرة - كما عرضنا لذلك، في حديثنا "على العتبة" - كان من بين من استأجرهم معاوية، لوضع الحديث في عليّ، "عليه السلام".
ونحن نأتي على النصّ الكامل، الذي نقله الحديديّ، عن أبي جعفر الإسكافي:
[إن معاوية وَضَعَ قوماً من الصّحابة، وقوماً من التّابعين، على رواية أخبارٍ قبيحةٍ في عليّ، عليه السلام، تقتضي الطّعن فيه، والبراءة منه، وجعل على ذلك جُعلاً يُرغب في مثله، فاختلفوا ما أرضاه.
منهم: أبو هريرة، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة؛ ومن التّابعين: عروة بن الزّبير]^(٥).

(١) - الإصابة ٢٠٢: ٤ .

(٢) - المصدر، والغدير ١١٥: ٧، سير أعلام النبلاء ٤٥٣: ٢ .

(٣) - الإصابة ٢٠٥: ٤ .

(٤) - النهج ٣٥٨: ١ .

فانت ترى أبا هريرة، ممَّن استأجره معاوية، لينال من عليّ، ويضع فيه الأخبار
القبيحة، التي تحمل بين حروفها: الطَّعن في عليّ، والبراءة منه!
وكذلك وجدناه...!

فقد وَضَعَ ذلك الحديث، الذي عرضنا له - أيضاً - في حديثنا "على العتبة"، من
أنه "يشهد بالله! أن عليّاً أحدث"، بعد الرسول، حديثاً... فاستوجب عليّ - بذلك،
على رأي أبي هريرة - لعنة الله، والملائكة، والنَّاس أجمعين^(١).
وهو لم يُسأِر معاوية، إلا طمعاً في مالٍ، فقد كان [إذا أعطاه معاوية سَكْت،
فإذا أمسك عنه تكلم]^(٢).

ونودُّ قبل أن نعرض - هنا - بعض الأقوال عنه، أن نُشير لِمَا حَدَّث به هو
نفسه، عن الرسول (ص)، حيث قال:
قال لي النبي صلى الله عليه «وآله» وسلّم:
مِمَّن أنت؟.

قلت من دوس. قال:

ما كنت أرى أن في دوس أحداً فيه خير^(٣).
وهو لم يستثن أحداً... فأبو هريرة ممَّن يشملهم هذا الحكم العامُّ الشَّامِل...!
وهذه طائفة من الأقوال حوله:
قال أبو جعفر الإسكافي:
[وأبو هريرة مدخولٌ عند شيوختنا، غير مرضيَّ الرواية، ضربه عمرٌ بالدرة،
وقال: قد أكثرَت الرواية! وأحرَّ بك أن تكون كاذباً على رسول الله (ص)]^(٤).
ومرَّة أخرى يقول له عمرٌ، أيضاً:

(١) - المصدر ٣٥٩: ١ - وقد نقلنا الحديث كاملاً، عند حديثنا "على العتبة".

(٢) - سير أعلام النبلاء ٤٤٢: ٢.

(٣) - سير أعلام النبلاء ٤٢٥: ٢.

(٤) - النهج ٣٦٠: ١.

[لَتَرْكُنَ الْحَدِيثَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، أَوْ لَأُحَقِّقَنَّ بِأَرْضِ دُوسٍ] ^(١) - وهي، مِنْ
اليمن، وطنه في جاهليّته.

فماذا نقول في عمر؟

فهل هو له ظالمٌ حين ضربه، أو هذَّده بالنَّفْيِ؟!

أما أنا فاستغفر الله أن أظنَّ بالخليفة شيئاً مِنْ هذا النوع...!

ولكنه - وهو الصَّليب الشَّدِيد - لم يَرْضَ ضميره: أن يجد هذه الكثرة مِنْ
الأحاديث، عند أبي هريرة، عن الرُّسول، وقد عرِف فيها ما هو المنحول، فأدعى
ظهره بدرّته - مرّةً - وهذَّده بالنَّفْيِ - أخرى - لعلّه يُقلع عن الخلق!

وما هذه هي المرّة الأولى، التي يُدعى فيها الفاروق، ظهراً أبي هريرة،
بدرّته...!

فقد أتى به مِنْ البحرين ^(٢) وكان قد ولّاه عليها، فقال له - كما حدّث بذلك
أبو هريرة ذاته:

يا عدوَّ الله وعدوَّ كتابه! سرقت مال الله! - إلى آخر الحادثة ^(٣).

هذا ... ونحن نجدّه قد أكثر، وهو على عهد الخليفة عمر، وعمر هو الشَّدِيد
الذي لا تأخذه - في موضوع كهذا - هواةٌ أو لينٌ... ويعرف منه ذلك أبو هريرة،
فهو يهابه ويخشاه....

لذلك... نجدّه - بعد عهد عمر - يُجيب أبا سلمة، وقد قال: أكنت تُحدّث في
زمن عمر هكذا؟، فقال:

(١) - سير أعلام النبلاء ٤٣٤: ٢، والغدير ٢٩٥: ٦.

(٢) - البحرين - في معناها القديم - تعني: السَّاحل، الممتدَّ مِنَ البصرة؛ إلى عمان.
ويضمُّ - حينذاك، في ما يضمُّ - القطيف، التي اختصَّت بالخطِّ - بفتح وكسر الخاء؛ وأوال، التي
اختصَّت بالبحرين، والأحساء، التي اختصَّت بهجر، وكلُّ منها تضم مدناً وقرى كثيرة.

كما أنَّ الخطَّ، وهجر، كانتا تعنيان، في القديم، أيضاً، ماتعنيه كلمة البحرين.
فهي أسماءٌ ثلاثة، لمسمّى واحدٍ، قبل أن تُختصَّ كلٌّ - بعدئذٍ - باسمٍ مِنَ الثلاثة الأسماء.

(٣) - ارجع للحادثة إلى: النهج ١٠٤: ٣، وفتوح البلدان ١١٢ - ١١٤، وسير أعلام النبلاء

٤٤٠: ٢، وإلى "أبو هريرة" - ص ١٥ - مسندةٌ لمصادرهما، والغدير ٢٧١: ٦.

(لو كنتُ أحدثُ في زمانِ عمر، مثل ما أحدثُكم، لَضربني بمخفقتي^(١)).

ويقول:

[لَقَدْ حَدَّثْتُكُمْ بِأَحَادِيثٍ، لَوْ حَدَّثْتُ بِهَا زَمَنَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، لَضَرَبَنِي عُمَرُ بِالْدَّرَّةِ^(٢)].

ولكن هذا كله، لم يعصمه عن الخلق والإكثار، من الحديث حتى استراب منه عمر، فنالت منه درّته، ونال ظهره منها ما أدماه!

فكيف به على عهد معاوية، وقد استماله إليه، وأعطاه "جُعْلًا" يُرغب في مثله، وليس إلّا من أجل الخلق والوضع...!؟

* *

وعن إبراهيم التيمي، قال:

[كانوا لا يأخذون عن أبي هريرة، إلّا ما كان من ذكر جنّة، أو نار^(٣)].

وهذا الحديث - والحمد لله! - ليس من هذا، ولا ذاك...

على أنّ الذي لا يؤخذ منه شيء في ناحية - لانعدام الثقة منه! - كيف يُطمأن إليه، في ناحية ثانية، لم يُعرف نصيبها منه...!؟^(٤).

(١) - الغدير ٢٩٥: ٦ .

وفي سير أعلام النبلاء ٤٣٣، ٤٣٤: ٢ : ما يمثاله.

(٢) - الغدير ٢٩٥: ٦ .

وفي سير أعلام النبلاء ٤٣٣، ٤٣٤: ٢ : ما يمثاله.

(٣) - التهج ٣٦٠: ١ ، وسير أعلام النبلاء ٤٣٨: ٢ .

(٤) - أنا أحاديثه، التي من غير ذلك النوع، فنحن نضرب منها مثلاً، لنصل منه إلى دخلة الرجل، فقد حدّث - كما قال الشافعي، في ما رواه الطبري:

[رأيتُ هنداً بمكّة، كأنّ وجهها فلقة قمر، وخلفها من عجيزتها مثل الرجل الجالس، ومعها صبي يلعب] - إلخ - معاوية في المازن ص ١٥٩ .

فماذا نفّعه به، ليصف لنا بهاء وجهها وجمالها، وكبر عجيزتها الضخمة العالية، وهو في معرض الحديث عن مستقبل معاوية، وما كانوا يرون فيه، من أنه سيسود قومه، فنقول أمّه هند: إن لم يسدّ إلّا قومه، فأمامه الله!؟

- أنا لا أدري!!!

وقال شعبية: كان أبو هريرة يُدلس^(١).
وليس يهتمُّ ما حاول أن يعلِّق به الذَّهبيُّ - بعد هذا - حتى جاء بفريضة "عدالة
الصَّحابة" أجمعين، أكتعين، أبصعين...!!!

وعن الأعمش، قال:
[كان إبراهيم صحيح الحديث؛ فكنتُ إذا سمعتُ الحديث، أتيتُهُ، فعرضتُه
عليه، فأتيتُهُ يوماً بأحاديث من حديث أبي صالح، عن أبي هريرة، فقال:
دعني من أبي هريرة!! إنهم يتركون كثيراً من حديثه]^(٢)
* *

وروي عن الإمام عليٍّ، "عليه السَّلام"، أنه قال: ألا إنَّ أكذب النَّاس - أو قال:
أكذب الأحياء - على رسول الله (ص): أبو هريرة الدَّوسي^(٣).
فما عسى أن تقول؟.

فقوله الإمام هذه، هي: المدينة التي تُجهز على كلِّ فريضة، يفترها الرَّجل، أو
افتناتٍ ينتحلها!.
فهل نُكذِّب الإمام في قوله، لنُصدِّق أبا هريرة؟، أم نُصدِّق الإمام، في ما قال،
وفيه القضاء على ما افتنت أبو هريرة؟!.

* *

ورَوَى أبو يوسف، قال:
قلتُ لأبي حنيفة: الخير يجيء عن رسول الله (ص)، يُخالف قياسنا، ما نضع به؟
قال: إذا جاءت به الرُّواة الثَّقة، عملنا به، وتركنا الرَّأي.
وطال بهما الحديث، حتى قال أبو حنيفة: والصَّحابة كلُّهم عدولٌ!، ما عدا
رجالاً - ثم عدَّ منهم: أبا هريرة، وغيره^(٤).

* *

(١) - سير أعلام النبلاء ٤٣٧ : ٢ .

(٢) - النُّهج ٣٦٠ : ١ . وفي سير أعلام النبلاء ٤٣٨ : ٢ ، مثله .

(٣) - النُّهج ٣٦٠ : ١ .

(٤) - النُّهج ٣٦٠ : ١ .

وذكروا أنَّ أبا هريرة، وَقَدْ قَدِمَ الكوفة، في ركاب معاوية، كان يجلس بالعشَّيات، بباب كندة، ويجلس النَّاس إليه: فجاءه شابٌّ مِنَ الكوفة - قيل: إنه الأصبغ بن نباتة^(١) - وَجَلَسَ في مَنْ جَلَسَ إليه، فقال له:
- يا أبا هريرة! أنشدك الله! سمعت من رسول الله "ص"، يقول لعلي بن أبي طالب:

اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ؟.

فقال: اللَّهُمَّ نعم!.

قال: فأشهد بالله! لَقَدْ وَالَيْتَ عَدُوَّهُ، وَعَادَيْتَ وَلِيَّهُ!.

ثم انصرف عنه^(٢).

* *

ودخل أبو الأصبغ بن نباتة التَّمِيمِيُّ، وهو يحمل كتاباً مِنَ الإمام علي "عليه السلام"، إلى معاوية. وإِذْ دَخَلَ، وهو محاطٌ برجال السُّوء، وفيهم: عمرو بن العاص، وذو الكلاع، وحوشب، وابن عامر، والوليد بن عقبة، وشرحبيل، وأبو هريرة، وأبو الدرداء، وغيرهم.

إِذْ دَخَلَ... ودار الحديث، بين: أبي الأصبغ، ومعاوية، وأخشن لمعاوية في القول... التفت لأبي هريرة، وهو يقول له:

أنت صاحب رسول الله (ص): أقسم عليك بالله، الذي لا إله إلا هو، وبحق رسوله! هل سمعت رسول الله (ص)، يقول يوم غدير خم، في حقِّ أمير المؤمنين: مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ، فَعَلَيْ مَوْلَاهُ؟.

فأجابه: إي والله! لَقَدْ سَمِعْتُهُ يقول ذلك!.

فقال له أبو الأصبغ: فإذا أنت - يا أبا هريرة - واليتَ عَدُوَّهُ، وَعَادَيْتَ وَلِيَّهُ!.

(١) - أبو هريرة ٣٩ .

(٢) - النهج ٣٦٠ : ١، وأبو هريرة ٣٩، والغدير ٢٠٤ : ١ .

ولم يزد أبو هريرة؛ على أن تنفس، وقال:
إنا لله، وإنا إليه راجعون^(١).

* *

وهذا جارية بن قدامة السعدي، يدخل المدينة، بعد أعمال بسر الشنيعة فيها،
بأمر معاوية الطاغية، وقد قام بالصلاة فيها أبو هريرة، فهرّب هذا خوفاً وفرقاً،
حين ما وصل لسمعه قدوم جارية، في جيش موفد، من قبل الإمام علي "عليه
السلام"، فقال جارية:

والله لو أخذت أبا سنور، لضربت عنقه^(٢).

* *

وقالوا: إن أبا هريرة كان يسبح، كل يوم، اثني عشر ألف تسيحة، يقول:
أُسبِح بقدر ذنبي^(٣).

ونحن لا نريد نقاش صحة هذا، أو معقوليته، وكيف يتسع وقته للإكثار من
التسبيح - الذي يعادل الذنب الكثير - والإكثار من الحديث، مع فقره وجوعه - في
بدء حياته الإسلامية - وانشغاله بمسيرة معاوية، ومن إليه - في ختامها...
إننا ندع هذا، ولا نعلق عليه.

وإننا نشير إلى قوله: بأن تسبيحه بقدر ذنوبه...! فيا هول هذه الذنوب...!!
وترك الذنب خير من الاستغفار.

وهناك من جاء - أخيراً - يدعو للذنب، بصورة مستورة، إلا أنها شوهاء، تستند
على حديث مكذوب منكّر... ومن يدري، فلعلّ واضعه هذا المسيح بقدر ذنبه.
[والذي نفسي بيده، لو لم تذبوا لله ربكم، وجاء بقوم يذبون،
فيستغفرون، فيغفر لهم].

(١) - تذكرة الخواص ٩١ و٩٢، والغدير ٢٠٢، ٣٠٢: ١ عن الأصمغ، في بعض الاختلاف.

(٢) - الطبري ١٠٧: ٤، والكامل في التاريخ ١٩٣: ٣.

(٣) - سير أعلام النبلاء ٤٣٩: ٢.

ونُشير إلى أن في طليعة هؤلاء المدافعين عن صحّة مثل هذا الحديث: مثل الأستاذ خالد محمد خالد، في بعض كتبه.

ولسنا في صدد نقاشه فيها، إلاّ أنّها إشارة من الشّاطيء، دعا إليها الموضوع.

* *

وكان أبو هريرة ضحك التّفكير، ضحك العقل فَقَدِ استخفّته الدّرجة، التي نالها عند معاوية... فرأى نفسه ظاهراً بعد خفاء؛ معروفاً بعدما كان مغموراً؛ مقرباً بعد أن كانت تنال منه الدرّة العمريّة، متى رأى فيه الخليفة عمر اعوجاجاً، يحتاج إلى تقويم..!

لذلك نجده - تارة - يُواكل الصبيان، ويلعب معهم^(١).

ولاندري! فلعلّه يأتي لهم، بأحاديث عن الرّسول. في لعبهم هذا، يُبرّر بها موقفه منهم!. ولا سيّما بعد أن كثرت أحاديث الدّعاية التجاريّة، على لسان تجّار الحديث الزّائف، كحديث:

[من أكل من بصل عكّة، فكأنما قد زار مكّة]!.^(٢)

- إلى آخر ما هنالك من مثل هذه الأحاديث...

ومرّة أخرى: يخطب في المدينة بعد أن ولّاه إيّاها معاوية^(٣)،

(١) - النهج ٣٦٠ : ١ .

(٢) - ليست توليته المدينة هذه، بأوّل مرّة.

فقد سبق أن أمّره عليها بسر بن أرطاة، يوم بعثه معاوية، ليشنّ الغارات، في خلافة الإمام عليّ عليه السلام".

فكان للمدينة منه: يوم مسودّ الجبين، سالت فيه الدّماء، وأهدرت الكرامات، وانحطّت القيم. وفي هذا اليوم الفاحم، غرست بذرة مرّة المذاق، كان منّ ثمارها "يوم الحرّة". ويزيد منّ معاوية: مرّة شجّة الطّعم، منّ ثمار معاوية الخبيثة.

وبعد فعل بسر الشّنيع، قال لهم: (وقد استخلفت عليكم أبا هريرة، فإياكم وخلافه).

أنظر شرح النهج ١١٨ : ١، وأبو هريرة ٢٥، والغدير ٢٤ : ١١.

وإليها أشير في: تاريخ الطّبريّ ١٠٧ : ٤، والكامل ١٩٣ : ٣، في أحداث سنة ٤٠

جزاء لما شهد به على علي، بما أحدث بعد الرسول، فما يستوجب لعنه، من: الله والملائكة، والناس أجمعين!!!.

عفوك! يا رب!

أقول: إنه كان يخطب في المدينة، فكان يقول:

الحمد لله الذي جعل الدين قياماً، وأبا هريرة إماماً -

يضحك بذلك الناس^(١)، بدلاً من أن تتناول خطبته شتى التواحي، التي تعود على المجتمع بالخير، والأمة بالنفع، بما أنه أميرهم الكريم، وخطيبهم المصقع!

وثالثة: - يمشي وهو الأمير أيضاً؟ - في السوق، حتى إذا انتهى إلى رجل، يمشي أمامه، ضرب برجليه الأرض، وقال:

الطريق! الطريق! قد جاء الأمير!^(٢).

* *

ويقول ابن أبي الحديد - بعد عرضه لهذه النقاط، من حياة أبي هريرة:

..قد ذكر ابن قتيبة هذا كله، في كتاب المعارف، في ترجمة أبي هريرة. وقوله فيه حجة، لأنه غير متهم عليه^(٣).

* *

وأبو هريرة - هذا - كان قد انحاز إلى معاوية، منذ عرف: أن عند معاوية ما يشبع نهمه الصيَّاح. فكان لمعاوية ذلك الظلّ الملازم، ينحني إذا انحني، ويعوجُّ إذا اعوجَّ...!

(١) - النهج ٣٦٠: ١، وسير أعلام النبلاء ٤٤٠: ٢.

(٢) و (٣) - النهج ٣٦٠: ١.

حُلَّ معاويةُ النُّعمانَ بنَ بشيرٍ: رسالةٌ إلى عليٍّ - أشركَ فيها أبو هريرة^(١) - ليُسلمَ عليٍّ معاويةَ: قَتَلَهُ عثمان - ومعاويةُ بموقفٍ عليٍّ، مِنْ هذهِ الطُّلبةِ الكاذبةِ، ذلكَ العليمُ... وما هي سوى الواسطةِ، لِمَا يُبَيِّتُ مِنْ سوءِ النِّيَّةِ، فاختارَ هذينِ، ليحملا رسالتهِ، ويعودا، وهما لعليٍّ لائتمان، وله عاذران، فيسالا مِنْ عليٍّ أمامَ الطُّعامِ الشَّامِيِّينَ...!

وَإِذْ وَصَلَ الرُّسُولانَ لعليٍّ: بدأَ الكلامَ أبو هريرة، فقالَ قولتهِ... وثَنَى به النُّعمانُ بنَ بشيرٍ...

(١) - بعضُ المصادرِ تُشيرُ إلى: أنَّ رفيقَ أبي هريرة، كانَ أبا الدُّرداءِ. ولعلَّ هذهِ الحادثةُ قدْ تَكَرَّرَتْ، فصحبَ أبو هريرةُ النُّعمانَ - مرَّةً - وأبا الدُّرداءَ - أخرى. وتقولُ بعضُ المصادرِ: إنَّ الصَّحابيَّ الفقيهَ عبدَ الرَّحْمَنِ بنَ غنم، عاتبَ أبا هريرةَ وأبا الدُّرداءَ، بِمِحْصٍ، بعدَ منصرفهما مِنْ عليٍّ "عليه السلام"، رسولينَ له مِنْ معاويةَ، فكانَ مِنْ قولِهِ لهما: [عجباً منكما! كيفَ حازَ عليكما ما حَتَمَنا به، تدعونَ عليّاً إلى: أَنْ يُجْعِلَها شورى!، وَقَدْ علمَنا أَنَّهُ قَدْ بايعَ المهاجرونَ والأنصارَ، وأهلَ الحِجازِ والعِراقِ، وأنَّ مَنْ رَضِيَ خَيْرٌ مِنْ كَرهِه، وَمَنْ بايعَ خَيْرٌ مِنْ لَمَّ بايعه؟!]. وأيُّ مدخلٍ لمعاويةَ في الشُّورى: وهو مِنَ الطُّلقاءِ، الذينَ لا تَحْوزُ لَهُمُ الخِلافةُ، وهو وأبوه مِنْ رؤوسِ الأحزابِ].

فندما على مسيرهما، وتابا منه، بين يديه.

الاستيعاب ٤١٧: ٢، والغدير ٣١ و٣٣١: ١٠ مسنداً للاستيعاب وأسد الغابة ٣١٨: ٣. ونحن لا نريد أن نناقش في هذه التوبة: أصحح وقوعها؟ أم وهمٌ وخيالٌ خلاق؟! ولكن نسأل عما وَقَعَ بين: التوبةِ والحويةِ، مِنْ اِخْطَاءِ وآثامٍ، أَقْلَها الإنْسِياقُ في رِكابِ معاويةَ، وتسخيرِه له - والمقصود هنا: أبو هريرة - وطاعة هذا له، في جميعِ رَغائِبِهِ وشَهَوَاتِهِ الجَماعَةِ...

إنَّ أَقْلَ إِرْضاءٍ لهذهِ الشَّهَوَاتِ، هي: هذهِ الرُّحَلاتُ المتتابعةُ، يقومُ بها أبو هريرةَ، طالباً مِنْ عليٍّ هذا الطُّلُبَ الأَكْبَمَ المخزِي: تسليمَ قَتلةِ عثمان، كَمَقْدَمَةٍ لِلنَّجِيةِ، التي هي: زَحْزَحَتُهُ عَنْ مَنْصِبِهِ الإلهِيِّ: الخِلافةِ...

وهي: هذهِ الأحاديثُ المختلقةُ، يَنْقُصُ بها عَلِيّاً وَمِنْ تَمَامِها: تَنْقُصُ أبِيهِ!

أما أبو الدُّرداءَ، فَمَا لَنَا وَكَهْ - هنا - مِنْ جِمالٍ لحديثٍ، إِلَّا أَنَّا نَتَذَكَّرُ قولتهِ:

[إني لأستحج نفسي بالشَّيءِ مِنَ الباطلِ، لِيُكونَ أَقْوَى لها على الحق].

الكامل للميرد ٦٦٨: ٢.

فاعرض الإمام عن أبي هريرة، ووجه الحديث للنعمان، فنصحهُ في دينه، دون أن يتناول كلام الإمام: رداً، أو تعريضاً لتلك الناحية، التي قال عنها أبو هريرة، ما قال...

وقع النعمان - ظاهراً - بالبقاء مع الإمام، وقَدْ بطن الغدر، ليعود لصاحبه...! أما أبو هريرة، فكان أصرح مِنَ النُّعمان - في هذه الحادثة - فَقَدْ استحثته الغاية، وما للبقاء مِنْ حاجةٍ، والغاية التي جاء مِنْ أجلها، لا تتم، حتى يعود لمعاوية، ويُخبر أهل الشام، بما رأى، وما سمع...^(١).

وإن احتاج للزيادة، فلديه - مِنْ "أجربته الخمسة" - ما يكفي، ويأتي بالغاية...! ونحن لم نزد عليه، بقولنا: "أجربته الخمسة"؛ فَقَدْ حَدَّثَ هو نفسه: [حفظتُ مِنْ رسول الله خمسة جُربٍ، فأخرجتُ منها جُرايين؛ ولو أخرجتُ الثالث، لَرَجَمْتُونِي بالحجارة]^(٢).

ولعلهُ لِمَا أخرج مِنْ هذين الجرايين، قال: [كُذِّبْتُ، حتى رُميتُ بالقشع] - أي: كناسة الحمَّام^(٣).

ولو أخرج الثالث، لَرُجِمَ بالحجارة. ولو حَدَّثْتَكُمْ بكلِّ ما في كيسي لَرَمَيْتُونِي باليعر^(٤).

(١) - التَّهْج ٢١٣: ١، وأبو هريرة ٢٢، ٢٣ - فليُرجع لها مَنْ ارادها بالتفصيل. غير أننا ننقل قولهُ مؤلف "أبو هريرة"، سماحة الإمام، تعليقاً على الحادثة:

[وإنما أعرض أمير المؤمنين عن أبي هريرة، فلم يُكَلِّمْهُ، لكونه لم يَرَهُ أهلاً...! لتزلفه بدينه إلى معاوية. وعلم أمير المؤمنين ما اراده معاوية، مِنْ المكائد؛ إذ أرسلها إليه، يطلبان قتلَ عثمان، فلم يُجِبهما بشيء... سلباً ولا إيجاباً، بل أعرض عن طلبهما، وتكلَّم مع النُّعمان، في موضوع آخر. وهذا مِنْ قُوَّتِهِ في سياسته عليه السَّلام].

(٢) - أبو هريرة ٤٨، مسنداً لحلية أبي نعيم ص ٣٨١. وفي سير أعلام النبلاء ٤٢٩، ٤٣٠ و ٤٤٢: ٢ صورٌ مِنْ هذه.

(٣) - الكامل للميرد ١٢٤١: ٣.

(٤) - سير أعلام النبلاء ٤٤٢: ٢.

فكيف به لو أخرج الرابع والخامس...!

ولعله أشار لذلك بقوله:

[خَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ "وَأَلِه" وَسَلَّم وَعَاءَيْن: فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَبَشْتُهُ؛ وَأَمَّا الْآخَرُ، فَلَوْ بَشْتُهُ لَقُطِعَ هَذَا الْبَلْعُومُ] (١).

وَقَدْ تَفَنَّنَ فِي عَرْضِهِ هَذِهِ النُّقْطَةَ، الَّتِي تَجْعَلُ مِنَ الْأَحَادِيثِ، شَيْئًا مَادِيًّا، تُوضَعُ فِي: الْجَرْبِ، وَالْأَوْعِيَةِ، وَالرُّدَاءِ، وَالنَّمْرَةِ (٢)، حِينَ يَفْرَشُهَا، وَالْقَمْلَ يَدْبُ عَلَيْهَا، فَيَمْلُؤُهَا حَدِيثًا، وَيَضُمُّهَا إِلَيْهِ، مَعَ مَا كَانَ يَدْبُ عَلَيْهَا مِنَ الْقَمْلِ (٣)...!

وَلَا نَرَى حَاجَةً لِلْمُضَيِّ، فِي عَرْضِ ذَلِكَ، فَتَضَاعَفَ السَّرِيرُ، وَتَضَخَّمَ الصَّفَحَاتُ (٤).

* *

وَنَحْنُ لَا نُرِيدُ أَنْ نُطِيلَ هَذَا الْعَرْضَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، مِنْ جَمِيعِ نَوَاحِيهِ، فَقَدْ قَامَ بِذَلِكَ سِمَاحَةُ الْإِمَامِ الْمَوْسَوِيِّ، فِي كِتَابِهِ الْفَذَّ "أَبُو هُرَيْرَةَ"، بِحَيْثُ لَمْ يَبْقَ لِلْقَوْسِ مَنْزَعٌ - كَمَا يَقُولُونَ.

فَهَنَّاكَ عَرَضَ لِنَوَاحِي حَيَاتِهِ، وَتَنَاقَلَ بِالتَّحْلِيلِ أَكْثَرُ جَوَانِبِهَا... وَخَصَّ بِالنَّقَاشِ أَرْبَعِينَ حَدِيثًا، كَانَتْ مَفْضُوحَةُ الْإِفْتِرَاءِ، تَنَالُ الْخَالِقَ الْعَظِيمَ مِنْ نَاحِيَةٍ - وَرُسُلَهُ الَّذِينَ اصْطَفَى - فِي الْجَانِبِ الْآخَرِ - وَالنَّبِيلَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ إِخ.

وَكَانَ مِنْ بَيْنِ هَذِهِ الْأَرْبَعِينَ الْمَكْدُوبَةِ: هَذَا الْحَدِيثُ، الَّذِي عَرَضْنَا لَهُ.

إِذَنْ.. فَتَحْنُ لِنَتَقَبَّلَ هَذَا الْحَدِيثَ، مِنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، مِنْ نَوَاحٍ وَفِيرَةٍ الْعَدَدِ - كَمَا قُلْتُ.

فَأَبُو هُرَيْرَةَ، لَيْسَ مِمَّنْ يُرْتَضَى فِي حَدِيثِهِ، بَعْدَمَا رَأَيْتُ مِنْ أَقْوَالِ أَهْلِ الْحَدِيثِ، وَمِنْ كَثْرَةِ أَحَادِيثِهِ، وَنُكْرَاهَا...

(١) - سِيرُ أَعْلَامِ النَّبَلَاءِ ٤٣٠ : ٢ .

(٢) - النَّعْرَةُ: شَمْلَةٌ، فِيهَا: خُطُوطٌ بَيَاضٌ وَسُودٌ.

(٣) - سِيرُ أَعْلَامِ النَّبَلَاءِ ٤٢٩ : ٢ .

(٤) - ارْجِعْ لـ "أَبُو هُرَيْرَةَ" وَلِسِيرِ أَعْلَامِ النَّبَلَاءِ.

ولا نرضى منه هذا الحديث - بخاصة - مادام هو ذلك المنحرف عن إمام المتقين عليّ "عليه السلام" ... يضع في حقه الأراجيف، وينال من قداسته، السامة الدرى...

فكيف يرعوي من يقول: إنّ علياً، أحدث بعد الرسول - ما يستوجب به اللعن - أن يضع في أبيه، مثل هذا الحديث المكذوب...؟! *

وأنت ترى صيغة الحديث، الذي أتى به أبو هريرة، يدلّ على أنه شاهد احتضار أبي طالب... فهو يُحدّث بحديث، شهدته عيناه، فكانه حضر أبا طالب، والرسول عنده، فعرض عليه الرسول الشهادة، فأبأها شيخ البطحاء، ونزلت الآية في حقه...!

ألا ترى الحديث: عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله لعمري: قلّ لا إله إلاّ الله... قال: لولا أن تُعيرني قريش - إلخ...؟! *

ولكن أبا هريرة كان - يوم اختار الله لأبي طالب، داره الباقية - كان حينذاك، في اليمن، وهي مسقط رأسه، وبعد لم تقع عينه على شبح الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، ولم تفتح عينه - ولا أقول: قلبه - على ضوء الرسالة الهادي...

فكيف جاز له: أن يُحدّث بحديث، لو قدر له الوقوع، لكان قبل ثلاثة أعوام، من هجرة الرسول (ص)... في حين أنّ أبا هريرة، لم تطأ له قدم، بأرض الإسلام، إلاّ الرسول في خير^(١) - أي: في العام السابع الهجري...؟! *

فمقدمه بعد عشر سنين - على أقلّ تقدير - مضت على وفاة أبي طالب...! فمن أين حضر وفاة أبي طالب، ليحدّث بذلك الحديث...؟! اللهم! إلاّ أن يكون في عالم الحلم والخيال - وهو عالم غير محدود - لا في عالم الواقع الرهين...!

(١) - الإصابة ٢٠٣: ٤، وسير أعلام النبلاء ٦٤ و ٤٢٣ و ٤٢٥ و ٤٣٦: ٢ .

نظرة في آية ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾

أَمَّا وَقَدْ عَرَضْنَا لِمَوَاضِعِ الْأَخْذِ، فِي السَّنَدِ، وَوَضَعْنَا النُّقْطَ عَلَى الْحُرُوفِ، عِنْدَ النُّقَاطِ الْمُتَدَاعِيَةِ، وَجَوَانِبِ الضَّعْفِ مِنَ السُّلْسَلَةِ الْكَاذِبَةِ، وَكَشَفْنَا عَنْهَا الْخُبَى... فَإِنَّهُ لَيَجْدُرُ بِنَا - الْآنَ - أَنْ نَتَنَاوَلَ بِنَظَرَةٍ فَاحِصَةٍ، مَا يَهْدُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَسَّهُ الْمَنَهَارِ:

- ١ -

تَدُلُّنَا رَوَايَةُ الْبُخَارِيِّ، عَلَى أَنَّ الْآيَتَيْنِ، نَزَلَتَا عِنْدَ احْتِضَارِ أَبِي طَالِبٍ. وَلَكِنَّا إِذَا رَجَعْنَا إِلَى نَزُولِ الْآيَتَيْنِ، وَجَدْنَا أَنَّ الْآيَةَ الْأُولَى مِنْهُمَا، مَدْنِيَّةٌ.
فَكُلُّ مَنْ يَعْرِفُ أَيْنَ نَزَلَتْ "بِرَاءة" .. وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ رَسَتْ دَعَائِمُ الْإِسْلَامِ.
وَقِصَّةُ تَبْلِيغِ بِرَاءَةٍ، يَعْرِفُهَا كُلُّ مَنْ - وَهِيَ آخِرُ مَآئِزِلِ مِنَ الْقُرْآنِ^(١).
فَهَنَّاكَ طَوِيلَ أَمَلٍ، بَيْنَ نَزُولِ الْآيَتَيْنِ، يُقَارِبُ عَشْرَةَ أَعْوَامٍ، أَوْ يَرُوبُو عَلَيْهَا.

(١) - صحيح البخاري ٣: ٧٧، والكشاف ٥٧٠: ١ (٢: ٢٤٦) - وتعليق شارح الكشاف، أيضاً ١٨٨: ٢ - وتفسير البيضاوي ٢٧٤: ٢، وجمع البيان ٥: ١٠، وتفسير ابن كثير ٣٣١: ٢، والاتقان ٢٧: ١ - عن البراء بن عازب.

وَقَدْ نَقَلَ - ص ٢٦: ١ - الْقَوْلَ بِأَنَّهُ لَمْ يَنْزِلْ بَعْدَهَا مِنَ الْقُرْآنِ، سِوَى خَاتَمَتِهِ.
وَقَدْ اسْتَعْرَفَ فِي ص ١٥: ١: ١ قَوْلَ "ابْنِ الْفَرَسِ": (مَدْنِيَّةٌ إِلَّا آيَتَيْنِ "لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ" إلخ)، فَقَالَ: (غريب...! كَيْفَ وَقَدْ وَرَدَ أَنَّهَا آخِرُ مَآئِزِلٍ؟!).

وَفِي الْقَدِيرِ ١٠: ٨، عَنْ مَصَادِرٍ عِدَّةٍ، وَنَقْلًا عَنْ: ابْنِ أَبِي شَيْبَةَ، وَالْبُخَارِيِّ وَالنَّسَائِيِّ، وَابْنِ الضَّرِيرِ، وَابْنِ الْمُنْذَرِ، وَالتَّنَحَّاسِ، وَأَبِي الشَّيْخِ، وَابْنِ مَرْدُوَيْهِ، عَنْ طَرِيقِ الْبِرَاءِ.

- ٢ -

بهذا يتضح أنَّ الآية الأولى "مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ" - إلخ - التي هي مِنْ سورة "براءة" كان نزولها بالمدينة، بعد الفتح. فبين وفاة أبي طالب، ونزول هذه الآية، ماينوف على ثمانية أعوام.

فمجرى الحديث، يدل على استمرار استغفار الرسول (ص)؛ لعمه - وهو كذلك - ولم ينقطع، طيلة هذه المدة عن الاستغفار. وذلك حسب ما نجده من القول، الذي قيل على لسان الرسول (ص):
"لأستغفرنَّ لك ما لم أُنَّه عنك".

فاستمرَّ الاستغفار، ولم ينقطع - عندهم - إلا عند نزول هذه الآية:

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾.

وهنا... ننسأل: كيف جاز للرسول أن يستغفر لعمه، في الفترة، التي بعد موته، حتى نزول هذه الآية - كما يُستلمون به - وكانت قد نزلت على الرسول آيات زاجرة، تنهاه المؤمنين: أن يُؤاْذوا المشركين؛ أن يستغفروا لهم؛ أو يُوالوا أعداء الله - قبل نزول هذه الآية، بأمْدٍ طويل، كما لآيات التي عرضنا لها، في فصلٍ سابقٍ، ونأتي بالبعض منها، هنا:

أ - ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ،
يُوَادُّونَ مِنْ حَادِّ اللَّهِ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانُوا
آبَاءَهُمْ﴾ - إلخ^(١).

فهذه الآية مِنْ سورة المجادلة - نزلت بالمدينة، قبل سورة براءة - التي فيها آية

(١) - المجادلة ٢٢ .

الاستغفار - بسبع سور^(١). وقيل: إنها نزلت على الرسول، يوم بدر^(٢) - أي: في العام الثاني من الهجرة.

وقيل: إنها نزلت في أحد^(٣) - أي: في السنة الثالثة.

كما أنَّ هناك مَنْ قال: إنها، أو بعضها، مكِّي^(٤).

وعلى جميع الأقوال هذه... فإنَّ نزول "المجادلة" - بدون شكٍّ - قبل نزول "براءة" بسنين عدَّة.

ب - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ
أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ؛ أُرِيدُونَ أَنْ
تَجْعَلُوا
لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا؟﴾^(٥).

فهذه الآية مكِّيَّة، على قول النَّحَّاس، كما قيل: إنها نزلت عند الهجرة^(٦).
وذهب أناسٌ على أنها مدنيَّة.

ومستندهم في ذلك: قول عائشة: "مانزلت سورة النساء، إلَّا وأنا عنده^(٧).
فيكون نزولها في أوليات سني الهجرة^(٨).

وعلى كلٍّ... فإنَّ سورة النساء، كان نزولها قبل سورة "براءة" - وهي ذات
آية الاستغفار - بإحدى وعشرين سورة^(٩).

(١) - الغدير ١٠ : ٨ عن الإتيان ١٧ : ١؛ وَقَدْ وجدناه في نسختنا في ص ٢٦ : ١، وَقَدْ ذَكَرَ
بين نزول السُّورَتَيْنِ ستُّ سورٍ. وكذلك المنظومة التي أتى بها للبرهان الجعيري.

(٢) - الغدير ١٠ : ٨، عن أبي حاتم، والحاكم، وأبي نعيم، والبيهقي، وابن كثير - كما في :
تفسيره ٣٢٩ : ٤، وتفسير الشُّرَكَانِي ١٨٩ : ٥.

(٣) - الغدير ١٠ : ٨.

(٤) - أشار لذلك كثيرون مِنَ المفسِّرين.

(٥) - النساء ١٤٤.

(٦) - الإتيان ١٢ : ١.

(٧) - الإتيان ١٢ : ١، وصحيح البخاري ١٤١ : ٣، والغدير ١١ : ٨.

(٨) - الغدير ١١ : ٨.

(٩) - الغدير ١١ : ٨ والإتيان ٢٦ : ١، في منظومة البرهان الجعيري.

ج - ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ
الْمُؤْمِنِينَ. أَلِيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ؟﴾^(١).

وقد رأيت: أن سورة النساء، كان نزولها، قبل "براءة".

د - ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ
دُونِ الْمُؤْمِنِينَ. وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ، فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ
فِي شَيْءٍ، إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾^(٢).

فهذه الآية في صدر آل عمران، وقد نزل صدرها، إلى بضع وثمانين منها، يوم
وفد نجران^(٣) - وهي في أوائل الهجرة^(٤).

وذكروا: أن هذه الآية، نزلت في يوم الأحزاب - وهو العام الخامس - في
عبادة بن الصّامت^(٥).

وعلى كلا الرأيين... قال عمران، نزلت قبل "براءة" بأربع وعشرين سورة^(٦).
هـ - ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ، أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ، أَمْ لَمْ
تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ؛ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾^(٧).

وقد نزلت السّورة - التي فيها هذه الآية - في عام غزاة الرّسول، لبني المصطلق،
هو العام السادس للهجرة. ونزلت قبل سورة "براءة"^(٨).
إلى بضع آياتٍ آخر، كلّها تنهى عن الموالاة للمشركين، والاستغفار لهم، والمودة لهم.

* *

(١) - النساء: ١٣٩.

(٢) - آل عمران: ٢٨.

(٣) - السّيرة المشائية ٢: ٢٢٥، وأسباب النّزول ٤٣، وتفسير ابن كثير ٣: ٤٤٣. ١.

(٤) و (٥) - القدير ١١: ٨.

(٦) - القدير ١١: ٨، عن الإتقان ١٧: ١. وقد وجدنا - في ص ٢٦: ١، من الإتقان - أنه

عدّ بين السورتين خمس عشرة سورة، وفي منظومة البرهان الجعري، بينهما خمس وعشرون.

(٧) - المنافقون: ٦.

(٨) - القدير ١١: ٨، عن الإتقان ١٧: ١ - أي: ص ٢٦: ١، بنسختنا.

وأنت - كما رأيتَ - تجدد الرسول: يُواصل استغفاره لعمّه... وهذا غاية الموالاة والتوادد... وحتى الحديث المكذوب، يدلُّ على تواصل استغفار الرسول لعمّه، وأنه لم ينقطع، إلا عندما نزلت هذه الآية "الناهية" - كما يقول الحديث. فهل يجوز لنا - نحن المسلمين - أن ننسب للرسول عملاً؛ ينهائه عنه الذي أرسله بالحق؟!

فهل يجوز من الرسول: أن يستغفر لعمّه - لو كان ذلك المشرك - ولديه وفترة من الآيات، وكلُّها ناهيةً زاجرةً... فلا يأبُه لها، ولا يمتنع عما تنهاه، ولا يقلع عن عمله، إلا عندما همَّسَ الوحي إليه، بهذه الآية، من سورة "التوبة"؟!

وكم ضُمَّت هذه السُّورة، من آياتٍ، وتحمل مثل هذا الزَّجر والنهي؟!
ولكنَّ الرسول - وأستغفر الله! - لم يُطع ربّه، إلا عند تلقّيه هذه الآية...؟!
ولانعلم على مَن نحمل سابق استغفاره لعمه، وفي كلِّ حينٍ يتنزَّل عليه الوحي، بقطع كلِّ الصَّلّات، بينه وبين المشركين...؟!

اللَّهُمَّ! إنَّ هذا لا يجوز على رسول الهدى والرحمة!
وليس هذا، سوى نيلٍ من قداسة الرسول، وتجاسرٍ على مقامه الأسمى. وأذى له...!
اللَّهُمَّ! إنَّا نعوذ بك من أذى رسولك (ص) لنلأَّ يحلَّ علينا غضبك وعذابك، والذي وعدتَ به مَنْ يؤذي منه شعرةً - كما نصَّت على ذلك الآيات والأحاديث، الوفيرة العدد...؟

- ٣ -

إننا نبحث، فنجد رواياتٍ وأقوالاً، تنقض هذه الأحاديث، التي أتينا عليها، في وجه نزول الآية الكريمة.

وليس لنا، إلا أن نُوقف القارئ الكريم، على جانبٍ منها:
أ - عن الإمام عليٍّ "عليه السَّلام" قال:

سمعتُ رجلاً يستغفر لأبويه، وهما مشركان؛ فقلت: تستغفر لأبويك، وهما مشركان؟^١.

فقال: أو لم يستغفر إبراهيم؟.

فذكرتُ ذلك للنبي (ص)، فنزلت:

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا - إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ. فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ، تَبَرَّأَ مِنْهُ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾^(١).

وهذا يدلُّنا على أنَّ النَّهي عن الاستغفار للمشركين، معروفٌ بين المسلمين... وإلاَّ فلولا ذلك، لَمَا كان الإمام بالذي يعرض، على هذا المستغفر لأبويه، حيث ليس له أن يستنكر منه عملاً، لم يعرف فيه النَّهي! واستنكار عليٍّ لهذا المستغفر، لا يتفق واستغفار الرسول لعمه، مع الزعم بشركه...!

ولو كان كذلك لوجدنا جواب الرجل لعليٍّ، غير هذا الجواب، وَلَكِنَّا نراه: يحتجُّ على عليٍّ، باستغفار الرسول لعمه، تبريراً لعمله...! ولكنه احتجَّ عليه باستغفار إبراهيم لأبيه، فنزلت الآية، لتوضح الغاية من استغفار إبراهيم له: فهي: موعدةٌ وعدها إياه... ولما رأى ذلك لم يُجدِّ معه، تبرُّاً منه.

(١) - براءة: ١١٣، ١١٤.

ارجع لهذا الصَّحيح للغير - ١٢ : ٨ - فقيه: [صحيحةٌ أخرجهما الطَّيَالِسِيُّ، وابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي، والنسائي، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشَّيخ، والحاكم - وصحَّحه - وابن مردويه، والبيهقي في شُعَب الإيمان، والضَّيَاء في المختارة].
ولشيخ الأبطح ٦٧ - مخرجاً عن هؤلاء أيضاً - والإتقان ٣٤ : ١ - عن الترمذي حسناً - والأعيان ١٥٨ : ٣٩، وأسباب النزول ١٢٧، وتفسير ابن كثير ٣٩٣ : ٢.
وذكرت في الكشف ٢٤٧ : ٢.

على أن استغفار إبراهيم لأبيه^(١)، وهو على وجه الحياة، يرجو منه الهداية والإيمان...
أما استغفار الرسول لعمه، فهذا ما لا يجوز بحال، لو لم يكن أبو طالب مؤمناً...
لأن الاستغفار والدعاء - بعد الموت - دليل على الإيمان. وليس فيه ما يُحمل على طلب الهداية، والتوجه نحو الإقرار بالرسالة.

وقد قال زيني دحلان، حول ما نقلناه عن الإمام علي عليه السلام:
[هذه الرواية صحيحة. وقد وجدنا لها شاهداً برواية صحيحة، من حديث ابن عباس "رضي الله عنه"؛ قال:

كانوا يستغفرون لآبائهم، حتى نزلت هذه الآية. فلما نزلت، أمسكوا عن الاستغفار لأمواتهم، ولم ينهوا أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا.

ثم أنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ﴾ - الآية - يعني: استغفر له، ما دام حياً، فلما مات أمسك عن الاستغفار له.

قال: وهذا شاهدٌ صحيح. فحيث كانت هذه الرواية، كان العمل بها أرجح. فالأرجح: أنها نزلت في استغفار أناس لآبائهم المشركين، لافي أبي طالب^(٢).

ب - قال المسلمون للرسول (ص). ألا نستغفر لآبائنا، الذين ماتوا في الجاهلية؟
فأنزل الله سبحانه هذه الآية، وبَيَّن أنه لا ينبغي لشيء ولا مؤمن: أن يدعو لكافر، ويستغفر له^(٣).

ج - كان يقول المؤمنون: ألا نستغفر لآبائنا، وقد استغفر إبراهيم لأبيه كافراً؟
فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ﴾ - الآية^(٤).

(١) - ونشير إلى أن هذا عم إبراهيم الخليل (ع)، وأبوتُه له مجازية تروية. والعم يسمى أباً - عند العرب.

(٢) - الغدير ١٣: ٨، عن أسنى المطالب ١٧ - وشيخ الأبطح ٦٧، عنه أيضاً.

(٣) - الأعيان ١٥٨: ٣٩، وجمع البيان ١٥٠: ١٠، عن تفسير الحسن. ومثله ما في الأعيان - أيضاً - ٥٨، ١٩٥: ٣٩، عن ابن عباس.

(٤) - الأعيان، وقریب منه: ما في تفسير ابن كثير ٣٩٤: ٢، والكشاف ٥٧٠: ١ [٢٤٦: ٢].

د - إِنَّ الرُّسُولَ لَمَّا أَقْبَلَ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ، اعْتَمَرَ، فَبَعَثَ قَبْرَ أُمِّهِ، فَاسْتَأْذَنَ رَبَّهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهَا، وَدَعَا اللَّهَ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ فِي شَفَاعَتِهَا، يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَبَى أَنْ يَأْذَنَ، فَنَزَلَ الْآيَةُ^(١).

هـ - إِنَّ الرُّسُولَ لَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ، وَقَفَ عَلَى قَبْرِ أُمِّهِ، حَتَّى سَخَنَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ، رَجَاءً أَنْ يُؤْذَنَ لَهُ، فَيَسْتَغْفِرَ لَهَا، حَتَّى نَزَلَتْ، ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾^(٢).

و - إِنَّ الرُّسُولَ (ص) أَتَى قَبْرَ أُمِّهِ فَبَكَى، وَأَبَكَى مَنْ حَوْلَهُ. فَقَالَ (ص): اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي، فِي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا، فَلَمْ يَأْذَنْ لِي... وَاسْتَأْذَنْتَهُ أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا، فَأْذَنَ لِي، فَزُورُوا الْقُبُورَ، فَإِنَّهَا تَذْكِرَةُ الْآخِرَةِ^(٣).

وهذا الحديث، أخرج عن أبي هريرة - أيضاً!

وهو إلى ذلك - كما ترى - يُجِيزُ: البكاء على الأموات، وزيارة القبور معاً؟؟
رغم أَنَّ البعض - وهم مِمَّنْ يَنْقُ بِأَحَادِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ - يُشَنِّعُ عَلَى هَاتَيْنِ النُّقْطَتَيْنِ، وَعَلَى مَنْ يَقُولُ بِهِمَا...!

ز - إِنَّ الرُّسُولَ مَرَّ بِقَبْرِ أُمِّهِ - عَامَ الْحُدَيْيَةِ - فَاسْتَأْذَنَ رَبَّهُ، فِي أَنْ يَزُورَ الْقَبْرَ، فَأْذَنَ لَهُ، فَزَارَهُ، وَأَصْلَحَهُ، وَمَكَّتْ عِنْدَهُ حِينًا. ثُمَّ اسْتَأْذَنَ رَبَّهُ، فِي أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَأُمِّهِ، فَأَبَى عَلَيْهِ، فَانْصَرَفَ عَنِ الْقَبْرِ: بَاكِئًا، كَثِيبًا، وَبَكَى الْمُسْلِمُونَ لِبَكَائِهِ، وَاكْتَابَ الْمُسْلِمُونَ لَا كِتَابَهُ^(٤).

(١) - الغدير ١٣ : ٨ عن الطُّبْرِيِّ، والحاكم، وابن أبي حاتم، والبيهقي - عن ابن مسعود وبريدة، والطُّبراني، وابن مردويه، والطُّبري، مِنْ طَرِيقِ عِكْرَمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ.

(٢) - الغدير ١٣ : ٨، عَنِ الطُّبْرِيِّ فِي تَفْسِيرِهِ ٣١ : ١ .

(٣) - صحيح مسلم ٦٥ : ٣، والغدير ١٣ : ٨، عَنِ مُسْلِمٍ وَأَحْمَدَ - فِي مُسْنَدِهِ - وَأَبِي دَاوُدَ - فِي سُنَنِهِ - وَالنَّسَائِي، وَابْنُ مَاجَةَ، وَقَالَ: إِنَّهُمْ أَخْرَجُوهَا فِي سَبَبِ نَزُولِ آيَةِ الْاسْتِغْفَارِ.

وقريبٌ مِنْ هَذَا: مَا فِي تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ ٣٩٣ : ٣، وَالسِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ ٧١ : ١

(٤) - عَلَى هَامِشِ السِّيَرَةِ ١٩٣ : ١ .

ح - عن ابن مسعود: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ (ص) - يوماً - إلى المقابر، فَجَلَسَ إلى قبرٍ منها، فَنَاجَاهُ طويلاً، ثم بكى، فبكيت لبكائه، فقال: إِنَّ القبر، الذي جَلَسْتُ عنده قبر أُمِّي، وإني قدِ اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي في الدُّعَاءِ لها، فلم يَأْذَنْ لي، فأنزل الله: مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ (١).

ط - عن بريدة: كُنْتُ مع النبي (ص): إِذْ وَقَفَ على عسْفان، فأبصر قبر أُمِّه، ففزعاً، وصلى، وبكى، ثم قال: إني اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي أَنْ اسْتَغْفِرَ لها، فَنَهَيْتُ، فأنزل الله: مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ (٢).

ي - وذكر الزمخشري حديث نزولها في أبي طالب، ثم قال:

[وقيل: لَمَّا افْتَتَحَ مكة، سأل: أَيُّ أبويه أَحَدُهُ به عهداً، فقيل: أُمُّكَ آمَنَةٌ، فزار قبرها بالأبواء. ثم قام مستعبراً، فقال: إني اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي، في زيارة قبر أُمِّي، فأذن لي، واسْتَأْذَنْتُهُ في الاستغفار لها، فلم يَأْذَنْ لي، فنزلت. وهذا أصحُّ، لأنَّ موت أبي طالب، كان قبل الهجرة، وهذا آخر ما نزل بالمدينة] (٣).

ك - قال القسطلاني: [قَدْ ثَبَتَ أَنَّ النَّبِيَّ (ص)، أتى قبر أُمِّه، لَمَّا اعْتَمَرَ، فاستأذن ربَّه أَنْ يستغفر لها، فنزلت هذه الآية - رواه الحاكم، وابن أبي حاتم - عن ابن

(١) - أسباب النزول ١٢٧ - عن الحاكم، والبيهقي، وغيرهما - وتفسير ابن كثير ٣٩٣: ٢، والسيرة النبوية ٧٢: ١، والإتقان ٣٤: ١، حيث استدللَّ به، بعد أن ذَكَرَ غيره، لجواز الحمل على تعدُّد النزول وتكراره! - إِلَّا أَنَّ الأصل عدم التكرار!.

(٢) - أسباب النزول ١٢٧ - عن أحمد، وابن مردويه، وقال أيضاً: [وأخرج الطبراني وابن مردويه نحوه، مِنْ حَدِيثِ ابن عَبَّاسٍ، وَأَنَّ ذلك بعد أَنْ رَجَعَ مِنْ تبوك، وسافر إلى مكة معتمراً، فَهَبَّطَ ثنية عسْفان].

وأورد مثل هذا تفسير ابن كثير ٣٩٣، ٣٩٤: ٢، وعَقَّبَ عليه:

[وهذا حديث غريب، وسياق عجيب].

(٣) - الكشَّاف ٥٧٠: ١ [٢٤٦: ٢]. وقريب منه: ما تفسير البيضاوي ٢٩٨: ٢.

مسعود - والطبراني - عن ابن عباس - وفي ذلك دلالة على تأخر نزول الآية، عن وفاة أبي طالب، والأصل: عدم تكرار النزول^(١).

ورأى القسطلاني - هنا - يتعارض ورأي السيوطي، في الإتيان، حيث حاول أن يجمع بين صحة الأحاديث المفتعلة، والتي ينال بعضها أبا طالب، وبعضها أم الرسول، فحملها على: جواز تعدد النزول، وتكراره... رغم أن الأصل عدم التعدد والتكرار...
ل - إن رجلاً، من أصحاب الرسول (ص) قالوا: يا نبي الله! إن من آياتنا من كان يحسن الجوار، ويصل الرحم، ويفك العاني، ويوفي بالذمم، أفلا نستغفر لهم؟
فقال النبي (ص):

والله! لأستغفرن لأبي، كما استغفر إبراهيم لأبيه، فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾
ثم علر الله إبراهيم "عليه السلام"، فقال: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ - إلى قوله: ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾^(٢).

م - إن النبي أراد أن يستغفر لأبيه، فهاه الله عن ذلك بقوله: مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ - الآية -
قال: فإن إبراهيم قد استغفر لأبيه، فنزلت: وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ - الآية^(٣).
ن - دخل النبي مكة، عام الفتح، ظافراً منتصراً، وبينما هو في بعض مواضعها، رأى أصل قبر، فغطف عليه، وأقام عنده، واستأذن في الاستغفار لصاحب القبر، فلم يؤذن له، فأنصرف محزوناً كئيباً، وبكى، فبكى الناس، وما رأى الناس يوماً باكياً، أكثر من ذلك اليوم^(٤).

(١) - الغدير ١٤ : ٨، عن إرشاد الساري ٢٧٠ : ٧ . وذكر مثل هذا الحديث في السيرة الحلبية ١٢٦ : ١ .

(٢) - الغدير ١٤ : ٨، عن تفسير الطبري ١٣١ : ١، من طريق قتادة، وتفسير ابن كثير ٣٩٤ : ٢، عن قتادة أيضاً.

(٣) - الغدير ١٤ : ٨، عن الدر المنثور ٢٨٣ : ٣، من طريق عطية.

(٤) - على هامش السيرة ١٩٣ : ١ .

وقريب منه ما في تفسير ابن كثير ٣٩٣ : ٢، لولا أن هذا ذكر: أن صاحبة القبر أم الرسول (ص).

وَقَدْ عَلِقَ طَه حَسِينَ، بعد هذا الحديث، بقوله:

[واختلط أمر هذا القبر على الرواة، فظنوه قبر أمّه، وقبر أمّه في الأبواء. وَمَنْ

يدري، لعلّه قبر جدّه الشيخ^(١) - ويُريد به: عبد المطلب...

ولا أدري ماقيمة "لعلّ" - هنا - ونحن في موضع حسابٍ تأريخيٍّ، وَحَدَّثَ لَهُ

قيمتُه المعنويّة، في ميزان الأعمال، وَقِيمَ الرجال...!

وَقَدْ عرفنا طَه حَسِينَ مشكّكاً، يُنكر ضوء الشّمس الباهر، ببساطة قوله: لعلّ

الشّمس غير طالعة!.

أَمَا أَنْ ينقلب تشكيكه - فجأةً - إلى خطّ معاكسٍ، وإلى حدٍّ إثبات المجهول،

ووسمه بِمَنْ هو منه بريء، فشيءٌ غريبٌ منه حقاً...!

وكان الأوّل به - ولاسيّما على مبدئه المشكّك - أَنْ يطعن القضية المزعومة مِنْ

أصلها، فيُنكر أمر هذا القبر المختلط، مِنْ أساسه، لأنّ الواقع، في جانبه، لو أنكرنا.

وتمثل تلك البساطة، التي تُشعر بعدم المسؤولية، مِنْ خلاف الواقع، أتبع تلك

القولة، بهذه الجملة، التي يُعوّزها الدّليل، وتنقصها البرهنة، ولم تنسُ مِنْ اختلاط،

مثلما رمى هو به المؤرّخين:

[وَعَرَضَ الإسلام على عمّه وألّح عليه، وكاد الرجل أَنْ يقبل، لولا حميّة الجاهليّة، فلمّا

مات قال ابن أخيه: لأستغفرنّ لك، فلامه القرآن في ذلك: لوماً عنيّاً "كذا؟!"^(٢).

ونحن لا يهّمنا كثيراً، ما حاول أَنْ يصمّ به عمّ الرّسول وكافله، الذي «يحمي دينه

مِنْ قريشٍ» - كما يقول طَه حَسِينَ نفسه^(٣) - ولكن الذي يهّمنا هو هذا الانتدفاع

الجموح، بلا ريثٍ ولا تأنٍ، حتّى جَعَلَ الرّسول عرضةً للّوم العنيف، يُوجّه عليه مِنْ

القرآن الكريم - ولا ندري برأي طَه حَسِينَ، حول القرآن، رأيه العقائدي حوله، بعد

محاكمته على كتابة حول "الشّعْر الجاهليّ"، حيث أعلن إيمانه بعد تلك المحاكمة.

(١) - على هامش السّيرة ١٩٣: ١.

(٢) - على هامش السّيرة ١٩٣: ١.

(٣) - الفتنة الكبرى: ٦ - أن ص ١٥١، وَقَدْ ذكرناها، في ما مرّ مِنْ [ذكر عطر] - ص ٢٧٠.

وكيف يُلام الرسول، على عرضه الإسلام على عمه، الذي حماه وحى دينه،
فِيْلَام الرسول اللّوم العنيف، على هذا العرض أو على الإلحاح في العرض؟!

أليس مهمّة الرسالة، هي هذا العرض، حتى مع الإلحاح؟!
ثم ألم يأمره القرآن ذاته بإنذار عشيرته الأقربين، في فجر الرسالة البكر، قبل
الإنذار العام...؟!

ككيف يلومه - بعد هذا - على تنفيذ ما يتلقّى مِنْ أوامر...؟ فهل اختلط
الأمران على القرآن، كما اختلط أمر ذلك القبر الزعوم، على المؤرّخين، وراح
الدكتور طه حسين يدلّهم عليه...؟!
فما هو - عنده - سوى قبر عبد المطلب!.

وهو لا يقف في تعريض الرسول للّوم القرآن العنيف، عند تلك القولة فقط؛ بل
لا يكفي، حتى يضعه، مع عدد المسلمين، الذين يلومهم القرآن على عملٍ مخالفٍ:
[هل ترى أبلغ في تصوير العدل الصّارم الحازم، الذي لا يقبل هوادةً، ولا يتملّ
رفقاً، لأنه ليس موضع هوادةٍ ولا رفقٍ، مِنْ هذه الآية الكريمة، التي يُلام فيها النّبيُّ
والمسلمون، حين استغفروا لِمَنْ لا مطمع له في المغفرة:

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا
لِلْمُشْرِكِينَ..﴾ [إلخ] التوبة ١١٣ (١).

وبهذا يبين لنا، كيف اختلط الحال على طه حسين، دونه اختلاط المؤرّخين،
الذي لم يزده إلا اختلاطاً، على ذاك الاختلاط، ولم يخرج مِنْ عتمة الشكِّ، فالظنُّ
يحوط به. والتقريب بـ "كاد"، و"لعل" لا يغني عن الحق شيئاً.

ولقد قلنا: إنه لايهمُّنا كثيراً، ما حاول أن يصم به عمّ الرسول، وتصير الإسلام،
ذلك أن هذا الكتاب، قد وُضع مِنْ أجل هذه التّهم، يهدُّ منها الأسس الواهية، المبنية
على تراب... وما هذه التّهمة المتداعية، لأيسنها دليل، ولا يعضدها برهان، سوى
نقطة محوّة، مِنْ بين حروف تلك السطور السّود، التي وُضعت في حقّ أبي طالب.

(١) - على هامش السيرة ١٩٤ : ١ .

س - قال الطبري: قال آخرون: الاستغفار في هذا الموضوع، بمعنى الصلاة.

ثم أخرج من طريق المثني، عن عطاء بن أبي رباح، قال: ما كنت أدع الصلاة، على أحد من أهل هذه القبلة، ولو كانت حبشية حبلى من الزنا، لأنني لم أسمع الله يحجب الصلاة، إلا عن المشركين، يقول الله: مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ - الآية^(١).

فأنت ترى: أن هناك من يُفسر الاستغفار بصلاة الأموات. وقد مات أبو طالب وخديجة، قبل أن تُسنَّ صلاة الأموات.

على أن صلاة الأموات، قد شرعت عند موت المرء... فهل نهى الله رسوله أن لا يصلي على عمه، وقد مضى على موته، ما ينيف على العقد...؟!

إذن... كيف يجتمع هذا الرأي، مع فرية تحريفها لأبي طالب، أو أم الرسول، أو أبيه.

ع - عن علي: أخبرني الرسول (ص) بموت أبي طالب، فبكى، فقال: اذهب، فمسله، وكفنه، وواره، غفر الله له ورحمه. ففعلت. وجعل الرسول يستغفر له أياماً، ولا يخرج من بيته، حتى نزل جبريل "عليه السلام" بهذه الآية: مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ - إلخ^(٢).

فأنت ترى - هنا، على هذا الرأي، الذي صيغت نهايته، وفق الهوى السياسي أن نزول هذه الآية: كان في العام، الذي توفي فيه أبو طالب، على أكبر تقدير، إن لم نقل: في الشهر، أو الأسبوع، الذي توفي فيه، لوجود كلمة "أياماً"؛ مع أن نزول السورة، التي فيها آية الاستغفار، كان آخر ما نزل من القرآن، وبعد وفاة أبي طالب، بعشر سنين، في أقل الصور!.

(١) - الغدير ١٤، ١٥: ٨، عن تفسير الطبري ٣٣: ١١.

(٢) - الغدير ١٥: ٨، عن طبقات ابن سعد ١٠٥: ١، والدر المنثور ٢٨٢: ٣ عن أبي

سعد وعساكر.

ف - لما مات أبو طالب، قال النبي (ص): إِنَّ إِبْرَاهِيمَ اسْتَغْفَرَ لِأَبِيهِ، وَهُوَ مُشْرِكٌ، وَأَنَا اسْتَغْفِرُ لِعَمِّي، حَتَّى أُبْلَغَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ - إِبْرَاهِيمَ - عَمِّي أَبَا طَالِبٍ!، فَاشْتَدَّ عَلَى النَّبِيِّ (ص)، فَقَالَ اللَّهُ لَنَبِيِّهِ: وَمَا كَانَ اسْتَغْفَرُ إِبْرَاهِيمَ - إِبْرَاهِيمَ^(١).
وهنا... على هذا الحديث... نستبين أَنَّ الآيةَ، نزلت عند وفاة عَمِّ الرَّسُولِ، ونصيره (ص).

ص - لما مات أبو طالب، قال له رسول الله (ص):
رَحِمَكَ اللَّهُ، وَغَفَرَ لَكَ، لَا أَزَالُ اسْتَغْفِرُ لَكَ، حَتَّى يَنْهَانِي اللَّهُ.
فأخذ المسلمون يستغفرون لموتهم، الذين ماتوا، وهم مشركون، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ^(٢).

* *

هذه ثمانية عشر، ثُمَّ تَسْمَى بِالْأَحَادِيثِ... وَكُلُّهَا رُوِيَتْ سَبَباً فِي نَزُولِ هَذِهِ
الْآيَةِ.

وَنَحْنُ لَا نُرِيدُ مَنَاقَشَتَهَا، وَوَضَعُهَا تَحْتَ مَطْرَقَةِ النِّقْدِ... فِيهَا مَا لَا يَمُتُّ لِمَوْضُوعِ
الْكِتَابِ بِصِلَةٍ، وَإِنْ كُنَّا لَا نَقْرُ كُلَّ مَا فِيهَا، وَلَا نَدِينُ بِهَا كُلَّهَا.
وَلَكِنَّا سَقْنَاهَا، عَلَى أَنَّ ثَمَّةَ أَقْوَالٍ مُتَعَارِضَةٍ، وَآرَاءٍ مُتَنَاقِضَةٍ، فِي نَزُولِ هَذِهِ
الْآيَةِ - أَوْ الْأَصْحَحْ: فِي تَحْرِيفِ سَبَبِ نَزْوِهَا... فَهِيَ - كَمَا وَجَدْتَهَا - يَضْرِبُ بَعْضُهَا
بَعْضاً، وَتَبَايُنُ فِي مَا بَيْنَهَا...

وَأَوَّلُ مَا يُبْلَغُ النَّظَرُ، وَيَسْرَعِي الْإِنْتِبَاهَ، لِيَنْكَشِفَ قِصَرُ نَظَرِ الْخَبْرَفِ: أَنَّ
الْخَبْرَفَ، يُسْنَدُ لِمَثَلِ عَلِيٍّ وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَغَيْرِهِمَا: الْقَوْلَيْنِ الْمُخْتَلَفَيْنِ، وَالرَّأْيَيْنِ
الْمُتَنَاقِضَيْنِ، حَوْلَ هَذِهِ الْآيَةِ ذَاتَهَا، فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ، بِالإِضَافَةِ إِلَى أَنَّ مَا أُسْنَدَ لِعَلِيِّ،
أَوْ لِابْنِ عَبَّاسٍ، حَوْلَ أَبِي طَالِبٍ، بِالذَّاتِ، يَتَنَاقِضُ مَعَ الثَّابِتِ عَنْهُمَا، حَوْلَهُ.

(١) - الغدير ١٥ : ٨، عن إسحاق بن بشر، وابن عساكر، في الدر المنثور ٢٨٣ : ٣.

(٢) - الغدير ١٥ : ٨، عن الدر المنثور، أيضاً.

فما السَّبب في هذا التناقض ...

وأيها نأخذ؟ وأيها ندع؟.

فشارة: يُحرّفونها لعمّ الرّسول!، وأخرى: لأبيه! وثالثة: لأُمّه!

ولكنّ الواقع يدلّنا على أنّ البلاء، قدّ جاء أمّ الرّسول وأباه، مِنْ تعريف هذه الآية إليهما... جاءهما هذا البلاء، كرشح، ثمّ وجّه لأبي طالب، ليتّم لهم ماشاءوا في حقّ شيخ الأبطح!.

إلاّ أنّها قدّ تتفق - على اختلاف وجهات نظرها، وتباين أهدافها - على شيء واحد، هو أنّ الرّسول - وعفوه عني! - كان يستغفر لمشركين، نهاه الله عن: حبّهم، وموالاتهم، والاستغفار لهم، في عديدٍ مِنَ المناسبات، ووفرٍ مِنَ الآيات، فما كان يُقلع عن عمله، ويدع استغفاره، لِمَنْ لم يرضَ الله له أن يستغفر لهم، حتى نزلت هذه الآية!!!.

فهي - في النّتيجة - تنحدر إلى وهدةٍ واحدةٍ، وتهدف لغايةٍ واحدةٍ، هي مسّ قداسة الرّسول، والتّعدي على حرمة الرّسالة...! وهي إلى ذلك: إيذاء للرّسول(ص)، سواءً كان عن طريق عمّه، أو أبيه، أو أمّه...!

والأ فإنّ الواقع يُثبت إيمان آباء الرّسول(ص)، وأمّهاته، حتى تنتهي السّلسلة إلى المؤمن الأوّل: آدم.

لذلك وقّع الحلبيّ في حيرة، وقدّ ذكّر بعض هذه الأحاديث المفتعلة، والمحرّفة، ورأى أن لا بدّ من تصحيحها، فبدّل جهده في ذلك، فلم يرَ سبيلاً إلاّ أن يُنحّي النّار عن عبد الله، لأبي طالب، لأنّ مِنْ بين هذه الأحاديث المكذوبة:

أنّ رجلاً، سأل الرّسول: أين أبي؟ فقال له - وهو(ص)، لم يقل هذا قطعاً: إنّ أبي وأباك في النّار [كذا؟]-(^١)

(١) - السّيرة الحلبيّة ١:٦٠ - وذكر الحديث في صحيح مسلم ١:١٣٢.

وبعد سِرِّ رجراجٍ متعبٍ، نال الحلبيُّ فيه مانال، بغية التوجيه الصَّحيح، لهذا الحديث المكذوب - قال، وكأنه رأى نفسه قَدْ وَصَلَ لشاطئ الأمان، بتصحيحه الحديث، فالرَّسول لم يعنِ سوى عمِّه، بقوله: "أبي" (١).

وهكذا يُنجي الحلبيُّ مَنْ شاء، مِنْ النَّارِ، لِطَعْمِهَا مَنْ يشاء...! ولا بدَّ أَنْ نُشيرَ إلى أَنَّ هذه الأخبار، أَقلُّ ما يُقال عنها: إنها متعارضة. وكفى بهذا التَّعارض مسقطاً لها عن درجة التَّوثيق، أو الاعتبار!

وهذا التَّعارض، نجده، حتى في بعض الأحاديث المنحرفة، ضدَّ الشَّخص الواحد، فبعضها، وإن اتَّفَق في التَّحريف، لأبي طالبٍ، أو آمنة، أو عبد الله، إلَّا أنها ذاتها متناقضة في نفسها.

ونظرةً يُلقيها القارئ عليها، يجد ذلك بأوضح ما يكون الوضوح! ثم هي مع هذا التَّعارض، المسقط لها عن درجة الاعتبار - بالإضافة إلى: تهالك السند، وضعف الرُّواة، كما عرضنا الأقوال عنهم، في ما حُرِّف لأبي طالبٍ، وليس هؤلاء، سوى نماذج، لرواة أمثال هذه الأحاديث الكاذبة، لأنَّ استقواءها مِنْ عَيْنِ آسنةٍ واحدةٍ...!

... إنها مع هذا التَّعارض، في ما بينها، ومخالفتها لأصل عدم تعدُّد وتكرار سبب نزول الآية...

إنَّها - مع ذلك كلِّه - تتعارض بما هو أقوى منها دلالةً، وأوضح سنداً؛ وتتصادم بالقرآن العظيم، الذي أثبت طهارة نسب الرَّسول، وطهارة أهل البيت أيضاً (٢) - وليس أدنس، ولا أرجس مِنْ: الشُّرك، والكفر - كما أنها تنال مِنْ قداسة الرَّسول، الذي جعلته يُخالف القرآن، في نهيه عن موالاة الكفَّار، في آياتٍ، سبقت هذه الآية، في تنزُّلها عليه، بما أوضحناه مِنْ قبل.

(١) - السِّيرة الحلبِيَّة ٦٠ : ١ .

(٢) - إشارةً إلى آية: "وتقلبك في السَّاجدين"، وإِنَّمَا يُريد الله"، وغيرهما.

- ٤ -

إنَّ الآيةَ، التي اختلفَ في: تأويلها، أو تفسيرها، أو تحريفها... تحمل معنى النَّفي، لا معنى النَّهي - أي: إنَّ الآيةَ، تنفي عن الرسول: أنه كان يستغفر للمشرَكين - وكذلك المؤمنون، الذين هم لتعاليمه متَّبِعون - فهي تنفي صدور استغفارٍ من الرسول، لرجلٍ لم يقرَّ في قلبه الإيمان، لا أنها تنهى الرسول عن الاستغفار، لِمَنْ لامطمع له فيه، لأنَّ الرسول مبرِّاً، مِنْ أن يقع في هذا...!

فكلُّ مَنْ وجدناه، قد استغفر له الرسول، فعلينا أن نُقرَّ بإيمانه، ولا يُخالجنا فيه ذرةٌ مِنْ شكٍّ، أو غبارٍ مِنْ ريبةٍ - ما دمنَّا نُقرُّ للرسول بالنبوة والعصمة، والعمل الحقُّ.

وليس في الآية شيءٌ، ممَّا يُظنُّ أنَّ الرسول، كان يستغفر للمشرَكين، فنهاه الله عنه، لأنَّ في حلل الآية على هذا التأويل، مسأً لقداسة الرسول، ونيلاً مِنْ مقام النبوة... ولا سيما بعدما وجدنا أنَّ الرسول، قد تلقَّى مِنْ وحي ربِّه، ما قد نهاه - قبل هذه الآية - أن يعمل مثل هذا...!

وإننا نجد في هذه الآية ما يكشف عن السِّرِّ، في استغفار الرسول لعُمَّه... فَمِنْ الجائز: أنَّ هناك، مَنْ لم يكن بإيمان أبي طالبٍ، ذلك العليم، لتكتمه به، وقد رأى الرسول يستغفر له، فَظَنَّ جواز وإباحة الاستغفار، لدوي قريبي المسلمين، مِنْ المشركين، فجاءت هذه الآية، لتقول لهم:

إنَّ ذلك لا يجوز... ولم يكن ليقع مثل هذا العمل من الرسول... وما استغفر الرسول لعُمَّه، وهو مشركٌ، حتى يُجوز للناس: أن يستغفروا لأبائهم المشركين... ثم أوضحت لهم الآية: موقف الخليل إبراهيم...

على أنه فرق، بين: الاستغفار للحَيِّ، والاستغفار للمَيِّت - كما أشرنا لذلك، قبل خطواتٍ.

فَلَايَةَ تَنْزِهِ الرَّسُولِ - فِي اسْتِغْفَارِهِ لِعَمَلِهِ، وَمَنْ كَانَ يَسْتَغْفِرُ لَهُ - بَأَنَّهُ لَا يَسْتَغْفِرُ
لِمُشْرِكٍ، وَهُوَ الشَّدِيدُ فِي جَنْبِ اللَّهِ، وَعَلَى أَعْدَائِهِ...
وَلَيْسَ اسْتِغْفَارُ الرَّسُولِ، لِأَيِّ كَانَ، إِلَّا دَلِيلًا، مَدْعَمًا بِالْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ، عَلَى
إِيمَانِ هَذَا الَّذِي يَسْتَغْفِرُ لَهُ لِرَسُولِ (ص)...
وَأَنَّ مَقَامَ النَّبُوَّةِ، وَقُدَاسَةَ الرُّسَالَةِ، لِتَأْيِيدِ عَلَيْهِ (ص)، أَنَّ يَسْتَغْفِرَ لِمُشْرِكٍ، أَوْ أَنَّ
يُخَالِفُ مَا يَنْهَاهُ اللَّهُ عَنْهُ، وَيَعْمَلُ مَا لَا يَرْضَى اللَّهُ بِهِ!...
وَقَدْ عَرَفَ الْكَثِيرُ، مِنْ اسْتِغْفَارِ الرَّسُولِ لِعَمَلِهِ، دَلِيلًا عَلَى إِيْمَانِهِ... فَلَمْ يَحْتَجُوا
بِذَلِكَ، لِتَبْرِيرِ اسْتِغْفَارِهِمْ لِأَبَائِهِمُ الْمُشْرِكِينَ...
فكَذَلِكَ وَجَدْنَا الَّذِي حَاوَرَهُ عَلِيٌّ، وَنَهَاةً، بَعْدَمَا وَجَدَهُ مُسْتَغْفِرًا لِأَبِيهِ
الْمُشْرِكِينَ، وَلَمْ يَحْتَجْ إِلَّا بِاسْتِغْفَارِ إِبْرَاهِيمَ، لِعَدَمِ إِحَاطَتِهِ بِالسَّرِّ فِي ذَلِكَ... - وَقَدْ
سَبَقَ مِنَّا ذِكْرُ الْحَادِثَةِ، وَالْقَوْلِ حَوْلَهَا.

- ٥ -

إِنَّ هُنَاكَ مَنْ يَذْكُرُ بَقِيَّةَ الْحَدِيثِ، الَّذِي نَقَلْنَاهُ، عَنْ: الْبُخَارِيِّ، وَمُسْلِمٍ، وَإِنَّ
هُنَاكَ مَنْ يَقُولُ:
[فَلَمَّا تَقَارَبَ مِنْ أَبِي طَالِبٍ الْمَوْتُ، نَظَرَ إِلَيْهِ الْعَبَّاسُ، فَرَأَاهُ يُحَرِّكُ شَفْتَيْهِ،
فَاصْغَى إِلَيْهِ بِأُذُنِهِ، فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي! وَاللَّهِ لَقَدْ قَالَ الْكَلِمَةَ، الَّتِي أَمَرْتَهُ بِهَا^(١).
فَمَعَ التَّنَزُّلُ بِأَنَّ أَبَا طَالِبٍ، قَالَ مَا قِيلَ عَلَى لِسَانِهِ، عِنْدَ الْإِحْتِضَارِ، فَإِنَّ هَذِهِ
الشَّهَادَةُ - مِنَ الْعَبَّاسِ - تَدُلُّ عَلَى أَنَّ آخِرَ مَا فَاهَتْ بِهِ شَفْتَا أَبِي طَالِبٍ، وَآخِرُ
كَلِمَةٍ، انْفَلَتْ صَدَاقًا مِنْ لِسَانِهِ، وَهُوَ عِنْدَ حَشْرَجَةِ الْإِحْتِضَارِ، هِيَ: الشَّهَادَةُ، الَّتِي
أَرَادَهَا مِنْهُ الرَّسُولُ - كَمَا يَقُولُ الْحَدِيثُ.

(١) - السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ ٨٣: ١، وَالْحَيِّةُ ٣٨٨: ١، وَالْمَشَافِيءُ ٥٩: ٢، وَالْبَحَارُ ٥٢٣: ٦،
وَالنَّهْجُ ٣١٢: ٣، وَشَيْخُ الْأَبْطَحِ ٧٣، وَالْأَعْيَانُ ١٣٦: ٣٩.

وعلى مَنْ يقول بصحة الحديث: أن يأخذ بنهايته وتماه... وإلا فعليه، أن يرمي به كله. إذ ليس له أن يأخذ ما يُوافق هواه، ويترك ما يُخالفه...!

- ٦ -

وإننا إذا أسدلنا الستر، على إقرار أبي طالب، وأقواله وأعماله، الناضجة بالإيمان... وتناسينا وصاياه - عند الاحتضار - على الملا مِنْ قريش... وأغفلنا استغفار الرسول وشهاداته، وحبه والإخلاص له... وشهادات عدل القرآن، وأحد الثقلين اللذين خلفهما الرسول بعده: أهل البيت... وشهادات الصحابة، في حقه - كابي بكر، وأبي ذر، وابن عباس...
إننا إذا تركنا كل هذا جانباً، وجعلنا بيننا وبينه السد المنيع، الذي يحجب الضوء. وسلمنا - تنزلاً - بصحة الحديث - وليس لنا أن نُسلم به، بعد قيام البراهين على دحضه...
أقول: لو تركنا كل هذا، وتنزلنا، فسلمنا بالحديث - فبأن قول أبي طالب: "على ملّة عبد المطلب"، ليس سوى دليل على إيمانه...

فما ملّة عبد المطلب هذه؟

أليست هي الحنيفية البيضاء؟

أليس عبد المطلب على دين الله، الذي ارتضى؟

أليس مقراً بالاله الحق، والمبدأ الأعلى، ويوم الحساب، ومؤقناً بالله باعث حفيده، ليصدق برسالة ربه، وتمنى - وهو يحتضر - أن يمتدّ به العمر، ليشهد انبعاث النور، وإشراقه السنّى...؟

ولكن هذا - أيضاً - ليس سوى رشح، فما وجه لأبي طالب... فأصاب - مرة - أم الرسول، آمنة؛ وأخرى: أباه، عبد الله؛ وتارة: جدّه، عبد المطلب.

أو هو - بالأصح - رشح، فما وجه لعلي، ليحطوا مِنْ قدره، لأن "متسافل الدرجات يحسد مَنْ علا" - كما يقول الشاعر - فنالوا منه عن طريق أبيه؛ إلا أن

هؤلاء لم يتجوا مِنْ هذا النَّيل - أيضاً - حتَّى ولو كان في كلِّ هذا، نيلٌ
لِلرَّسول (ص)؛ وأذَّى له، مادامتِ الغاية تُبرِّر الواسطة، عند الوصولين.

هذا... وليس ممَّا يختصُّ بموضوعنا إثبات إيمان عبد المطلب... إنَّ كان إيمانه
يحتاج للإثبات... على أَنَّا قدَّ أتينا على ما يُبرهن على إيمانه، في الفصل، الذي
عقدناه عنه، مِنْ هذا الكتاب.

هذا... وفي الموضوع كُتِبَ مختصَّةً، تعرض جوانبه... حتَّى عُذَّ للسَّيوطي سِتَّة
كُتِبَ، كُلُّها حولَ إيمان آباء الرُّسول الأعظم (ص) (١).

على أَن أبا طالب، لم يتَّخذ ذلك الجواب، بقوله: "على ملَّة عبد المطلب، - إنَّ كان
للحديث بالواقع صلة - إِلَّا لِيُعْمِيَ موقعه على قريش، هؤلاء العتاة المغيطين به... وَقَدْ
اتَّخذ هذه السَّياسة، في صالح: الدَّعوة، ونبي الإسلام - كما عرضنا لذلك...
ولو لم يكن قد اتَّخذ مثل هذا الطَّرِيق، لَمَّا تَسَنَّى له أَن يقوم بما قام به، مِنْ:
جليل العمل، ومؤزَّر النُّصرة...!

نظرة في آية ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي﴾

أمَّا الآية الثَّانية: "إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ" - الآية - فَقَدْ وضعنا يدك على
مكمن الداء، الذي كان مِنْ أعراضه: تحريفُ هذه الآية - في ما حُرِّفَ - نحو أبي
طالب، وكشفنا السَّرَّ عن الخبيء، مِنْ زيف هذا التَّحريف، مادام الحديث يقول:
إِنَّ هذه الآية، نزلت وآية الاستغفار، في هذه المناسبة...

(١) - (ارجع لأسمائها، للغدير ١٧: ٨ بالهامش. وأشير لها في السَّيرة النبويَّة ٧٧: ١).

وَقَدْ رَقْنَا عليها - أخيراً - في طبععتها الثَّالثة، طباعة حيدر آباد الدكن - الهند - عام ١٣٨٠هـ -
١٩٦١ م، وهي - على الظَّاهر - ذات منهج واحد، وأسلوبٍ متقارب، وتجانف - فيها - علي
واضح الحقِّ الجلي، بشأن أبي طالب، ولم نَرِ حاجة. لفتح نقاشٍ خاصٍّ معه، لأنَّه تعدُّ أنمَّ، وتجنَّ
حاتر...!

ومادام قد انهدت أسس التُّهم، التي شيدت في تحريفهم، لتلك الآية، فهي - هنا - أضعف من أن تبقى في الوجود: لحظة، بل هي - هنا - من بين تلك الأنقاض المهذمة.

ولكننا - مع هذا - رأينا أن نخصَّ تحريف هذه الآية. بنظرة عابرة، نُوجزها في هذه النقاط:

- ١ -

إنَّ هناك، مَنْ وَضَعَ أحاديث، خَصَّهَا بهذه الآية، غير تلك التي عرضناها، عن: سعيد بن المسيَّب، وأبي هريرة، وناقشنا سندهما، وكشفنا عمَّا فيه من زيف، بحيث لا يبقى سببٌ من التَّشْبُث، بما انطوت عليه هذه الأحاديث، من كذب، وإفراء، وتزوير...! ونريد - الآن - أن نعرض لحديثين آخرين، خَصَّأَ بهذه الآية، ونناقش سندهما الواهي المتهاالك...

١ - عن طريق أبي سهل السريِّ بن سهل، عن عبد القدُّوس الدُمَشقيِّ عن أبي صالح، عن ابن عباس، قال: نزلت: إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ - الآية - في أبي طالب. ألح عليه النبي (ص)، أن يُسَلِّم، فأبى، فأنزل الله: إِنَّكَ لَا تَهْدِي^(١). ونلاحظ على هذا:

أ - السري: يقول عنه الذهبيُّ: "وهَّاه ابن عدي. وقال: يسرق الحديث؛ وكذَّبه ابن خراش".

ثمَّ ذَكَرَ له أحاديث، فيقول قبلها: ومن بلاياه. ومن مصائبه^(٢). وعده الأُمينيُّ، في سلسلة الكذَّابين، عن كثيرٍ ممَّن ترجمه^(٣).

(١) - الغدير ٢٠: ٨، عن الدر المنثور ١٣٣: ٥ .

(٢) - الميزان ٣٧٠: ١ .

(٣) - الغدير ٢٠٢: ٥، و ٢٠ و ١٤٣، ١٤٤: ٨ .

ب - عبد القدّوس الدّمشقيّ: قال عبد الرزّاق: ما رأيْتُ ابن المبارك، يُفصح بقوله: "كذّاب"، إلّا لعبد القدّوس. وقال الفلاس: أجمعوا على ترك حديثه. وقال النسائي: ليس بثقة. وقال ابن عدي: أحاديثه منكراً الإسناد والمتن^(١).
وقال إسماعيل بن عيَّاش: لا أشهد على أحدٍ بالكذب، إلّا على عبد القدّوس^(٢).
وقال عبد الله بن المبارك: لنس أقطع الطريق، أحبُّ مِن أن أروي عن عبد القدّوس الشّاميّ^(٣).

ج - لا نعرف من هو أبو صالح؟ وأظنُّ الصّاد - في كنيته - طاءً!
د - وإسناد الحديث لابن عبّاس، يفضح المؤامرة، ويكشف السّر عن الكذبة...!
فابن عبّاس كان ميلاده في شعب أبي طالب، حين حُصر الرسول وبنو هاشم فيه، في العام الثّالث، قبل الهجرة^(٤) - أي: في العام، الذي تُوفّي فيه أبو طالب!
فَمِنْ أين رأى ابن عبّاس ذلك، ليروي هذا الحديث...؟!
حاشا ابن عباس! فإنه لم يُقل شيئاً من هذا... بل رأيناه كيف يُجيب من سألَه، عن إيمان أبي طالب - فيما عرضناه، عند "ذكر عطر"^(٥).
٢ - وعاد الكدوبان: السري، وعبد القدّوس، فأسندا الحديث المفتعل لابن عمر^(٦). وقد كان ميلاد عبداً لله بن عمر، في العام الثّالث، مِن المبعث النبويّ^(٧). فهو في وفاة أبي طالب - قد شارف السّبعة الأعوام، من عمره.
فليس من المعقول أن يشهد - وهو في هذه السنّ - احتضار أبي طالب.
وليس غير هذين الكذّابين، اللذين اختلقا هذا الحديث، فأسندها - مرّةً - لابن عبّاس، وأخرى لابن عمر - وحاشاهما! - لتسمّ للكذّابين الغاية السّوء، التي أرادوها!.

(١) - الميزان ١٤٣: ٢ .

(٢) - الغدير ٢٠٨: ٥ - في سلسلة الكذّابين - و ٢١: ٨ .

(٣) - الغدير ٩٠: ١٠ .

(٤) - الإصابة ٣٢٢: ٢ .

(٥) - ص ٢٦٣ .

(٦) - الغدير ٢١: ٨، عن الدّر المنثور ١٣٣: ٥ .

(٧) - الإصابة ٣٣٨: ٢ .

- ٢ -

أَمَّا الْآيَةُ - فَإِنَّا نَجِدُهَا بَيْنَ آيَتَيْنِ، هِيَ وَسَطَى بَيْنَهُمَا:

وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ، وَقَالُوا: لَنَا
أَعْمَالُنَا، وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، لَا نَبْتَغِي
الْجَاهِلِينَ. إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ. وَلَكِنَّ اللَّهَ
يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ.
وَقَالُوا: إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ، نَتَخَطَّفُ مِنْ
أَرْضِنَا... أَوْ لَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا، يُجْبَى إِلَيْهِ
ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ، رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا...؟ وَلَكِنْ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ^(١).

فَالْآيَةُ الْأُولَى مَخْتَصَّةٌ بِالْمُؤْمِنِينَ، تَصِفُ عَمَلَهُمْ...

وَالثَّالِثَةُ: تَصِفُ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا، خَافَةَ أَنْ يُتَخَطَّفُوا مِنْ أَرْضِهِمْ - كَمَا يَزْعُمُونَ!
- أَي: يُسْتَلْبُونَ.

وَالْآيَةُ الْخُرُفَةُ: وَسَطَى بَيْنَهُمَا. وَهِيَ خُطَابُ الرَّسُولِ (ص)، يَقُولُ اللَّهُ لَهُ فِيهَا:
إِنَّ هِدَايَةَ أَوْلَئِكَ، لَيْسَ لِحَبِّكَ لَهُمْ، فَمَا أَنْتَ بِالْهَادِي لَهُمْ - بِالْمَعْنَى الْأَصِيلِ - أَي: إِنَّهُمْ
لَمْ يَهْتَدُوا لِسَمَاعِهِم الدَّعْوَةَ مِنَ الرَّسُولِ، فَحَسَبَ؛ وَإِنَّمَا لِإِمْدَادِ اللَّهِ وَمَشِيئَتِهِ...
وَلَيْسَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الرَّحِيدَةُ، فِي الْقُرْآنِ، مَهْمًا تَحْمِلُ هَذَا الْمَعْنَى - وَهُوَ نِسْبَةُ
الْهِدَايَةِ لِلَّهِ - فَهِيَ كَأَيَّاتٍ كَثِيرَةٍ، مِنْهَا هَذِهِ الطَّائِفَةُ:

أ - لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ^(٢).

(١) - القصص ٥٥ - ٥٧ .

(٢) - البقرة ٢٧٢ .

ب - إِنْ تَخَرِّصْ عَلَى هَذَاهُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ^(١).

ج - أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْذُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ؟^(٢).

د - أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعَمَى، وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ.^(٣)

هـ - فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ^(٤).

و - مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي، وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا^(٥).

وليس لنا أن نقصّي هذه الآيات - وهي على وفرة عدد، وكلها تحمل المعنى، الذي تحملها تلك الآية الخرفّة... وهي كلّها تُشير إلى أنّ الهداية تكون بإمدادٍ من الله، ولكن في حدود اختيار العبد، لا أن تسلبه حرية الاختيار...

ولذلك نجد آياتٍ أخرى، تنسب الهداية والضلال، للنفس، كقوله تعالى:

فَمَنْ اهْتَدَى، فَأَتَمَّا يَهْدِي لِنَفْسِهِ، وَمَنْ ضَلَّ فَأَتَمَّا يَضِلُّ عَلَيْهَا^(٦).

إلى آياتٍ وآياتٍ، لأنريد تقصّيها.

- ٣ -

ويجدر بنا أن نعرض بعض الوجوه، التي رأوها في سبب نزول هذه الآية:

أ - إِنَّ الرّسول (ص) ضُربَ بحربةٍ في خده - يوم أحد - فَسَقَطَ إلى الأرض، ثم قام، وَقَدْ انكسرت رباعيته، والدم يسيل على حرّ وجهه. فَمَسَحَ وجهه، ثم قال: «اللهم اهْدِ قومي، فإنهم لا يعلمون»؛ فأنزل الله:

(١) - النحل ٣٧ .

(٢) - النساء ٨٨ .

(٣) - يونس ٤٣ .

(٤) - إبراهيم ٤، والمائدة ٣١ .

(٥) - الكهف ١٧ .

(٦) - يونس ١٠٨ .

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ - الآية.. (١).

ب - قيل: إِنَّ قَوْمًا كانوا يُظهرون الإسلام، والإيمان بالرَّسول (ص)، وتأخروا بعد هجرته، وأقاموا بِمَكَّةَ، مظهرين الكفر والصبوء إلى الدِّين، الذي كانوا له معتنقين...

وإذ وَصَلَ نبؤهم للرَّسول، وَمَنْ معه مِنَ الْمُؤْمِنين، اختلفوا فيهم...
فمنهم مَنْ يرى إيمانهم، ولا يرى "ظاهرهم" الذي اتَّخذوه، سوى تقيَّةٍ لِمَنْ اضطرَّ، كما قال الله تعالى: "إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً"...(٢)
ومنهم. مَنْ يراهم كَفَّارًا، إذ كان عليهم أَنْ يُهاجروا، لو استحبُّوا الإيمان، والنَّجاة بالمبدأ...

لذلك... اجتمع هؤلاء وأولئك، إلى الرَّسول فأحبَّ بعضهم أَنْ يُصدر الرَّسول فيهم حكمه بإيمانهم، للأرحام الوشيعة، التي تربط بين: هؤلاء الرَّاغبين، وأولئك المقيمين.

ولكنَّ الرَّسول أرجأ الحكم، حتى ألقى الملاك في أذنه: "إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ".
وقالوا: إِنَّ معنى الآية: "إِنَّكَ لَا تَحْكُم، وَتُسَمِّي وتشهد بالإيمان، لِمَنْ أَحْبَبْتَ. لكنَّ اللَّهَ يحكم له، ويُسمِّيهِ، إذا كان مستحقًّا له"(٣).

ج - قيل: إِنَّ هذه الآية، نزلت في الحارث، بن عثمان، بن نوفل، بن عبد مناف، وَقَدْ كانت عند الرَّسول رغبةً في إسلامه، وحبًّا لذلك(٤).

(١) - الحجَّة ٢٩، والأعيان ١٥٩ : ٣٩.

وَقَدْ جاء في الحجَّة: "يوم حنين" - خطأ - والمقصود، مِنْ سياق الحادثة وتأريخها: يوم أحد.

(٢) - آل عمران ٢٨.

(٣) - الحجَّة ٣٠، والأعيان ٢٥٩ : ٣٩.

(٤) - شيخ الأبطح ٦٩- عن الحسن بن الفضل، في كتاب "أسباب النزول"، لأبي الجحد بن رشادة الواعظ الواسطي.

ويقرب من هذا القول: قول بعض المفسرين، بأن الآية التي بعد هذه - وهي: "وَقَالُوا: إِنْ نَجِىَ الْهُدَى مَعَكَ"، إلخ، كان نزولها في الحارث^(١).
وقد قيل: إن إجماع المسلمين، على أن الآية الثانية - "وَقَالُوا... إلخ - هي في الحارث^(٢).

د - إن رسول قيصر، جاء بكتاب للرسول (ص)، - فدفعه إليه، فَوَضَعَ الرَّسُولُ الكتابَ بحجره، ثم قال: "مِمَّنِ الرَّجُلُ؟" قال: مِنْ تَنُوخ. فقال الرسول: "هل لك في دين أبيك إبراهيم الحنيفة؟".

قال رسول قيصر: إني رسول قوم، وعلى دينهم، حتى أرجع إليهم.
فضحك الرسول (ص)، ونَظَرَ إلى أصحابه، وقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي﴾^(٣)

* *

هذه أقوال أربعة، قيلت في سبب نزول الآية... والأصل - كما قدّمنا - عدم تكرار النزول... فَمَنْ أَيْنَ حُرِّفَ لأبي طالب، لولا هؤلاء الكذبة، الذين لا يخشون الكذب، ولا يرقبون في مؤمن إلا، ولا ذمّة!؟

- ٤ -

ونحن لو سلمنا نزولها في أبي طالب، فإنها ستكون سلاحاً، في يد القائلين بإسلامه، أكثر من أن تكون ضدّهم:

أ - لأنّ مَنْ يصرّفها لأبي طالب، يقول بحبّ الرسول له: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾... فمعناها عندهم: يا محمّد! إنّك لا تهدي عمّك الذي تحبّه، ولكن الله يهديه!

(١) - الكشّاف ١٦٧: ٢ [٣: ٣٣٣]، وجمع البيان ٣٠٩: ٢٠، وأسباب النزول ١٦٩، عن النسائي عن ابن عباس؛ وتفسير ابن كثير ٣٩٥: ٣، وتفسير البيضاوي ٩: ٤.

(٢) - شيخ الأبطح ٦٩.

(٣) - تفسير ابن كثير ٣٩٥: ٣.

فحبُّ الرُّسولِ لرجلٍ، هو - وحده - دليلٌ على إيمان هذا، الذي يحبه
 الرُّسولُ(ص)، لأنَّ الرُّسولَ منهى، عن حبِّ غير المؤمنين.
 وَقَدْ تَكَرَّرَتِ الإِشَارَةُ مِنْهُ، لِهَذِهِ النَّاحِيَةِ. فَالْإِعَادَةُ، لَيْسَتْ سِوَى تَكْرِيرٍ
 وَتَطْوِيلٍ.

ب - وَمِنْ نَاحِيَةٍ ثَانِيَةٍ: تَكُونُ دَلِيلًا عَلَى رَفْعَةِ إِيمَانِ أَبِي طَالِبٍ، لِأَنَّ إِيمَانَهُ يَكُونُ
 - حِينَئِذٍ - بِهَدَايَةِ مَنْ أَلَّهَ، وَلَيْسَ بِدَعْوَةِ الرُّسُولِ لَهُ، فَحَسَبَ. بَلْ إِنَّ هُنَاكَ عَنَايَةً
 إِلَهِيَّةً، اخْتَصَّتْ أَبَا طَالِبٍ.
 لذلك... خَاطَبَ اللهُ سُبْحَانَهُ، رِسُولَهُ، قَائِلًا لَهُ: إِنَّ هَدَايَةَ عَمِّكَ، لَيْسَتْ مِنْكَ.
 وَإِنَّمَا اللهُ هُوَ الَّذِي أَمَدَّهُ، فَهَدَاهُ، حَيْثُ اخْتَصَّهُ، فَكَانَ حَامِي دِينِكَ، بَعْدَ أَنْ رَعَاكَ،
 وَتَحَوَّطَكَ، وَقَدَّاكَ...

- ٥ -

بعد هذا... لَنَجِدُ حُكْمًا مُرْتَجَلًا، أَوْهَى دَلِيلًا، مِنْ هَذَا الْحُكْمِ، يُرْسِلُهُ الزُّجَّاجُ،
 حَوْلَ هَذِهِ الْآيَةِ، فَيَدَّعِي: أَنَّ قَدْ [أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي أَبِي طَالِبٍ] (١).
 فَمَنْ أَيْنَ هَذَا الْإِجْمَاعُ، وَمَا هُوَ إِلَّا فِي عَالَمِ الْوَهْمِ، وَالْخِيَالِ الْخَلَاقِ؟! وَأَيُّ
 دَلِيلٍ، يُعْضِدُ هَذَا الْإِدَّاعَ الْكَاذِبَ...؟! وَكَيْفَ لَمْ يَحْشَ مَغْيَةَ هَذِهِ الدَّعْوَى الشَّائِنَةِ:
 وَمَسْئُولِيَّةَ هَذَا الْحُكْمِ الطَّائِشِ؟.

وَأَقْلُ مَا فِيهِ: إِخْرَاجُ أَهْلِ الْبَيْتِ، وَشِيعَتِهِمْ، مِنَ الْمُسْلِمِينَ، الَّذِينَ يَزْعُمُ إِجْمَاعُهُمْ
 عَلَى بَاطِلِ هَذِهِ الدَّعْوَى... وَيُخْرِجُ - أَيْضًا - طَائِفَةً مِنَ الصَّحَابَةِ، وَطَائِفَةً مِمَّنْ أَتَعَ
 صَرِيحَ الْحَقِّ، وَسَارَ فِي مَهْيَعِ الْحُجَّةِ، قَامَنَ بِالْأَمْرِ الْوَاقِعِ، وَأَقْرَبُ بِالثَّابِتِ مِنْ إِيمَانٍ بَيِضَةِ
 الْبَلَدِ... لِأَنَّهُ إِنْ لَمْ يُخْرِجْهُمْ مِنْ عِدَادِ الْمُسْلِمِينَ، انْتَقَضَ عَلَيْهِ ادَّعَاءُ الْإِجْمَاعِ، لِأَنَّ آيَةَ
 قَوْلِهِ لِأَحَدٍ هَؤُلَاءِ، تَقْضِي عَلَى مَزْعَمَتِهِ، وَادَّعَائِهِ لِلْإِجْمَاعِ الَّذِي لَا وَجُودَ لَهُ!.

(١) - الْكَشَّافُ ٣: ٣٣٢.

والغريب - وكم في هذا الموضوع، من غريب، عجيباً - إن دليله على هذا الإجماع الموهوم حديثٌ كاذبٌ - لم يذكر له سنداً، حتى تكشف عما فيه من: كذاب، ووضّاع - ولكن لاشك في أنّ أصله بعض تلك الأحاديث، الذي زيفنا سندَها الواهي المتهالك. وقد أضاف إليه ما شاء له الخيال، الذي أوجد تلك من عدم... والكذبة قد تولد صغيرة، ثم تنمو...!

وإننا لنجد التناقض ظاهراً، وروائح الخلق تفوح، بين مسطور هذه الكلمات، التي يقولها على لسان أبي طالب:

(يا ابن أخي! قد علمت أنّك لصادق: ولكني أكره أن يُقال: خرّ عند الموت) (١) - حتى يمتحما: [ولكن سوف أموت على ملّة الأسيّاح: عبد المطلب، وهاشم، وعبد مناف] (٢).

ولأريد: أن نعيد النقاش حول هذا، أو أن ندلّ على التناقض، فيكفي ردّاً على ذلك: ما سبقّ حول مثيل هذا القول المخلوق.

ولكن نُشير إلى أنّ القرطبي، قد استكبر هذه الدّعى الضّخمة - دعوى الإجماع! - فأراد أن يخفّف من حدّة قبحها. فعقّب قائلاً:

(والصّواب أن يُقال: أجمع جلّ المفسّرين على: أنّها نزلت في شأن أبي طالب) (٣).

غير أنّه لم ينبج من مثل ما وقّع فيه الزّجاج، من: تهويل الدّعى، وتضخيم الإدّعاء... فالإدّعاء، لا يُدعمهما دليل، ولا يُقويهما برهان، ولا يعتمدان على قوّة، من: منطقي، أو بيان.

وشية بهذا الحكم الطّائش، يرتجله الزّجاج، دون أن تتوافر فيه أيّ مقومات الحكم، ما قاله ابن كثير، حول هذه الآية:

(١) - خرّ - هنا - بمعنى: نحار.

(٢) - الكشّاف ٣٣٢، ٣٣٣: ٣.

(٣) - الغدير ٢٢: ٨، عن تفسير القرطبي ١٣: ٢٩٩.

(وَقَدْ ثَبِتَ فِي الصَّحِيحِينَ: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي أَبِي طَالِبٍ عَمُّ رَسُولِ اللَّهِ (ص)، وَقَدْ كَانَ يَحُوطُهُ وَيَنْصُرُهُ، وَيَقُومُ فِي صَفِّهِ، وَيُحِبُّهُ حُبًّا شَدِيدًا طَبِيعِيًّا لَا شَرْعِيًّا - كَذَا (١)).

ثم استشهد بتلك الأحاديث، التي عرضنا لها، وفككتنا منها العرى المقصومة... فَمِنْ أَيْنَ هَذَا الثُّبُوتُ، الَّذِي يُرْسِلُ الْحُكْمَ عَنْهُ، فِي غَيْرِ خَوْفٍ، مِنْ: مَسْئُولِيَّةٍ، أَوْ حِسَابٍ...؟! وهل يثبت مثل هذا التحريف، بمثل هذه الأخبار التجارية، التي يضعها هؤلاء...؟

ومضحكٌ أن ينقل حول أحد هذه الأحاديث: ما قاله الترمذي: أنه (حَسَنٌ غَرِيبٌ، لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ يَزِيدَ بْنِ كَيْسَانَ) (٢).

فَقَدْ اعْتَرَفَ بِغَرَابَتِهِ، وَانْفِرَادِ يَزِيدَ بِهِ. هَذَا الَّذِي لَا يُحْتَجُّ بِهِ، وَلَا يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ - كَمَا سَبَقَ أَنْ رَأَيْنَا، عِنْدَمَا وَقَفْنَا عِنْدَهُ، فِي مَا مَضَى، مِنْ تَزْيِيفِ السَّلْسَلَةِ، الَّتِي افْتَعَلَتْ هَذَا الْحَدِيثَ (٣) - فَمِنْ أَيْنَ هَذَا الْحَسَنِ، الَّذِي جَازَ لِلتَّرْمِذِيِّ أَنْ يَصِفَهُ بِهِ...؟!

ولأتريد نقاش ابن كثير، في هذا الحب الذي حلال له أن يُسمَّيه بالطَّبْعِيِّ، لَا الشَّرْعِيِّ، حَيْثُ أَنَّ فِي تَضَاعُيفِ الْكِتَابِ مَا يَقُومُ بِالْبَرْهَنَةِ، عَلَى أَنَّ هَذَا الْحَبَّ، يَحْضُهُ أَبُو طَالِبٍ مُحَمَّدًا الرَّسُولَ، لَا ابْنَ أَخِيهِ...

* *

ومثِّلْ مِنْ هَذَا التَّحْرِيفِ، يُسَمَّى تَفْسِيرًا - تَارَةً - وَتَارِيخًا - أُخْرَى - وَحَدِيثًا - ثَالِثَةً - قَوْلُ مَنْ قَالَ:

[إِنَّ أَبَا سَعِيدٍ بْنُ رَافِعٍ قَالَ: سَأَلْتُ ابْنَ عُمَرَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: إِنَّكَ لَأَتَهْدِي مَنْ أَحَبَّيْتُ - أَفِي أَبِي جَهْلٍ، وَأَبِي طَالِبٍ؟ قَالَ: نَعَمْ] (٤).

(١) و (٢) - تفسير ابن كثير ٣: ٣٤٩ .

(٣) - ص ٣٢٣ .

(٤) - أسباب النزول ١٦٨ ، ١٦٩ .

ونحن إن لم نقف على سند هذا القول، إلا أنه ليس من الأهمية بمكان، حتى ولو لم يكن في السند مغمزٌ، أو فضيحةٌ، مادام هذا ليس سوى رأيٍ منسوبٍ لابن عمر، لابصفته حديثاً.

ولكن كيف يقبل العقلُ هذا الرأيَ - حتى مع عدم ثبوت إيمان أبي طالب - وهو يجمع بين: أبي طالب، وأبي الجهل، في منزلةٍ واحدةٍ...؟!

فالإنسان - أبو طالب، بحبه ودفاعه، وتفانيه وكفالاته للرَّسول... وأبو الجهل، في الخطِّ المعاكس لهذا الموقف، أوضح ما يكون الخلاف - الإنسان عند الرَّسول، في منزلةٍ واحدةٍ، يُحبُّ هدايتهما وإسلامهما...!

ومَنْ يدري، فلعلَّ جانبُ حبِّه هذا لأبي الجهل، هو الرَّاجحُ! - ولكن الله لا يُحبُّ ذلك...!

ألا فلتَسْقُطِ القِيم! ولتَنعَدِمِ الكَفَاءات! ولتَسَاوِ: الحسن والقبيح: نصرة الرَّسول، وعداؤه...!

إنَّ هذا التَّهْجُم القبيح ليس ضدَّ أبي طالب، فهو ليس سوى النَّيلِ مِنَ الرَّسول، حيث يكون في منزلةٍ ظالمةٍ جائرةٍ، يُجانفُ العدالة، ويتجنَّبُ على الحقِّ! عفوك، يا الله!.

ولا يقف التفسير بالرأي عند حدٍّ، بل نجدُ كلاً، يفسِّرُ الآيةَ بما يشتهي، حسب الهوى والعاطفة...!

إذ نجدُ مَنْ يرى تبعيةَ الآية، بين: أبي طالب، والعبَّاس؛ فيرى صدرَها لأبي طالب، وذيلَها للعبَّاس^(١). وبين وفاة أبي طالب، وإسلام العبَّاس، طويلُ أمَدٍ، كما أنَّ العبَّاس لم يُسلم، إلا بعد نزول هذه الآية، بعددٍ مِنَ السَّنِينِ!.

• •

(١) - الغدير ٢٢: ٨، عن تفسير القرطبي ١٣: ٢٩٩، والدر المنثور ٥: ١٣٣.

لَقَدْ تَقَدَّمتِ الإِشارةُ مِنَّا، لقوله سيِّدنا الوالد، التي ترى: أنَّ البلاء جاء أبا طالب، لكونه أبا للإمام عليٍّ... وأنَّ حملة الدُّعَاية والتَّشويه والتَّحريف، لم تكن لِتُوجَّه ضِدَّه، لو كان أبا لِغير عليٍّ، فهي لم تُوجَّه إليه، إلَّا بالواسطة، وإلا فالغاية منها، هي: ابنه عليٍّ!

وتجد بعض التَّحريف - حول هذه الآيَة - يُسند هذا الرَّأي، ويُقوِّيه.

طَلَبَ معاوية مِن سمرة - كما قدَّمنا في: [على العتبة^(١)] - أن يُحرِّف آيَة ضِدَّ عليٍّ، وآيَة لِصالح ابن ملجم!

ومقابلةً لذلك في أبي طالب، جاء مِن قال:

إِنَّ آيَة [إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ، في أبي طالب، فَإِنَّ النَّبِيَّ (ص)]، كان يُحبُّ إسلامه، فنزلت الآيَة؛ وكان يكره إسلام وحشيٍّ قاتل حمزة، فنزل فيه:

يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ - الآيَة^(٢).

فلم يُسلم أبو طالب، وأسلم وحشيٍّ^(٣)...!!!

وتأكيداً لمزعة هذا الرَّأي التَّفيه: أنَّ يُسند لابن عَبَّاسٍ، حتى يبين لنا مدى التَّنَاقُض والتَّخْبيط.

وهو ليس سوى رأي، مِن بين تلك الآراء، التي تُوضع، لِاتِّخَدم سوى الغاية، التي وُضعت مِن أجلها... ولا يهْمُ واضعها - بعد ذلك - أن تنال مِن وما تنال، أو أن تتخطى مِن القيم ما تتخطى!

فالرَّسول - على هذا الرَّأي ومثله - يُخالف مِن أرسله، في إرادته، فيُحبُّ ما لِاتَّجِهه الإرادة الإلهيَّة!

(١) - ص: ٢٩، وما بعدها.

(٢) - الزُّمَر: ٥٣.

(٣) - مجمع البيان ٢٠٧، ٢٠٨: ٢٠.

فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ - وَأَسْتَغْفِرُهُ ۝ - لَمْ يُرِدْ إِيمَانُ أَبِي طَالِبٍ، وَلَعَلَّهُ لِعِدَاءٍ بَيْنَهُمَا قَدِيمٌ؛
أَوْ لَعَلَّ سَبَبَ هَذَا الْعِدَاءِ: كِفَالَتُهُ لِلرَّسُولِ، وَتَرْبِيَّتُهُ، وَحَمَايَةُ دِينِهِ، وَدِفَاعُهُ عَنِ
الْمُؤْمِنِينَ بِهِ ۝.

ولكن الرسول، أَحَبَّ إِيمَانَهُ - وَفَاءَ لَهُ، طَبْعاً - فَتَعَارَضَتِ الْإِرَادَتَانِ، فَغَلِبَتِ
الْأَقْوَى مِنْهُمَا، فَمَضَتْ فِيهِ إِرَادَةُ اللَّهِ، هَذِهِ الْإِرَادَةُ الْعِدَائِيَّةُ، الَّتِي لَمْ تَدْعُهُ يُؤْمِنُ...!
أَمَّا وَحْشِيٌّ، فَقَدْ تَعَارَضَتْ إِرَادَةُ الْمُرْسِلِ وَالرَّسُولِ - أَيْضاً - وَلَكِنَّهُمَا اخْتَلَفَتَا
عَنْ تَيْنِكَ.

فَالرَّسُولُ لَمْ يُحِبَّ إِيمَانًا وَحْشِيًّا، لِأَنَّهُ وَحْشِيًّا قَتَلَ عَمَّهُ حِزَّةً، فَبَقِيَ الْكَرْهَ
عَمِيقاً، وَنَمَّا الْحَقْدُ مَرِيرًا، فِي نَفْسِ الرَّسُولِ، حَتَّى كَرِهَ لَهُ الْإِيمَانَ...!
ولكن المرسل عَطَفَ عَلَى هَذَا الْمُسْرِفِ عَلَى نَفْسِهِ، فَاعْتَظَرَ لَهُ: دَمَ حِزَّةِ
الْمُسْفُوحِ: ظُلْماً، فِي الْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، وَلَمْ يَرِغْ عَاطِفَةً رَسُولُهُ الْجُمُوحِ، فَأَحَبَّ إِيمَانًا
وَحْشِيًّا...!

وَفِي اصْطِرَاعِ الْإِرَادَتَيْنِ، غَلِبَتِ إِرَادَةُ اللَّهِ الَّتِي جَعَلَتْ مِنْ وَحْشِيٍّ مُؤْمِناً...!!!
وَلِيَتَّهِمُوا أَضَافُوا: أَنَّ مِنْ تَمَامِ إِيمَانِهِ: إِدْمَانُهُ لِلْخُمْرَةِ، يُعَاقِرُهَا، حَتَّى خَالَطَتْ رُوحَهُ
وَدَمَهُ، فَلَا يَكَادُ يَكُونُ مِنْهَا فِي سَاعَةِ صَحْوٍ، حَتَّى آخِرَ رَمَقٍ مِنْ حَيَاتِهِ، الْمَلِينَةِ
بِالنُّكْرِ، وَالْجِرَائِمِ...^(١).

وَكَيْفَ يَصِحُّ نَزُولُ هَذِهِ الْآيَةِ، فِي وَحْشِيٍّ، وَهِيَ عَامَّةٌ لِلْمُسْلِمِينَ، وَقَدْ نَزَلَتْ
بِمَكَّةَ، وَلَمْ يَتَظَاهَرْ وَحْشِيٌّ - الَّذِي لَمْ يُفَارِقْهُ مَعْنَى اسْمِهِ - بِالْإِسْلَامِ، إِلَّا بَعْدَهَا، بِسَنِينَ
عِدَّةٍ...؟!^(٢).

وَفِي أَشَدِّ مِنْ هَذَا... يَقَعُ مَنْ لَا يَحْسِبُ لِلْمَسْئُولِيَّةِ وَزناً، فَيَنْسَاقُ وَرَاءَ بَهْرَجِ
السَّرَابِ، أَوْ يَخْبِطُ فِي مَدْلَهْمِ الظُّلْمَةِ ۝.

(١) - راجع [على العتبة] - ص ٤٩ - حيث أسندنا ذلك للاستيعاب ص ٦١ : ٣ .

(٢) - بجمع البيان ١٦٤ : ٢٣ .

ميراث أبي طالب:

من بين المفترقات، في حقّ شيخ البطحاء: ما يفترّونه بأنّ عليّاً وجعفرّاً، لم يأخذوا من تركّة أبيهما شيئاً، لأنّهما مسلمان، واباهما كافراً...^(١).

ونحن لم نعرف سند الفرية، حتى نكشف السرّ، عمّا خلفه، من: خزي، وفضيحة...! ولكن هذه الفرية، لم يضعها، غير جاهلٍ بشروط الميراث، عند المسلمين. فكلّ ما لديه من العلم، هو حديث: "لاتوارث بين ملّتين".

ونحن نقول بصحّة الحديث. ولكن معناه: إنّ الكافر، لا يرث المسلم. وليس مانعاً أن يرث المسلم كافراً، لأنّ الإسلام يرفع المسلم. كما أشارت لذلك الأحاديث، المتّصلة بهذا الموضوع، كقوله (ص):

[الإسلام يعلو، ولا يُعلَى عليه].

ومعنى "التّوارث" لا يحصل، إلّا إذا كان، ثمة، تفاعلٌ - أي: أن يرث المسلم الكافر، والكافر المسلم.

أمّا أن يرث المسلم الكافر، فحسب؛ فهو ليس من التّوارث؛ إذ ليس فيه شيءٌ من «التّفاعل».

ومن هنا... نجد أنّ الإسلام، لا يُبيح للكافر: أن يتزوَّج المسلمة، - وهي: أرفعُ منه وأعلى - بينما يُجيز بعض العلماء: أن يتزوَّج المسلم الكافرةَ الكتابيّة، بالزّواج الدّائم. وقد أجمعت الشيعة على ذلك، بالزّواج المنقطع - في ما أعلم^(٢).

(١) - السّيرة الحليّة ٧٤: ١.

- وقد ذُكر في: الحجّة ٣٢، وشيخ الأبطح ٧٨، مع الرّدّ عليه.

(٢) - بمراجعة المصادر الخاصّة بالموضوع يتّضح: أن للشيعة - حول نكاح الكتابية - أقوالاً ثلاثة:

١ - يجوز النكاح، مطلقاً: دواماً، ومنقطعاً، وملك يمين.

٢ - عدم الجواز، مطلقاً.

٣ - المنع: دواماً؛ الجواز: منقطعاً وملك اليمين.

وقد أشار المؤلّف لذلك، في كتابه: «نسيمٌ وزوبعة»، ص ٢٢٨-٢٣٠.

فلو سلّمنا صحّة هذه الفرية - وليس لنا أن نسلّم بها، بعد أن رأينا الأصل الإسلاميّ ينقضها - فما هي بدليل، على كفر شيخ الأبطح!؛ إذ لعليّ وجعفر "المسلمين" - اللّذين لا أظنّ من يشكّ في إسلامهما ١٤ - أن يرثا أباهما، حتى ولو كان كافراً - كما يزعم المفرون! - تمثيلاً، مع: الأصل، والنصّ الإسلاميّ. ولكن واضح هذه الفرية - كما قلنا - جاهلٌ بالإسلام، وقوانينه...

حديث الضحضاح

نرى أن نُقدّم للقاريء - أولاً - هذا الحديث، في صورته، التي وضّعها الرضّاعون، لينبأ الحديث عنه، بعدئذ:

- ١ -

عن عبيد الله بن عمر القواريريّ، ومحمّد بن أبي بكرٍ المقدمي، ومحمّد ابن عبد الملك الأمويّ، قالوا: حدّثنا أبو عوانة، عن عبد الملك بن عمير، عن عبد الله بن الحارث بن نوفل، عن العباس بن عبد المطلب، أنّه قال:
يا رسول الله! هل نفعت أبا طالب بشيء؟ فإنه كان يحوطك، ويفضّب لك؟
قال: نعم! هو في ضحضاح، من نار؛ ولولا أنا، لكأن في التّرك الأسفل من النّار! (١).

- ٢ -

عن ابن أبي عمر، حدّثنا سفيان، عن عبد الملك بن عمير، عن عبد الله بن الحارث، قال: سمعتُ العباس يقول: قلتُ: يا رسول الله! إن أبا طالب، كان يحوطك ويتصرّك فهل نفعه ذلك؟
قال: نعم! وجدته في غمراتٍ من النّار، فأخرجته إلى ضحضاح! (٢).

(١) - صحيح مسلم ١٣٤، ١٣٥: ١، [باب شفاعة النّبي لأبي طالب] إلخ.

(٢) - صحيح مسلم ١٣٤، ١٣٥: ١، [باب شفاعة النّبي لأبي طالب] إلخ.

- ٣ ، ٤ -

عن محمد بن حاتم، حَدَّثَنَا يَحْيَى بن سعيد، عن سفيان - إلخ^(١). عن أبي بكر بن أبي شيبة، حَدَّثَنَا وَكِيعٌ عن سفيان، كالحديث الأول^(٢).

- ٥ -

عن قتيبة بن سعيد، حَدَّثَنَا لَيْثٌ، عن ابن الهاد، عن عبد الله بن خباب، عن أبي سعيد الخدري: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ " وَآلَهُ " وَسَلَّمَ - ذَكَرَ عَنْهُ عُمَةُ أَبُو طَالِبٍ، فَقَالَ:

لَعَلَّهُ تَنَفَّعَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُجْعَلُ فِي ضَحَضَاحٍ مِنْ نَارٍ، يَبْلُغُ كَعْبِيهِ، يَغْلِي مِنْهُ دِمَاعُهُ^(٣).

- ٦ -

عن أبي بكر بن أبي شيبة، حَدَّثَنَا عَفَّانٌ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بن سلمة: حَدَّثَنَا ثَابِتٌ، عن أبي عثمان النهدي، عن ابن عباس: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ:

أَهْوَنُ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا: أَبُو طَالِبٍ، وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِنَعْلَيْنِ: يَغْلِي، مِنْهُمَا دِمَاعُهُ^(٤).

- ٧ -

عن مسدد، حَدَّثَنَا يَحْيَى، عن سفيان، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْمَلِكِ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بن الحرث، حَدَّثَنَا الْعَبَّاسُ بن عبد المطلب رضي الله عنه، قال للنبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ " وَآلَهُ " وَسَلَّمَ -: مَا أَغْنَيْتَ عَنْ عَمَلِكُ؟ فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ، وَيَغْضِبُ لَكَ؟. قَالَ:

هُوَ فِي ضَحَضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلَا أَنَا، لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ^(٥).

(١) - صحيح مسلم ١٣٤، ١٣٥: ١، [باب شفاعة النبي لأبي طالب] إلخ.

(٢) - صحيح مسلم ١٣٤، ١٣٥: ١، [باب شفاعة النبي لأبي طالب] إلخ.

(٣) - صحيح مسلم ١٣٥: ١.

(٤) - صحيح مسلم ١٣٥: ١.

(٥) - صحيح البخاري ٢٠١: ٢ [باب قصة أبي طالب].

- ٨ ، ٩ -

عن عبد الله بن يوسف، عن اللَّيْث - إلخ - كما في الحديث الخامس^(١).
عن إبراهيم بن حمزة، حَدَّثَنَا ابن أبي حازم، والدُّرَّاوردي، عن يزيد، بهذا
الحديث الخامس - وقال: تغلي منه أمُّ دماغه^(٢).

* *

الرُّوَاةُ:

والآن نطوف بهذه الحلقات، التي جاءت بمثل هذا الحديث، لِنَتَعَرَّفَ على
مكانة الرُّوَاة، مِنْ بين رجال الحديث: وكَفَتَهُمُ الشَّائِلَةُ، في ميزان الرُّجَال:

- ١ -

ننظر في رِوَاة الحديث الأوَّل:

أ - لم نجد لعبيد الله القواريري أثرًا في "الميزان". وَقَدْ وقفنا على حديث - في
الغدير - مِنْ بين رواة عبید الله هذا، وَقَدْ عَرَضَ له المؤلِّف بالتزيف. فقال عن
عبید الله:

[وفي الإسناد عبید الله القواريري، روى عنه البخاريُّ خمسةَ أحاديث، فحسب،
ومسلمٌ أربعين حديثاً؛ وَقَدْ سمع منه أحمد بن يحيى مائة ألف حديث، فما حكم ذلك
الحوش الخائش، مَّا جاء به القواريري بعدما لم يأخذ البخاريُّ ومسلمٌ منه، إلَّا عدة
أحاديث، وضرِبًا عن كلِّ ذلك صفحاً. وَمِنْ المستبعد جدًّا: عدم وقوفهما عليها]^(٣).

(١) - صحيح البخاري ٢٠١: ٢ [باب قصة أبي طالب].

(٢) - صحيح البخاري ٢٠١: ١.

(٣) - الغدير ٢٩٥: ٩، مسنداً ما ذَكَرَهُ، لِتَهْذِيب التَّهْذِيب ٧: ٤١.

ب - وكذلك محمد بن أبي بكرٍ المِقدَميُّ، لم نجد له ذكرًا، سوى ذكرٍ لمحمد بن أبي بكرٍ، بأنه مجهول^(١).

وقد جاء في الغدير: حديث، زُيِّفَ هناك، ومن رواه: محمد بن أبي بكرٍ المِقدَميُّ^(٢).

ج - أما محمد بن عبد الملك الأمويُّ، فيكفينا: أن يكون أمويًا، ليضع مثل هذا الحديث، أو يروي ما يمثله، في حق شيخ الأبطح.

وإن يكن هو محمد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، فيكفينا: أن يكون أبوه هذا الطاغية، وجداه هذين الملعونين على لسان الرسول، وهما الوزغان - في تعبيره (ص) -

والحكم هو: الملعون، وما أنتج؛ وهو طريد الرسول.
ومروان، ليس سوى فضضٍ من لعنة رسول الله - كما عبرت السيدة عائشة.
وأما محمد هذا، فقد قال عنه أبو داؤود؟ "لم يكن بمحكم العقل"^(٣).

د - ولتدع أبا عوانة: خفيًا في غموضه.

هـ - عبد الملك بن عمير: ولي قضاء الكوفة، بعد الشُعبي، فطال عمره، وساء حفظه - كما يقول الذهبي.

وقد قال عنه أبو حاتم: ليس بمحافظ، تَغَيَّرَ حفظه. وقال الإمام أحمد: ضعيفٌ يغلط. وقال ابن معين: مخلطٌ.

وقال ابن خراش: كان شعبة لا يرضاه. وذكر الكوسج عن أحمد: أنه ضعيفٌ جدًا^(٤). وقال ابن حبان: كان مدلسًا^(٥).

(١) - ميزان الاعتدال ٩٦ : ٣ .

(٢) - الغدير ٢٧٠ : ٩ .

(٣) - الميزان ٩٦ : ٣ .

(٤) - الميزان ١٥١ : ٢ .

(٥) - دلائل الصدق ٤٥ : ١ - مع بعض الأقوال السابقة.

وَمِنْ فَضَائِلِ هَذَا الْقَاضِي السَّيِّءِ - وَمَا أَكْثَرَ بَلَايَا الْأُمَّةِ، وَمِنْ قَضَاءِ السُّوءِ
 ٢ هَؤُلَاءِ! - أَنَّهُ مَرَّ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ بَقَطْرِ، وَقَدْ الْقَاهُ ابْنُ زِيَادٍ الطَّاعِيَةَ، مِنْ عَالِي الْقَصْرِ،
 وَبِهِ نَفْسٌ، فَاجْهَزَ عَلَيْهِ حَضْرَةُ الْقَاضِي "الرَّحِيمِ" بِمَدِينَتِهِ^(١).

وهذه حادثة، لهذا القاضي - وما هو سوى صورةٍ للقضاةِ البُطل!، الذين
 يُصدرون أحكامهم، مستمدةً مِنَ العاطفة، مسيرةً بالشهوة! - فَقَدْ تَقَدَّمتْ لَهُ
 كلثم بنت سريع حين ما كان على قضاءِ الكوفة - مخاصمةً أهلها، فما إن قضى
 لها عليهم، حتى ظنَّ في حكمه، وحامت حوله الرِّيبُ والشبهات، فانطلق لسان
 الشعر، يُجسِّد هذه التُّهم، ويُصورُ خطوطها، فقال هذيل بن عبد الله
 الأشجعي:

أَنَاهُ وَلَيْدٌ بِالشُّهُودِ، يَقُوذُهُمْ
 عَلَى مَا ادَّعَى مِنْ صَامِتِ الْمَالِ وَالْخَوَلِ
 وَجَاءَتْ إِلَيْهِ كُلْثَمٌ، وَكَلَامُهَا
 شِفَاءٌ مِنَ: الدَّاءِ الْمَخَامِرِ، وَالْجَبَلِ
 فَأَدَلَّى وَلَيْدٌ عِنْدَ ذَاكَ بِحَقِّهِ،
 وَكَانَ وَلَيْدٌ ذَا مِرَاءٍ، وَذَا جَدَلٍ
 وَكَانَ لَهَا دَلٌّ وَعَيْنٌ كَحِيلَةٍ
 فَأَدَلَّتْ بِحَسَنِ الدَّلِّ مِنْهَا، وَبِالْكَحَلِ
 فَفَتَنَتْ الْقِبْطِيَّ حَتَّى قَضَى لَهَا
 بِغَيْرِ قَضَاءِ اللَّهِ، فِي السُّوْرِ الطُّوَلِ
 فَلَوْ كَانَ مَنْ بِالْقَصْرِ يَعْلَمُ عِلْمَهُ
 لَمَا اسْتَعْمَلَ الْقِبْطِيُّ فِينَا عَلَى عَمَلٍ^(٢)

(١) - أعيان الشيعة ص ٢٢٢ ج ٤ ق ١ .

(٢) - عُرف عبد الملك بن عمير، بالقبطي، لفرس له، كان اسمه: قبطي - الميزان ١٥١: ٢ .

لَهُ حِينَ يَقْضِي لِلنِّسَاءِ تَخَاوُصً
وَكَانَ وَمَا فِيهِ التَّخَاوُصُ وَالْحَوْلُ^(١)
إِذَا ذَاتُ، دَلَّ كَلِمَتُهُ بِحَاجَةٍ
فَلَهُمْ بِأَن يَقْضِي تَنْحِجَ، أَوْ سَعَلَ
وَبَرَّقَ عَيْنُهُ وَلَاكَ لِسَانُهُ
يَرَى كُلَّ شَيْءٍ مَا خَلَا شَخْصَهَا جَلَّلُ^(٢)

- ٢ -

وننتقل لرواية الحديث الثاني:
أ - تبدأ سلسلة الحديث، حسب العادة، بهذا الغامض: ابن أبي عمر؟
ب - وبعده سفيان الثوري، وهو الذي سَبَقَ أَنْ تَعَرَّفْنَا عَلَيْهِ، فِي أَوَّلِ حَدِيثِنَا،
عَمَّا حُرِّفَ فِي حَقِّ أَبِي طَالِبٍ - فوجدناه كَذَابًا مَدْلُوسًا^(٣).

- ٣ -

أمَّا سلسلة الحديث الثالث، فَقَدْ سَبَقَ أَنْ وَقَفْنَا عِنْدَ أَفْرَادِهَا، كَمُحَمَّدِ بْنِ
حاتم، ويحيى بن سعيد^(٤)، وسفيان^(٥).

- ٤ -

ويُوافينا في الحديث الرابع:
أ - أبو بكر بن أبي شيبة: عَدَّهُ الذَّهَبِيُّ مِنْ: مُجَاهِيلِ الْإِسْمِ^(٦).

(١) - تخاوص: غَضَّ مِنْ بَصَرِهِ وَهُوَ - مَعَ ذَلِكَ يُحَدِّقُ النَّظْرَ! وَهُوَ يَعْنِي هُنَا: أَنَّهُ يُسَارِقُ النِّسَاءَ
الْلَّحَظَاتِ الْمَشْبُوهَةَ.

(٢) - الْجَلَّلُ مِنَ الْأَضْدَادِ. وَهُوَ - هُنَا - الْمُهَيَّنُّ السَّيْرَ.

- ارْجِعْ لِلْحَادِثَةِ وَالشَّعْرِ لِلْبَيَانِ وَالتَّيْيِينِ ٣٧١: ٣.

(٣) - ص ٣٠٢، ٣٠٣ فِي النِّسْخَةِ الَّتِي بَيْنَ أَيْدِينَا.

(٤) - ص ٣٢٢، ٣٢٣.

(٥) - مِيزَانُ الْاِعْتِدَالِ ٣٩٥: ٣.

ب - ولسنا نعلم مَنْ وكيع هذا؟.

فإن يكن هو: وكيع بن الجراح. فَقَدْ قَالَ ابن المديني: كان وكيع يلحن، ولو حَدَّثْتُ بلفظه، لكانت عجباً، كان يقول: حدثنا الشَّعْبِيُّ، عن عائشة...!

وسُئِلَ أحمد بن حنبل: إذا اختلف وكيع، وعبد الرَّحْمَنِ بن مهدي، بقول، بِمَنْ نأخذ؟ فَقَالَ: عبد الرَّحْمَنِ يُوافق أكثر، وخاصَّةً في سفيان - والحديث هذا، يُروى عن وكيع، عن سفيان.

ورأى الذهبيُّ أَن يَتِمَّ فيه حلقة القدح، فقال فيه، عن ابن المديني، في التهذيب: "كان فيه تشيُّع قليل".

وهذه النِّغْمَة - مِنَ الذهبيِّ - معروفة، تُعْبَرُ عن طائفتيه البغيضة المقيتة... فهو إذا شاء أَن يُبالغ في قدحه لشخص، نَسَبَهُ للتَّشيُّعِ، الذي هو - لديه - فوق الكفر والزُّدَّة.

ونحن لسنا في مجال حسابه عن هذا... ولكن مِنْ فمه أدينه.
فإذا كان ليس ثقة، لتشيعه - فلماذا يُؤخذ منه حديث، لو صَحَّ تشيعه، لانتفى عزُّو الحديث إليه، لأنَّه يُخالف عقيدته الحقَّة، في شيخ الأبطح...؟
وعلى كل، فنحن لايهمُّنا كونه شيعياً، أم لم يكن. ولكن يهمُّنا: أنَّ الرَّجُل غير مقبول، عند مَنْ يتشَبَّث بحديث الضَّحَضاح!.

- ٥ -

وهذا ما ضمَّه الحديث الخامس:

أ- قتيبة بن سعيد، يقول عنه الذهبيُّ: لا يُدْرى مَنْ هو؟^(١).

ب - اللَّيْث: هناك حفنة، ليس بينهم سوى الجَهِول، والضَّعيف، والمنكَّر، ومضطرب الحديث - إلخ..

(١) - الميزان ٣٤٥ : ٢ .

فإن يكن هو اللَّيْث بن سعد - كما يقول صاحب الأبطح^(١) - فَقَدْ قَالَ عنه يحيى بن معين: إنه كَانَ يتساهل في: الشُّيُوخِ، والسَّمَاعِ. وذكره النَّبَاتِيُّ في تذييله على الكامل^(٢) - وهو «كتاب في الضُّعفاء»^(٣).

ج - أمَّا ابن الهاد - وهو: يزيد بن عبد الله بن الهاد - فَقَدْ أوردَه أبو عبد الله بن الحَدَّاءِ، في "باب مَنْ ذَكَرَ بِمَرْحٍ مِنْ رِجَالِ الْمُوطَأِ". وقال عنه ابن معين: يروي عن كُلِّ أَحَدٍ^(٤).

د - وأمَّا عبد الله بن خَبَّابٍ، فَقَدْ قَالَ عنه الجوزجاني: لا يعرفونه^(٥).

- ٦ -

وفي الحديث السَّادس

أ - أبو بكر بن ابي شيبة. وَقَدْ وقفنا عنده في رقم (٤).

ب - وَمَنْ عَفَان، هذا؟

والظَّاهر: إِنَّهُ عَفَان بن مسلم، حيث أنَّ إسناده الحديث عنه، لحَمَّاد بن سلمة، لثَابِتٍ، يُوافق ما ذَكَرَ الذَّهَبِيُّ مِنْ حديثٍ، عنه، في ترجمته له.

وهو الذي قال ابن عديُّ عنه، بعد كلام: والله! لو جهد جهده أن يضبط في شعبة حديثاً واحداً، ما قدر. كان بطيئاً رديء الحفظ، بطيء الفهم^(٦).

وقال أبو خيثمة: أنكرنا عَفَان، قبل موته، بأيَّام^(٧).

(١) - ص ٧٥.

(٢) - الميزان ٣٦١: ١.

(٣) - شيخ الأبطح ٧٥.

(٤) - ميزان الاعتدال ٣١٤: ٣.

(٥) - المصدر ٣٣: ٢.

(٦) - المصدر ٢٠٢: ٢.

(٧) - المصدر ٢٠٣: ٢.

ج - حماد بن سلمة: له أوهام - كما يقول الذهبي.

وقال ابن المديني: كان عند يحيى بن الضرير، عن حماد، عشرة آلاف حديث.

وقال عمرو ابن سلمة: كتب عن حماد بن سلمة، بضعة عشر ألف حديث^(١).

هل رأيت هذه الكثرة...! فعند واحد عنه: عشرة آلاف! وعند الآخر:

بضعة عشر ألفاً. ولا تسل: هل عند غيرهما، مثل هذين الرقمين أم لا؟.

ثم إنهم قالوا: كان حماد بن سلمة لا يعرف بهذه الأحاديث - أي: التي في

الصفقات - حتى خرج مرة إلى عبّادان، فجاء وهو يرويها، فلا أحسب - أي:

القاتل - إلا شيطاناً خرج إليه من البحر، فألقاها إليه.

قال ابن الثلجي: فسمعت عبّاد بن صهيب، يقول: إن حماداً كان لا يحفظ،

وكانوا يقولون: إنها [دُرست]^(٢) في كتبه. وقد قيل: إن ابن أبي العوجاء كان

دبيته^(٣)؛ فكان [يلدرس]^(٤) في كتبه^(٥).

ويكفيها لنقض: تفضيل، وتوثيق من ادّعى ذلك له: أن الذهبي أورد له - بعد

دفاعه، عنه، ومدحه له - أحاديث، تنال الخالق العظيم نفسه؛ إذ جسّمه، كأشبع

واقبح ما يكون التجسيم - تنزه الله سبحانه، عما يفزون، وتعالى علواً كبيراً...!

فقد حدث حماد هذا، عن ثابت، عن أنس: أن النبي - صلى الله عليه «وآله»

وسلم - قرأ: ﴿فلما تجلّى ربّه للجبل﴾، قال: أخرج طرف خنصره، وضرب

على إبهامه، فسأخ الجبل.

فقال حميد الطويل لثابت: تحدث بمثل هذا؟. قال: فضرب في صدر حميد، وقال:

يقول أنس، ويقول له رسول الله - صلى الله عليه «وآله» وسلم - وأحكمه أنا...؟

(١) - ٢٧٧: ١.

(٢) - كذا وجدناها. ولعل الصّحّة: دُست ويدس.

(٣) - في الطّبعة الأخرى: "ربيته"، ولعلها الأصح، أو الصّحيحة. وبهذا وجدناها مصحّحاً

في طبعه جديده، لدار إحياء الكتب العربيّة بمصر، عام ١٣٨٢هـ - ١٩٦٢ م.

(٤) - الميزان ٤٧٨: ١.

رواه جماعة عن حماد، وصححه الترمذي^(١).

فهل من قيمة - بعد هذا - لحديث، يُوصف بالصحة...؟ وهل من حديث - بعد

هذا - لا ينال مثل هذه الصفة...؟

وحماد - أيضاً - هو الذي يروي مرفوعاً: رأيتُ ربي - وهو ربُّ حماد، لارئنا العظيم! - جعداً أمرد، عليه حلّة خضراء...! وأنه رآه في صورة شابٍ أمرد، دونه سرٌّ من لؤلؤ، قدميه ورجليه في خضرة [كذا؟!]^(٢).

حتى أنَّ الذهبي، نسي مدحه السالف فيه، فعقّب على مثل هذه الأحاديث بقوله:

[فهذا من أنكر ما أتى به حماد بن سلمة. وهذه الرؤية رؤية منام، إن

صحت]^(٣).

ثم ذكر: إنَّ ابن عدي، ساق لحماد جملة، ثم انفرد به متناً، أو إسناداً^(٤).

وذكر: أنَّ البخاري قد تحايد^(٥) - أي: لم يرو عنه شيئاً.

د - ثابت: لاندري من هذا؟ فهناك حفة بهذا الاسم، فيهم: الكدوب،

الضعيف، المجهول، ومنكر الحديث^(٦). ولاندري بمكانه، من بين هذه الصفات.

ولعلَّ هو ثابت بن أبي ثابت - فيكون أخاً لحبيب بن أبي ثابت، أوَّل من وقفنا

عنده، حول هذا التحريف، والتزوير، في حقِّ شيخ الأبطح^(٧). فإن يكن هو - فقد

عدّه الذهبي: مجهولاً^(٨).

(١) - الميزان ٢٧٨ : ١ .

(٢) - الميزان ٢٢٨ : ١ .

(٣) - الميزان ٢٢٨ : ١ .

(٤) - الميزان ٢٢٨ : ١ .

(٥) - المصدر ٢٧٩ : ١ .

(٦) - المصدر ١٦٨ - ١٧٢ : ١ .

(٧) - ص ٣٠٣ .

(٨) - الميزان ١٦٨ : ١ .

ولكنه - طبعاً - هو ما يروي عنه حماد بن سلمة. ويكفيها منه أن يتفق مع حماد في الحديث السابق، عن تجسيم الخالق الأعظم.

وإن كان ذاك الحديث من نكر حماد، فإن المتجريء على الله سبحانه، لا يرتدع عن عباده الذين اصطفي.

هـ - أبو عثمان النهدي: ليس ممن يُعرف^(١).

- ٧ -

وقَدْ ضَمَّ الحديث السابع:

أ - مسدد: لم نعرفه مَنْ هو؟ فما هناك - في الميزان - سوى المسدد بن علي، وفيه تساهل^(٢). ولكن لانعلم هل هو هذا؟، أم غيره؟

ب - أما بقية السلسلة - وهي : يحيى، وسفيان، وعبد الملك - فَقَدْ وقفنا عند كل واحد منها، وعرفنا قيمته بين الرجال.

- ٨ -

أما الحديث الثامن، ففيه:

أ - عبد الله بن يوسف. إن يكن هو: عبد الله بن يوسف التتيسي - كما يقول صاحب شيخ الأبطح^(٣) - فَقَدْ عدّه ابن عدي في الكامل: في الضعفاء^(٤).

وإن يكن هو: عبد الله بن سليمان بن يوسف، الذي يروي عن الليث، وهو ما أظنه، لأن الحديث الذي نحن بصددده، قَدْ رواه عبد الله، عن الليث - فإنه ليس، بمعتمد^(٥)، وفيه شيء^(٦). وَقَدْ رُوِيَ له حديث في الفضائل، أنكره النهدي^(٧) - وكذلك يُنكره كل ذي فكر.

(١) - الميزان ٣٧٠ : ٣ .

(٢) - الميزان ١٦٢ : ٣ .

(٣) - ص ٧٤ .

(٤) - شيخ الأبطح، والميزان ٨٩ : ٢ .

(٥) - الميزان ٨٩ : ٢ .

(٦) و (٧) - الميزان ٤٢ : ٢ .

ب - وهكذا تتصل سلسلة الحديث بالليث، إلى آخر السلسلة، التي عرضنا لها، في الحديث الخامس.

- ٩ -

ونجد بين رواية الحديث التاسع:

أ - إبراهيم بن حمزة. وندعه، ما دمنا لم نقف عنه على أثرٍ.
ب - ابن أبي حازم، واسمه: عبد العزيز : لَيْسَ ابن سيد الناس، كما ذَكَرَهُ، قبله، العقيليُّ في كتابه - ومجرى الكلام يدلُّ على: أنَّ الكتاب، في الضعفاء - وهم يرونه: سمع من أبيه.

وأما هذه الكتب، التي عنده، لغير أبيه، فيقولون: إنَّ كُتُب سليمان بن بلال، صارت إليه، ولا يدري بأنه يُدلسُها.

وقال الفلاس: ما رأيتُ ابن مهديٍّ، حدَّث عن ابن أبي حازم، بحديثٍ.
وقال أحمد: لم يكن يُعرف بطلب الحديث. وقيل: إنه ضعيفٌ، إلَّا في حديث أبيه.
وقال ابن المديني: كان حاتم بن إسماعيل، يطعن عليه، في أحاديث، رواها عن أبيه؛ قال لي حاتم: نهيتُ عنها، فلم ينته^(١).

ج - الدراورديُّ، وهو عبد العزيز بن محمد^(٢)، وقال عنه الإمام أحمد: إذا حَدَّثَ مِنْ حَفْظِهِ، يَهْمُ. ليس هو بشيء. وإذا حَدَّثَ، جاء ببواطيل. وقال أبو حاتم: لا يُحتجُّ به. وقال أبو زرعة: سيء الحفظ^(٣).

د - أمَّا يزيد، فلا ندري به مَنْ هو؟ فإن يكن يزيد بن كيسان فَقَدْ عَرَفْنَاهُ: مِمَّنْ لا يُحتجُّ به، أو يُعتمد عليه^(٤).

(١) - الميزان ١٣٥: ٢ .

(٢) - شيخ الأبطح ٧٥ .

(٣) - الميزان ١٣٧، ١٣٩: ٢ .

(٤) - (٤) - ص ٣٢٣ .

نظرة في الحديث:

هذه الجولة، التي قمنا بها في صفوف رواة الحديث، لم تُبقِ فينا مكاناً لِثقةٍ،
لِنَتَقَبَّلَ ما يروى هؤلاء...!

فإننا وجدنا في كلِّ سندٍ: حَفَنَةً مِنَ الكَذَبَةِ، الضَّعْفَاءِ، والخُبَاءِ - بَلَّةَ الجَهِولِينَ،
والذين لم نقف عنهم على أثرٍ!.

ولو لم نجد في سلسلة الحديث، إلّا مغمزاً في أحد رواته، فحسب، لَمَّا اطمأننا
إليه، ولم نشقّ بما جاء به، في أدنى الأمور... فكيف بهذه السلسلة المفككة،
والحديث حول إيمان رجلٍ، نَصَرَ الإسلام، ورعاه...؟!.

على أنّ هناك جوانب أخرى، تدعنا أن لانطمئن لهذا الحديث، وأن نضرب به
عرض الجدار، حتى لو كان رواته مِنَ الثَّقة... وكيف بهم، وهم مِنَ الجاهيل،
الكذبة؛ والحديث مِنَ البواطيل...؟!.

ويجدر بنا: أن نتناول، بالعرض، بعضَ جوانبه المنهارة:

- ١ -

هناك تضاربٌ في متن الحديث يختلف به المعنى...

ففي بعض الروايات، نجد الجواب المزعوم على الرسول (ص)، وهو: [نَعَمْ! هو
في ضحضاحٍ مِنَ نارٍ. ولولا أنا، لَكَانَ في الدَّرَكِ، الأسفل مِنَ النارِ].
وتُفيدنا هذه الصورة: أنّ شفاعَةَ الرسول معجَلَةٌ له، وأنها قَدْ وقعت فعلاً...
ويُتضح ذلك أكثر، في الحديث الثاني الذي جاء فيه:

[نَعَمْ! وجدته في غمرات النار، فأخرجته إلى ضحضاحٍ].

ولاندري لِمَاذَا لم يُتِمَّ الرسول نعمته على عمّه، فيُخرجه مِنَ النار، بعد أن كانت له
القُوَّة والنَفوذ، على إخراجهِ مِنَ غمرات النار، فيدعه في هذا الضَّحضاح، دون أن يُتِمَّ
نعمته... بل يدعها ناقصةً مبتورةً، حتى ينضوي تحت خطاب المتنبّي، أخيراً:

ولم أرَ في عيوبِ الناسِ شيئاً

كنقصِ القادرينَ على التمام...!

في حين أنه (ص) النسخة الكاملة، للبشرية والإنسانية، وهو الذي بُعث لِيُتمَّ
مكارم الأخلاق، وهو الذي أَدَّبَهُ رُبه، فأحسن تأديبه...!
أما بعض الصور الأخرى للحديث. فهي: "لعلَّه تنفعه شفاعتي، يوم القيامة" -
الخ...!

وهذه الصورة، لا تحتمل، سوى الدُّعاء.

فلعلَّ - كما يُعبّر التحوُّيون، تحمل معنى "الترجِّي" - فهو يرجو له الشَّفاعَة،
فَقَدْ تناله، وَقَدْ لاحتاله... وإن قُدِّرَ لها أن تناله، فهي مؤجَّلة له، إلى يوم القيامة!
وفي بعضها الآخر: أنه "أهون أهل النار عذاباً، وهو متعلِّقٌ بنعلين، يغلي منهما دماغه".
وهذا لا يشير إلى: أنه كان أخفَّ أهل النار عذاباً، مِنْ أجل شَفِيع، شَفَعَ له، أو
لأنَّه أقلُّ المعدِّين استحقاقاً للعذاب...

وكيف يجوز أن يكون الكافر أهون أهل النار عذاباً؟.

فهل الكافر أهون ذنباً مِنْ العاصي، أو المذنب، حتى يكون ذاك، أهون عذاباً
مِنْ هذا؟!

ثم هل هذا هو أهون عذاب أهل النار؟.

وماذا فيه مِنْ: الراحة، والتَّخفيف؟!

وهل أعظم مِنْ هذا العذاب - نعوذ بالله منه! - ولاسيَّما ما زيد فيها: "حتى
يسيل - أي: دماغه - على قدميه"؟^(١).

وهذا ما يتنافى، وقول مَنْ علَّلَ هذا العذاب، بأنَّ الله سَلَطَ العذاب على قدميه
خاصَّةً، لتثيته إياهما على تلك المَلَّة، فيكون مِنْ مشكلة الجزاء للعمل^(٢).

(١) - السُّيرة النبويَّة ٨٤ : ١ .

(٢) - السُّيرة النبويَّة ٨٤ : ١ .

وَقَدْ نَسَبَ هذا الزَّعم للسهيليِّ - في قولهِ متناقضةً.

فإن يكن العذاب على القدمين خاصة - فما بال دماغه يغلي...؟
ولم يسيل حتى يتدفق...؟ أو يتدفق حتى يسيل...؟
وهل الدماغ عين لا تنضب...! كلما فاضت بما يتدفق منها، نبع من الأعماق
ما لا يحف؟
اللهم! إنا نعوذ بك، من: السُّخْفِ، والخرافات!

- ٢ -

وكيف يشفع الرسول لعمه، وهو الذي لم يقر في قلبه الإيمان - كما يقولون -
وقد نهى الرسول عن أقل من ذلك، في ما رأينا من الآيات، لأن الشفاعة: فوق
الموالة، وفوق المودة، وفوق الرُفْق، بدرجات ودرجات...؟
وهو - كما رأينا - منهى عمّا دونها، فكيف عنها...؟
وهذه الشفاعة من الرسول لعمه - كما يقولون - ما الداعي لها؟
هل هو العمل، الذي قام به، في: نصرة الرسول (ص)، ومؤازرة الرسالة؟
فما الذي دفعه لهذا العمل؟
وما الذي دعا الرسول، لقبول هذه اليد منه - إن كانت من كافر! - وهو
القاتل، في مانقلناه عنه:

"اللهم! لا تجعل لفاجر، ولا: لفاسق" - إلخ - وهل الفسق، إلا دون الكفر...؟
أقول: ما الذي دفع الرسول، لأن يشفع لعمه، فيخفف عنه العذاب - إن كان
كافراً - وهناك آيات، تنص على أن الكافر مخلّد في النار، لأترجى له رحمة الله،
ولا أترجى له أن يخفف عنه العذاب، ولا تنفعه شفاعا الشافعين.
وهذه بعض تلك الآيات:

أ - ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ،
وَلَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾^(١).

(١) - البقرة: ١٦٢ وآل عمران: ٨٨.

ب - ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ، فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ، وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾^(١).

ج - ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا، وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا، وَذَكَرَ بِهِ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ، لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ. وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدَلٍ لَا يُؤْخَذَ مِنْهَا. أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا، لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ، وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾^(٢).

د - ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ... فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يَنْتَظِرُونَ﴾^(٣).

هـ - ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ، لَا يَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمُوتُوا، وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا، كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾^(٤).

و - ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ: ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ. قَالُوا: أَوْ لِمَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ؟ قَالُوا: بَلَىٰ! قَالُوا: فَادْعُوا، وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾^(٥).

ز - ﴿فِي جَنَّتٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ: مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ؟! قَالُوا: لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ،

(١) - البقرة : ٨٦ .

(٢) - الأنعام : ٧٠ .

(٣) - النحل : ٨٥ .

(٤) - فاطر : ٣٦ .

(٥) - غافر : ٤٩ ، ٥٠ .

وَلَمْ نَكُ نَطْعِمُ الْمِسْكِينَ، وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ، وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ، حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ»^(١).

ح - «وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ، إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطْمِينَ، مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ، وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ»^(٢).

ط - وجاء في الحديث: إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، ثُمَّ يَقُومُ مُوَدَّنٌ بَيْنَهُمْ: يَا أَهْلَ النَّارِ! لَامُوتْ! وَيَا أَهْلَ الْجَنَّةِ! لَامُوتْ!، خُلُودٌ...^(٣).
ي - وآخر جاء فيه: يُقَالُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: خُلُودٌ لَا مَوْتَ! وَلِأَهْلِ النَّارِ: يَا أَهْلَ النَّارِ! خُلُودٌ لَا مَوْتَ!^(٤).

فهذه الآيات - ومثلها ما في الحديث - كلها تنصُّ على تخليد الكافرين في العذاب المهين. وأنَّ العذاب لا يُخَفَّفُ عَنِ الْكَافِرِ، حَتَّى سَاعَةٍ مِنْ نَهَارٍ، لِأَنَّ الشَّفَاعَةَ لَيْسَتْ ثَمًّا تَنَالُهُ.

- ٣ -

وهذا الحديث - بالإضافة إلى: تناقض الرواة في متنه، وتضاربها، وإلى تعارضه مع صريح الآيات، التي لأَجْزِ الشَّفَاعَةِ لِلْكَافِرِ، ولا يوصله أثرها - يتعارض بالحديث الذي وُضِعَ فِي أَبِي طَالِبٍ، بِخَاصَّةٍ، وَهُوَ حَدِيثُ: الْاِحْتِضَارِ، الَّذِي نَاقَشْنَاهُ: سَنَدًا، وَمَتْنًا.

(١) - المدثر: ٤٠ - ٤٨ .

(٢) - غافر: ١٨ .

(٣) - صحيح البخاري ٨٤ : ٤ .

(٤) - صحيح البخاري ٨٤ : ٤ .

فحديث الضَّحَضاح، وحديث الاحتضار، يتناقضان، ويتعارضان، فهما على طرفي نقيض، لا يمكن الأخذ بهما حتى لو كانا عن طريق الثقة.

وبالرغم من هذا، فإننا نجد بعض رجال حديث الاحتضار، بين رجال حديث الضَّحَضاح، وفي صورته التي تُفيد معجّل الشَّفاة لأبي طالب. وهي: أظهر تناقضاً، وأصرح تعارضاً، مع ذلك الحديث - فكيف جاز لهم رواية حديثين متعارضين: متناً، ومعنى؟! ...

لَقَدْ نَسِيَ كُلُّ مَنْ: ابن ابي عمر، ومحمّد بن حاتم، ويحيى بن سعيد... نسي هؤلاء عند روايتهم أحدَ الحديثين، ما كانوا قد خلقوه مِنَ الحديث الأوّل!... ونسي هؤلاء بأنَّ على الكذّاب: أن يكون على قسطنٍ محرومٍ مِنَ الذّاكرة، لئلاَّ يَقَعَ في: مثل ما وقعوا فيه، مِنَ الكذب المتناقض، فتتفضح غايتهم، ودخلتهم السّوداء...! ولكن فهذه نهاية كلّ باطلٍ وافتراء.

لَقَدْ ذَكَرُوا - في حديث الاحتضار - أنَّ الرّسول (ص)، طلب من عمّه كلمة - وهي: الشَّهادة - لِيشْهَدَ له بها عند الله، ويُحاجَّ له بها عنده، ويستحلَّ له بها الشَّفاة^(١) ويقولون: إنّه لم يقلها.

فهو - في هذا المحكيّ على لسان الرّسول - قد علّق استحلال الشَّفاة على النطق بالشَّهادة، حيث لا يحلُّ له ذلك بدونها...

لذلك لم يقولوا فيه: إنّه شَفَعَ له، وإنّما استغفر له، حتى نهاه الله عنه، وأعلمه بخطأ استغفاره - ذلك الوقت الطويل - رغم ما نزلت عليه، مِنْ آياتٍ ناهيةٍ فلم ينته بها...!

ثم يقولون - هنا - إنّ الرّسول شَفَعَ لعمّه شفاةً معجّلةً، صدرت قبل نطقه، بهذه القولة.

(١) - الغدير ٣٧٠، ٣٧١: ٧ - مسنداً لمصدرين - حوص ٢٤: ٨، عن سَنَةِ مصادر، مع تصحيح الحاكم، والنّهي له.

[نَعَمْ ! وجدته في غمراتِ مِنَ النَّارِ، فأخرجته إلى الضَّحَضاح].
فكيف شَفَعَ له - في هذا الحديث - إذا كان قد عُلِقَ الشَّفاعة على النطق
بالشَّهادة، وهو لم يتفوَّه بها...؟

فهل قالها أبو طالب؟، أم لم يقلها؟.
فإن لم يكن قد نَطَقَ بها - كما يقولون في حديث الاحتضار - فَقَدْ رأينا
الشَّفاعة - أيًا كان نوعها - لاتصال الكافر، في الآيات التي ذكرنا بعضها، حتى
بتخفيف العذاب عنه...؟

كما أنها لاتناله بالذَّات، على رأي أصحاب الحديث الأوَّل، الذي عُلِقَ
الشَّفاعة على نطق تلك الكلمة - وحلقة بعض الرواة فيهما واحدة.
وهو إن نَطَقَ بها، فإنَّ مفهوم الكلام والحوار - في حديث الاحتضار - لا يُقْصَرُ
على تخفيف العذاب، مِنَ الغمرات إلى الضَّحَضاح...!
وهل الرُّسول مِنَ البخل إلى هذا الحدِّ، بحيث لا يشفع لِمَنْ نَصَرَهُ وَرَبَّاهُ،
وكفله، إلَّا بتخفيف العذاب...!؟

وَمَاذَا خَفَّفَ عليه مِنَ العذاب، بعد فيض دماغه، وتدفُّقه على قدميه؟!.
وهو إن نَطَقَهَا، ولم يستحلَّ الرُّسول له الشَّفاعة، إلَّا بعد التفوُّه بها... فإنَّ هذا الحديث
- في تحديده الشَّفاعة، بتخفيف العذاب - يتعارض، مع بعض الأحاديث الأخرى، الموجودة
في الصُّحاح، التي تعتبر الناطق بالشَّهادة، مِنَ أهل الجنة، لا مِنَ أهل النَّار:
"مَنْ مَاتَ، وَهُوَ يَعْلَمُ: أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، دَخَلَ الْجَنَّةَ"^(١).
[لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ، يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ"^(٢)].

ثم إنَّ حديث الضَّحَضاح، يتعارض - أيضاً - في تعجيله الشَّفاعة، بأحاديث
أخرى، تتصل بموضوع الشَّفاعة، ونرى مِنَ الخير استعراض جانبٍ منها:

(١) - صحيح مسلم ٤١: ١ - وفي الغدير ٦٤، ٦٥: ٩، ١١٩، ١٢٠: ١٠. بضعة مِنَ
الأحاديث، التي تتصل بهذا المعنى.
(٢) - سير أعلام النبلاء ٢٩٥: ٢.

[قِيلَ لِي: سَلْ، فَإِنَّ كُلَّ نَبِيٍّ قَدْ سَأَلَ. فَأَخَّرْتُ مَسْأَلَتِي، إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ لَكُمْ لِمَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ^(١)].

فهذا الحديث يُفيد: أَنَّ الشَّفَاعَةَ مِنَ الرَّسُولِ، لَا تَنَالُ مَنْ لَمْ يُؤَدِّ الشَّهَادَةَ. مثله هذه الأحاديث:

[أُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَهِيَ نَائِلَةٌ مِنْ أُمَّتِي: مَنْ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا^(٢)].

[إِنَّ شَفَاعَتِي لِكُلِّ مُسْلِمٍ^(٣)].

[أَوْحَى اللَّهُ إِلَى جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنْ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ لَهُ: ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَى، وَاشْفَعْ تُشْفَعْ. إِلَى قَوْلِهِ: أَدْخُلْ مِنْ أَمَّتِكَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَوْمًا وَاحِدًا، مُخْلِصًا، وَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ^(٤)].

فالشَّفَاعَةُ - فِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ - لَا يَنَالُهَا، إِلَّا كُلُّ مَنْ لَفِظَ الشَّهَادَةَ. وَهِيَ وَإِنْ لَمْ تُحْدَدْ الشَّفَاعَةُ، إِلَّا أَنَّهَُا تَحْتَمُّ عَلَيْنَا أَنْ نَرَى، فَمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ "الشَّفَاعَةُ": أَنَّ الْمَشْفُوعَ لَهُ، لَا تَمَسُّهُ النَّارُ - وَلَا سَيِّمًا مَعَ وَجُودِ الْحَدِيثَيْنِ، اللَّذَيْنِ يُوجِبَانِ الْجَنَّةَ، وَيُحَرِّمَانِ النَّارَ، عَلَى مَنْ تَقَوَّاهُ بِالشَّهَادَةِ.

ثُمَّ إِنَّهَا مُؤَجَّلَةٌ لَهُ، إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، حَيْثُ لَمْ يَسْأَلِ الرَّسُولُ (ص) مَسْأَلَتَهُ، الَّتِي أَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يُبْدِيَهَا، فَاجْلَلَهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. فَهُوَ: «أَوَّلُ شَافِعٍ وَمَشْفُوعٍ»^(٥).

فَكَيْفَ شَفَعَ الرَّسُولُ لِعَمَّةٍ - وَهُوَ الْكَافِرُ، كَمَا يَدَّعُونَ - وَهُوَ الَّذِي لَا يَشْفَعُ إِلَّا لِمَنْ أَدَّى الشَّهَادَةَ، وَأَسْلَمَ مُخْلِصًا...؟!

وَكَيْفَ حَذَّوْا الشَّفَاعَةَ، وَهِيَ مُؤَجَّلَةٌ لِذَلِكَ الْيَوْمِ...؟!

(١) - الغدير ٢٤: ٨، عَنِ الْخَافِظِ الْمَنْذَرِيِّ - فِي التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهيبِ ص ١٥٠ - ١٥٨: ٤ - بِنِ طَرِيقِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ. وَقَالَ: رَوَاهُ أَحْمَدُ، بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

(٢) - الْمَصْدَرُ - عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: رَوَاهُ الْبَزَّازُ، وَإِسْنَادُهُ حَيْثُ، إِلَّا أَنَّ فِيهِ انْقِطَاعًا.

(٣) - الْمَصْدَرُ، عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ، وَقَالَ: رَوَاهُ الطَّبْرِيُّ بِأَسَانِيدٍ، أَحَدُهَا حَيْثُ.

(٤) - الْمَصْدَرُ عَنْ أَنَسٍ. وَقَالَ الْمَنْذَرِيُّ: رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَرَوَاتُهُ مَحْتَجٌّ بِهِمْ فِي الصَّحِيحِ.

(٥) - صَحِيحُ مُسْلِمٍ ٥٩: ٧.

إذن... فهذا الحديث ليس متناقضاً، مع حديث الاحتضار، فقط، بل مع عدة أحاديث أخرى.

وكفى بهذا التعارض والتناقض مسقطاً للحديثين المكذوبين، حتى لو لم تسقط رجاهما الكذبة في ميازين الرجال.

فكيف بهم من الكذبة، والمدلسين، والتناقض صادر من رواة بعينهم...؟

* *

وهناك أحاديث، من نوع آخر، يجدر عرض جانب منها:

أ - يدخل الجنة من أمّتي سبعون ألفاً بغير حساب^(١).

- وفي بعضها: "سبعون ألفاً، أو سبعمئة ألف" - لا يدري أبو حازم أيهما^(٢) -

وأبو حازم أحد رواة حديث الاحتضار...

ب - يُبعث من هذه المقبرة - البقيع الفرق - سبعون ألفاً، يدخلون الجنة، بغير حساب^(٣).

ج - ليدخلن الجنة من أمّتي سبعون ألفاً، لأحساب عليهم، ولا عذاب مع كل ألف سبعون ألفاً^(٤).

د - إني وجدتُ ربّي ماجداً كريماً، أعطاني مع كل واحدٍ من السبعين الألف، الذين يدخلون الجنة بغير حساب، سبعين ألفاً^(٥).

(١) - صحيح مسلم ١٣٦: ١، والبخاري ٨٤: ٤، والغدير ٢٨٣: ٥ وفيها طائفة شبيهة بهذا.

(٢) - صحيح مسلم ١٣٧: ١، والبخاري ٨٤: ٤.

(٣) - الغدير ٢٨٣: ٥ - عرجاً عن الطبراني في الكبير ٤: ١٣.

وفي الغدير أحاديث أخرى، ترى دخول أعداد - كهذه - للجنة بغير حساب، من بعض المدن الأخرى، فمن بين حائط حمص والزيتون، سبعون ألفاً، ومن ظهر الكوفة كذلك، ومن حمص تسعون ألفاً.

(٤) - الغدير - عن أحمد، والطبراني، والبيهقي - وفيه ص ١٢٠: ١٠ عن مجمع الزوائد ١٠: ٤٠٥.

- ١١، مثل هذا، أيضاً.

(٥) - الغدير ٢٨٣: ٥. وقال: أخرجه الطبراني بسند، رجاله رجال الصحيح، غير شيخه.

إلى سلسلة طويلة، مِنْ هذه الأحاديث، ذات الأرقام الهائلة، ولسنا نريد أن نشغل فكر القاريء، بالإكثار منها، فيروح يضرب السبعين الألف، في السبعين الألف، ليرى ما سيُصِفِيهِ الحساب.

ولكن فهل استعراض واضع حديث الضَّحَضاح، هؤلاء السبعين الألف، والسبعين الألف، التي مع كلِّ واحدٍ، مِنْ أولئك السبعين الألف...؟!

...هل دَخَلَ في هذه الزُّمرة الهائلة، فلم يجد بينهم أبا طالبٍ، ودَخَلَ النَّارَ، فَوَجَدَهُ في الضَّحَضاح، يتدفَّق دماغه على قدميه...؟!

ونُشير إلى: أننا لانتزِم بكثيرٍ، مِنْ هذه الأحاديث، التي أتينا عليها، في ما تحدَّثنا به، عن "حديث الضَّحَضاح". وليس مِنْ موضوعنا: تناولها، أو العرض لها.

وإنما رأينا: أن نحتاج بها واضع حديث الضَّحَضاح، ليس إلّا...! وذلك أنها جميعها واردة في الصَّحاح، وتستقي جميعها، مِنْ مصدرٍ واحدٍ، وتلتقي عند أكثر مِنْ غرضٍ...!

ونرى: أن نقف عند قولِ رجلٍ مِنَ الأنصار، كان آخر مَنْ أقامه معاوية - مِنْ الخطباء - للغن عليّ "عليه السَّلام"، ويقال له: أنيس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

[إنكم قد أكثرتم - اليوم - في: سبِّ هذا الرَّجل، وشتمه، وإني أقسم بالله! إني سمعتُ رسول الله (ص) يقول:

لأشفع، يوم القيامة، لأكثرَ ثَمًا على الأرض، مِنْ مدرٍ، وشجرٍ. وأقسم بالله! ما أحدٌ أوصل لرحمه منه...!، أفزرون شفاعته تصل إليكم، وتعجز عن أهل بيته...؟! (١)].

يا لروعة هذه الكلمة؟ حتى أنه لا يحلُّو معها قولٌ، أو تعليقاً!

(١) - الغدير ٢٦١: ١٠، عن أسد الغابة ١: ١٣٤.

وذكر في الإصابة ٨٩: ١، إلّا أنه لم يُشَرَّ فيها، إلى أن معاوية، هو المقيم لهذا اليوم، الأدكن.

وأشير للحديث - الذي رواه أنيس عن الرسول (ص) - في الاستيعاب ٣٧: ١.

- ٤ -

رأينا: أنَّ حديث الضَّحَضاح، يُفيد الشَّفاعة، مِنَ الرَّسول لعمه، وهي: إمَّا أن تكون،،
بعد أداء أبي طالبٍ للشَّهادة، فهي تنفي عنه النَّار، لأحاديث الشَّفاعة، التي عرضنا لها.
وإمَّا أن تكون للشَّفاعة له، قبل أدائه الشَّهادة، فهي ساقطة بما نوَّهتُ به
الآيات الشَّديدة.

وإذا لحظنا: أعمال أبي طالب، وأقواله... ولحظنا شهادات: الرَّسول،
وعزَّته... ونظرنا سقوط ميزان الرُّواة للحديث... رأينا: ساقطاً... بالإضافة إلى
أنَّه يُعارض صريح القرآن.

وحديثٌ يعارض صريح القرآن - حتى مع وثاقة الرُّواة - ليس له سوى
الجدار، يُصنع به، إن لم يمكن تأويله على محملٍ صحيح... فكيف - مع: معارضة
القرآن، وسقوط الرُّواة - ثمة وفرة مِنَ الدَّلَّائل، تُناقضه وتحوِّه، وتجهز عليه...؟!

- ٥ -

إنَّ الحديث مسندٌ للعبَّاس - وحاشاه! - وهو معارضٌ بحديث الإحتضار، المنقول
عن العبَّاس - أيضاً - حيث جاء فيه: إنَّه سمع ابا طالبٍ - في نفسه الأخير - يُردِّد
الشَّهادة، التي أرادها الرَّسول، منه، ليستحلَّ له بها الشَّفاعة، فقال له:
"لَقَدْ قَالَ الْكَلِمَةَ، الَّتِي أَرَدْتُهَا مِنْهُ".

وَقَدْ قُلْنَا، فِي التَّعْلِيقِ عَلَى حَدِيثِ الْإِحْتِضَارِ:

إنَّ عَلَى مَنْ يَقُولُ بِصَحَّتِهِ: أَنْ يَأْخُذَ بِهِ، حَتَّى نَهَايَتِهِ، وَإِلَّا فَيُرْمَى بِهِ بِكَامِلِهِ، لَا
أَنْ يَأْخُذَ مَا يُحَقِّقُ الشَّهْوَةَ، وَيَتْرَكَ مَا يُنَاقِضُ الْغُرُضَ...

ثم إنَّ مَنْ يُسَلِّمُ بِصَحَّةِ الحديثين - الإحتضار، والضحاح - يقع في :التعارض، والتناقض، بينهما، حسب ما أشرنا لذلك في الرِّقْم الثالث، مِنْ هذا التعليق^(١).
وَمَنْ رَفَضَ أحدهما، لزمه رَفْضُ الآخر، لِاتِّحَادِ بعضِ الرواة، في الحديثين...
فَمَنْ يُرْفِضُ منه حديثاً، لَا يُؤْخِذُ منه آخر...!

- ٦ -

كيف لاتصل شفاعة الرسول(ص) لعُمَّه، بأن تأخذ بيده، مِنْ ضَحاحِ النَّارِ، إلى ظلال الجنة - بعد أن أخذ بيده مِنْ غمرات النَّارِ، إلى الضَّحاح، كما يفترّون - فَيُتِمَّ نعمته، وهو القادر على التَّمام...؟! في الحين، الذي نجد حديثاً، في فضائل الخليفة عثمان، يقول:

"لِيَدْخُلَنَّ بِشَفَاعَةِ عثمان، سبعون ألفاً - كُلُّهُمْ قَدْ اسْتَوْجَبُوا النَّارَ - الْجَنَّةَ، بِغَيْرِ حِسَابٍ"^(٢).

لاحظ هذا الرِّقْم: السَّبْعِينَ الألف، الذي يكاد يسم هذه الأحاديث، التي تُريد إدخال هذا العدد الثابت للجنة، بِغَيْرِ حسابٍ، مع أَنَّهُمْ يستوجبون النَّارَ...!

ثم نتساءل: هل الخليفة أكرم عند الله، مِنْ مُحَمَّدٍ...؟

ولم تكن للخليفة هذه المنزلة - أو يصحُّ الحديث!، وتتحقق الأمانى والرجاوات! - إِلَّا لدخوله في الإسلام، وصحبته لصاحب الرِّسالة...!

أقول: أليس للرَّسُولِ مِنْ قِيَمَةٍ عند الله، تُساوي واحداً، مِنْ سَبْعِينَ ألفاً، مِنْ الكرامة والقيمة، التي للخليفة الثالث، عند الله...؟!

(١) - ص ٣٩٢.

(٢) - الصَّوَائِقُ ٦٥، الغدير ٢٤٨: ٩ - عن "الفتوحات الإسلامية" لدحلان - وفي أيضاً، ص ٣٠٣: ٩: "أنه يشفع في عدد: ربعة، ومضر"! - وَقَدْ بَسَطَ عَلَيْهِ!.

أفلا يُشَفِّعه الله في عمه، إذا كان مستحقاً للنار - كما يفترّون - وَقَدْ أَسَدَى
الرَّسُولُ الْأَيْدِي الْجَسَامِ، الَّتِي طَوَّقَ بِهَا عُنُقَ كُلِّ مُسْلِمٍ، فَيُدْخِلُهُ الْجَنَّةَ - فِي الْحَيْنِ
الَّذِي نَجِدُ مَا يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ مُشَفِّعُ عِثْمَانَ فِي سَبْعِينَ أَلْفًا، وَكُلُّهُمْ قَدْ اسْتَوْجِبُوا النَّارَ،
فَتَشْمَلُهُمْ رَحْمَةُ اللَّهِ، وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ... بِشَفَاعَةِ الْخَلِيفَةِ...!!!

... ولا تشمل هذه الرَّحْمَةُ الواسعة، بَلْ تَضِيقُ عَمَّنْ نَصَرَ دِينَهُ، وَأَزَرَ
رِسَالَتَهُ، وَكَفَلَ رَسُولَهُ، وَتَحَوَّطَهُ، فَلَا تَنْفَعُهُ شَفَاعَةُ الرَّسُولِ، إِلَّا بِتَخْفِيفِ الْعَذَابِ،
فَحَسْبُ...؟! وما هو هذا التَّخْفِيفُ المزعوم...؟!

صحيح! إِنَّ أَبَا طَالِبٍ، مِمَّنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ، بِاسْتِحْقَاقِ عَمَلِهِ، وَهُوَ لَا يَحْتَاجُ، أَوْ
يَتَوَقَّفُ دُخُولَهُ لَهَا، عَلَى شَفَاعَةِ شَفِيعٍ؛ لِأَنَّ عَدَالََةَ اللَّهِ، تَحْتَمُّ بِدُخُولِهِ، جَزَاءَ عَمَلِهِ...
وَالَا فَلِمَنْ الْجَنَّةُ، إِنْ لَمْ تَكُنْ لِمِثْلِ أَبِي طَالِبٍ...؟!

أَمَّا الشَّفَاعَةُ، فَهِيَ لِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ الْجَنَّةَ، جَزَاءَ الْعَمَلِ، إِذْ لَا يَسْتَحِقُّهَا - حِينَئِذٍ -
- بِالْعَدَالَةِ، وَإِنَّمَا بِالْعَفْوِ وَالْمَغْفَرَةِ...

ولا يغفر الله لِمَنْ يُشْرِكُ بِهِ - كَذَا قَضَتِ الْعَدَالَةُ - وَلَكِنَّهُ يَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ،
لِمَنْ يَشَاءُ - وَكَذَا قَضَتِ الْمَغْفَرَةُ وَالْعَفْوُ!

وما مثل هذا الحديث - فِي أَبِي طَالِبٍ - إِلَّا بِبَاعِثِ الْبَغْضِ لِلرُّجَالِ الْخَيْرِينَ،
وَالْكُفْرَانِ بِالْقِيمِ وَالْإِحْسَانِ...!

اللَّهُمَّ! إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ يَنْسَجَ الْبَغْضُ لِأَوْلِيَائِكَ، عَلَى أَعْيُنِنَا، غَشَاوَةً، نُضِلُّ بِهَا
الصُّوْرَ، وَنَعْمَى عَنِ الْمُنْهَاجِ الْأَلْحَبِ، وَالصُّرَاطِ الْأَقْوَمِ؛ وَنُحْبِطُ فِي: مَزَالِقِ الْأَخْطَارِ،
وَمَهَاوِي الصَّلَالِ...!

المؤمن

الإيمان: كلمة، تعني - في اللغة - التصديق. فآمنتُ بقولك، تعني: إني صدقتُ به. وهي - بعد ذلك - كلمة، خُصِّصَتْ للإيمان، الذي هو ضدُّ الكفر. فالمؤمنُ: ضدُّ الكافر! إذن... فكلمة "إيمان"، صارت ذات صبغةٍ دينيةٍ، لها تعريفها الخاصُّ. فالإيمان - بالتعريف الدينيُّ - هو: اعتقادٌ بالقلب، وتصديقٌ باللسان، بما أنزل الله، على رسوله الأعظم(ص)...

والمؤمنُ هو: الذي نجد فيه توافر هذين الشرطين، مع ما يترتب عليهما، فما يتطلبانه من القيام بالأركان.

أما الاعتقاد بالقلب... فهذا شيء، ليس من سبيل للعباد، إلى معرفته. فهو عائدٌ للخالق العظيم. إذ هو - وحده - العليم برواسب الضمير، وعقيدة الإنسان، المكونة في الخفايا... ولكنَّ الناسَ تحكم بالظواهر - مادامت غير قادرة، على معرفة الباطن... فمتى رأتَ ظاهر إنسانٍ، تلوح عليه لمحات الإيمان، فليس لأحدٍ أن ينال منه، ويتناول عليه... فإنَّ مَنْ يفعل ذلك، فإنه لَمِنَ المبهتين، يُقام عليه حدُّ القذف. ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ: لَسَتْ مُؤْمِنًا﴾^(١).

فإنَّ الله سبحانه، قد نهى أن يُقال للملقى بالسَّلام، بأنه ليس بالمؤمن...! فكيف بمن يُقرُّ بالإيمان في كلِّ لحظاته، ويرعى بذرته الأولى...؟! وإذا شاء إنسانٌ أن يعرف إيمان شخصٍ، فإنه ليس بمستطيعه، إلا أن يعرف ذلك، من أقوال الشخص... فإنه - حينئذٍ - يحكم له بالإيمان، ويحكم له بالجنة - أيضاً - إن كان الظاهر والباطن صورةً واحدةً...

(١) - النساء: ٩٤.

ويحكم له بالإيمان - أيضاً - إذا شهد له بذلك الرسول، أو أحد الذين تتوافر فيهم العصمة - بالمعنى الدقيق عندنا - لأنَّ الرسول لا ينطق عن الهوى، وإنما هو الوحي، الذي يكشف له عن الواقع الرهين...

والمعصوم، يبلغ عن الرسول الموحى إليه، فليس - ثمة - زيف، أو تحريف، ولا تخمين، أو حدس، ولا يصدر عن هوى، أو عاطفة...

لذلك... نستطيع الحكم البات، بإيمان أبي طالب، من الناحيتين.

فأقول أبي طالب كلُّها، تشهد له بالإيمان، ويتبعها ذلك العمل الصحيح، والجهاد السافر... ويتبع هذا وذاك: سيلٌ من الشهادات: الرسول (ص)، والأئمة من آل محمد (ص)...

وقد وقفنا على: ثروة، من أقواله، المضمخة بعطر الإيمان الصميم... وصفحات نواصع، من جهاده الخالد، الطويل الشاق... وطائفة من الشهادات، تنطلق من فم: الرسول الأقدس، وعترته الطاهرة...

* *

وقد نرى من الخير: أن نأتي - هنا على شيء من أقواله، التي تتصل بهذا العنوان... إنه هو القاتل:

ملك الناس ليس له شريك

هو: الوهاب، والمبدي المعيد

ومن تحت السماء هو بحق،

ومن فوق السماء له عبيد^(١).

فهذان البيتان، هما: شاهدان صدق، على أن قاتلهم من الموحدين للخالق العظيم، توحيداً لا يخالطه: شيء من شرك، أو ذرة من جحود...

فهو يُعبر عن الخالق بـ "ملك الناس"، وهو تعبير إسلامي قرآني: "ملك الناس"^(٢). وهو ينفي عنه الشراكة: "ليس له شريك".

(١) - إيمان أبي طالب، ٢٠، وديوان أبي طالب، ١١، والحجة، ٨٠، وشيخ الأبطح ٨٥.

(٢) - الناس: ٢.

ثم يأتي بشيءٍ مِنْ صفاته، غَزَّ وَجَلَّ... فهو: "الوَهَّاب"، الذي بيده مفاتيح
الأرزاق، فيهب، ويمنع.. وهو: "المبدي"، الذي بَدَأَ الخلق، ولم يكُ شيئاً... وهو:
"المعيد"، الذي سيعيد ما خَلَقَ، بعد الموت...

فهو إقرارٌ باليوم الأكبر: يوم المعاد، الذي يُنصب فيه ميزان العدالة، حيث
لا ظلم، ولا بخس، ولا حيف...

ثم يقول - في البيت الثاني - إنَّ جميع المخلوقات، هي عبيدُ الله، سواءً مَنْ أظلمته
السَّماء، أو مَنْ كان فوقها...

فهل التوحيد، أكثر مِنْ هذا...؟

وهل أبقي لقائلٍ أو مراتبٍ، ذرَّةً مِنْ شكٍّ، لم يجعلها لألاءَ اليقين...؟!

وهل تُعبرُ قولتنا: "لا إله إلا الله" - في معناها التوحيدي - أكثرُ ثَمًّا عَبْرَ هذان

البيتان...؟

* *

ويقول:

يا شاهدا الله! عليّ فاشهد!

إنني على دين النبي أحمد

مَنْ ضَلَّ في الدِّينِ، فإني مهتدي^(١)

فهو - هنا - يُشهد على نفسه - بأنَّه على دين ابن أخيه.

(١) - التهج ٣١٥: ٣، والحجة ٨١، وشيخ الأبطح ٨٠.

وقَدْ ذَكَرَها الميرد - في كامله ص ٩١٩: ٣ - على أنها مِنْ شعر أمير المؤمنين عليّ عليه
السلام الذي لا اختلاف فيه، وأنَّه كان يرددها.

ولكنَّه حكمَ مرتجلاً... ككثيرٍ مِنَ الأحكام المرتجلة، التي يرمي بها الميرد، في كامله.
وقَدْ يكون هذا الحكم، جاء نتيجة ترديد عليّ عليه السلام لها، وهو: شيءٌ منتظرٌ ومعقولٌ،
مِنْ عدَّة نواحٍ:

بعضها: يتصل بموضوع الشَّعر، الناطق بصريح الإيمان، والمعبّر عن كامن العقيدة...
وبعضها: يتصل بتحديد ذكرى الوالد الحبيب، الناطق بهذا الشَّعر الإيماني الصَّريح.

ثم يقول: إنَّ الذي لا يتبع هذا الدِّين، ليس إلاَّ تِيَاهَا في الضَّلَال... وإنَّه هو المهتدي، حين اتبع هذا الدِّين القويم.

فبرئكَ قل لي: أليست هذه القولة، أعظم أداءٍ مِن قولك: إني مسلمٌ؟
فلو جاء لك مَنْ يقول: إني مسلمٌ - اليس قدَّ حصَّنَ بها: دَمَه، ومالَه، وعرضه؛ فكان كأحد المسلمين، له ما لهم، وعليه ما عليهم...؟!!

فما بالنا نوجد إسلام هذا الصَّارخ، بملء فيه، يُشهد عليه شاهدُ الله، بأنَّه قدَّ اهتدى، بسنى دين ابن أخيه، وننكر عليه ذلك...؟

أليس سوى الضَّلَال، الذي يُسدل على العيون، بغشاوته، فيضلُّ عن الدِّين مَنْ يضلُّ، ويهتدي مَنْ يهتدي...؟!!

ولكنَّ الصَّالَّ، وقدَّ نظَرَ للرَّجل الرُّشيد، بمنظار نفسه، يظنُّ هداية ذلك: ضلالاً - وهو في الضَّلَال، ذلك الحَبَّاط...؟!!

* *

ومنَّ شعره:

لَقَدْ أَكْرَمَ اللهُ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا
فَأَكْرَمُ خَلْقِ اللهِ فِي النَّاسِ أَحْمَدُ
وَشَقَّ لَهُ مِنْ إِسْمِهِ، يُجَلُّهُ

فَدُؤُ العرشِ محمودٌ، وهذا محمدٌ^(١).

فهذان البيتان، فيهما الشَّيء الكثير، مِن: التَّوحيد، والإقرار بالنبوَّة، للرَّسول الأعظم(ص)...

أمَّا ما يتعلق بالإقرار بنبوَّة الرَّسول... فهناك جانبٌ كبيرٌ... وقدَّ وجدنا منه الشَّيء الكثير: في ما مرَّ بنا، بين تضاعيف هذا الكتاب.

(١) - التَّهَجُّج ٣١٥: ٣، والْحَجَّة ٧٥، ومعجم القبور ١٩٧: ١، والغدير ٣٣٥: ٧، وديوان أبي طالب ١٢، والأعيان ١٤٧: ٣٩.

ولكن فهذه حَفَنَةٌ، مِنْ بَيْتٍ وَبَيْتٍ: وَقَدْ يَكُونُ مِنْ بَيْنِهَا مَا قَدَّمَاهُ لِلْقَارِئِ، فِي مَا مَضَى مِنَ الْقُصُولِ:

أَنْتَ الرَّسُولُ، رَسُولُ اللَّهِ نَعْلَمُهُ
عَلَيْكَ نُزْلٌ مِنْ ذِي الْعِزَّةِ الْكُتُبُ
أَلَمْ تَعْلَمُوا: أَنَا وَجَدْنَا مُحَمَّدًا
نَبِيًّا، كَمُوسَى، صَحَّ ذَلِكَ فِي الْكُتُبِ:

أَنْتَ ابْنُ أَمَنَةِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٌ...إِلْخ
نَبِيٌّ أَنَاهُ الرُّوحِيُّ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ...إِلْخ
أَنْتَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ...إِلْخ
أَلَا إِنَّ أَحَدًا قَدْ جَاءَهُمْ

بِحَقٍّ، وَلَمْ يَأْتِهِمْ بِالْكَذِبِ
أَوْ يُؤْمِنُوا بِكِتَابٍ مَنَزَلَ عَجَبٍ
عَلَى نَبِيٍّ، كَمُوسَى، أَوْ كِلَيْهِ النُّبُونِ
لَقَدْ عَلِمُوا: إِنَّ ابْنَنَا لَا مَكْذَبَ

لَدَيْنَا، وَلَا نَعْبَأُ بِقَوْلِ الْإِبَاطِلِ
وَمَا يُثِيرُ السُّخْرِيَّةَ، وَلَكِنَّهُ مَّا يَكْشِفُ، عَنْ سُوءِ النَّيَّةِ: أَنَّ الْقَرِافِيَّ، يَقُولُ بَعْدَ هَذَا الْبَيْتِ:

(تَصْرِيحٌ بِاللِّسَانِ، وَاعْتِقَادٌ بِالْجَنَانِ، غَيْرُ أَنَّهُ لَمْ يُدْعَ)^(١).
وَأَنَا لَا أَعْلَمُ هَلْ عِنْدَ هَذَا الْمَغْرُضِ، تَعْرِيفٌ آخَرٌ لِلْإِيمَانِ...؟
أَمْ أَنَّ الشُّعُورَ الْبَاطِنَ، أَوْ تَدَاعِي الْخَوَاطِرِ، هُوَ الَّذِي دَعَاهُ لِأَنْ يَنْحَرِفَ عَنِ الْمَسْلَكِ الْأَقْرَمِ...؟

* *

(١) - السَّيْرَةُ النَّبَوِيَّةُ ٨٥: ١ .

هذه حَفَنَةٌ، وإلى جانبها: حَفَنَاتٌ، وحَفَنَاتٌ... وكلُّها اعترافٌ سافرٌ بالرَّسالة
الْأَخْمَدِيَّة... وكلُّها دعايةٌ لرسالته... وكلُّها تدلُّ على التَّبَعِيَّةِ منه، لابن أخيه...
وفي هذه التَّبَعِيَّةِ، منه لابن أخيه، وهذا الإطراء له: أعظم شاهدٍ، وأكبر دليلٍ
على إيمانه برسالته...

والأَمَّا الذي يدعوه، وهو الزَّعِيمُ الْمَسْوَدُ، وشيخ مَكَّةَ، وسَيِّدُ قَرِيشٍ: أن
يتصاغِرَ، أمام ابن أخيه، هذا اليتيم، الذي في كنفه ربي؛ وتحت جناحه ترعرع؛
وبعطفه ورعايته، صُلِبَ سنه العود...!؟

فهو منه: كالولد، أو الحفيد... فهو لا يعدو التَّابِعَ له - على أيِّ التَّقْدِيرِينَ.
فما الذي يدعوه - لولا الإيمان برسالته - أن يُسَوِّدَ عليه، ويتصاغِرَ أمامه،
ويدعوه: "سَيِّدِي!" - في ما رأينا - ويُخاطبه بهذا المديح، وهذه العبارات، التي
تحمل: التَّقْدِيرَ، والتَّعْظِيمَ، والإكْبَارَ، والتَّقْدِيسَ...!؟
فلو لم يكن هو إيمان، لَمَّا تَصَاغَرَ له، حتى أصبح أمامه - وهو: المتبوع،
والسَّيِّدُ، والزَّعِيمُ - كأحد التَّابِعِينَ للرَّسُولِ...!

أَلِلْعُمُومَةِ وَالرَّحْمِ...؟

فَلِمَاذَا لا يقف أبو هبٍ، بعض هذا الموقف، ولا نسمع منه، حتى بعض المقاطع،
مِنْ هذا الفيض، مِنْ أَبِي طَالِبٍ... بل لا نسمع منه، سوى الموقف البغيض، والكلام
الدَّنِيءُ!؟

وهل عاطفة الرَّحْمِ، والتي تقف أمام العاطفة الدِّينِيَّةِ، وهي التي تبتُّ بمحديد شفرتها،
كُلَّ العواطف الأخرى، ولا يقف في وجهها شيءٌ، مهما طغى، وصلب، واشتدَّ...؟
وَقَدْ رأينا كيف تكتسح العاطفة الدِّينِيَّةُ، عاطفة الأبوة والبنوة، كموقف
عبد الله بن عبد الله بن أبي؛ وكموقف عدي بن حاتم، مِنْ ابنه زيد، حيث شاء أن
يُسَلِّمَهُ بيده، إلى يد مَنْ يَقْتَضُ منه... وَلَمَّا أَفْلَتَ منه، شَيَّعَهُ بوابِلَ مِنَ الدُّعَاءِ الْحَارِّ،
لأن يرميه الله، بما يقصف منه الحياة... وغيرهما كثير...

فالعاطفة الدينيّة - ولاسيما عند مثل هذا الشّيخ الزّعيم - ليست بالتي تضمحلّ وتتلاشى، في قرارة شيخ الأبطح، حتى يتناسى وجودها... فينصر ابن أخيه، فحسب - وابن أخيه، هو: الدّاعي لدين، غير الدين، الذي ينسبه المغرضون لشيخ البطحاء... بل هو: ثورة، ومعمول، يهدّ من الدّين المزعوم، أسسه المنهارة... إنّ هذا شيء، لا يقرّ في قلب، يُسيره قليل من عقل!

* *

فهل العاطفة النّسيّة - وحدها - هي التي دعت أبا طالب: أن يُزجي للرّسول هذه الآيات، من: المدح والإطراء، وهذه الأقوال والدّعائيات... لكسب الصّقوف إلى جانبه، والحضّ على: اتّباعه، ونصرته:

أعوذُ برَبِّ البيتِ مِنْ كُلِّ طاعِنٍ

علينا بسوءٍ، أو يلوخُ بباطلٍ^(١)

وَمِنْ فَاجِرٍ، يفتانُنا بمغيّةٍ

وَمِنْ ملحقٍ في الدّين مالمْ نحاولِ^(٢)

كذبُهم - وبيتِ الله! - نُبْزى محمّداً

وَلَمَّا نُطاعنْ دَوْنَهُ، ونُناضلِ^(٣)

ونُسلمهُ، حتّى نُصرّعَ حَوْلَهُ...

ونذهلَ عن: أبنائنا، والحلائل!

وحتّى نرى ذَا الردعِ، يركبُ ردعَهُ

مِنْ الطّعنِ، فغلّ الأُنكبِ المتحصّلِ^(٤)!

(١) - في السّيرة: ملح - بدل: يلوخ.

(٢) - في السّيرة: [وَمِنْ كاشِحٍ، يسعَى لنا بمعيّة].

(٣) - نُبْزى محمّداً: نُسلّبه، ونقهر عليه.

(٤) - ركب البعير رده: إذا سقط، فدخّل عنقه في جوفه.

وفي السّيرة: الضّعن، بدل الردع.

وينهضُ قومٌ - في الحديدِ - إليكمُ:

نهوضَ الروايا، مِنْ طريقِ جلاجِل^(١)
وإنّا - وبِيتِ الله - إن جَدَّ ما أرى

لنلتبسَنَ أسيافُنَا بالأُمماتِلِ^(٢)
بكلِّ فتى، مثلِ الشُّهابِ، سَمِيعِ

أخي ثَقِيّ، عِنْدَ الحَفِيظَةِ، باسِلِ^(٣)
ومَا تَرَكْ قومٌ - لاَ أبَا لَكَ! - سَيِّداً

يُحِيطُ الذُّمَارَ، غَيْرَ نَكْسٍ مُواكِِلِ^(٤)
وأبيضُ يُستسقى الغمامُ بِوَجْهِهِ

ثَالِ اليَتَامَى، عَصْمَةٌ لِلأَرَامِلِ
يلوذُ بِهِ الهَلَاكُ مِنْ آلِ هاشِمِ

فهِمٌ - عِنْدَهُ - فِي: نَعْمَةٍ، وفَواضِلِ
ومِيزانِ. صَدَقَ، لا يَخِيسُ شَعِيرَةً

ووزَّانِ صَدَقَ، وزُنُّهُ غَيْرُ عاتِلِ^(٥)

(١) - الروايا - جمع رايّة: الدّابة يُستسقى عليها. جلاجِل - ويروى: جلاجِل - موضع، على الأظهر. ويروى: "تحت ذات الصّلاصل". وهي: المزايدات لها صوتٌ مِنْ بَقِيّةِ الماء، حينَ مسيرِ الإبل.

(٢) - في السّيرة: "وإنّا - لعمر الله! - إن جَدَّ ما أرى".

(٣) - السّميذع: السّبيد.

وفي السّيرة: "حامِي الحَقِيقَةِ باسِل".

(٤) - الذُّمَار: ما يلزمك أن تحميه. النكس: الدّنيء الذي لاخير فيه. المواكل: الذي يكل أ.

لغيره، حيث لا جدّ عنده.

وفي رواية: ذَرَبَ. والذَّرَب - عَرَكًا - بذاء اللّسان؛ والمرض، الذي لا يبرأ.

(٥) - خلسَ بالعهد: نكث، وغدر. وبالوعد: أخلف. عال في الميزان: خان. عال الميزان: نقص.

ويروى هذا البيت، بهذه الصّورة.

مِيزان قِسْطٍ لا يَخِيسُ شَعِيرَةً

لَهُ شَاهِدٌ مِنْ نَفْسِهِ غَيْرُ عاتِل

وخسَّ في الوزن: نقص. يريد: أنه لا يُنقص الحقُّ، ولا مقدار شعيرة، وهي أدنى ماتكون.

أَلَمْ تَعْلَمُوا: أَنْ ابْنَنَا لَا مَكْذَبَ
لَدَيْنَا، وَلَا نَعْبَا بِقَوْلِ الْبَاطِلِ^(١)
لِعَمْرِي! لَقَدْ كَلَّفْتُ وَجْداً بِأَحَدٍ
وَأَحْبَبْتُه حُبَّ الْحَبِيبِ الْمَوَاصِلِ
وَجَدْتُ بِنَفْسِي دُونَهُ، فَحَمَيْتُهُ
وَدَافَعْتُ عَنْهُ بِالذَّرَى وَالْكُوَاهِلِ^(٢)
فَلَا زَالَ لِلدُّنْيَا جَمَالاً لِأَهْلِهَا
وَشِينَا لِمَنْ عَادَى، وَزَيْنَ الْخَافِلِ
فَمَنْ مَثَلُهُ فِي النَّاسِ أَيُّ مُزْمَلٍ
إِذَا قَاسَهُ الْحُكَّامُ، عِنْدَ التَّفَاضُلِ!
حَلِيمٌ، رَشِيدٌ، عَادِلٌ غَيْرُ طَانِشٍ
يُوَالِي إِلَّا هَآءَ. لَيْسَ عَنْهُ بِغَافِلٍ!
وَأَيَّدَهُ رَبُّ الْعِبَادِ بِنَصْرِهِ
وَأَظْهَرَ دِيناً، حَقُّهُ غَيْرُ بَاطِلٍ^(٣)

ولأنريد: أن نقف عند هذه الرائعة، فنتطاول على روعتها، إذا تناولناها
ببسط، أو عرض، أو تحليل... فَلْيَأْخُذِ الْقَارِئُ مِنْهَا مَا يَسْتَطِيع، فَإِنَّهَا لَسَوْفَ تَأْخُذُ

(١) - يُرْوَى: لَقَدْ عَلِمُوا... إلخ، ولا يُعْنَى ... إلخ.

(٢) - الذَّرَى - جمع ذُرَّة: العلو، والمكان المرتفع. والكواهل - جمع كاهل: أعلى الظهر ثمَّ

يلبي العنق.

(٣) - التَّهْج ٣١٥، ٣١٦: ٣، وديوان أبي طالب ١- ٦، ولیمان أبي طالب ٦- ٨، والْحِجَّة

٨١- ٩٥، والسِّيرة المشاميَّة ٢٩١- ٢٩٩: ١، في ٩٤ بيتاً. وقال ابن هشام: "وهذا ماصح لي مِن

هذه القصيدة". وشيخ الأبطح ٣٤، ٣٥، وهاشم وأمية ١٧٤، ١٧٥، والغدير ٣٣٨ - ٣٤٠: ٧،

والأعيان ١٤٩، ١٥٠: ٣٩.

وَقَدْ اقْتَصَرْنَا - مِنْهَا - عَلَى هَذِهِ الْآيَاتِ؛ وَهِيَ - هُنَا - غَيْرُ مُتَّصِلَةٍ.

عَلَى أَنَّ هُنَاكَ بَعْضَ اخْتِلَافٍ - بَيْنَ الرُّوَايَاتِ - فِي بَعْضِ الْكَلِمَاتِ؛ وَقَدْ أَشْرْنَا لِبَعْضِهَا.

بمجامع قلبه، وتدع فيه أثراً بعيداً كلُّ البُعد: عميقاً كلُّ العمق... ففيها من:
الطَّراوة، والقوَّة، والعدوبة، ما تأسر به القلوب...

وهو ليس بالذي يقول القول، فحسب! ولكن القول مدعّم بالعمل... فَقَدْ
حَاطَ الرُّسُول، وَنَصَرَهُ، وَرَعَى الإسلام، وحماه، ما لم يستطع جحدانه، حتى العدو
البهَّات، الذي وَضَعَ في حقِّه: تلك الأراجيف المبطَّلة...!

* *

فخلاصة القول: في إيمان أبي طالب.

إنَّ إيمانه مِنَ الثُّبوت، بحيث لا يحتاج إلى سَوْق دليل... اللَّهُمَّ! إلَّا كما تُوكِّد
لِمَنْ افتقد الباصرة: بأنَّ الشَّمْس تحبُّ في كبد السَّماء، وأنها تُرسل الشُّعاع النُّير،
وأنَّ النَّهار مبصر... وما إلى ذلك مِنَ الأشياء المستطيلة، القائمة بنفسها - كما
يقول أبو الطَّيِّب - التي لا تحتاج إلى سَوْق دليل...

ولكن، فيبرهن لنا على إيمانه: هذه الأقوال، التي يُرسلها مِنْ فيه، وكلُّها تنضح
بالتَّوحيد، والإقرار بالرسالة... وهذا الجهاد الموصول، الذي قام به، فقام الإسلام... وهذه
الشَّهادَات مِنَ: الرُّسُول، وآله، المطَّهرين بنصِّ الكتاب - إذا كنَّا مسلمين - وَمِنْ
الصَّحابة، الذين لم ينحرفوا عن المنهج، ولم تعمِّ الأغراضُ منهم القلوب...

* *

ولأجل ذلك، وَقَدْ قامتِ الدَّلَائِل والبراهين على إيمانه... فَقَدْ جُزِمت به
الشَّيعة - وليس لها إلَّا ذلك - وقالت به: قولاً، لا تُخالِجُ الرُّبِيَّة، ولا يَعتوره الشُّكُّ
... وأجمعت عليه، فلم يشدَّ منها واحدٌ؛ إذ أنَّ الشَّاذَّ منها، عن هذا القول، ليس
بشيءٍ، بعد أن جاء ما يُدعِّمُ إيمانه مِنَ أقوال الأئمَّة - مِمَّن تدين الشَّيعة لله
بإمامتهم، ولا سيَّما قوله الإمام الرُّضا "عليه السَّلام" - في ما مرَّ بنا، عند: "ذكر
عطر..."^(١)

فالتَّشْيِيعُ، والقول بكفر أبي طالب، لا يجتمعان: لأنَّ القول به: تكذيبٌ للأئمَّة،
الذين يقولون برجحان إيمانه؟.

وكيف يكون شيعياً، مَنْ يُخالف أئمَّة المذهب؟.

لذلك... فَإِنَّ إيمان أبي طالب، يُعتبر مِنَ الصُّرُورَاتِ المذهبيَّة.

وتبع الشَّيعة الإماميَّة في قولها: الأَكْثَرُ مِنَ الزَّيْدِيَّة^(١). وقال بهذا القول بعض
الأكابر، مِنَ المعتزلة^(٢). ومنهم: الشَّيخ أبو القاسم البلخي، وأبو جعفر
الإسكافي^(٣).

كما أنَّ كثيراً مِنَ الأولياء، العارفين أرباب الكشف، قَدْ ثَبَتَ عندهم
إسلامه^(٤)، وقالوا بنجاته. منهم: القرطبي، والسَّبكي، والشَّعراني، وخلائقُ
كثيرون، وقالوا: هذا الذي نعتقده، وندين الله به^(٥).

وقَدْ قال الإمام أحمد بن الحسين الموصلي الحنفي، المشهور بابن وحشي: "إنَّ
بعض أبي طالب كُفْرٌ"^(٦). كما نَصَّ على ذلك الأجهوري، في فتاويه، وهو مِنَ
الأئمَّة المالكيَّة^(٧).

وقال التلمساني، عند ذكر أبي طالب: لا ينبغي أن يُذكر إلاَّ بحماية النِّبي، لأنَّه
حَمَاهُ ونَصَرَهُ، بقوله وفعله، وفي ذكره بمكروهٍ أذيةٌ للنبي (ص)؛ ومؤذي النبي كافرٌ،
والكافر يُقتل^(٨)!...

(١) و (٢) - الشَّرْح الحديدي ٣١٠: ٣، وشيخ الأبطح ٥٥، وأعيان الشَّيعة ١٣٥: ٣٩ .

(٣) - النُّهْج ٣١٠: ٣، والأعيان ١٣٥: ٣٩ .

(٤) - السَّيِّرة النُّبُوَّة ٨٧: ١، والغدير ٣٨٢: ٧، والأعيان ١٣٥: ٣٩ .

(٥) - الغدير ٣٨٣: ٧ .

(٦) - المصدر ٣٨٢: ٧، عن شرحه على "شهاب الأخبار" لعماد بن سلامة القضاعي.

(٧) - المصدر ٣٨٢: ٧ .

(٨) - المصدر ٣٨٢: ٧ .

وقال أبو طاهر: مَنْ أبغض أبا طالب، فهو كافراً^(١).
 وقال دحلان: فقول هؤلاء الأئمة بنجاته، أسلم للعبد، عند الله تعالى، لاسيما
 مع قيام هذه الدلائل والبراهين، التي أثبتتها البرزنجي^(٢).
 وللسيوطي^(٣) - في هذا الموضوع - كتاب بعنوان: "بغية الطالب لإيمان أبي
 طالب"^(٤)، ويكفي عنوان كتابه، لإستشف رأيَه، مِنْ بين سطورِه..
 ولزيني دحلان كتاب "أسنى المطالب". وَقَدْ أشرنا له، في فصل سابق.
 ولسنا نريد أن نتقصى المؤلفين، في هذا الموضوع، واسماء كتبهم، وهي مِنْ
 الكثرة، بحيث لا تحصى.

* *

أما القائل بكفره - واستغفر الله! - وهو: بين مَنْ تعامى عن الحق، فَوَضَعَ تلك
 التُّهم، وافترى ذلك الكذب، وَقَالَ ذلك الزُّور؛ وَقَضَى على ذلك أجره العاجل،
 ليتبوَّء مقاعد مِنَ النار، في جهنم، فيعرف - حينذاك - "الدَّرَك الأسفل مِنَ النار"
 لِمَنْ...!؟

وبين مَنْ جَاء، وَقَدْ رَأى هذا الزُّور، فلم يهتدِ للجوانب المنهارة منه، ولم
 يكشف عنه الغطاء المسدول... لو كَشَفَه لَكَشَفَ عن جيفةٍ منتنة...
 وَقَدْ رأينا ذلك، بعد ما كشفناه، في الفصل السابق... فلم تبقَ للقائل بكفره -
 واستغفر الله! - حِجَّةٌ عليها يعتمد، أو رَكِيزَةٌ عليها يعتضد...
 وإنَّ العجب لياخذ مَنْ غايته: أنْ نجدَ إسلام وإيمان أبي طالب - والشواهد تعضد
 ذلك، والدلائل تقوم عليه، والبراهين تُسفر عنه، في الحين الذي نجد مثل هذا الحديث:

(١) - الغدير ٣٨٢: ٧ .

(٢) - المصدر ٣٨٣: ٧ .

(٣) - المصدر ٣٨٤: ٧ . وَقَدْ أشرنا - في الهامش ١ - ص ٣٦٢ - إلى بحانف السيوطي، على
 أبي طالب، في كتبه، عن آباء النبي (ص).

ولعلَّ هذا مثل ما وقع لدحلان، في السيرة النبوية، حيث تناقضَ في مابين الكتابين.

عن الشريد، قال: ردفْتُ رسول الله (صلى الله عليه وآله) وسلم يوماً، فقال: هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء؟

قلت: نعم!

قال: هيه! فأنشدته بيتاً.

فقال: هيه ثم أنشدته بيتاً.

فقال: هيه! حتى أنشدته مئة بيت.

فقال: إن كاد يُسلم! أو قال: فلقد كاد يُسلم، في شعره! (١).

وهذا زيد بن عمرو، وقد خرج يطلب الحنيفة دين إبراهيم، حتى أخذ طريقه إلى الشام، ومنها إلى مكة. ولكنه مات في طريقه إليها، فيروون عن عائشة: أن الرسول، قال:

دخلت الجنة، فوجدت لزيد بن عمرو دوحتين (٢).

ويروون: أن سعيداً بن زيد، بن عمرو، بن نفيل، وعمر بن الخطاب - وهو.

ابن عمه - قالوا لرسول الله (ص): "استغفر لزيد بن عمرو!"

قال: "نعم! فإنه يُبعث أمة وحده" (٣).

ويروون عنه (ص) قوله: رحم الله قساً - قساً بن ساعدة - يُحشر يوم القيامة،

أمة واحدة، أو وحده! (٤).

فما هذا التناقض...؟!

وما بال كرم الرسول - وهو معدن الجود والسخاء - يتدقق هنا، على البعداء،

الذين لم تمتد منهم، إليه، يدٌ معروفة، وتنقبض يده، عن أن تمتد، ليرد على أبي

طالب شيئاً، من أيادي الحسن، ويُجازيه بالإحسان إحساناً، وقد أمره الله بذلك:

(١) - صحيح مسلم ٤٨، ٤٩: ١.

(٢) - السيرة النبوية ٩٦: ١.

(٣) - على هامش السيرة ١٣٦: ١ - عن ابن إسحاق - وأشير إليه، في السيرة النبوية ٧٣ و ٧٦ و ٩٥: ١.

(٤) - البحار ٥٧: ٤٦ وفي السيرة النبوية ٧٣ و ٧٦: ١، ما يُماثله...

كما أن في مروج الذهب ٦٩، ٧٠: ١، إشارة لذلك، في قصة طويلة.

﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ؟﴾^(١).

فلا يُجازيه بالإحسان، إلا سوءاً - وحاشا الرسول الأعظم!

* *

بعد هذا... نجد: أنَّ أقلَّ ما ينتج عن بهت أبي طالب بالكفر: أنه إيذاء للرسول
الأقدس (ص)...!

وكفى بهذا ذنباً عظيماً، وجريمةً لا تُغتفر...!

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٢).

﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾^(٣).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي:

الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً﴾^(٤).

ومن هنا... رأينا التلمساني، كيف أشار لذلك، في ما قاله عن أبي طالب -
كما وقفنا عنده، قبل سطرٍ - إذ حكم بقتل القائل بكفر شيخ الأبطح، لأنه إيذاء
للرسول، ومؤذي النبي يجب قتله، فالقائل بكفره يجب قتله!
وقتل مؤذي النبي، مسألة يكاد يُجمع عليها المسلمون، لصريح الآيات، بتخليد
مؤذيه في النار.

وليس أذى لرسول الله، كأذى النيل من عمه ونصيره، بيهته بالكفر، وهو:
المؤمن العميق، والنصير القُد.

وإذا كانوا يقولون: إنَّ سبيعة بنت أبي هب - بُتت يدها! - جاءت للرسول
شاكية، من قول الناس لها: أنتِ بنتُ حطب النار...!

(١) - الرحمن ٦٠.

(٢) - التوبة ٦١.

(٣) - الأحزاب ٥٣.

(٤) - الأحزاب ٥٧.

- وبذلك وصَفَ القرآن أمَّها اللعينة، وأباها المنكودُ - فيقوم الرسول، وهو مغضبٌ، ليصيح بهم:

"ما بال أقوام يؤذونني في قرابتي؟!"

مَنْ آذَانِي، فَقَدْ آذَى اللَّهَ!"^(١).

وأيُّ قرابةٍ، بقيت له، مع ابي هُلبٍ، هذا الذي بَتَّ كلَّ قرابةٍ، وَقَطَعَ كلَّ وشيجةٍ، وَبَتَرَ كلَّ صلةٍ...!؟

وإذا كانوا يروون عن الرسول: لَاتَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ، فَتُذَوِّا الْأَحْيَاءَ^(٢).

وبذلك حكموا: "أَنْ آذَى النَّبِيَّ كَفْرٌ، يُقْتَلُ فَاعِلُهُ، إِنْ لَمْ يُتَبَّ"^(٣).

ورأت المالكيَّة قتله، وإن تاب^(٤).

إذا كان هذا كله... أفليس بهتُ أبي طالبٍ بالكفر: آذَى لِلنَّبِيِّ - على أقلِّ

تقدير...!؟

وكفى به ذنباً، يُحْكَمُ بِقَتْلِ مَرْتَكِبِهِ - عقاباً دنيوياً - وتعذيبه بالعذاب الأليم

المهين - عقاباً أخروياً...!؟

ولعنة الله تلاحق ظله في: الدُّنْيَا، وَالْآخِرَةِ...!؟

وَمِنْ أَجْلِ هَذَا... قَالَ السَّيُّوطِيُّ، حَوْلَ أَبِي الرَّسُولِ، فِي مَا دَارَ حَوْلَهُمَا مِنْ

بهتٍ، كَانَ نَصِيحَهُمَا مِنْهُ، كَالسَّهْمِ الْخَاطِئِ عَنْ الْقَصْدِ، إِذِ الْهَدَفُ هُوَ: عَلِيٌّ فِي

شَخْصِ أَبِيهِ... فَكَانَ أَنْ أَخْطَأَ، فَأَصَابَ الرَّسُولَ فِي شَخْصِ أَبِيهِ: عَبْدُ اللَّهِ، وَآمَنَةُ،

وَجَدَّهُ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ.

وعلى كلِّ... فالرسول وعليٌّ: نفسٌ واحدةٌ. وأبو طالبٍ للرسول، كعبد الله.

كما كانت فاطمة له - في الأمومة - كأمّنة.

(١) - السِّيرة النبويَّة ٧٧: ١، عن ابن مندة.

(٢) - السِّيرة النبويَّة ٧٧: ١ مروياً عن: الطُّبراني، وأحمد، والترمذي.

(٣) - المصدر.

(٤) - المصدر.

قال السيوطي:

[إني لم أدع: أنَّ مسألة الأبوين إجماعية، بل هي مسألة اختلافية^(١)]، فحكمها حكم سائر المسائل المختلف فيها، غير أنني اخترت أقوال القائلين بالنجاة، لأنه الأنسب بهذا المقام.

والحذر الحذر! من ذكرهما بما فيه نقص... فإنَّ ذلك قد يؤذي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)^(٢)، لأنَّ العرف جارٍ بأنَّه إذا ذُكر أبو الشخص بما ينقصه، أو وُصف بوصفٍ قائم به، وذلك الوصف فيه نقص، تأذى ولده، بذكر ذلك له، عند المخاطبة^(٣)..

وإذا كان مما ينقص الرسول: أن يكون واحدًا من آبائه مشركًا، فإنَّه - ولاشكَّ - لَمِمَّا ينقصه: أن يتربَّى في بيت مشرك^(٤)، ويرعاه وينصره، ويحميه، ويحمي دينه وأتباعه ذلك المشرك... فيكون مدينًا لمشرك، نحو هذه الحقوق - وما أرفعها شأنًا! وأعظمها قيمة...!

ومن هنا قال الرسول: "اللَّهِمَّ لا تجعل لفاجرٍ، أو فاسقٍ، عندي نعمة" - كما سبق أن ذكرناه.

وإذا كان الأب المشرك، يُنقص شرف الإبن المؤمن، فإنَّ شرك أبي طالب، يُنقص ابنه عليًا - وهو لم يبهت بالشُّرك، إلَّا تنقُصًا لعليٍّ، في سبيل للممة بعض

(١) - لانرى : أنَّ هذه المسألة خلافية، بعد أن يقوم البرهان التصبيع، مدعماً بالقرآن، إلى جانب القائلين بإيمان آباء الرسول إلى المؤمن الأول: آدم...!

إذ لا تبقى قيمة - بعدئذٍ - لقول المخالفين، بحيث يجوز أن تُعتبر المسألة خلافية، مادام قول المخالِف يُناقض القرآن، ويُهاض الأدلة...!

(٢) - لاشكَّ أنَّ هذا يؤذي الرسول...! وليس من أجل العلة، التي بسَطَها السيوطي، فحسب، وإنما لتحنيها - بغير حق - على مؤمنين، هم: نبعة الإيمان، في ظمِّ الشُّرك؛ وفيلال التَّوحيد، في صحراء الكفرا.

(٣) - السيرة النبوية ٧٦: ١.

(٤) - لاشكَّ أنَّ للتربية أثرها الفعَّال، في توجيه الإنسان، نحو الخلال: طيِّبها، وسيئها، لقابلية الطِّفل واستعداده للتأثر الشديد السريع، عربيَّه، وتطلُّعه له، في احتذاء: أعماله، وأقواله.

خصائصه ومزاياه، التي انفرد بها، وميّزته على غيره، من جميع الصحابة، إذ لم يؤمن أحد من آباءهم، ولم يرتفعوا عن هذه النسب المشرك، ولم يضربوا في الإيمان بعميق الجذور...!

ومن هنا... رأينا كيف حاولوا، فوضعوا بعض الأحاديث، التي تدّعي نسبة البعض، من آباء الصحابة، للإسلام، وتزعم لهم ذلك...!

وهم قد وضعوا هذه الأحاديث، في قبالة وضع حديث شرك أبي طالب، لتخفف كفة عليّ، وترجح عليه كفة غيره، نحو هذه الخبيصة.

ولو صحت أحاديث إسلام أولئك، لما تساوت الكفتان، في حال من الأحوال...! ذلك أنّ آباءهم، لاشكّ في أنهم كانوا مشركين، فاسلموا - إن صحّ إسلامهم...!

أمّا أبو طالب، فلم يدرك ما الشرك...؟! وما أظلم قلبه يوماً بسواد الشرك...! بل كان ذلك المتفتح المشرق - دائماً - بسنى التوحيد، ونور الإيمان.

وشبيه بهذا: ما دار حول سيق عليّ للإيمان بالرسول (ص) فوضعوا حول ذلك ما وضعوا، حتى جاء من لم يستطع جحدان الحقيقة، جهراً، فحاول تليسيها - ولكن على الغفّل - بقوله:

أول من آمن من الصبيان: عليّ؛ ومن الرجال: أبو بكر؛ ومن النساء: خديجة. وإذا صحّ أن يقال لشخص: أسلم؛ فلائنه كان كافراً، فأسلم...!

وهذا لا يصحّ في حقّ عليّ، الذي لم يكن كافراً، في لحظة من حياته، وما انحنى منه الهام لصنم، أو وثن؛ بل كان ذلك المرفوع الرأس، ينظر لعظمة الله الخالق العظيم، فهو مؤمن من يومهم الأول، لم يمرّ بطور: الكفر، فالإيمان؛ ولم يسجد لسوى الله...

ولهذا... فالتقاش في موضوع: أي واحد سبق للإيمان، لا يصحّ في حقّ عليّ "عليه السلام".

إذا كان هذا - كفر الأب - مِمَّا يُنقص الابن، فكفر أبي طالب، مِمَّا ينقص علياً...!

وهو، بعد هذا - بل في ذات الوقت - لِمِمَّا يُنقص الرسول، أيضاً، مادام مُحَمَّدٌ وعليٌّ نفساً واحدةً، تجمع بينهما خصائص البيت، الضَّارِبُ الجذر في الإيمان البعيد العميق...!

ولابدَّ أن يكون مُحَمَّدٌ وعليٌّ، في درجةٍ، مِنَ المزايا، والخصائص، واحدةٍ - عدا ميزة النبوة، التي تُخصَّصُ مُحَمَّدًا عن عليٍّ - حتى يتحدَّا في نفسٍ واحدةٍ...
لذلك... فلا بدَّ أن يكون أبو طالب كعبدِ الله؛ وآمنة كفاطمة: إيماناً، وكفراً، حتى يتحدَّ الآباء، كما اتَّحد الولدان، فكان عليٌّ نفسَ مُحَمَّدٍ (ص).

وإذا كان الرسول يُؤذيه أن يُقال لسبيعة: أنتِ بنت حطب النَّار... - وقد نَزَلَ القرآن، في أمِّها: حَمَّالة الحطب؛ وأبيها: أبي هب، بِمَا نَزَلَ... - فكيف به يرضى بهتِ عمِّه، وقذْفِه بما هو منه بريء...؟!

أفلا يُؤذيه هذا، أشدَّ الأذى، لأنَّه قَذَفَ بالباطل، وتجنَّ على الحقِّ، ينال شخصاً، هو أقرب له قريبي: إن مِنْ حيث الرَّحم، وإن مِنْ حيثِ النُّصرة، وكلُّها تستحقُّ منه الوفاء، والتَّأذي لما يُؤذي: هذا المؤمن، والقريب، والنَّصير...؟
وهو - أيضاً - أذى له، ما دام يُؤذي نفسه علياً، ومَنْ أذى نفسه، فَقَدْ آذاه، ومؤذيه مؤذٍ لله - كما جاء في لسان الحديث، الثَّابت عنه...!

وإذا كانتِ الشَّفاعَةُ، تنال مَنْ تنال، مِنْ تلك: الأعداد الكثر، والأرقام الضُّخام، التي تأبى الحصر... فهلاًَّ تسع عمِّه، لو لم يكن مؤمناً، كما يزعمون، في ما يحلو لهم، مِنْ بهتِ الرَّجلِ المؤمنِ، والتَّجني على حقِّه، والتَّعدي على طهر قداسته، ونصيح إيمانه...؟!

وإذا لم يكن أحدٌ أوْصَلَ لرحمه. مِنَ الرسول الأعظم (ص) - كما أقسم بذلك أنيس، ويُقرُّه على قسمه كلُّ مَنْ عرفَ مُحَمَّدًا الرَّحيم - أَقْتَصِلُ شفاعته - لثُل تلك

الأعداد والأرقام، وتعجز عن عمه، الذي كان له كأيه - تربية، ونصرة فذة - وهو، مع ذلك، أبو نفسه: علي عليه السلام...!؟

ولكن أبا طالب - كما قلنا، ووافقنا عليه كل منصف، يرى الحق، فيتبعه - ممن يدخل الجنة، باستحقاق عمله، دون حاجة للشفاعة، التي يحتاجها من لم ينهض به عمله، لاستحقاق الجنة، التي لا توجبها له العدالة؛ لأنه لم يعمل ما يجب عليه نحوها...!

ومن قام بواجبه، بدون نقص، فإن العدالة، توجب له على الله الجنة، بلا حاجة لشفاعة شفيع، فهي له حق...

وإذا لم يدخل الجنة: مثل أبي طالب، فلمن خلقت إذن...!؟

بل هي لمن إن لم يتصدّرها مثل أبي طالب - وهي جزاء عمله...

وإن دخل أبو طالب النار - كما يرجفون - فمن ذا ينجو منها، حتى الأنبياء المرسلون - فالنار لا تخاف، ولا تخشى، حينئذ - إذ تنعدم القيم، ولا يكون الجزاء من جنس العمل، وتنمحي العدالة، ويجور الحكم - وحاشا لله!

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ

احْتَمَلُوا: بُهْتَانًا، وَإِنَّمَا مُبِينًا﴾^(١).

* * *

(١) - الأحزاب ٥٨ .

مراجع الكتاب

أرجعنا - في ثنايا الكتاب - كلَّ موضوع لمصادره: صفحةً وجزءاً. ونُسلسل - هنا - أسماء المصادر، التي رجعنا لها، مع ذكر مؤلفيها، وطباعتها، رامزين للمطبعة بـ "م"، وللطبعة بـ "ط"، مرتبين الأوَّل، فالأوَّل ثَمَّ رجعنا إليه.

- ١ - القرآن الكريم.
- ٢ - شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد - ج ٣ - م دار الكُتب العربيَّة الكبرى - مصر ١٣٢٩هـ.
- ٣، ٤ - البيان والتبيين ج ١، ٢ - للجاحظ - شرح حسن السُّنْدُويّ - م الاستقامة بالقاهرة - ط ٣ - ١٣٦٦هـ.
- ٥ - مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ١ - م المينة - مصر: ١٣١٣ هـ.
- ٦ - تاريخ الأمم والملوك ج ٤ - لابن جرير الطُّبري - م الاستقامة - ١٣٥٧هـ ١٩٣٩ م.
- ٧ - الكامل في التاريخ ج ٣ - لابن الأثير الشُّيبانيّ الجزريّ - مصر. ١٣٥٦هـ.
- ٨ - الغدير في: الكتاب، والسُّنة، والأدب ج ١١ - للشُّيخ عبد الحسين الأمينيّ ط ١ - م الحيدريّ طهران: ١٣٧٢هـ.
- ٩ - النُّهج ج ١.
- ١٠ - الغدير ج ٢ - ط ٢ - م الحيدريّ - طهران: ١٣٧٢ هـ.
- ١١ - صحيح مسلم ج ١ - م محمَّد عليّ صبيح - مصر: ١٣٢٤هـ.
- ١٢ - معاوية بن أبي سفيان: في الميزان - لعبَّاس العقَّاد - العدد ٥٨، مِنْ سلسلة "كتاب الهلال" - جمادى ١٣٧٥هـ يناير ١٩٥٦م - القاهرة.
- ١٣ - رسائل الجاحظ - جمع السُّنْدُويّ - م الرحمانية بمصر: ١٣٥٢ هـ. وَقَدْ رجعنا منها إلى هذه الرسائل:

١ - رسالة في بني أمية.

٢ - نقض العثمانية للإسكافي.

٣ - فضِّل هاشم، على عبد شمس.

- ١٤، ١٥ - الغدير ج ١٠ و ١٠ ط - م الزهراء بالتجف ١٣٦٧ هـ، وم الحليري بطهران ١٣٧٢ هـ.
- ١٦ - صلح الحسن "ع" - للشيخ راضي آل ياسين - م الزهراء - بغداد: ١٣٧٢ هـ ١٩٥٣ م.
- ١٧ - الحسن بن علي لكامل سليمان - بيروت ١٣٧٣ هـ.
- ١٨ - الدعوة الإسلامية إلى وحدة أهل السنة والإمامية ج ١ - للشيخ علي أبو الحسن الخنيزي - م الإقبال - بيروت: ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٦ م.
- ١٩ - الكامل، في اللغة، والأدب، والنحو، والتصريف ج ٢ - للمبرد - م الباني - مصر ١٣٥٦ هـ ١٩٣٧ م.
- ٢٠ - أعيان الشيعة ج ٣٥ - للسيد محسن الأمين - ط ١ - م الإنصاف - بيروت: ١٣٧٠ هـ ١٩٥١ م.
- ٢١ - لباب النقول، في أسباب النزول - للسيوطي - ط ٢ - م الباني - مصر: ١٣٧٣ هـ ١٩٥٤ م.
- ٢٢ - مجمع البيان في تفسير القرآن ج ٥ - للطبرسي - بيروت: ١٣٧٦ هـ ١٩٥٧ م.
- ٢٣ - الكشف عن حقائق غوامض التنزيل ج ١ - للزحشري - ط ٢ - م الإسقامة - مصر ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٣ م - محمد مصطفى ١٣٠٨ هـ.
- ٢٤ - السيرة الحلبية ج ١ - للحلي - ط ٣ - م الأزهرية - مصر: ١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م.
- ٢٥ - إحياء علوم الدين ج ٣ - للغزالي - م الباني - مصر: ١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م.
- ٢٦ - سر العالمين وكشف ما في النارين - للغزالي - م الحجر يومي ١٣١٤ هـ.
- ٢٧ - الاستيعاب في أسماء الأصحاب ج ٣ - ليوسف النمرى القرطبي - م مصطفى محمد - مصر ١٣٥٨ هـ ١٩٣٩ م [بهامش الإصابة].
- ٢٨ - شرح النهج ٤ - لابن أبي الحديد.
- ٢٩ - مقلمة ابن خلدون - م مصطفى محمد - مصر.
- ٣٠ - ينابيع المودة - للشيخ سليمان الحسني - ط ٢ - م العرفان - صيدا - وم بمبي ١٣١١ هـ.
- ٣١ - فصل الحاكم، في النزاع والتخاصم، في ما بين بني أمية، وبني هاشم - محمد بن عقيل - م العرفان - صيدا: ١٣٤٣ هـ.
- ٣٢ - كشف الأستار، عن وجه الغالب عن الأَبصار - لميرزا حسين التوري - م أحمد آقا - ١٣١٨ هـ.
- ٣٣ - أبو هريرة - للسيد عبد الحسين شرف الدين - م العرفان - صيدا: ١٣٦٥ هـ.
- ٣٤ - الغدير ج ٨ - م الزهراء بالتجف: ١٣٧٠ هـ.
- ٣٥ - السيرة النبوية، والآثار اغمضية ج ١ - للسيد أحمد زيني دحلان - بهامش (السيرة الحلبية).
- ٣٦ - الاستيعاب ج ٤.

- ٣٧ - الغدير ج٣ - ط١ - م الغري النجف ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦ م.
- ٣٨ - الإصابة في تمييز الصحابة ج٢ - لابن حجر العسقلاني [مطبوعة مع الاستيعاب].
- ٣٩، ٤٠ - الإمام عليّ صوت العلالة - لجورج جرداق ١٩٥٦م - وج٤ - م الجهاد، بيروت.
- ٤١ - الإمام عليّ بن أبي طالب ج١ - لعبد الفتاح عبد المقصود - ط٢ - دار الكتاب العربي - مصر ١٣٦٦هـ.
- ٤٢ - معجم القبور - للسيد محمد مهدي الموسوي - م النجاح - بغداد ١٣٥٨هـ ١٩٣٩م.
- ٤٣ - أصل الشيعة وأصولها - للشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء - ط٢ - م العرفان ١٣٥٥هـ ١٩٣٦م.
- ٤٤ - مروج الذهب - لأبي الحسين عليّ المسعودي - ط٣ - م السعادة بمصر - ١٣٧٧-١٩٥٨م.
- ٤٥ - بحار الأنوار، ج٦ - محمد باقر المجلسي - م خورشيد طهران - ١٣٢٣هـ.
- ٤٦ - العباس بن أمير المؤمنين - للسيد عبد الرزاق المقرّم - م الحليّة، بالنجف.
- ٤٧ - الكامل في التاريخ، ج٢ لابن الأثير - ١٣٤٩ هـ.
- ٤٨ - حليف محزوم - للسيد صدر الدين شرف الدين - ط١ - م العرفان: ١٣٧٣هـ ١٩٥٤ م.
- ٤٩ - الكامل في التاريخ ج١ - ١٣٤٨ هـ.
- ٥٠ - الغدير ج٧ - م الزهراء بالنجف ١٣٦٩هـ.
- ٥١ - أعيان الشيعة ج٢ - ط٣ - م الإنصاف، بيروت: ١٣٧٠هـ - ١٩٥٠م.
- ٥٢ - السيرة النبويّة ج١ - لابن هشام - م البابي - مصر، ١٣٥٥هـ - ١٩٣٦ م.
- ٥٣ - على هامش السيرة ج١ - لطف حسين - دار المعارف بمصر ١٩٥٢ م.
- ٥٤ - المجالس السنيّة في مناقب ومصائب العزة النبويّة ج٤ - للسيد محسن الأمين - ط٢ - م ابن زيلون دمشق ١٣٦٣هـ.
- ٥٥ - تذكرة الخواص - لسبط ابن الجوزي - م العلميّة بالنجف ١٣٦٩ هـ.
- ٥٦ - الإستيعاب ج١ -
- ٥٧ - شرح النهج لابن أبي الحديد - ج٢.
- ٥٨ - إثبات الوصيّة - للمسعودي "صاحب المروج" - ط٣ - م الحليّة بالنجف.
- ٥٩، ٦٠ - أعيان الشيعة ج٣ ق١ ط٢، م الإتقان دمشق ١٣٦٦ و ج٣٩ ط١، م الإنصاف - بيروت ١٣٧٥ هـ.

- ٦١ - عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب لأحد بن عليّ الداؤوديّ - ط ١ - المطبع الجعفري .
لكنوء.
- ٦٢ - مناقب آل أبي طالب ج ١ - لابن شهر آشوب المازندرانيّ - بمبي.
- ٦٣ - الحجّة على الذّاهب إلى تكفير أبي طالب - للسّيّد شمس الدّين فخار بن معدّ - م العلويّة -
النّجف: ١٣٤٠ هـ.
- ٦٤ - الإمام عليّ: صوت العدالة ج ١، م الجهاد بيروت.
- ٦٥ - مجالس ثعلب ج ١ - لأبي العباس أحمد ثعلب - دار المعارف بمصر: ١٣٤٨ هـ.
- ٦٦ - أبو طالب شيخ بني هاشم - لعبد العزيز سيّد الأهل - دار العلم للملايين - بيروت ١٩٥١
م - ط ١ -
- ٦٧ - هاشم وأئمّة - في الجاهليّة "١" - للسّيّد صدر الدّين - بغداد: ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٥ م.
- ٦٨ - صحيح البخاريّ ج ٢ - م المميّنة للباي - مصر.
- ٦٩ - شيخ الأبطح، أو أبو طالب - للسّيّد محمد عليّ شرف الدّين - م دار السّلام - بغداد.
١٣٤٩ هـ.
- ٧٠ - معجم البلدان ج ٥ - لياقوت الحمويّ - بيروت: ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م.
- ٧١، ٧٢ - فاطمة بنت محمّد، ومحمّد النّبيّ العربيّ - لعمر أبو النّصر - م الوطنيّة - بيروت ١٩٥٣ م.
- ٧٣ - على هامش السّيرة ج ٢.
- ٧٤ - تاريخ الأمم والملوك ج ٢.
- ٧٥ - قصص العرب ج ١ - محمّد جاد المولى وصاحبه ط ٢ - مصر ١٣٦٧ هـ.
- ٧٦ - إعجاز القرآن لأبي بكر الباقلانيّ - دار المعارف بمصر.
- ٧٧ - الكامل في اللّغة ج ٣ - ط ١.
- ٧٨ - غاية الرّام، إلخ - للسّيّد هاشم البحرانيّ - إيران ١٢٧٢ هـ.
- ٧٩ - الإصابة ج ٤.
- ٨٠ - الرّياض النّضرة في مناقب العشرة - للمحبّ الطّبريّ - ط ١ - م الحسينيّة ١٣٢٧ هـ.
- ٨١ - أعيان الشّيعة ج ١٦ - ط ١ - م ابن زيدون - دمشق ١٣٥٩ هـ.
- ٨٢ - تفسير عليّ بن إبراهيم - إيران ١٣٦٣ هـ.
- ٨٣ - ديوان أبي طالب - م فيض رسن - بمبي ١٣٢٦ هـ.

- ٨٤ - إيمان أبي طالب - للشيخ المفيد [ضمن المجموعة الأولى من "نفائس المخطوطات"] - م الحيدريّة - النجف: ١٣٧٢ هـ - ١٩٥٣ م.
- ٨٥ - مجمع البيان ج ٧.
- ٨٦ - ثمرات الأوراق في المحاضرات ج ٢ - لتقي الدين بن حجة الحموي - بهامش المستطرف - م المشهد الحسيني ١٣٦٨ هـ.
- ٨٧ - الكشاف ج ٢ ط ٢ - م الإستقامة بالقاهرة ١٣٧٣ هـ.
- ٨٨ - السيرة النبوية لابن هشام ج ٢.
- ٨٩، ٩٠ - معجم البلدان ج ٥ ط ١، م السعادة مصر ١٣٢٤ هـ - وج ٣ بيروت: ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م.
- ٩١ - على هامش السيرة ج ٣ - عام ١٩٤٦ م.
- ٩٢ - الاستيعاب ج ٢.
- ٩٣ - نسب قريش - لمصعب الزبيري - دار المعارف للطباعة والنشر ١٩٥٣ م.
- ٩٤ - الأغاني ج ١٧ - لأبي الفرج الأصبهاني - م التقدّم - مصر.
- ٩٥ - الغدير ج ١ - ط ٢ - م الحيدري طهران: ١٣٧٢ هـ.
- ٩٦، ٩٧ - الكشاف ج ٢ م محمد مصطفى ١٣٠٨ هـ - وج ٤ ط ٢ - م الإستقامة بالقاهرة ١٣٧٣ هـ.
- ٩٨ - تفسير القرآن العظيم ج ٤ - لأبي الفداء بن كثير - دار إحياء الكتب العربيّة بمصر.
- ٩٩ - ١٠٢ - مجمع البيان ج ٢٨ ط ٢ - دار الشامي بحريصا - وج ١٠ و ٦ و ٢٦ - بيروت ١٣٧٦ هـ و ١٣٧٤ هـ.
- ١٠٣ - الكشاف ج ٣ - م محمد مصطفى ١٣٠٨ هـ.
- ١٠٤ - وقعة صفين - لنصر بن مزاحم - ط ١ - القاهرة: ١٣٦٥ هـ.
- ١٠٥ - الصواعق الخرقّة - لأحمد بن حجر الهيتمي - م الميمنية - مصر: ١٣١٢ هـ.
- ١٠٦ - الفتحة الكبرى "١" عثمان - لطف حسين - دار المعارف بمصر ١٩٤٧ م.
- ١٠٧ - تاريخ الأمم والملوك ج ٦ - ١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م.
- ١٠٨ - الكامل في التاريخ ج ٥ عام ١٣٥٧ هـ.
- ١٠٩ - محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية - الدولة العباسية - للشيخ محمد الخضري - ط ٥ - م الإستقامة - القاهرة ١٣٦٤ هـ - ١٩٤٥ م.

- ١١٠ - ميزان الاعتدال في نقد الرجال ج ٣ - محمد الذهبي - ط ١ - م السعادة بمصر ١٣٢٥ هـ.
- ١١١ - تفسير البيضاوي ج ٢ - م مصطفى محمد - مصر.
- ١١٢ - تفسير القرآن ج ٢، لابن كثير.
- ١١٣ - ميزان الاعتدال ج ١.
- ١١٤ - دلائل الصدق ج ١ - للشيخ محمد حسن المظفر - جاب تابان ١٣٧٩ هـ.
- ١١٥ - إسعاف المبطل برجال الموطأ - لجلال الدين السيوطي - م مصطفى محمد ١٣٥٨ هـ [في نهاية الموطأ].
- ١١٦ - الفهرست لابن النديم - م الرهائي - مصر ١٣٤٨ هـ.
- ١١٧ - صحيح البخاري ج ٣.
- ١١٨ - ميزان الاعتدال ج ٢.
- ١١٩ - الإصابة ج ٣.
- ١٢٠ - سير أعلام النبلاء ج ٢ - محمد الذهبي - دار المعارف بمصر: ١٩٥٧ م.
- ١٢١ - الغدير ج ٦ ط ٢ - م الحيدري - طهران: ١٣٧٢ هـ.
- ١٢٢ - فوح البلدان - لأبي العباس البلاذري - دار النشر للجامعيين: ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧ م.
- ١٢٣ - الإتقان في علوم القرآن - لجلال الدين السيوطي - م حجازي بالقاهرة ١٣٦٨ هـ.
- ١٢٤ - تفسير القرآن ج ٣ لابن كثير.
- ١٢٥ - صحيح مسلم ج ٣.
- ١٢٦ - الكشاف ج ٣ - ط ٢ - م الإستقامة بالقاهرة: ١٣٧٣ هـ.
- ١٢٧ - مجمع البيان ج ٢٠ عام ١٣٧٤ هـ ١٩٥٥ م.
- ١٢٨ - تفسير البيضاوي ج ٤.
- ١٢٩ - مجمع البيان ج ٢٣ - عام ١٣٧٤ هـ ١٩٥٥ م.
- ١٣٠ - صحيح البخاري ج ١.
- ١٣١ - الغدير ج ٩ - م الحيدري، النجف ١٣٧١ هـ.
- ١٣٢ - أعيان الشيعة ج ٤ ق ١ ط ٢ - م الإنصاف - بيروت ١٣٦٨ هـ - ١٩٤٨ م.

ترجمة
المؤلف وأثاره

جُمِعَت من بعض الكتب التي أشارت إليها

بسم الله الرحمن الرحيم

الاسم: الشيخ عبد الله، الشيخ علي، حسن، مهدي، كاظم، علي، عبد الله، الحنيزي.

اسم الشهرة: الشيخ عبد الله الحنيزي.

تاريخ الميلاد ومكانه: ١٣٥٠هـ - ١٩٣١م - القلعة - القطيف.

السيرة الذاتية (الحياة العلمية والعملية)

* أدخل الكتاب في سن مبكرة، فقرأ القرآن الكريم، وتعلم: القراءة، والكتابة، ومبادئ الحساب، في سن مبكرة

* قرأ العربية - على النهج القديم - في شهر ربيع الأول عام ١٣٦١هـ على يد أخيه الأستاذ محمد سعيد (١).

* في هذا العام بدأ يُزاول الكتابة، فصار يكتب بعض القصص - وقد كان لديه للقصة: ميل، وحب - وينظم ما لا يتجاوز البيتين؛ وألف كتاباً، أسماه: (الخدقة الأدبية)، قسمه إلى أقسام ثلاثة: شعر، ونثر وحكايات، يجمع فيها شيئاً من: القديم، والحديث؛ كما أن له تعاليق نحوية، وقد أهمل الجميع.

* في ليلة ٢١/١١/١٣٦٣هـ انتقل والده العطوف إلى رحمة الله، فكانت صدمة فقدته عليه قوية عنيقة هزت كيانه، وأثرت عليه، بعد ما جف عنه نبع الحنان، الذي منه ينتهل.

(١) جاء في (أعلام الثقافة الإسلامية في البحرين، خلال ١٤ قرناً) ص ٢٣١: ٣ - للأستاذ سالم النويدري، عند ترجمته للمذكور برقم ٥٠٦: وقد ألمّ بعلوم اللغة العربية. على يد أخيه (الشيخ عبد الحميد) - وهو خطأ، صحته ما ذكر بعاليه، ذلك أنه حين قراءته العربية، كان أخوه هذا في العراق، ينتهل العلم، في جامعة النجف الأشرف، وإن كان الشيخ عبد الحميد، يعدّ معلماً له: توجية، ورعاية معنوية.

* أثرت عليه هذه الكارثة، فصار يرثيه في كل مناسبة، ونظم فيه قطعة وقصيدة -
وأتبعها بأخرى - ولكن كثيراً من المقالات وأدّها - أخيراً - لتقدمه عليها.

* نشر في كثير من الصحف، في: المملكة، والبحرين، والعراق، ولبنان،
ومصر. وأوّل مانشره: مقال في صحيفة، في شهر ذي القعدة ١٣٦٨هـ - وذلك
في مجلة العرفان.

* أراد مزاوله التجارة، فمارسها لمدة عام، ولكن خسارته فيها، نتيجة: تسامحه،
ولينه في استيفاء الديون، وعدم وجود الروح التجارية لديه.. اضطره لأن يغلق
الدكان، فأغلقه، وصفاه بالخسارة.

* ألحّت عليه الحياة الاقتصادية: أن يبحث عن عمل، يكفل له غطاءً لأُمور
معيشته، حيث لا يستطيع التفرع للدراسة، التي أرادها له والده، فما وجد سوى
الإلتحاق بالسلك الوظيفي الحكومي، فعمل مدة تربو على عشرين عاماً.

* في أوائل شهر شوال، عام ١٣٩٠هـ، غادر موطنه للعراق، وفي أوائل ذي
الحجّة، من نفس العام، التحقت به عائلته بتمام أفرادها: زوجة، وبنين، وبنات،
فأسقّر، هناك، في النجف الأشرف، واشترى داراً، مواصلاً دراسته العلمية الدينيّة،
حيث قرأ هناك الكتب المهمّة، من مرحلة السطوح، بعد أن وجد نفسه: غير محتاج
لدراسة بعض الكتب الاعتيادية، مما كانت تُقرأ، قبل هذه المرحلة، بل كان متمكناً
من تدريسها، حيث قرأ عليه كثير - من الطلّاب - بعض تلك الكتب.

* بعد هذه المرحلة، وفي نهايتها، حصرَ البحث الخارج، وهو المستوى العلمي
الأعلى، لدى سماحة الإمام المقدّس السيد أبو القاسم الخوئي، الذي كان له به
ارتباط وثيق، حيث كان يُوليه رعايته، ويحوطه بعنايته، ويُضفي عليه تقديره، ويُنيط
به بعض الأمور، كالردّ على بعض الاستفتاءات، والإجابة على بعض الرسائل،
وما إلى ذلك، من مهام، يراه الأولى بها.

* وفي نهاية العشر الآخر من محرم ١٤٠١هـ، يَمَمَ قصده نحو وطنه، بينه تجديد العهد به، وبالأقارب والأصحاب، وَقَدْ بقيت عائلته هناك - في النجف الأشرف - وكانت الحرب الإيرانية العراقية، قَدْ مضى على اشتغالها قرابة شهرين، أو تزيد، فما استطاع العودة، ومضى مايقرب مِنَ العام، دون أن يَتَسَرَّ أمر العودة، فاضْطُرَّت عائلته للعودة للوطن، في شهر ذي الحجة ١٤٠١هـ، واستقرَّ به المقام في وطنه، يُودِّي واجبه: الدِّيْنِيَّ، والوَطَنِيَّ.

* * *

تَلَمَّذَ على يديه الكثير، قبل أن يُغادر وطنه، إلى النجف الأشرف، وهناك حال هجرته، وبعد عودته للوطن. وهذه أسماء طائفة منهم، مع الاحتفاظ بالألقاب، وبعض هؤلاء قرأ عليه، في النجف، وفي القطيف.

أ- السادة: سعيد الحَبَّاز، منير الحَبَّاز، محمد العوامي، حيدر العوامي، مجيد الشاخور، مهدي الشعلة، هاشم الحَبَّاز.

ب- المشايخ: منصور موسى طاهر، محمد عبد الله كاظم، نزار سنبل، ضياء سنبل، عبد الله سنبل، محمد محمد حسين، صادق المقيلي، مهدي العوازم، عبد العظيم الشيخ، محمد عبيدان، عباس العنكي، عباس المحروس، محمد علي البيّابي، حسن الصفار، إبراهيم الحمود، سعد أبو السعود، وغيرهم.

ثبت بالمؤلفات

الرقم	عنوان الكتاب	دار النشر	تأريخ النشر
١	ذكرى الإمام الخنيزي باكورة نتاجه	ط ١ المطبعة الحيدرية - النجف الأشرف	١٣٧٠هـ - ١٩٥١م - وهي الآن في طريقها للخروج بطباعة أنيقة وإضافات ضافية.

٢	ذكرى الزعيم الحنيزي	ط ١ المطبعة العلميّة النجف الأشرف	١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م
٣	أبو طالب مؤمن قريش دراسة وتحليل	ط ١ - منشورات مكتبة الحياة - بيروت. وأعيد طبعه عدة مرات لا يعلم بها المؤلف. وترجم للأوردو، وطُبع بها: مرتين. وهاهو في طبعته الخامسة ١٤١٨هـ ١٩٩٧م.	١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
٤	أدواؤنا	ط ١ منشورات مكتبة	{ ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م }
٥	ضوء في الظل	{ الأنجلو المصرية بالقاهرة }	{ وأعيد طبعها في بيروت }
٦	نسيم وزويعة	مطبعة الكيلاني	١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م
٧	مداميك عقديّة ٣ حلقات في مجلدين	ط ١ منشورات دار الكتاب الإسلامي - بيروت	١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م
٨	زهرات مجموعة شعريّة، وشعر منشور	مخطوط (لعلهما فقد في	
٩	مجموعة قصصيّة	مخطوط (العراق)	
١٠	صور من الحياة - كلمات قصار	مخطوط لعل بعضها فُقد	
١١	بقية حلقات مداميك عقديّة	مخطوط	
١٢	ابن المقرب: الشاعر الثوري	مخطوط - كان موضوعاً نُشر في مجلة الأديب اللبنانيّة، فوسّعه لكتاب.	
١٣	الحركات الفكرية في القطيف	مخطوط - لعله ممّا فُقد في العراق - كان حلقات نُشرت في مجلة العرفان الصيداوية، ووُسّع حلقات كتاب	

١٤	لا إكراه	(لعلهما ممّا فقدّا في العراق)
١٥	المرأة بنظرة إسلامية	
١٦	الصلاة والصيام، في السفر، كتاباً وسنة	مخطوط - قيد الإكمال
١٧	ترجمة ذاتية	مخطوط - قيد الإكمال
١٨	الدعاء والأخلاق، في مدرسة أهل البيت (ع)	مخطوط - قيد الإكمال
١٩	ألق من الذكريات	معدّ للطبع
٢٠	السيد السبزاوي عرفانياً	مخطوط - قيد الإكمال
٢١	قطاف المسجد	حلقات متالية - بعضها معدّ للطبع
٢٢	مجموعة دراسات، ومقالات متنوعة	لم يُجمع شتاتها في عقد، بعد

- عدا تحقيق بعض مؤلفات والده - كشرح (دلائل الأحكام): الدّورة
الفقهية في شرح ﴿شرايح الإسلام﴾ و(المنظرات) و(في عدّة الحامل، المتوفى عنها
زوجها)، و(قبسة العجلان في معنى الكفر والإيمان).

وتحقيق كتاب (ثمرات لبّ الألباب، في إبطال شبه أهل الكتاب) لجده - جدّه
أبيه لأُمّه - الحجّة المقدّس الشّيخ علي آل عبدالجبار.

- وعدا فكرة وضع كتاب، عن (قيس بن سعد)، وضع مقدّمته، منذ أعوام،
وصرف عنه.

العنوان الدائم: القطيف - حي الحسين

الهاتف: ٨٥٥٤٩٩٨ - ٨٥٥٤٨١٥ - الفاكس ٨٥٥٢٦٣١

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
صورة المؤلف	٥
مؤمن آل فرعون	٧
الإهداء	٩
هذا الكتاب	١١
مقدمة - بقلم: الأستاذ بولس سلامة	١٣
على العتبة	١٩
الجزء الأول	
في مدارج الحياة	٧٣
بيت	٧٧
شخصية	٩٥
دلائل	١٠٥
أ - نبع الماء	١١٠
ب - مع العائف	١١١
ج - إنك لمبارك	١١٢
د - إلى الشام	١١٣
زواج	١٢٣
في فجر الدعوة	١٢٩
الفجر الأول	١٣١
يوم الإنذار	١٣٥
جهاد	١٤٥
الشعب والصَّحيفة	١٧٩
عند الاحتضار	٢٠٣

الجزء الثاني

٢١٧ في ذمّة التأريخ
٢١٩ بعد الموت
٢٢٧ ذكرُ عطرٍ
٢٢٩ على لسان الرّسول
٢٤٥ على لسان الإمام عليّ
٢٥٥ على لسان أهل البيت
٢٦٩ على لسان الصّحابة وآخرين
٢٨٥ وقفةً مع الحديديّ
٣٠٣ افتراءً وتزويرٌ
٣٠٦ الآية الأولى
٣١٤ الآية الثانية والثالثة
٣١٧ رواية الأحاديث الثلاثة الأولى
٣٢٨ رواية الحديثين الآخرين
٣٤٣ نظرة في آية "ما كان للنبيّ"
٣٦٢ نظرة في آية "إنك لاتهدي"
٣٧٥ ميراث أبي طالب
٣٧٦ حديث الضّحضاح
٣٧٨ الرواية
٣٨٨ نظرة في الحديث
٤٠١ المؤمن
٤٢١ مراجع الكتاب
٤٢٩ ترجمة المؤلف وآثاره
٤٣٧ محتويات الكتاب